

روضۃ المحبتین
وروضة المستنطقین

تألیف
العلامة شیخنا الدین محمد بن ابی نکرین قنبر آبادی

الناشر
دار النبی کلا
بیروت

روضۃ المحمّدين وسرّۃ المشناقین

تألیف
العلامة سحرّ الدین محمد بنه ابی بکر بن قیّم الجوزیّة

الناشر
دار النبلاء
بیروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رب بسر يا كريم

الحمد لله الذى جعل المحبة إلى الفقر بالحبوب سبيلا ، ونصب طاعة ،
والخضوع له على صدق المحبة دليلا ، وحرك بها النفوس إلى أنواع الكمالات
إيثارا لطلبها وتحصيلها ، وأودعها العالم العلوى والسفلى لإخراج كماله من القوة
إلى الفعل إيماداً وإمداداً وقبولا ، وأثار بها الهمم السامية والعزمات العالية إلى
أشرف غاياتها تخصيصاً لها وتأهيلا ، فسبحان من صرف عليها القلوب كما يشاء
ولما يشاء بقدرته ، واستخرج بها ما خلق له كل حى بمحكمته ، وصرفها أنواعاً
وأقساماً بين بريته ، وفصلها تفصيلا ، فجعل كل محبوب لمحبه نصيباً ، مخططاً كان
فى محبته أو مصيباً ، وجعله بحبه منعماً أو قتيلاً . قسمها بين محب الرحمن ،
ومحب الأوثان ، ومحب النيران ، ومحب الصليبان ، ومحب الأوطان ، ومحب
الإخوان ، ومحب النسوان ، ومحب الصبيان ، ومحب الأئمان^(١) ، ومحب الإيمان ،
ومحب الألمان ، ومحب القرآن . وفضل أهل محبته ومحبة كتابه ورسوله على
سائر المحبين تفضيلا ، فبالحبة والمحبة وُجِدَت الأرض والسفوات ، وغلبت قُطِرَت
الخلوقات ، ولما تحركت الأفلاك الدائرات ، وبها وصلت الحركات إلى غاياتها ،
وأتصلت بداياتها بنهاياتها ، وبها ظفرت النفوس بمطالبها ، وحصلت على نيل
مآربها ، وتخلصت من معاطبها^(٢) ، واتخذت إلى ربها سبيلا ، وكان لها دون غيره
مأمولاً وسُؤلًا ، وبها نالت الحياة الطيبة وذائق طعم الإيمان لما رضيت بالله رباً

(١) الأئمان : الأموال .

(٢) المعاطب : المهالك ، واحدها معطب كذهب .

وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مقرّ برؤيته ، شاهد بوحدانيته ، منقاد إليه لمحبه ، مدعٍ له بطاعته ، معترفٍ بنعمته ، فارٌّ إليه من ذنبه وخطيئته ، مؤملٍ لغفوه ورجته ، طامعٍ في مغفرته ، برى إليه من خوله وقوّته ، لا يبتغي سواه رباً ولا يتخذ من دونه ولياً ولا وكيلاً ، عائذ به ، مانع إليه ، لا يروم عن عبوديته انتقالاً ولا تحويلاً ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه ، وأمينه على وحيه ، وسفيره بينه وبين عباده ، أقرب الخلق إليه وسيلة ، وأعتاقهم عنده جاهلاً ، وأسمعهم لديه شفاعاً ، وأحبهم إليه ، وأكرمهم عليه ، أرسله للإيمان منادياً ، وإلى الجنة داعياً ، وإلى صراطه المستقيم هادياً ، وفي مرضاته ومحبته ساعياً ، وبكل معروفٍ آمراً ، وعن كل منكرٍ ناهياً ، رفع له ذكره ، وشرح له صدره ، ووضع عنه وزره ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره ، وأقسم بحياته في كتابه المبين^(١) ، وقرن اسمه باسمه ، فإذا ذكر الله ذكر معه ، كما في الخطب والتشهد والتأذين ، فلا يصح لأحدٍ خطبة ولا تشهد ولا أذان حتى يشهد أنه عبده ورسوله شهادة اليقين :

أغرّ عليه للنبوّة خاتم	من الله ميمونٌ يلوح ويُشهد
وضمّ الإله اسمَ النبي إلى اسمه	إذ قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجلّه	فدو العرش محمودٌ وهذا محمد

أرسله على حين فترة من الرسل ، فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل ، وافترض على العباد محبته وطاعته ، وتوقيره والقيام بحقوقه ، وسدّ إلى الجنة جميع الطرق فلم يفتح لأحدٍ إلا من طريقه . فلا مطمع في الفوز بجزيل الثواب ،

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الحجر : (لعمرك إنهم لني سكرتهم يعمهون) وأكثر المفسرين على أن القسم مفعول به النبي صلى الله عليه وسلم .

والنجاة من ويل^(١) العقاب ، إلا لمن كان خافه من السالكين ، ولا يؤمن عبد حتى يكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين ، فصلّى الله وملائكته وأنبيأوه ورسله وجميع عباده المؤمنين عليه ، كما وحّد الله وعرف أمته به ودعا إليه ، صلاة لا تروم عنه انتقالات ولا تحويلاً ، وعلى آله الطيبين ، وصحبه الطاهرين ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فإن الله جل ثناؤه ، وتقدّست أسماؤه ، جعل هذه القلوب أوعية ، فخبرها أوعاها للخير وإرشاد ، وشرها أوعاها للغي والفساد ، وسلط عليها الهوى ، وامتنحها بمخالفته لتتال بمخالفته جنة المأوى . ويستحق من لا يصالح للجنة بمتابعتة ناراً تلظى ، وجعله مركب النفس الأمارة بالسوء وقوتها وغذاها ، وداء النفس المطمئنة ومخالفته دواها ، ثم أوجب سبحانه وتعالى على العبد في هذه المدة القصيرة التي هي بالإضافة إلى الآخرة كساعة من نهار ، أو كبلال ينال الإصبع حين يدخلها في بحر من البحار^(٢) ، عصيان النفس الأمارة ومجانبة هواها ، وردعها عن شهواتها التي في نيلها رداها ، ومنعها من الركون إلى لذاتها ، ومطالبة ما استدعته العيون الطامحة بلحظاتها ، لتنال نصيبها من كرامته وثوابه موفراً كاملاً ، وتلتذّ آجلاً بأضعاف ما تركته لله عاجلاً ، وأمرها بالصيام عن محارمه ليكون فطرها عنده يوم لقائه ، وأخبرها أن معظم نهار الصيام قد ذهب ، وأن عيد اللقاء قد اقترب . فلا يطول عليها الأمد باستبطائه . كما قيل :

فما هي إلا ساعة ثم تنقضي ويذهب هذا كله ويزول

(١) وبيل العقاب : شديده . قال تعالى في سورة المزمل (فأخذناه أخذاً وبيلاً) .
 (٢) هذا المعنى مأخوذ من حديث رواه مسلم وغيره عن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فيل ينظر به ثم يرجع .

سهيأها لأمرٍ عظيم ، وأعدّها لخطبٍ جسيم ، وأدخّر لها مالا عينٌ رأت ،
ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطرٌ على قلب بشرٍ من النعيم اللقيم ، واقتضت حكمته
البالغة أنها لا تصل إليه إلا من طريق المسكاره والنصب ، ولا تعزُّ إليه إلا على
جسر المشقة والتعب ، لحجبه بالمكروهات ضيانه له عن الأنفس الدنيات ،
المؤثّرة للردائل والسفليات ، وشمّرت إليه النفوس العلويات ، والمهمم العليات ،
امتطت في السير إليه ظهور العزمات ، فسارت في ظهورها إلى أشرف الغايات .

وركب سرّوا والليل مرّخ رواقه على كل منبرٍ للوارد قائم
حدوا^(١) عزمات ضاعت الأرض بينها فصار سُرّاهم في ظهور العزائم
أرتهم نجوم الليل ما يطلبونه على عاتق الشعري وهام النعائم^(٢)
فأمّوا حتى لا ينبغي لسواهم وما أخذتهم فيه لومة لأثم

أجابوا منادى الحبيب لما أذن لهم حتى على الفلاج ، وبذلوا نفوسهم في
مرضاته بذل الحب بالرضا والسماح ، وواصلوا السير إليه بالغدو والرواح . فمجدوا
عند الوصول مسراهم وإنما يحمّد القوم السرى^(٣) عند الصباح ، تعبوا قليلا ،
فاستراحوا طويلا ، وتركوا حقيرا ، واعتاضوا عظيما . وضعوا اللذة الباجلة
والعاقبة الحميدة في ميزان العقل فظهر لهم التفاوت ، فرأوا من أعظم السّفه بيع
الحياة الطيبة الدائمة في النعيم المقيم بلذة ساعة تذهب شهوتها ، وتبقى شقوتها .

-
- (١) حدا الإبل وبها : ساقها وحشها على السير بالحداء .
(٢) الشمرى : كوكب نير يطلع عند شدة الحر . قال تعالى في سورة النجم :
(وأنه هو رب الشعري) وهما شعريان العَبُور والغُصَيصاء .
(٣) السرى : سيرة عامة الليل . يؤث ويذكر . وهذا المثل يضرب لمن يحتمل
المشقة رجاء الراحة ، وفي الحديث على منزلة الأمر ، والصبر ، وتوطئ النفس حتى
يحمد عاقبته .

هذا وإن من أيام اللذات لو صفت للعبد من أول عمره إلى آخره لكانت كسحابة صيفٍ تتشعق عن قليل ، ونخيل طيفٍ ما استتم الزيارة حتى آذن بالرحيل . قال الله تعالى : (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)^(١) ومن ظفر بأمواله من ثواب الله ، فكأنه لم يُوتر^(٢) من دهره بما كان يحاذره ويخشاه ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يتمثل بهذا البيت من الشعر :

كأنك لم تُوترَ من الدهر مرةً إذا أنت أدركت الذي أنت طالبه

فصل

وهذا ثمرة العقل الذى به عُرِفَ الله سبحانه وتعالى وأسماءه وصفاته كماله ونعوتُ جلاله ، وبه أمرَ المؤمنين بكتبه ورسله ولقائه وملأكته ، وبه عُرِفَ آيات ربوبيته وأدلة وحدانيته ومعجزات رسله ، وبه امتثلت أوامره واجتنبت نواهيه ، وهو الذى تَلَحَّحَ العواقب فراقبها ، وعمل بمقتضى مصالحها ، وقاوم الهوى فردَّ جيشه مغلولاً ، وساعد الصبر حتى ظفر به بعد أن كان يسهامه مقتولاً ، وحثَّ عَلَى الفضائل ، ونهى عن الرذائل ، وقتق للعانى وأدرك الغوامض ، وشدَّ أزرَ العزم فاستوى عَلَى سَوْقه ، وقوى أزرَ الحزم حتى حظى من الله بتوقيفه ، فاستجلب ما يزين ، ونفى ما يشين ، فإذا نزلَ وسلطانه أسر جنود الهوى فحصرها فى حبس من ترك لله شيئاً عوضه الله خيراً منه ، ونهض بصاحبه إلى منازل الملوك ، إذا صير الهوى الملك بمنزلة العبد للملوك ، فهى شجرة

(١) الآيات ٢٠٥ و ٢٠٦ و ٢٠٧ . سورة الشعراء .

(٢) وتر الرجل : أفرغه وأدركه بمكره ، ووتره أيضاً إذا أصابه وتر وهو الدحل ، أى الثأر عامة أو الظلم فيه .

عزَّمتها الفكر في العواقب ، وساقها الصبر ، وأغصانها العلم ، وورقها حسن الخلق ، ونمرها الحكمة ، ومادتها توفيق مَنْ أَرَمَتِ الأمور بيديه ، وابتدأها منه واتمهاؤها إليه . وإذا كان هذا وصفه ، فتبيح أن يُدال^(١) عليه عدوه فيعزله عن مملكته ، ويحطه عن رتبته ، ويستنزله عن درجته ، فيصبح أسيراً بعد أن كان أميراً ، ويحكموا بعد أن كان حاكماً ، وتابعاً بعد أن كان متبوعاً ، ومن صبر على حكمه أرنمة^(٢) في رياض الأمان والمنى ، ومن خرج عن حكمه أوردته حياض الملاك والردى ، قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : لقد سبق إلى جنات عدن أقوامٌ ما كانوا بأكثر الناس صلاة ولا صياماً ولا حجاً ولا اعتقاراً ، لكنهم عقلوا عن الله مواعظه فوجلت منه قلوبهم ، واطمأنَّت إليه نفوسهم ، وخشعت له جوارحهم ، ففاقوا الناس بعباب المنزل وعلوَّ الدرجة عند الناس في الدنيا وعند الله في الآخرة . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشر ، ولكنه الذى يعرف خير الشرين . وقالت عائشة رضى الله عنها : قد أفلح من جعل الله له عقلاً . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ولد لكسرى مولودٌ فأحضر بعض المؤدِّين ووضع الصبي بين يديه وقال : ما خير ما أوتى هذا المولود ؟ قال : عقلٌ يولد معه . قال : فإن لم يكن ؟ قال : فأدبٌ حسنٌ يعيش به فى الناس . قال : فإن لم يكن ؟ قال : فصاعقةٌ تحرقه . وقال بعض أهل العلم : لما أهبَّ الله تبارك وتعالى آدم إلى الأرض أتاه جبريل عليه السلام بثلاثة أشياء : الدين ، والخلق ، والعقل ، فقال : إن الله يميِّرك بين هذه الثلاثة ، فقال : يا جبريل ما رأيت أحسن من هؤلاء إلا فى

(١) يدال عليه : ينلبه وينتصر عليه .

(٢) أرنمة : نعمه ، والرتع : التتعم ، ورتع : أكل وشرب ما شاء فى خصيب وسمة . قال تعالى فى سورة يوسف (أرسله ممنا غدا يرتع ويلعب) .

الجنسة ، ومدَّ يده إلى العقل فضَّه إلى نفسه فقال للأفْرَيْنِ : اصعدا . فقالا :
أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان . فصارت الثلاثة إلى آدم عليه السلام .
وهذه الثلاثة أعظم كرامة أكرم الله بها عبده ، وأجلُّ عطية أعطاه إياها .
وجعل لها ثلاثة أعداء : الهوى ، والشيطان ، والنفس الأمارة . والحرب بينهما
دُولٌ وسِجالٌ^(١) ، (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)^(٢) وقال
وهب بن منبه : قرأت في بعض ما أنزل الله تعالى : إن الشيطان لم يكابد شيئاً
أشدَّ عليه من مؤمنٍ عاقل ، وإنه ليسوق مائة جاهلٍ فيستجرهم حتى يركب
رقابهم فينقادون له حيث شاء ، ويكابد المؤمن العاقل فيصعب عليه حتى ينال
منه شيئاً من حاجته ، قال : وإزالة الجبل صخرة صخرة أهون على الشيطان
من مكابدة المؤمن العاقل ، فإذا لم يقدر عليه تحوّل إلى الجاهل فيستأسره ،
ويتمكن من قياده حتى يُسلمه إلى الفضاخ التي يتعجل بها في الدنيا الجلد والرجم
والقطع والصاب والنضيحة ، وفي الآخرة العار والنار والشنار^(٣) . وإن الرجلين
ليستويان في البرِّ ويكون بينهما في الفضل كما بين المشرق والمغرب بالعقل ، وما
عبد الله بشيء أفضل من العقل . وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : لو أن العاقل
أصبح وأمسى وله ذنوبٌ بعدد الرمل كان وشيكاً بالنجاة والتخلص منها ، ولو
أن الجاهل أصبح وأمسى وله من الحسنات وأعمال البرِّ عدد الرمل لكان وشيكاً
أن لا يسلم له منها مثقال ذرة . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : إن العاقل إذا زلَّ
تدارك ذلك بالتوبة والعقل الذي رزقه ، والجاهل بمنزلة الذي يبني ويهدم ،
فيأتيه من جهله ما يفسد صالح عمله ، وقال الحسن : لا يَسْتَمِّ دِينُ الرَّجُلِ حَتَّى

(١) الحرب بينهما سجال : يعنى أنها مرة لهم ومرة عليهم .

(٢) الآية ١٢٦ : سورة آل عمران .

(٣) الشنار : أقبح العيب ، العار ، الأمر المشهور بالشنعة .

يتمّ عقله ، وما أودع الله امرأ عقلاً إلا استنفذه به يوماً . وقال بعض الحكماء :
من لم يكن عقله أغلب الأشياء عليه كان حقه^(١) وهلاكه في أحب الأشياء
إليه . وقال يوسف بن أسباط : العقل سراج ما بطن ، وزينة ما ظهر ، وسائس
الجسد ، وملاك أمر العبد ، ولا تصالح الحياة إلا به ، ولا تدور الأمور إلا عليه .
وقيل لعبد الله بن المبارك : ما أفضل ما أعطى الرجل بعد الإسلام ؟ قال : غريزة
عقل ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : أدب حسن ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : آخ
صالح يستشيره ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : صمت طويل ، قيل : فإن لم يكن ؟
قال : موت عاجل . وفي ذلك قيل :

ما وهب الله لأمرئ هبةً أحسن من عقله ومن أدبه
ها جمال الفتي فإن فقدوا ففقدوه للحياة أجل به

فصل

وإذا كانت الدولة للعتل سالمة الهوى ، وكان من خدمه وأتباعه ، كما أن
الدولة إذا كانت للهوى ، صار العقل أسيراً في يديه ، محكوماً عليه . ولما كان
العبد لا ينفك عن الهوى مادام حياً - فإن هواه لازم له - كان له الأمر بخروجه
عن الهوى ، بالسكينة كالمبتنع ، ولكن المقدور له والمأمور به أن يصرف هواه
عن مراتع الهلكة إلى مواطن الأمن والسلامة ، مثاله : أن الله سبحانه وتعالى
لم يأمره بصرف قلبه عن هوى النساء جملة ، بل أمره بصرف ذلك الهوى إلى
نكاح ما طاب له منهن من واحدٍ إلى أربع ، ومن الإماء ما شاء ، فانصرف
بجري الهوى من محل^١ إلى محل ، وكانت الريح دبوراً^(٢) فاستحالت صباً ،
وكذلك هو الظفر والغلبة والقهر ، لم يأمر بالخروج عنه ، بل أمر بصرفه إلى
الظفر والقهر والغلبة للباطل وحزبه ، وشرع له من أنواع المغالبات بالسباق وغيره

(١) الخنف : الموت .

(٢) الدور : ريح تهب من المغرب وتقابل القبول وهي الصبا .

بما يُمرّنه ويَعُدُّه للظفر ، وكذلك هوى الكبر والفخر والخِيَلَاء مأذونٌ فيه ، بل مستحبٌّ في محاربة أعداء الله . وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم أبا دُجَانَةَ سِمَاكَ بنَ خَرِشَةَ الأنصاري يتبَخَّر بين الصفين فقال : « إنها لَمِشِيَّةٌ يَبْغِضُها اللهُ إلا في مثل هذا الوطن » . وقال : إن من الخِيَلَاء ما يحبها الله ومنها ما يبغض الله ، فالتى يحبها اختيال الرجل في الحرب وعند الصدقة وذكر الحديث ^(١) . فما حرّم الله على عباده شيئاً إلا عوَضُهم خيراً منه ، كما حرّم عليهم الاستقسام بالأزلام ^(٢) وعوَضُهم منة دعاء الاستخارة ، وحرّم عليهم الربا وعوَضُهم منة التجارة الربحية ، وحرّم عليهم القمار وأعاضهم منه أكل المال بالمسابقة النافعة في الدين بالخليل والإبل والسهام ، وحرّم عليهم الحرير وأعاضهم منه أنواع الملابس الفاخرة من الصوف والكتان والقطن ، وحرّم عليهم الزنا واللواط وأعاضهم منهما بالنكاح والتسرى بصنوف النساء الحسان ، وحرّم عليهم شرب المسكر وأعاضهم عنه بالأشربة اللذيذة النافعة للروح والبدن ، وحرّم عليهم سماع آلات اللهو من المعازف والمثاني ، وأعاضهم عنها بسماع القرآن والسبع المثاني ، وحرّم عليهم الخبائث من المَطْعومات ، وأعاضهم عنها بالمطاعم الطيبات . ومن تَلَسَّحَ

(١) في مسند الإمام أحمد عن جابر بن عتيك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . « إن من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يبغض الله ، وإن من الخِيَلَاء ما يحب الله ومنها ما يبغض الله . فأما الغيرة التي يحب الله فالغيرة في الريّة . وأما الغيرة التي يبغض الله فالغيرة في غير ريّة . وأما الخِيَلَاء التي يحب الله فاختيال الرجل بنفسه عند القتال واختياله عند الصدقة ، والخِيَلَاء التي يبغض الله فاختيال الرجل في الفخر والبغي » .

(٢) جمع زلم : السهم الذي لا ريش له . وكانوا في الجاهلية يستقسمون بالأزلام ، كانوا يكتبون عليها الأمر والنهي ويضعونها في وعاء فإذا أراد أحدهم أمراً أدخل يده فيه وأخرج سهماً فإن خرج مافيه الأمر مضى لقصده . وإن خرج مافيه النهي كف .

هذا وتأمله هان عليه ترك الهوى المزدى ، واعتاض عنه بالنافع المجدى ، وعرف
حكمة الله ورحمته وتماّم نعمته على عباده فيما أمرهم به ونهاهم عنه وفيما أباحه لهم ،
وأنة لم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم ، ولأنهاهم عنه بخلاّ منه تعالى عليهم ،
بل أمرهم بما أمرهم إحساناً منه ورحمة ، ونهاهم عما نهاهم عنه صيانة لهم وحمية^(١) .
فلذلك وضعنا هذا الكتاب وضع عقد الصلح بين الهوى والعقل ، وإذا تم عقد
الصلح بينهما سهل على العبد مجاربة النفس والشیطان ، والله سبحانه المستعان ،
وعليه التكلان ، فما كان فيه من صواب فمن الله فهو الموفق له والعين عليه ،
وما كان فيه من خطأ ففنى ومن الشيطان . والله ورسوله من ذلك بريثان .
وقد جعلته تسعة وعشرين باباً :

الباب الأوّل : فى أسماء المحبة .

الباب الثانى : فى اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها .

الباب الثالث : فى نسبة هذه الأسماء بعضها إلى بعض .

الباب الرابع : فى أن العالم العلوى والسفلى إنما وجد بالحبة ولأجلها .

الباب الخامس : فى دواعى المحبة ومتعلّقها .

الباب السادس : فى أحكام النظر وغائلته وما ينجى على صاحبه .

الباب السابع : فى ذكر مناظرة بين القلب والعين .

الباب الثامن : فى ذكر الشبهة التى احتجّ بها من أباح النظر إلى من
لا يحل له الاستمتاع به وأباح عشقه .

الباب التاسع : فى الجواب عما احتجّت به هذه الطائفة وما لها وما عليها
فى هذا الاحتجاج .

الباب العاشر : فى ذكر حقيقة العشق وأوصافه وكلام الناس فيه .

(١) الحمية : الامتناع عما يضر والوقاية منه .

الباب الحادى عشر : فى العشق وهل هو اضطرارى خارج عن الاختيار ،
أو أمر اختياري ، واختلاف الناس فى ذلك وذكر الصواب فيه .

الباب الثانى عشر : فى سكرة العشاق .

الباب الثالث عشر : فى أن اللذة تابعة للهجة فى السكال والنقصان .

الباب الرابع عشر : فى من مدح العشق وتمناه ، وغبط صاحبه على ما أوتيّه
من مناه .

الباب الخامس عشر : فى من ذم العشق وتبرّم به ، وما احتجّ به كل فريق
على صحة مذهبه .

الباب السادس عشر : فى الحكم بين الفريقين ، وفصل النزاع بين
الطائفتين .

الباب السابع عشر : فى استجباب تحيّر الصور الجميلة للوصال الذى يحبه
الله ورسوله .

الباب الثامن عشر : فى أن دواء المحبين ، فى كمال الوصال الذى أباحه
رب العالمين .

الباب التاسع عشر : فى ذكر فضيلة الجمال ، وميل النفوس إليه على
كل حال .

الباب العشرون : فى علامات المحبة وشواهدا .

الباب الحادى والعشرون : فى اقتضاء المحبة أفراد الحبيب بالحب ، وعدم
التشريك بينه وبين غيره فيه .

الباب الثانى والعشرون : فى غيرة المحبين على أحبائهم .

الباب الثالث والعشرون : فى عفاف المحبين مع أحبائهم .

الباب الرابع والعشرون : فى ارتكاب سهل الحرام ، وما يفضى إليه من
المفاسد والآلام .

الباب الخامس والعشرون : في رحمة المحبين ، والشفاعة لهم . إلى أحبائهم في الوصال الذي يُدَيِّجُه الدين .

الباب السادس والعشرون : في ترك المحبين أدنى الجبوتين رغبةً في أعلاهما .

الباب السابع والعشرون : فيمن ترك محبوبه حراماً فَبُدِّلَ له حلالاً ، أو أعاضه الله خيراً منه .

الباب الثامن والعشرون : فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام ، على لذّة الوصال الحرام .

الباب التاسع والعشرون : في ذمّ الهوى ، وما في مخالفته من نيل المني . وسميته :

(روضة المحبين ، وثره المُنْقَابين)

والمرغوب إلى من يقف على هذا الكتاب أن يعذر صاحبه ، فإنه علقه في حال بعده عن وطنه ، وغيبته عن كتبه ، فما عسى أن يبلغ خاطرهُ المكدود ، وسعيه الجبود ، مع بضاعته المزجاة^(١) ، التي حقيقٌ بناملها أن يقال فيه « تسمع بالمعيذِ خيرٌ من أن تراه » وها هو قد نصب نفسه هدفاً لسهام الراشقين ، وغرضاً لِأُيُنَّةِ الطاعنين ، فتماريه غنمه ، وعلى مؤلفه غُرمه ، وهذه بضاعته تعرض عليك ، وموليتته^(٢) تهدي إليك ، فإن صادفت كفوّاً كريماً لها أن تعمد منه إمساكاً بمعروفٍ أو تسريحاً بإحسان ، وإن صادفت غيره فالله تعالى المستعان ، وعاليه التكلان . وقد رضى من مهرها بدعوة خالصةٍ إن وافقت قبولاً واستحساناً ، وبرَدٌ جميلٌ إن كان حظها احتقاراً واستهجاناً . والنصف يهب

(١) مزجاة : ردئية ومردودة . والمزجي الشيء القليل . قال تعالى في سورة يوسف « وجئنا ببضاعة مزجاة » .

(٢) موليته : من له ولاية عليها .

خطأ الخلق لإصابته ، وضيئاته لحسناته . فهذه سنة الله في عباده جزاء وثواباً .
ومن ذا الذي يكون قوله كله شديداً وعمله كله صواباً ؟ وهل ذلك إلا المعصوم
الذي لا ينطق عن الهوى ، ونطقه وحى يوحى ، فما صح عنه فهو نقلٌ مصدق
عن قائل معصوم ، وما جاء عن غيره فتبوت الأمرين فيه معدوم ، فإن صح
النقل لم يكن القائل معصوماً ، وإن لم يصح لم يكن وصوله إليه معلوماً .

فصل

وهذا الكتاب يصلح لسائر طبقات الناس . فإنه يصلح عوناً على الدين
وعلى الدنيا ، ومراقبة للذة العاجلة ولذة العقبى ، وفيه من ذكر أقسام المحبة وأحكامها
ومعاملاتها ، ومحجها وفاندها ، وآفاتا وغوائلها ^(١) ، وأسبابها وموانعها ، وما يناسب
ذلك من نُسكت تفسيرية ، وأحاديث نبوية ، ومسائل فقهية ، وآثار سلفية ،
وشواهد شعرية ، ووقائع كونية ، ما يكون مُبْتِغاً لقاريه ، مُرَوِّحاً للناظر فيه ،
فإن شاء أوسع جِدّاً وأعطاها ترغيباً وترهيباً ، وإن شاء أخذ من هزله ومُلَحِه
نصيهاً ، فتارة يضحكه وتارة يبكيه ، وطوراً يبعده من أسباب اللفة الفانية ، وطوراً
يرغبه فيها ويدنيه . فإن شئت وجدته واعظاً ناصحاً ، وإن شئت وجدته بنصيبك
من اللذة والشهوة ووصل الحبيب مسامحاً . وهذا حين الشروع في الأبواب ،
والله سبحانه الفاتح من الخير كل باب ، وهو المسؤول سبحانه أن يجعله خالصاً
لوجهه الكريم ، مدنياً من رضاه والفوز بجنات النعيم ، والله متولى سريرة العبد
وكسبه ، وهو سبحانه عند لسان كل قائل وقلبه ، (وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ
عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ^(٢) .

(١) جمع غائلة : الفساد ، والشر ، والداهية .

(٢) الآية ١٠٦ : سورة التوبة .

الباب الأول

في أسماء المحبة

لما كان الفهم لهذا اللفظ أشدّ ، وهو بقلوبهم أعلق ، كانت أسماؤه
 لديهم أكثر . وهذا عادتهم في كل ما اشتدّ الفهم له ، أو كثر خطوره
 على قلوبهم ، تعظيماً له ، أو اهتماماً به ، أو محبةً له . فالأول كالأسد والسيف ،
 والثاني كالأهية ، والثالث كالنحر . وقد اجتمعت هذه المعاني الثلاثة في الحب ،
 فوضعوا له قريباً من ستين^(١) اسماً وهي : المحبة ، والعلاقة ، والهوى ،
 والصبوة ، والصباية ، والشغف ، والمقة ، والوجد ، والكلف ، والتئيم ،
 والعشق ، والجوى ، والدنف ، والشجو ، والشوق ، والخلاصة ، والبلايل ،
 والتباريح ، والسدم ، والغمرات ، والوهل ، والشجن ، واللاعج ،
 والاكتئاب ، والوصب ، والحزن ، والكمد ، واللذع ، والحرق ،
 والشهد ، والأرق ، والأهف ، والحنين ، والاستبكانة ، والتبالة ، واللوعة ،
 والفتون ، والجنون ، والألم ، والخليل ، والرئيس ، والداء المخاير ، والود ،
 والخلّة ، والخلم ، والذرام ، والميام ، والتدلية ، والولة ، والتعبّد . وقد
 ذكر له أسماء غير هذه وليست من أسمائه ، وإنما هي من موجداته وأحكامه
 فتركنا ذكرها^(٢) .

(١) كذا . ولم يذكر المؤلف منها غير خمسين .

(٢) أكثر ما ذكره هو من صفات الحب وآثاره كما يتضح ذلك في

الباب الثاني

في استنقاص هذه الأسماء ومعانيها

فأما المحبة فقيس : أصلها الصفاء لأن العرب تقول اصفاء بياض الأسنان ونضارتها حبب الأسنان ، وقيل : مأخوذة من الحباب وهو ما يعلو الماء عند المجر الشديد ، فعلى هذا المحبة غليان القلب وثورانه عند الاحتياج إلى لقاء المحبوب ، وقيل : مشتقة من اللزوم والثبات ، ومنه أحب البعير إذا برك فلم يقيم ، قال الشاعر (١) :

حُلْتُ عليه بالفلاة ضرباً (٢) ضربَ بعير السوء إذ أحباً

فسكانَّ الحبَّ قد لزم قلبه محبوبة فلم يرم عنه انتقلا ، وقيل : بل هي مأخوذة من القلق والاضطراب ، ومنه سُمي القرط حياً لقلقه في الأذن واضطرابه ، قال الشاعر (٣) :

تبيت الحية النضاض (٤) منه مكان الحب تستمع السرار
وقيل : بل هي مأخوذة من الحب جمع حبة ، وهو لبك الشيء وخالفه وأصله ، فإن الحب أصل النبات والشجر ، وقيل : بل هي مأخوذة من الحب الذي هو إنكلا واسع يوضع فيه الشيء فيمتلى به بحيث لا يسع غيره ،

(١) هو أبو محمد الفقعسي ، كما قال ياقوت في حاشيته على الصراح .
(٢) هكذا : والذي في الكشف وكتب اللمعة حلت عليه بالقييل ضرباً أي بالسوط .

(٣) هو الراعي
(٤) النضاض من الحيات : الذي لا يثبت في مكانه لثورته ونشاطه أو الذي يخرج لسانه ويحركه .

وكذلك قلب المحب ليس فيه سعة لغير محبوبة ، وقيل : مأخوذة من الحب وهو الخشب الأربع التي يستقر عليها ما يوضع عليها من جرّة أو غيرها فسمى الحب بذلك لأن الحب يتحمل لأجل محبوبة الأفتال ، كما تتحمل الخشب ثقل ما يوضع عليها ، وقيل : بل هي مأخوذة من حبة القلب وهي سويداؤه ، ويقال : ثمرته ، فسميت الحبة بذلك لوصولها إلى حبة القلب ، وذلك قريب من قولهم : ظهره إذا أصاب ظهره ، ورأسه إذا أصاب رأسه ، وراه إذا أصاب رثنه ، وبطنه إذا أصاب بطنه ، ولكن في هذه الأفعال وصل أثر الفاعل إلى المفعول ، وأما في الحبة فالأثر إنما وصل إلى المحب . وبعد ففيه لغتان حبّ وأحبّ قال الشاعر^(١) :

أحبُّ أباً مروان من أجل ثمرة^(٢) وأعلم أن الرفق بالمرء أرفق
ووالله لولا ثمرة ما حيينه ولا كان أدنى من عبيد ومُشْرِق
كذلك أنشد الجوهري بالإقواء^(٣) لجمع بين اللتين ، ولكن في جانب الفعل واسم الفاعل غلبوا رباعي فقالوا : أحبة يحبّه فهو مُحِب ، وفي المفعول غلبوا فقلّ فقالوا في الأكثر محبوب ولم يقولوا : مُحَبّ إلا نادراً ؛ قال الشاعر^(٤) :

ولقد نزلت فلا تظنّي غيره منى بمنزلة المحبّ المكرم

-
- (١) هو غيلان بن شجاع النهشلي كما قال ياقوت في حاشيته على الصحاح .
(٢) في الصحاح : ثمرة ، والتمر : المال المشمر يخفف ويثقل ، وقرأ أبو عمرو : وكان له ثمر بضم فسكون وفسره بأنواع الأموال .
(٣) الإقواء : اختلاف حركة الروى ، ورواية الجوهري : أحب بفتح الالف وكسر الحاء وقال : هذا شاذ . وعلى هذا لم يجمع فيه بين اللتين بل جمع فيه بين الماضي والمختار من حب .
(٤) هو عنبرة بن شداد .

فهذا من أفعل ، وأما حبيب فأكثر استعماله له بمعنى المحبوب :
قال الشاعر :

وما زرت ليلى أن تكون حبيبة إلى ولا دين لها أنا طالبه
وقد استعملوه بمعنى الحب ، قال الشاعر :

وما هجرتك النفس أنك عندها قليل ولا أن قل منك نصيها
ولكنهم يا أحسن الناس أولعوا يقول إذا ما جئت هذا حبيبها

فهذا يحتمل أن يكون بمعنى المحبوب وأن يكون بمعنى المُحِبِّ ، وأما الحبُّ
بكسر الحاء فلغة في الحبِّ وغالب استعماله بمعنى المحبوب قال في الصحاح : الحبُّ
الحبة وكذلك الحب بالكسر . والحب أيضاً الحبيب مثل خِذْنِ وخِذِينِ .
قلت : وهذا نظير ذبح بمعنى مذبح ، ونهب بمعنى منهب ، ورشق بمعنى
مرشوق ، ومنه السَّبَّ ويشترك فيه الفاعل والمفعول ، قال أبو عبيد : السَّبُّ
بالكسر الكثير السَّباب ، قال الجوهري : وسِبُّكَ الذى يُسَابُكَ ، قال حسان :
لا تَسُوبِنِّى فليست بِسِيبِي إن سِيبِي من الرجال الصَّكِيمِ

والصواب أنه عبد الرحمن بن حسان . وقد يشترك فيه المصدر والمفعول نحو
رِزْق . وفي إعطائهم ضمة الحاء للمصدر سرٌّ لطيف ، فإن الكسرة أخفُّ
من الضمة ، والمحسوب أخف على قلوبهم من نفس الحبِّ ، فاعطوا الحركة
الخفيفة للأخف ، والثقيلة للأثقل ، ويقال : أَحَبُّهُ حُبًّا ومحبةً والمحبة أمُّ باب
هذه الأسماء .

فصل

وأما كلام الناس في حدِّها فكثير ، فقليل : هى الميل الدائم ، بالقلب المائم .
وقيل : إثارة المحبوب ، على جميع المصحوب ، وقيل : موافقة الحبيب ،

فى المشهد والمغيب . وقيل : اتّحاد مُراد الحب ومراد المحبوب . وقيل : إثارة
مراد المحبوب على مُراد الحب . وقيل : إقامة الخدمة مع القيام بالحرمة .
وقيل : استقلال الكثير منك للمحبوبك ، واستكثار القليل منه إليك . وقيل :
استيلاء ذكر المحبوب على قلب الحب . وقيل : حقيقة أن تَهَبَ كُلُّكَ لمن
أحببته ، فلا يبقى لك منك شيء . وقيل : هى أن تمحو من قلبك ما سوى
المحبوب ، وقيل : هى الغيرة للمحبوب أن تُذتَقَصَ حرُمته ، والغيرة على القلب
أن يكون فيه سواه . وقيل : هى الإرادة التى لاتنقص بالجفاء ، ولا تزيد بالبر .
وقيل : هى حفظ الحدود ، فليس بصادق من ادّعى محبة من لم يحفظ حدوده .
وقيل : هى قيامك للمحبوبك بكل ما يحبه منك . وقيل : هى مُجَانَبَةُ السُّلُوِّ عَلَى
كل حال كما قيل :

ومن كان من يُولِى الهوى ذاق سَلْوَةً فَإِنِّى من ايسل لها غير ذائق
وَأَكْثَرُ شَيْءٍ نِلْتُهُ مِنْ وَصَالِهَا أَمَانِي لَمْ تَصْدُقْ كَلِمَةً بَارِق
وقيل : نارٌ تمحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب . وقيل : ذكر
المحبوب على عدد الأنفاس كما قيل ^(١) :

يُرَادُّ مِنَ الْقَلْبِ نِسَائِكُمْ وَتَأْتِى الطَّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ

وقيل : عى القلب عن رؤية غير المحبوب ، وَصَمَّهُ عَنْ سَمَاعِ الْعَذَلِ
فيه ، وفى الحديث : « حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يُعْنِي وَيُصِمُّ » ^(٢) رواه الإمام أحمد .
وقيل : مِيَاكَ إِلَى المحبوب بَكَلِّيَّتِكَ ، ثم إثارتك له عَلَى نَفْسِكَ وَرَوْحِكَ

(١) البيت للبتنى .

(٢) فى مسند الإمام أحمد من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه ، وحبك

الشيء يسمى ويصمى .

ومالك ، ثم موافقتك له سرّاً وجهراً ، ثم علمك بتقصيرك في حبه ، وقيل :
 هي بذلك المجهود فيما يرضى الحبيب . وقيل : هي سكون بلا اضطراب ،
 واضطراب بلا سكون ، فيضطرب القلب فلا يسكن إلا إلى محبوبه ، فيضطرب
 شوقاً إليه ويسكن عنده . وهذا معنى قول بعضهم : هي حركة القلب على
 الدوام إلى المحبوب وسكونه عنده ، وقيل : هي مصاحبة المحبوب على الدوام
 كما قيل :

ومن عَجَبٍ أنى أَجِنُّ إِلَيْهِمْ وأسأل عنهم من لَقِيتُهم معي
 وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي
 وقيل : هي أن يكون المحبوب أقرب إلى الحب من رُوحه كما قيل :
 يامقيماً في خاطري وجناني وبعيداً عن ناظري وعياني
 أنت رُوحى إن كنتُ لستُ أراها فعي أدنى إلى من كل داني
 وقيل : هي حضور المحبوب عند الحب دائماً كما قيل :

خيالك في عيني وذكرك في في ومثواك في قلبي فأين تغيب ؟
 وقيل : هي أن يستوى قرب دار المحبوب وبعدها عند الحب كما قيل :
 يا ناوياً بين الجوانح والحشى ^(١) منى وإن بعدت على دياره
 عتافاً على صبٍّ يحبك هائم إن لم تصله تصدعت أعشاره ^(٢)
 لا يستفيق من الغرام وكما حجبوك عنه تهتكت أستاره

(١) الجوانح جمع جانحة : الاضلاع تحت الترائب مما يلي الصدر كالضلوع
 مما يلي الظهر والحشى : مادون الحجاب مما في البطن . والحشا : ما انضمت
 عليه الضاروع .

(٢) جمع عشر : القطعة من كل شيء .

وقيل : هي ثبات القلب على أحكام النمرام واستلذاذ العذل فيه والملام كما قيل (١) :

وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي متأخر عنه ولا متقدم
وأهنتني فأهنت نفسي جاهداً ما من يهون عايك من يكترم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم إذ كان حظي منك حظي منهم
أجدُ لللامة في هوائك لذيذة حباً لذكرك فليكني الأوم

فصل

وأما العلاقة وتسمى العلق بوزن الفائق فهي من أسمائها قال الجوهري : والعلق أيضاً الهوى يقال : نظرة من ذى علق ، قال الشاعر (٢) :

ولقد أردت الصبرَ عنك فعاقني علق بقلبي من هوائك قديم
وقد علقها بالكسر وعلق حبها بقلبه ، أى هوىها وعلق بها علوقاً ،
وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب ، قال الشاعر (٣) :

أعلاقة أم الوليد بعدما أفنان رأسك كالثغام الخلس (٤)

فصل

وأما الهوى فهو ميل النفس إلى الشيء ، وفعله هوى يهوى هوىً ، مثل
عمى يعسى عى . وأما هوى يهوى بالفتح فهو السقوط ، ومصدره الهوى

(١) هو لابي الشيص .

(٢) هو ابن الدمينه كما قال ياقوت .

(٣) هو المزار الفقعسى كما قال ياقوت .

(٤) الثغام بالفتح : نبت يكون في الجبل يبيض إذا يبس ويشبه به الشيب .
والخلس : الذى خالط سواده البياض .

بالضم ، ويقال الهوى أيضاً على نفس الحبوب ، قال الشاعر :

إِنِ اتَى زَعَمْتَ فَوَادَكَ مَّأْمَا خُلِقْتَ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوَى لَهَا

ويقال : هذا هوى فلان^(١) وفلانة هواء ، أى مَهْوِيَّتُهُ ومحبوبته ، وأكثر ما يستعمل في الحب اللذوم كما قال الله تعالى : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَعَى الْنَفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)^(٢) ويقال : إنما سى هوى لأنه يهوى بصاحبه . وقد يستعمل في الحب الممدوح استعمالاً مقيداً . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ »^(٣) وفي الصحيحين عن عُرْوَةَ قَالَ : كَانَتْ خَوَلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ مِنَ اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَمَا تَسْتَجِى الْمَرْأَةُ أَنْ تَهَبَ نَفْسَهَا لِلرَّجُلِ ؟ فَلَمَّا نَزَلَتْ (تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ)^(٤) قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَرَى رَبِّكَ إِلَّا يَسَارِعُ فِي هَوَاكَ . وَفِي قِصَّةِ أُسَارَى بَدْرٍ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : فَهَوَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ^(٥) . وَفِي السَّنَنِ أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : جِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنِ الْهَوَى فَقَالَ : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » .

(١) كَذَا . . . وَلَعَلَّ الصَّوَابَ : هَوَى فَلَانَةَ .

(٢) الْآيَتَانِ ٤٠ وَ ٤١ . سُورَةُ النَّازِعَاتِ .

(٣) فِي الْإِسْنَادِ لِلزُّهْرِيِّ قَالَ : هُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَيْنَاهُ فِي كِتَابِ الْحِجَّةِ

بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ .

(٤) الْآيَةُ ٥١ . سُورَةُ الْأَحْزَابِ .

(٥) فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ . رَوَاهُ أَيْضًا الشَّيْخَانُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ

كَأَيْضًا السَّيُوطِيُّ .

فصل

وأما الصَّبُوة والصَّبَا فمن أسمائها أيضاً قال في الصحاح : والصَّبَا من الشوق يقال منه : تصابا وصبا يَصْبُو صَبُوءً وَصُبُوءًا ، أى مال إلى الجهل ، وَأَصْبَتْهُ الجارية وَصَبَى صَبَاءً مثل سَمِعَ سَمَاعًا ، أى لعب مع الصبيان . قلت : أصل الكلمة من الميل يقال : صبا إلى كذا ، أى مال إليه ، وَصَبَّتِ الصَّبُوءَ بذلك لميل صاحبها إلى المرأة الصبيَّة والجمع صبايا مثل مَطِيَّةٍ وَمَطَايَا ، والتصابي هو تعاطى الصَّبُوءَ مثل التمايل وبأيه . والفرق بين الصَّبَا والصَّبُوءَ والتصابي أن التصابي هو تعاطى الصَّبَا وأن تاهل فعل ذى الصَّبُوءَ . وأما الصَّبَا فهو نفس الميل . وأما الصَّبُوءَ فالمرَّة من ذلك مثل الغَشُوءَ والكَبُوءَ ، وقد يقال على الصفة اللازمة مثل القَسُوءَ . وقد قال يوسف الصديق عليه السلام : (وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنِ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) ^(١)

فصل

وأما الصَّبَابَةُ فقال في الصحاح : هي رقة الشوق وحرارته ، يقال : رجل صَبٌّ عاشقٌ مشتاق ، وقد صَبَّتَ يَأْ رَجُلٌ بالكسر ، قال الشاعر ^(٢) :

ولستَ تَصَبُّ إلى الظاعنين إذا ما صديقك لم يَصَبَّ

قلت : والصَّبَابَةُ من المضاعف من صبَّ يَصَبُّ ، وَالصَّبَا وَالصَّبُوءَ من المعتل ، وهم كثيراً ما يعاقبون بينهما ، فبينهما تناسبٌ لفظيٌّ ومعنويٌّ ، قال الشاعر :

تَشْكِي الحُبُّونَ الصَّبَابَةَ لَيْتَنِي تَحَمَّلْتُ مَا يَلْقَوْنَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحْدِي

(١) الآية ٣٣ : سورة يوسف . (٢) هو الكميث كما قال ياقوت

ويقال : رجلٌ صَبَّ وامرأةٌ صَبَّ كما يقال : رجلٌ عدَلُ وامرأةٌ عدَلُ .

فصل

وأما الشَّغَفُ فمن أَسْمائها أيضاً : قال الله تعالى : (قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا)^(١)
قال الجوهري وغيره : والشَّغاف غلاف القلب وهو جلدة دونه كالْحِجَابِ يقال :
شَغَفَهُ الحُبُّ ، أى بلغ شَغَافَهُ ، وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما (قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا)
ثم قال : دخل حُبُّهُ تحت الشَّغَافِ .

فصل

وأما الشَّعَفُ بالعين المهملة في الصحاح شَعَفَهُ الحُبُّ ، أى أحرق قلبه ، وقال
أبو زيد : أَمْرَضَهُ ، وقد شُعِفَ بكذا فهو مشعوفٌ ، وقرأ الحسن (قَدْ شَعَفَهَا
حُبًّا) قال : بطنها حُبًّا .

فصل

وأما المَقَّةُ فهي فعلة من وَمَقَّ يَمَقُّ ، وَالْمَقَّةُ المحبة والهاء عوضٌ من الواو
كالعِظَةِ والعِدَّةِ والزِنَةِ ، فإن أصلها فعل فحذفوا الفاء فعوضوا منها تاء التأنيث
جبراً للكلمة وتعويضاً لما سقط منها ، والفعل وَمَقَّ يَمَقُّ بالكسر فيهما ، أى
أَحَبَّهُ فهو وامقٌ .

فصل

وأما الوَجْدُ فهو الحُبُّ الذى يتبعه الحزن ، وأكثر ما يُسْتَعْمَلُ الوَجْدُ
في الحزن ، يقال منه : وَجَدَ وَجْدًا بالفتح ، ونحن نذكر هذه المادة وتصاريفها ،
يقال : وَجَدَ مطلوبه يَجِدُهُ وَجوداً ، فإن تعلق ذلك بالضالَّةِ سَمَوْهُ وَجْدَانًا ،

(١) الآية ٣٠ . سورة يوسف .

وَوَجَدَ عَلَيْهِ فِي الْغَضَبِ مَوْجِدَةً ، وَوَجَدَ فِي الْحُزْنِ وَجْداً بِالْفَتْحِ ، وَوَجَدَ فِي الْمَالِ ، أَيْ صَارَ وَاجِداً وَوَجْداً وَوُجْداً وَوَجْداً بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ وَالْكَسْرِ وَجِدَةً إِذَا اسْتَفْنَى ، وَأَمَّا إِطْلَاقُ اسْمِ الْوَجْدِ عَلَى مَجْرَدِ مَطْلُوقِ الْمَحَبَّةِ فَغَيْرُ مَعْرُوفٍ ، وَإِنَّمَا يُطْلَقُ عَلَى مَحَبَّةٍ مَعَهَا فَقَدْ يُوجِبُ الْحُزْنَ .

فصل

وَأَمَّا الْكَائِفُ فَهُوَ مِنْ أَسْمَاءِ الْحُبِّ أَيْضاً ، يُقَالُ : كَلَّفْتُ بِهِذَا الْأَمْرَ أَيْ أَوَّلْتُ بِهِ فَأَنَا كَلِّفْتُ بِهِ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

فَتَعْلَمِي أَنَّ قَدْ كَلَّفْتُ بِكُمْ ثُمَّ اصْنَعِي مَا شِئْتُ عَنْ عِلْمِ

وَأَصْلُ اللَّفْظَةِ مِنَ الْكُلْفَةِ وَالْمَشَقَّةِ ، يُقَالُ : كَلَّفَهُ تَكْلِيفاً إِذَا أَمَرَهُ بِمَا يُشَقُّ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) ^(١) وَمِنْهُ تَكَلَّفْتُ الْأَمْرَ تَجَشُّمَتُهُ ، وَالْكُلْفَةُ مَا يُتَكَلَّفُ مِنْ نَائِبَةٍ أَوْ حَقٍّ . وَالتَّكَلُّفُ الْمُتَعَرِّضُ لِمَا لَا يَمْنِيهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) ^(٢) وَقِيلَ : هُوَ مَا خُوِذَ مِنَ الْأَثَرِ وَهُوَ شَيْءٌ يَعْلُو الْوَجْهَ كَالسَّمِيمِ . وَالْكَلْفُ أَيْضاً : لَوْنٌ بَيْنَ السَّوَادِ وَالْخُمْرَةِ وَهِيَ خُمْرَةٌ كَدِرَةٌ تَعْلُو الْوَجْهَ ، وَالْإِسْمُ الْكُلْفَةُ .

فصل

وَأَمَّا التَّيْمُ ^(٣) فَهُوَ التَّعَبُّدُ ، قَالَ فِي الصَّحَاحِ : تَيَّمُ اللَّهُ أَيْ عَبْدَ اللَّهِ ، وَأَصْلُهُ

(١) الْآيَةُ ٢٨٦ . سُورَةُ الْبَقَرَةِ (٢) الْآيَةُ ٨٦ . سُورَةُ ص .

(٣) لَعَلَّ الصَّوَابَ هُوَ التَّيْمُ : أَنْ يَسْتَعْبِدَ ، الْهَوَى ، وَهُوَ ذَهَابُ الْعَقْلِ مِنَ الْهَوَى .

من قولهم : تيممه الحب إذا عبده وذلكه فهو مقيم ، ويقال : تامته المرأة ، قال
لقيط بن زرارة :

تامت فؤادك لو يحزنك ما صنعت إحدى نساء بني ذهل بن شيبان

فصل

وأما العشق فهو أمر هذه الأسماء وأخبثها ، وقل ما ولبت به العرب ،
وكانهم ستروا اسمه وكنوا عنه بهذه الأسماء فلم يكادوا يفضحوا به ، ولا تسكاد
تجده في شعرهم القديم ، وإنما أولع به المتأخرون ، ولم يقع هذا اللفظ في القرآن
ولا في السنة إلا في حديث سويد بن سعيد^(١) وسنتكلم عليه إن شاء الله تعالى .
وبعد فقد استعملوه في كلامهم ، قال الشاعر :

وماذا عسى الراشون أن يتحدثوا سوى أن يقولوا إني لك عاشق
نعم صدق الراشون أنت حبيبة إلى وإن لم تصف منك الخلائق

قال في الصحاح : العشق قرط الحب ، وقد عشقها عشقا مثل علم عِلْمًا وعشقا
أيضا عن الفراء ، قال رؤبة :

* ولم يضعها بين فرك^(٢) وعشق *

قال ابن السراج : إنما حرّكه ضرورة وإنما لم يحركه بالكسر إتباعا
للعين كأنه كره الجمع بين كسرتين فإن هذا عزيز في الأسماء ، ورجل عشيق
مثل فسّيق ، أي كثير العشق ، والتعشق تكلف العشق قال الفراء : يقولون
امراة محبة لزوجها وعاشق . وقال ابن سيده : العشق عجب المحب بالمحروب
يكون في عفاف المحب ودعائه ، يعني في العفة والفجور . وقيل : العشق الاسم

(١) هو حديث : من عشق فعف فكم فمات فهو شهيد .

(٢) فرك : بهضم وكره .

والعشق المصدر ، وقيل : هو مأخوذ من شجرة يقال لها : عاشقة^(١) تخضر ثم تدرك وتصفر ، قال الزَّجَّاج واشتقاق العاشق من ذلك ، وقال الفراء : عشق عشقاً وعشقاً إذا أفرط في الحب ، والعاشق الفاعل ، والمعشوق المفعول ، والعشيق يقال لهذا ولهذا ، وامرأة عاشق وعاشقة^(٢) :

وَلَدٌ كَطَعْمِ الصَّرْحَدِيِّ طَرَحَتْهُ غَشِيَّةٌ خَسِ القوم والعينُ عاشقة^(٣)
وقال الفراء : العشق نبتٌ لَزَجٌ ، وُسِّمِيَ العشق الذي يكون من الإنسان للصوفة بالقلب وقال ابن الأعرابي : العَشَقَةُ اللبابة تخضر وتصفر وتعلق بالذي يليها من الأشجار ، فاشتق من ذلك العاشق . وقد اختلف الناس هل يُطلق هذا الاسم في حق الله تعالى ؟ فقالت طائفة من الصوفية : لا بأس بإطلاقه ، وذكروا فيه أثراً لا يثبت ، وفيه : فإذا فعل ذلك عشقني وعشقتني ، وقال جمهور الناس : لا يُطلق ذلك في حقه سبحانه وتعالى ، فلا يقال إنه يعشق ، ولا يقال عشقه عبده . ثم اختلفوا في سبب المنع على ثلاثة أقوال ، أحدها : عدم التوقيف^(٤) بخلاف المحبة . الثاني : أن العشق إفراط المحبة ، ولا يمكن ذلك في حق الرب تعالى ، فإن الله تعالى لا يوصف بالإفراط في الشيء ، ولا يبلغ عبده ما يستحقه من حبه فضلاً أن يقال أفرط في حبه . الثالث : أنه مأخوذ من التأثير

(١) كذا . . والذي في كتب اللغة عشقة بفتحتين وستأتي قريباً .

(٢) هو الراعى .

(٣) في اللسان : صرخد : موضع لسب إليه الشراب في قول الراعى .
والخمس : من أظاء الإبل أن ترد الإبل الماء في اليوم الخامس من ورودها السابق .
وقوله : ولد ، يريد نوم لذيذ ، والهاء في عاشقة تعود على النوم وذكر العين على معنى الطرف .

(٤) التوقيف في الشرع كالنص .

كما يقال للشجرة المذكورة عاشقة^(١) ، ولا يطلق ذلك على الله سبحانه وتعالى .

فصل

وأما الْجَوَى في الصحاح : الجوى : الحُرَّة وشدة الوجد من عشق أو حزن ، تقول منه : جَوَى الرجل بالكسر فهو جَوٍ مثل دَوٍ ، ومنه قيل للماء المتغير المُنْتِن : جَوٍ ، قال الشاعر^(٢) :

ثم كان الزاجُ ماءً سحابٍ لا جَوٍ آجن^(٣) ولا مطروقُ

فصل

وأما الدَّفُّ فلاتكاد تستعمله العرب في الحب ، وإنما وَلِعَ به المتأخرون ، وإنما استعملته العرب في المرض . قال في الصحاح : الدَّفُّ بالتحريك المرض الملازم ، رَجَل دَفٌّ أيضاً يعني بفتح النون وامرأة دَفٍّ وقومٌ دَفٌّ ، يستوى فيه المذكر والمؤنث والثنية والجمع ، فإن قلت : رجل دَفٌّ بكسر النون قلت : امرأة دَفَّةٌ أنثى وثنية وجمعت ، وقد دَفَّ المريضُ بالكسر قُتِلَ وأدْفَ بالأب مثله ، وأدْفَه المرضُ يتعدى ولا يتعدى فهو مُدْفٍ ومُدْفَ . قلت : وكأنهم استعاروا هذا الاسم للحب اللازم تشبيهاً له به والله أعلم .

فصل

وأما الشَّجْوُ فهو حبٌّ يتبعه همٌّ وحزن . قال في الصحاح : الشَّجْوُ : الهمُّ والحزن ، يقال : شَجَّاهُ شَجْوَهُ شَجَّوَا : إذا أحزنه ، وأشجَاهُ يُشَجِّيه إشجاءً :

(١) الصواب عاشقه ، أنظر صفحة (٢٨) .

(٢) هو عدى بن زيد .

(٣) أجن الماء : تغير طعمه ولونه ورائحته .

إذا أغصته . تقول منهما جميعاً : شَجِي بالكسر يَشَجِي شَجِي قال الشاعر^(١) :
لا تنكروا القتل وقد سُيِّنا في حلقكم عظمٌ وقد شَجِينا
أراد حلوقكم ، والشَّجِي ما يَنْشَبُ في الحلق من عظمٍ أو غيره ، ورجلٌ
شَجَج ، أى حزينٌ وامرأةٌ شَجِيَّةٌ على فَعْلَةٍ . فأطاق هذا الاسم على الحب للزومة
كالشَّجِي الذى يعلق بالحلق وينشَبُ فيه .

فصل

وأما الشوق فهو سفر القلب إلى المحبوب ، وقد وقع هذا الاسم في السنة ،
في المسند من حديث عمار بن ياسر أنه صلى صلاةً فأوجز فيها ، فقيل له :
أوجزت يا أبا اليقظان ، فقال : لقد دعوت فيها بدعراتٍ سمعتن من رسول الله
صلى الله عليه وسلم يدعو بهن : اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ،
أُحْيِنِي إذا كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى . وأسألك
خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا ، وأسألك
القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع .
وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك بَرَدَ العيش بعد الموت ، وأسألك لذة
النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك ، في غير ضراءٍ مضرة ، ولا فتنةٍ مضلة
اللهم زيناً بزيمة الإيمان ، واجعلنا هداةً مهتدين^(٢) . وجاء في أثرٍ إسرائيلي
طال شوق الأبرار إلى لقائى ، وأنا إلى لقاءهم أشوق . وقد قال الله تعالى
(مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ)^(٣) . قال بعض العارفين

(١) هو المسيب بن زيد مناة .

(٢) هكذا .. وفي بعض ألفاظه اختلاف عما في المسند وجامعى السيوطى

(٣) الآية ٥٥ . سورة العنكبوت .

لما علم الله شوق المحبين إلى لقائه ضرب لهم موعداً للقاء تسكن به قلوبهم . وبعد
فهذه اللغزلة من أسماء الحب ، قال في المصباح : الشوق والاشتياق : نزاع النفس
إلى الشيء ، يقال : شاقني الشيء يشوقني فـ... شائق وأنا مشوق ومشوقني
فتشوقت : إذا هيج شوقك ، قال الراجز :

يا دارَ مية بالكاديك البرق^(١) سقياً قد هيجت شوق المشتاق
يريد المشتاق قال سيويه : كمنز ما ليس بمهوز ضرورة .

فصل

واختلف في الفرق بين الشوق والاشتياق أيهما أقوى ، فقالت طائفة :
الشوق أقوى فإنه سفة لازمة ، والاشتياق فيه نوع انفعال كما يدل عليه بناؤه
كلاهما كتناسب ونعسره ، ومالت فرقة : الاشتياق أقوى لكثرته حروفه ، وكما
قوي المعنى وزاد زادا حروفه ، وحكت فرقة ثالثة بين القراين . وقالت :
الاشتياق يكون إلى غائب ، وأما الشوق فإنه يكون للحاضر والغائب . والصواب
أن يقال : الشوق مصدر شاقه يشوقه إذا دعاه إلى الاشتياق إليه ، فالشوق داعية
الاشتياق ومبداءه ، والاشتياق موجب وغايته ، فإنه يقال : شاقني فاشتقت ،
فالاشتياق فعل متاوع لشاقني . واختلف أرباب الشوق هل يزول الشوق
بالوصال أو يزيد ؟ فقالت طائفة : يزول ، فإن الشوق سمر القلب إلى المحبوب ،
فإذا وصل إليه انتهى السفر .

وأقلت عصاها واستقر بها النوى سكاقر عتيماً بالإياب المسافر^(٢)

(١) في المصباح ياداري قال : والد كذاك من الرمل : ما تبد منه بالأرض
ولم يرتفع والجمع الدكادك والدكاديك . والبرقة بالهمز : سلف في حجارة ورمل
وطين مختلطة والجمع برق .
(٢) البيت لمقر بن حمار .

قالوا : ولأن الشوق إنما يكون لغائب فلا معنى له مع الحضور ، ولهذا إنما يقال للغائب : أَمَا إِلَيْكَ مُشْتَاقٌ : وأما من لم يزل حاضراً مع المحب فلا يوصف بالشوق إليه . وقالت طائفة : بل يزيد بالقرب واللقاء واستدلوا بقول الشاعر :
وأعظم ما يكونُ الشوقُ يوماً إذا دَنَتِ الخيامُ من الخيام
قالوا : ولأن الشوق هو حُرقة المحبة والتهابُ نارها في قلوب المحب ، وذلك مما يزيده اقتراب والمواصلة . والصواب أن الشوق الحادث عند اللقاء والمواصلة غيرُ النوع الذي كان عند الغيبة عن المحب ، قال ابن اُرومى :

أعاقمُها والنفسُ بعدُ مَشُوقَةٌ إليها وهل بعد العناق تدانى
وألم فها كى تزولَ صبايتى فيشتدُّ ما ألقى من الهيمان
ولم يك مقدارُ الذى بى من الجوى ليشفيه ما ترشيفُ الشفان
كأن فؤادى ليس يشفى غليله سوى أن يَرى الروحين تمزجان

فصل

وأما الخِلابة فعلى الحب الخادع ، وهو الحب الذى وصل إلى الخُلب وهو الحجاب الذى بين القلب وسراد البطن . وسمى الحب خِلابةً لأنه يخدع ألباب أربابه ، والخِلابة : الخديعة باللسان ، يقال : خَلَبَهُ يَخْلُبُهُ بالضم واختابه مثله . وفى المثل : إذا لم تَغْلِبْ فَاخْلُبْ ، أى فَاخْدَع . والخِلابة : الخداعة من النساء قال الشاعر (١) :

أودى الشبابُ وحُبُّ الخالة (٢) الخِلابة وقد برئتُ فَا بِالْقَلْبِ مِنْ قَلْبِهِ (٣)

(١) فى الصحاح : قال الفر .

(٢) فى الصحاح : امرأة خالة ، أى مخالة ، وقوم خالة ، أى مختالون ، ويروى الخِلابة أيضاً بفتح اللام على أنه جمع وهم الذين يخدعون النساء .

(٣) أى برئت من داء الحب ولم يعد بالقلب علة .

قال ابن السكيت : رجلٌ خلابٌ ، أى خدّاعٌ كذابٌ ، ومنه البرق
الخلب الذى لا غيث فيه كأنه خادع ، ومنه قيل لمن يعيد ولا يُنجز : إنما أنت
برق خلّب . والخلب أيضاً : السحاب الذى لا مطر فيه ، ومنه الحديث :
« إِذَا بَايَعْتَ قَوْمًا لِاخِلَابَةٍ » (١) أى لا خديعة . والحب أحقّ ما يُسمّى بهذا
الاسم ، لأنه يعمى ويُصمى ، ويخدع أبّ المحب وقلبه .

فصل

وأما البلبال فجمع بلبلة ، يقال : بلبال الحب ولبلبال الشوق ، وهى
وساوسه وهمه . قال فى الصحاح : البلبلة والبلبال : الهمّ ووسواس الصدر .

فصل

وأما التباريح فيقال : تباريح الحب ، وتباريح الشوق ، وتباريح التجوى .
وبرّح به الحب والشوق : إذا أصابه منه الترنح وهو الشدة . قال فى الصحاح :
لقيت منه برّحاً بارحاً ، أى شدةً وأذى ، قال الشاعر :
أَجِدُّ هَذَا عَمَرَكَ اللَّهُ كَمَا دَعَاكَ الْهَوَى بَرَّحٌ لَعِينُكَ بَارِحٌ
ولقيت منه بنات برّح وبنى برّح ، ولقيت منه البرّحين والبرّحين ، بكسر الباء
وضمها ، أى الشدائد والدواهي .

فصل

وأما السدّم بالتحريك فهو الحب الذى يتبعه ندمٌ ومحرزٌ . قال فى المصباح :
السدّم بالتحريك : الندم والحزن وقد سدّم بالكسر ، ورجلٌ نادّمٌ نادّم
وندمانٌ سدّمانٌ ، وهو إبتاعٌ ، وما له همٌّ ولا سدّمٌ إلا ذاك .

(١) الكتب الستة وغيرها .

فصل

وأما الغمرات فهي جمع غمرة ، والغمرة ما يغمره اتاب من حب أو شكر أو غفلة . قال الله تعالى : (قُتِلَ آثَرُ أَصْرَنَ . الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ)^(١) أى فى غفلة قد غمرت قلوبهم . وقال تعالى : (فَذَرْنُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ)^(٢) ومنه الماء الغمر الكثير الذى يغطى من دخل فيه ، ومنه غمرات الموت ، أى شدائده ، وكذلك غمرات الحب ، وهو ما يغطى قاب المحب فيغمره ، ومنه قولهم : رجل غمر الرداء ، كناية عن السخاء ، لأنه يغمر العيوب ، أى يغطيها فلا يظهر مع السخاء عيب . قال كثير :

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكاً غلقت لصحبته رقاب المال

وقال القطامي يصف سفينة نوح :

إلى الجودي حتى صار حجراً وكان لذلك الغمر انحسار^(٣)

أى لذلك الماء الذى غمر الأرض ومن عليها .

فصل

وأما الوهل فهو بتحريك الماء وأصله الفزع والروع ، يقال : وهل يؤهل وهو وهل ومستهل . قال القطامي يصف إبلاً :

(١) الآيتان ١٠ و ١١ . سورة الذاريات .

(٢) الآية ٥٥ . سورة المؤمنون .

(٣) الجودي : هو الجبل الذى استوت عليه سفينة سيدنا نوح عليه السلام . الحجر : الممنوع الذى له حاجز . والغمر جمع غمرة . قال ابن سيده : وجمع السلامة أكثر .

وترى لحيضتين عند رحيلنا وهلا كان بين جنة أولي (١)
وإنما كان الوهل من أسماء الحب لما فيه من الرّوع ، ومنه يقال :
جمال رائع . فإن قيل : ما سبب روعة الجمال ولأى شيء إذا رأى المحب
محبوبه فجأة يرتاع لذلك ويصفرّ لونه ويهت . قال الشاعر :

وما هو إلا أن أراها فجأة فاهت حتى لا أكاد أجيب

وكثير من الناس يرى محبوبه فيصنر ويرتعد ؟ قيل : هذا مما خفى سببه
على أكثر المحبين فلا يدرون ما سببه ، فقلّ شبيه أن الجمال سلطان على
القلوب ، وإذا بدا راع القلوب بسلطانه ، كما يرؤعها الملك ونجمه من له سلطان
على الأبدان ، فسلطان الجمال والمجبة على القلوب ، وسلطان الملوك على الأبدان ،
فإذا كان السلطان الذى على الأبدان يرؤع إذا بدا ، فكيف بالسلطان الذى هو
أعظم منه ؟ قالوا : وأيضاً فإن الجمال يأسير القلب فيحس القلب بأنه أسير
ولا بدّ لتلك الصورة التى بدت له ، فيرتاع كما يرتاع الرجل إذا أحسّ بمن
يأسره ، ولهذا إذا أمن الناظر من ذلك لم تحصل له هذه الرّوعة . قال الشاعر :

علامة من كان الهوى بفؤاده إذا ما رأى محبوبه يتغير

فصل

وأما الشجن فهو من أسمائه ، فإن الشجن الحاجة حيث كانت ، وحاجة
المحب أشدّ شيء إلى محبوبه . قال الراجز :

(١) فى اللسان قال : وهو الروغان والمدول عن التمدد ، وأصل الجيضم
الميل عن الشيء . والأولق : الجنون ، وقيل : الخفة من الذمياط كالجنون .

إني سأبدي لك فيما أبدى لي شجنان شجنٌ يُبجِدُ

وشجنٌ لي يسلاذ السند

والجمع شجون . قال : والنفس شتى شجُونُها^(١) ، ويجمع على أشجان .

قال الشاعر :

نَحْمَلُ أَهْمَابِي وَلَمْ يَحْدُوا وَجْدِي وَلِلنَّاسِ أَشْجَانٌ وَلِي شَجْنٌ وَحْدِي
وَقَدْ شَجَّنْتَنِي الْحَاجَةُ تَشْجُنُنِي شَجْنًا : إِذَا حَبَسْتُكَ ، وَوَجْهٌ آخِرٌ أَيْضًا
وَهُوَ أَنَّ الشَّجْنَ الْحُزْنَ وَالْجَمْعَ أَشْجَانٌ ، وَقَدْ شَجَّنَ بِالْكَسْرِ فَهُوَ شَاجِنٌ
وَأَشْجَنَهُ غَيْرُهُ وَشَجَّنَهُ ، أَيْ أَحْزَنَهُ ، وَالْحَبُّ فِيهِ الْأَمْرَانِ : هَذَا وَهَذَا .

فصل

وأما اللاعج فهو اسم فاعل من قولهم : لَعَجَهُ الضربُ إِذَا أَلَمَهُ وَأَحْرَقَ
جلده . قال الهذلي^(٢) :

* ضَرْبًا أَلَمًا يَسْبِتُ يَأْمِجُ الْجِلْدَ^(٣) *

ويقال : هو لاعجٌ مُحْرَقَةُ الْفُؤَادِ مِنَ الْحُبِّ .

فصل

وأما الاكتئاب فهو افتعالٌ من الكآبة ، وهى سوء الحال والانسكار
من الحزن ، وقد كُتِبَ الرَّجُلُ يَكْأَبُ كَأَبَةً وَكَأَبَةً كَرَأْفَةً وَرَأْفَةً ، وَنَشَأَةً

(١) أصل البيت رواه ابن برى وهو :

ذَكَرْتُكَ حَيْثُ اسْتَأْنِ الْوَحْشَ وَالْقَتَّ رَفَاقَ بِهِ وَالنَّسْ شَقِي شَجُونَهَا

(٢) فى ياقوت : هو عبد بن ربيع الجربى ، وصدره :

هَذَا إِذَا تَجَرَّدَ نُوحٌ قَامَتَا مَعَهُ هـ

(٣) السبت بالكسر : كل جلد مدبرغ . يلمع : يؤلم ويحرق .

ونشأة فهو كئيبٌ، وامرأةٌ كئيبةٌ وكأباءٌ أيضاً . قال الراجز^(١) :

* أَوْ أَنْ تُرَى كَأَبَاءُ لَمْ تُبَرَّنَشِقْ *

واكتأب الرجلُ مثله ، وَرَمَادُ مُكْتَتِبِ اللون : إذا ضرب إلى السواد كما يكون وجه الكئيب ، والكأبة تتولد من حصول الحب وفوت المحبوب فتحدثُ بينهما حالةٌ سيئة تسمى الكأبة .

فصل

وأما الوَصَبُ فهو ألمُ الحب ومرضه فإن أصل الوَصَبِ المرض ، وقد وَصِبَ الرجلُ يَوْصَبُ فهو وَصِيبٌ ، وَأَوْصَبَهُ اللهُ فهو مُوَصَّبٌ ، وَالْمُوَصَّبُ بالتشديد الكثير الأوجاع . وفي الحديث الصحيح : « لَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ شَيْءٍ وَلَا وَصَبٌ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكِّهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ »^(٢) وَوَصِبَ الشيءُ يَصِيبُ وَصُوبًا إذا دام ، تقول : وَصَبَ الرجلُ على الأمر إذا دام عليه . قال الله تعالى : (وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ)^(٣) وقال تعالى : (وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبَةٌ)^(٤) أى الطاعة دائمة .

فصل

وأما الحزن فقد عُدَّ من أسماء المحبة والصبوب أنه ليس من أسمائها ، وإنما هو حالة تحدث للمحب ، وهى ورود المكروه عليه ، وهو خلاف السرور ، ولما كان الحب لا يخلو من ورود مالا يسرُّ على قلب المحب كان الحزن من لوازمه .

-
- (١) فى ياقوت : هو جندل بن المثنى الطهوى يخاطب ابنة أخيه .
 والمبرنشق : الفرح السرور وقد ابرنشق .
 (٢) فى صحيح مسلم وغيره بالفاظ متقاربة .
 (٣) الآية ٩ . سورة الصافات .
 (٤) الآية ٥٢ . سورة النحل .

وفي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : « **الْأَهَمُّ إِنِّي أَعُودُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ ، وَالْمَعْزِ وَالْكَسَلِ ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ ، وَضَلَعِ الدِّينِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ** » ^(١) ، فاستعاذ صلى الله عليه وسلم من ثمانية أشياء ، كل شيءين منهما قرينان . فالهم والحزن قرينان ، فإن ورود المكروه على القباب إن كان لما مضى فهو الحزن ، وإن كان لما يستقبل فهو الهم ، والمعجز والكسل قرينان فإن تخلف العبد عن كماله إن كان من عدم القدرة فهو المعجز ، وإن كان من عدم الإرادة فهو الكسل ، والجبن والبخل قرينان ، فإن الرجل يراود منه النفع بهاله أو يبدنه ، فالجبان لا ينفع بيده ، والبخل لا ينفع بهاله ، وضلع الدين وغلبة الرجال قرينان ، فإن قهر الناس نوعان : نوعٌ بحق فهو ضلع الدين ، ونوعٌ بباطل فهو غلبة الرجال . وقد نفى الله سبحانه وتعالى عن أهل الجنة الخوف والحزن ، فلا يمحزون على ما مضى ، ولا يخافون مما يأتي ، ولا يطيب العيش إلا بذلك ، والحب يلزمه الخوف والحزن .

فصل

وأما الكمد فمن أحكام المحبة في الحقيقة وليس من أسمائها ، ولكن المتكلمون في هذا الباب لا يفرقون بين اسم الشيء ولازمه وحكمه ، والكمد الحزن المكتوم ، تقول منه : كمد الرجل فهو كمدٌ وكمدٌ والكمدَةُ تعبير اللون وأكمدَ الثوب إذا لم يُنقَّه .

فصل

وأما الأذع فهو من أحكام المحبة أيضاً ، وأصله من كذع النار . يقال :

(١) في الصحيحين وغيرهما . والضلع : القهر .

لَذَعْتُهُ النَّارُ لَذْعًا : أحرقته ، ثم شبهوا لَذْعَ اللسان بلَذْعِ النار ، فقالوا : لَذَعَهُ
بلسانه ، أى أحرقه بكلامه ، يقال : أعوذ بالله من لَوَازِيحِهِ .

فصل

وأما الحُرْقُ فهو أيضاً من عوارض الحُب وآثاره ، والحُرْقَةُ تكون
من الحُب تارةً ومنه قولهم : مالك حُرْقَةٌ عَلَى هذا الأمر ، وتكون من الغيظ
ومنه فى الحديث : « تَرَكَهُمْ يَتَحَرَّقُونَ عَلَيْكُمْ » .

فصل

وأما الشَّهْدُ فهو أيضاً من آثار المحبة ولوازمها ، فالشَّهَادُ : الأَرْقُ وقد
سَهَدَ الرجل بالكسر يَسْهَدُ سَهْدًا ، والشَّهْدُ بضم السين والهاء : القليل النوم .
قال أبو كبير الهذلي :

فَأَتَيْتُ بِهِ حُوشَ الْجَنَانِ مُبْطِنًا سَهْدًا إِذَا مَا نَامَ لَيْلُ الْهَوِّ جَلٌ^(١)
وسهْدته أنا فهو مُسَهَّدٌ .

فصل

وأما الأَرْقُ فهو أيضاً من آثار المحبة ولوازمها فإنه السهر . وقد أَرِقْتُ
بالكسر أى سهرت ، وكذلك انْتَرَقْتُ عَلَى افتعلت فُأَنَا أَرِقٌ ، وَأَرَقْنِي كَذَا
تَأْزِيقًا ، أى سهرنى .

فصل

وأما اللَّهْفُ فمن أحكامها وآثارها أيضاً ، يقال : لَهِفَ بالكسر يَلْهِفُ

(١) حوش الجنان ، أى حديد الثمراد . والمبطن : الضامر البطن . والهرجل :
الرجل الاموج .

لَهْفًا أَى جِزْنٍ وَتَحَسَّرَ . وَكَذَلِكَ التَّأَلُّفُ عَلَى الشَّيْءِ . وَقَوْلُهُمْ : يَا لَهْفَ فُلَانٍ
كَلِمَةٌ يُتَحَسَّرُ بِهَا عَلَى مَا فَاتَ ، وَاللَّهْفَانُ الْمَتَحَسَّرُ ، وَاللَّهْفُ الْمَضْطَرُ .

فصل

وَأَمَّا الْخَنِينُ فَقَالَ فِي الصَّحَاحِ : الْخَنِينُ الشُّوقُ وَتَوَقَّانُ النَّفْسُ ، تَقُولُ
مِنْهُ : حَنَّ إِلَى يَمِينٍ حَنِينًا فَهُوَ حَانٌّ ، وَالْحَنَّانُ الرَّحِمَةُ ، تَقُولُ مِنْهُ : حَنَّ عَلَيْهِ
يَمِينٌ حَنَّانًا ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَحَنَّاكَ مِن دُونِنَا)^(١) وَتَحَنَّنَ عَلَيْهِ تَرَاحَّمَ ،
وَالْعَرَبُ تَقُولُ : حَنَّانَكَ يَا رَبِّ وَحَنَّانِيكَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ ، أَى رَحِمْتِكَ ، قَالَ
أَمْرُؤُ الْقَيْسِ :

وَيَمْنَحُهَا بَنُو كَيْمَجِي بْنِ جَرْمٍ مَعِيزَهم حَنَّانَكَ ذَا الْخَنَّانِ^(٢)
وَقَالَ طَرْفَةُ :

أَبَا مَنذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقِ بَعْضُنَا حَنَّانِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ
وَفِي الْحَقِيقَةِ الْخَنِينُ مِنْ آثَارِ الْحُبِّ وَمُوجِبَاتِهِ ، وَحَنِينُ النَّاقَةِ صَوْتُهَا
فِي زِيَارَتِهَا إِلَى وَلَدِهَا . وَحَنَّةُ الرَّجُلِ امْرَأَتُهُ . قَالَ^(٣) :

وَلَيْلَةَ ذَاتِ دُجَى سَرَيْتُ وَلَمْ أَفِرِّزْنِي حَنَّةً وَبَيْتُ
قَلْبِ : مُسَمِّتٌ حَنَّةً لِأَنَّ الرَّجُلَ يَمِينُ إِلَيْهَا أَيْنَ كَانَ

فصل

وَأَمَّا الْاِشْتِكَانَةُ فَهِيَ أَيْضًا مِنْ لَوَازِمِ الْحُبِّ وَأَحْكَامِهِ ، لِأَنَّ أَسْمَاءَهُ الْمُخْتَصِمَةَ

(١) الْآيَةُ ١٢ . سُورَةُ مَرْيَمَ .

(٢) فِي اللَّسَانِ : يَمْنَحُهَا رَوَايَةُ الْأَصْمَعِيِّ ، أَى يَعْطِيهَا ، وَرَوَاهُ ابْنُ
الْأَعْرَابِيِّ : وَيَمْنَحُهَا .

(٣) هُوَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْقَيْسِيُّ

به ، وأصلها الخضوع . قال الله تعالى : (فَمَا اسْتَسْكَنُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَذَفَّرُونَ) ^(١)
وقال تعالى : (فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا) ^(٢)
وأصلها استنفل من الكون ، وهذا الاشتقاق والتصريف يطابق اللفظ ، وأما
المعنى فالمستكن ساكن خاشع ضد الطائش ، ولكن لا يوافق السكون
تصريف اللفظة فإنه إن كان افتعل كان ينبغي أن يقال استسكن لأنه ليس في
كلامهم افتعال ، والحق أنه استنفل من السكون فنقلوا حركة الواو إلى الكاف
قبلها فحركات الواو أصلاً وانفتح ما قبلها تقديراً فقلت ألقاً كاستقام ، والكون
الحالة التي فيها إنباةٌ وذلٌ وخضوع . وهذا يُحمد إذا كان لله ، ويدم إذا كان
لغيره ، ومنه الحديث : «أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخَوْرِ بَعْدَ السَّكُورِ» ^(٣) أي الرجوع
عن الاستقامة بعد ما كنت عليها .

فصل

وأما التباله فعى فعالة من تبلة إذا أفناه . قال الجوهرى : تبلمهم الدهر .
وتبلمهم إذا أفناهم . قال الأعشى :
أَنْ رَأَتْ رَجُلًا أَعْشَى أَضْرَبَهُ رَيْبُ الزَّمَانِ وَدَهْرٌ مُتَبِيلٌ خَيْلُ
أى يذهب بالأهل والولد ، وتبله الحب ، أى أسقمه وأفسده . قلت : ومنه
قول كعب بن زهير بن أبى سلمى :
بانت سعاد قلبي اليوم متبول متيم عندها لم يفد مكبول

(١) الآية ٧٧ . سورة المؤمنون .

(٢) الآية ١٤٦ . سورة آل عمران .

(٣) ويروى بعد السكون وقد رجح النوى هذه الرواية في الأذكار
والحديث رواه ابنه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه . والخور : النقص
والكور : الزيادة . يبنى من النقص بعد الزيادة .

فصل

وأما اللّوعة فقال في الصحاح : لَوْعَةُ الحب حُرْقَتُهُ وَقَدْ لَاعَهُ الْحُبُّ يَلُوعُهُ
وَالْتَاعَ قُوَادُهُ أَيْ اخْتَرَقَ مِنَ الشَّوْقِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : أَتَأْنُّ لَاعَةَ الْقُوَادِ إِلَى
جَحْشِهَا . قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : أَيْ لَاعَةُ الْقُوَادِ وَهِيَ الَّتِي كَانَتْهَا وَلَهُى مِنَ الْفَزَعِ .

فصل

وأما الفتون فهو مصدر فَتَنَهُ يَفْتِنُهُ فُتُونًا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا)^(١)
أَيْ امْتَحَنَّاكَ وَابْتَحَرْنَاكَ . وَالْفِتْنَةُ يُقَالُ عَلَى ثَلَاثَةِ مَعَانٍ^(٢) ، أَحَدُهَا : الِامْتِحَانُ
وَالِاخْتِبَارُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ)^(٣) أَيْ امْتِحَانُكَ وَابْتِحَارُكَ
وَالثَّانِي : الْإِفْتِنَانُ نَفْسَهُ ، يُقَالُ : هَذِهِ فِتْنَةٌ فَلَانٌ ، أَيْ إِفْتِنَانُهُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى :
(وَأَتَتْهُمَا فِتْنَةٌ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)^(٤) يُقَالُ : أَصَابَتْهُ
الْفِتْنَةُ وَفَتَنَتْهُ الدُّنْيَا وَفَتْنَتِ الْمَرْأَةُ وَأَفْتِنَتْهُ . قَالَ الْأَعْمَشِيُّ :

لَنْ فَتَنَتْنِي لَهْفَى بِالْأَمْسِ أَفْتَنْتُ سَعِيدًا فَأُخْبِي قَدْ قَلَى كُلُّ مُسْلِمٍ
وَأُنْكِرُ الْأَصْمَعِيُّ أَفْتِنْتَهُ . وَالثَّالِثُ : الْمَفْتُونُ بِهِ نَفْسُهُ يُسَمَّى فِتْنَةً ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :
(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ)^(٥) وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ
فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)^(٦) أَيْ لَمْ تَكُنْ عَاقِبَةُ
شُرْكِهِمْ إِلَّا أَنْ تَبَرَّأُوا مِنْهُ وَأُنْكِرُوهُ . وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : (يَوْمَ نُهْمَ عَلَى النَّارِ

(١) الْآيَةُ ٤٠ . سُورَةُ طه .

(٢) ذَكَرَ بَعْضُ الْمَفْسَرِينَ أَنَّ الْفِتْنَةَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى خَمْسَةِ عَشَرَ وَجْهًا وَفَصَّلَهَا .

(٣) الْآيَةُ ٢٥٤ . سُورَةُ الْأَعْرَافِ

(٤) الْآيَةُ ٢٥ . سُورَةُ الْأَنْفَالِ .

(٥) الْآيَةُ ١٥ . سُورَةُ التَّغَابُنِ (٦) الْآيَةُ ٢٣ . سُورَةُ الْأَلْعَامِ .

يُفْتَنُونَ . ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ^(١) فقيل المعنى يحرقون ، ومنه فنتت الذهب إذا أدخلته النار لتنظار ما جودته ودينار مفتون . قال الخليل : والفتن : الإحراق قال الله تعالى : (يَوْمَ نُنْفِثُ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ) وورق فتين ، أى فضة محرقة . وأفنتين الرجل وفنتين : إذا أصابته فتنة فذهب ماله أو عقله . وفنتته المرأة إذا وأهنته ، وقوله تعالى : (فَأَنزَلْنَاكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا لَكُمُ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ . إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ)^(٢) أى لا تفتنون على عبادته إلا من سبق فى علم الله أنه يصلى الجحيم فذلك الذى يفتن بفتنتكم إياه ، وأما قوله تعالى : (فَسُجِرُوا وَيُبْصِرُونَ . بِأَيِّكُمْ أَلْمُفْتُونَ)^(٣) فقيل : الباء زائدة ، وقيل : المفتون مصدر كالمعقول والميسور والمحلوف والمعسور ، والصواب أن يبصر مضمّن معنى يشعّر ويعلم ، قال الله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِ بِخَلْقِهِنَّ بِتَادِرٍ)^(٤) فعدى فعل الرؤية بالباء وفى الحديث : « الْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ يَسْمَعُهَا لِمَاءِ وَالشَّجَرُ وَيَتَعَاوَنَانِ عَلَى الْفُتْنَانِ »^(٥) يروى بفتح الفاء وهو واحد وبضمها وهو جمع فتن كتاجير وتجار . والمقصود أن الحب موضع الفتون فافتن من قن إلا بالحبية .

فصل

وأما الجنون فمن الحب ما يكون جنونا ، ومنه قوله :

-
- (١) الآيتان ١٣ و ١٤ . سورة الذاريات .
 (٢) الآيات ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٣ . سورة الصافات .
 (٣) الآيتان ٥ و ٦ . سورة القلم (٤) الآية ٣٣ . سورة الأحقاف .
 (٥) فى الجامع الكبير للسيوطى : المسلم أخو المسلم الخ قال زرواه أبو داود والبيهقى والطبرانى .

قالت جُنِنَتْ مِن تَهْوَى قُلتُ لها أَلْمَشَقُّ أَعْظَمُ . بما بِالْجَانِينِ
 الْمَشَقُّ لَا يَسْتَفِيْقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ وَإِنَّمَا يُضْرَعُ الْجَنُونُ فِي الْحَيْنِ^(١)
 وَأَصْلُ الْمَادَّةِ مِنَ السَّتْرِ فِي جَمِيعِ تَصَارِيفِهَا ، وَمِنْهُ أَجَنَّةُ اللَّيْلِ وَجَنٌّ عَلَيْهِ :
 إِذَا سَتَرَهُ ، وَمِنْهُ الْجُنَيْنِ لَاسْتِتَارِهِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ، وَمِنْهُ أَجَنَّةُ لَاسْتِتَارِهَا بِالْأَشْجَارِ ،
 وَمِنْهُ الْمَجَنُّ لَاسْتِتَارِ الضَّارِبِ بِهِ وَالْمَضْرُوبِ ، وَمِنْهُ الْجُنَّ لَاسْتِتَارِهِمْ عَنِ الْعِيُونِ
 بِخِلَافِ الْإِنْسِ فَإِنَّهُمْ يُؤْتَسُّونَ أَيْ يُرَوْنَ ، وَمِنْهُ الْجُنَّةُ بِالضَّمِّ وَهِيَ مَا اسْتَتَرَتْ
 بِهِ وَاتَّقَيْتْ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً)^(٢) وَأَجَنَنْتُ الْمَيْتَ :
 وَارَيْتُهُ فِي الْقَبْرِ فَهُوَ جَنِينٌ . وَالْجُبُّ الْمَقْرُطُ يَسْتُرُ الْعَقْلَ فَلَا يَعْتَمِلُ الْحُبُّ مَا يَنْفَعُهُ
 وَيُضِرُّهُ فَهُوَ شَعْبَةٌ مِنَ الْجَنُونِ .

فصل

وَأَمَّا اللَّامُّ فَهُوَ طَرَفٌ مِنَ الْجَنُونِ ، وَرَجُلٌ مَلُومٌ ، أَيْ بِهِ لَمَمٌ ، وَيُقَالُ
 أَيْضًا : أَصَابَتْ فَلَانًا مِنَ الْجُنِّ لَمَةً وَهُوَ الْمَسُّ وَالشَّيْءُ الْقَلِيلُ قَالَهُ الْجَوْهَرِيُّ .
 قُلْتُ : وَأَصْلُ اللَّفْظَةِ مِنَ الْمَقَارِبَةِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ
 الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّامَمَ)^(٣) وَهِيَ الصَّغَائِرُ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا :
 مَا رَأَيْتُ أَشْبَهَ بِاللَّامِ بِمَا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إِنْ الْعَيْنُ تَزَنَّى وَزَنَاها
 النَّظْرُ ، وَالْيَدُ تَزَنَّى وَزَنَاها الْبَطْشُ ، وَالرَّجُلُ تَزَنَّى وَزَنَاها الْمَشْيُ ، وَالْقَمَرُ يَزَنَّى
 وَزَنَاها الْقُبُلُ . وَمِنْهُ أَلَمْ بِكَذَا ، أَيْ قَارِبَهُ وَدَنَا مِنْهُ ، وَغَلَامٌ مُلِمٌّ ، أَيْ قَارِبُ

(١) الحين : الوقت طال أو قصر .

(٢) الآية ١٦ . سورة المجادلة . والآية ٢ . سورة المنافقون .

(٣) الآية ٣٢ . سورة النجم .

البلوغ ، وفي الحديث : « إِنَّ نَمَّا يُنْبِتُ الرَّيِّعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُبْلِمُ »^(١) ،
أى يقرب من ذلك . وبالجملة فلا يستبين كونُ اللَّعْمِ من أسماء الحب وإن كان
قد ذكره جماعة إلا أن يقال : إن المحبوب قد أَلَمَّ بقلب الحب ، أى نزل به ،
ومنه أَلِمَ بنا ، أى انزل بنا ، ومنه قوله :

مَتَى تَأْتِنَا تُنَلِّمُ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدُ حَطَبًا جَزَلًا وَنَارًا تَأْجِبَا

فصل

وأما ائْتَلُّلُ فن موجبات العشق وآثاره لامن أسمائه وإن ذكر من أسمائه
فإن أصله الفساد وجمعة خُبُول ، وائْتَلُّلُ بالتحريك الجن ، يقال به خَبِلْتُ ، أى
شئ من أهل الأرض ، وقد خَبَلَهُ وَخَبَّلَهُ وَاسْتَبَلَّهُ : إذا أفسد عقله أو عضوه ،
ورجلٌ مُخَبَّلٌ وهو نوع من الجنون والفساد .

فصل

وأما الرَّسِيسُ فقد كثر في كلامهم رَسِيسُ الهوى والشوق ورَسِيسُ
الحب ، فظن من أدخله في أسماء الحب أنه منها وليس كذلك ، بل الرَّسِيسُ
الشيء الثابت ، فرَسِيسُ الحب ثباته ودوامه ، ويمكن أن يكون من رَسَّ
الحُمَى ورَسِيسُها وهو أولُ مَسِّها ، فشبهوا رَسِيسَ الحب بحرارته وحرقتة
برَسِيسِ الحُمَى ، وكان الواجب على هؤلاء أن يجعلوا الأوار من أسماء الحب
لأنه يضاف إليه ، قال الشاعر^(٢) :

(١) في المصححين ، ويقال : حببت الدابة حبطا بالتحريك إذا أصابت
مرعى طيباً فأفترطت في الأكل حتى تنتفخ فتموت . والحباط : وجع البطن من
الانتفاخ لكثرة الأكل أو لاكل غير موافق .
(٢) هو عروة بن أذينة .

إذا وجدتُ أوارَ الحبِّ في كبدى . أقبلتُ نحو سِقَاءِ القَوْمِ أَتَرَدُّ
هبنى برَدْتُ بَرْدَ الْمَاءِ ظَاهِرَهُ . فمن لِنَارٍ عَلَى الْأَحْشَاءِ تَتَقَدُّ
وقد وقع إضافة الرَّسَيْسِ إلى الهوى فى شعر ذى الرُّمَّة حيث يقول :
إذا غيَّرَ النَّأْيُ الْحَبِيبَ لَمْ يَكْغَدْ رَسَيْسُ الْهَوَى مِنْ حُبِّ مَيَّةٍ يَدْرَحُ
وفيه إشكالٌ ننحوى ليس هذا موضعه .

فصل

وأما الداءُ الْمُخَامِرُ فهو من أوصافه وُسْمَى مُخَامِرًا لِمُخَالَطَتِهِ الْقَلْبَ وَالرُّوحَ
يقال خامره ، قال الجوهري : والمُخَامِرَةُ الْمُخَالَطَةُ ، وخامر الرجل الممكان إذا
لزمه . وقد يكون أَخِيذًا من قولهم : استخمر فلانٌ فلانًا إذا استعبده ، وكان
العشق داءً مُسْتَعِيدًا لِلْعَاشِقِ ، ومنه حديث مُعَاذٍ : مَنِ اسْتَخْمَرَ قَوْمًا (١) ، أَيْ
أَخَذَهُمْ قَهْرًا وَتَمَلَّكَ عَلَيْهِمْ ، فَالْحُبُّ دَاءٌ مُخَالَطٌ مُسْتَعِيدٌ .

فصل

وأما الْوَدُّ فهو خالصُ الحبِّ وَأَلْطَفُهُ وَأَرْثُهُ ، وهو من الحبِّ بِنَزْلَةِ
الرَّأْفَةِ مِنَ الرَّحْمَةِ ، قال الجوهري : وَدِدْتُ الرَّجُلَ أَوْدُهُ وَدًّا إِذَا أَحْبَبْتَهُ . وَالْوَدُّ
وَالْوَدَّ وَالْوَدَّةُ ، تقول : بَوَدَّيْ أَنْ يَكُونَ كَذَا ، وَأَمَا قَوْلُ الشَّاعِرِ :
أَيُّهَا الْعَائِدُ الْمُسَائِلُ عَنَا وَبَوَدَّيْكَ أَنْ تَرَى أَكْفَانِي
فإنما أشبع كسرة الدالِ لِيَسْتَتِمَ لَهُ الْبَيْتُ فَصَارَتْ يَاءٌ . وَالْوَدُّ الْوَدِيدُ بِمَعْنَى
الْمُودِدِ وَالْجَمْعُ أَوْدٌ مِثْلُ قِدْحٍ وَأَقْدَحٌ وَذُبٌّ وَأَذُوبٌ ، وَهَاتِنُوَادَانُ وَهْمٌ أَوْدَاءٌ ،
وَالْوَدُّدُ الْحُبُّ ، وَرَجَالٌ وَدَدَاءُ يَسْتَوِي فِيهِ الْمَذْكَرُ وَالْمُؤَنَّثُ لِسُكُونِهِ وَصَفًا
(١) ذكر الزمخشري فى الزقاق هذا الحديث وابن الأثير فى النهاية وغيرهما
من أصحاب اللغة .

داخلا عَلَى وصف للمبالغة . قلت : الْوَدُود من صفات الله سبحانه وتعالى أصله من الْوَدَّة ، واخْتُلِفَ فيه عَلَى قَوْلَيْن : فقيل : هو وَدُودٌ بمعنى وادٍّ كَضَرْوْبٍ بمعنى ضارب وقَتُولٍ بمعنى قاتلٍ ونُؤُومٍ بمعنى نائم ، ويشهد لهذا الْقَوْلُ أَنْ فَعُولاً في صفات الله سبحانه وتعالى فاعلٌ كغفور بمعنى غافر ، وشكورٍ بمعنى شاكر ، وصبورٍ بمعنى صابر ، وقيل : بل هو بمعنى مَوْدُود وهو الحبيب ، وبذلك فسرهُ البخارى في صحيحه ، فقال : الْوَدُود الحبيب ، والأول أظهر لاقتراحه بالغفور في قوله : (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)^(١) وبالرحيم في قوله : (إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ)^(٢) وفيه سرٌّ لطيف وهو أنه يجب التوايين وأنه يجب عبده بعد المغفرة فيغفر له ويحبّه كما قال : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَائِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)^(٣) فالتائب حبيب الله ، فالود أصنى الحب والطفه .

فصل

وأما الخِلاَّة فتوحيد المحبة ، فالخليل هو الذى توحد حبه المحبوبة ، وهى رتبة لا تقبل المشاركة ، ولهذا اختص بها فى العالم الخليلان إبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، كما قال الله تعالى : (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا)^(١) وصحَّ عن النبىِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا »^(٥) وفى الصحيح^(٦) عنه صلى الله عليه وسلم : « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا . وَلَكِنْ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ » ، وفى الصحيح أيضاً : « إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى كُلِّ خَلِيلٍ

-
- (١) الآية ١٤ . سورة البروج . (٢) الآية ٩٠ . سورة هود .
 (٣) الآية ٣٢٢ . سورة البقرة . (٤) الآية ١٢٤ . سورة النساء .
 (٥) رواه ابن ماجه والبيهقى وغيرهما . كما قال السيوطى .
 (٦) فى الصحيحين وغيرهما بالفاظ متقاربة . وسيأتى قريباً .

مِنْ خُلَّتِهِ»^(١). ولما كانت اُنْخُلَّةَ مرتبة لا تقبل المشاركة امتحن الله سبحانه ابراهيم الخليل بذبح ولده لما أخذ شعبةً من قلبه ، فأراد سبحانه أن يخلص تلك الشعبة له ولا تكون لغيره ، فامتنحه بذبح ولده ، والمراد ذبحة من قلبه ، لا ذبحه بالمذبة ، فلما أسلم لأمر الله وقدم بحبة الله تعالى على بحبة الولد ، خُلف مقام اُنْخُلَّةَ وفدى الولد بالذبح .

وقيل : إنما سُمِّيت خُلَّةً لتخلل الحبة جميع أجزاء الروح ، قال :
قد تخللت مسلك الروح منى وبذا سمي الخليل خليلاً
واُنْخُلَّةُ الخليل يسترى فيه الذكر والمؤنث لأنه في الأصل مصدر قولك
خليلٌ بينُ اُنْخُلَّةً واُنْخُلُولَةً ، قال^(٢) :

ألا أباغنا خلتي جابراً بأن خليلك لم يُقتل
ويجمع على خِلَالٍ مثل قُتَاةٍ وقِلَالٍ . واُنْخِلُّ الودَّ والصديق ، واُنْخِلَالٌ
أيضاً مصدر بمعنى المُنْخُلَّةِ ، ومنه قوله تعالى : (لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)^(٣) ،
وقال في الآية الأخرى : (لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ)^(٤) ، قال امرؤ القيس :
* ولست بمقتلي اُنْخِلَالٍ ولا قالي *^(٥)

واُنْخِلِيلُ الصديق والأنثى خَلِيلَةٌ ، واُنْخِلَالَةٌ واُنْخِلَالَةٌ بكسر الخاء
وفتحها وضمها : الصداقة والمودة . قال^(٦) :

وكيف توأصل من أصبحت خِلَالَتُهُ كَأبي مَرْحَبٍ^(٧)

(١) رواه مسلم بلفظ آخر . (٢) هو أوفى بن مطر المازني .
(٣) الآية ٣١ . سورة ابراهيم . (٤) الآية ٢٥٤ . سورة البقرة .
(٥) صدر البيت : صرفت الهوى عنهن من خشية الردى . ولست . . .
كما قال ياقوت . (٦) هو الذابنة الجمعدى . كما قال ياقوت .
(٧) في السحاح : وأبو مرحب كنية النخل ، ويقال هو كنية عرقب الذى قيل
فيه : مواعيد عرقب .

وقد ظن بعض من لاعلم عنده أن الحبيب أفضل من الخليل ، وقال : لمحمد حبيب الله وإبراهيم خليل الله ، وهذا باطل من وجوه كثيرة ، منها : إن الأنلة خاصة والحجة عامة فإن الله يحب التوايين ويحب المتطهرين ، وقال في عباده المؤمنين : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) ^(١) ، ومنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم نبي أن يكون له من أهل الأرض خليل ، وأخبر أن أحب النساء إليه عائشة ومن الرجال أبوها ^(٢) ، ومنها : أنه قال : « إِنْ اللَّهُ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا » ^(٣) . ومنها أنه قال : « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنْ أَخُوهُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ » ^(٤) .

فصل

وأما الخِلْمُ فهو مأخوذ من الخَلَالَةِ وهي المصادقة والمودة ، والخِلْمُ الصديق ، والأخلام الأصحاب ، قال السكيت :

إذا ابتسر الحرب أخلامها كشافاً وهيبت الأفعل ^(٥)

فصل

وأما الغرام فهو الحبُّ اللازم ، يقال : رجلٌ مُغرَمٌ بالحبِّ ، أى قد لزمه الحب وأصل المادة من اللزوم ، ومنه قولهم رجلٌ مُغرَمٌ من الغرم أو الدين ، قال في الصحاح والغرام الولوع ، وقد أُغْرِمَ بالشئ ، أى أولع به ، والغريم

(١) الآية ٥٧ . سورة المائدة .

(٢) رواه البخارى ومسلم وسيأتى فى الباب الرابع عشر .

(٣) تقدم تخريجهما فى صفحة ٤٦ .

(٤) فى اللسان : وأبتسر الفخل الناقة ضربها قبل النبعة وهى شدة الشهوة .

وفى السكشاف أن تلقح الناقة فى غير زمان لقاحها ، ويقال ذلك فى الحرب على المثل .

الذى عليه الدين ، يقال : خذ من غريم السوء ماسنح ، ويكون الغريم أيضاً الذى له الدين ، قال كثير عزة :

قضى كل ذى دين قوتى غريمه وعزة تطول معى غريمها
ومن المادة قوله تعالى فى جهنم : (إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا)^(١) والغرام :
الشتر الدائم اللازم والعذاب ، قال بشر^(٢) :
ويوم النّسار ويوم الجفّار رِكانا عذاباً وكلنا غراماً^(٣)
وقال الأعشى :

إن يعاقب يكن غراماً وإن يُعف طرّ جزيراً فإنه لا يبالي
وقال أبو عبيدة : (إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا)^(٤) كُن هلاكاً ولزماً لهم .
واللطف المحبة عندهم واستعذابهم لها لم يكادوا يطلقون عليها لفظ انْغرام وإن
لهجّ به للتأخرون .

فصل

وأما الهيام قال فى الصحاح : هام على وجه يهيم هيماً وهيماً ذهب من
العشق أو غيره ، وقلب مستهام ، أى هائم ، والهيام بالضم : أشد العطش
والهيام كالجنون من العشق ، والهيام : داء يأخذ الإبل قهيم لاترعى ، يقال : ناقة
هيماء قال : والهيام بالكسر : الإبل العطاش الواحد هيمان ، وناقة هيمى

(١) الآية ٦٥ . سورة الفرقان .

(٢) وكذلك هو فى الصحاح . أما فى اللسان فقد نسب للطماع .

(٣) النّسار : ماء لبني عامر ، ومنه يوم النّسار . والجفّار : ماء لبني تميم
بهجد ومنه يوم الجفّار .

(٤) الآية ٦٥ . سورة الفرقان .

مثل عطشان وعطشى ، وقوم هيم ، أى عطاش ، وقد هاموا هياماً ، وقوله تعالى : (فَتَّارِبُونَ يُنْزِبَ الْعَيْمُ)^(١) هى الإبل العطاش . قلت : جمع أنهم هيم مثل أحمر وحر وهو جمع فعلاء أيضاً كصفراء وصفراء^(٢) .

فصل

وأما التذليله فى الصحاح : التذليله ذهاب العقل من الهوى ، يقال : ذلّه الحب ، أى حيره وأدهشه ، وذله هو يذله قال أبو زيد : الذلوه : الناقة لا تكاد تحن إلى ألف ولا ولد ، وقد ذلته عن إلفها وعن ولدها تذله ذلها .

فصل

وأما الوله فقال فى الصحاح : الوله : ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد ، ورجل واله وامرأة واله واله . قال الأعشى :
فَأَقْبَلْتُ وَالْمَا تَكَلَّى عَلَى عَجَلٍ كُلُّ دَهَاها وَكُلُّ عِنْدَهَا اجْتَمَعَا
وقد وله يوله ولما ولما وولمنا وتوله واتله وهو افتعل أدغم .
قال الشاعر^(٣) :

وَاتَّـلَهُ الْغَيُّورُ

وَالْقَوْلِيهِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ الْأُمِّ وَلِئِذَا ، وفى الحديث : « لَا تَوَلَّهِ وَالِدُهُ »

(١) الآية ٥٥ . سورة الواقعة .

(٢) فى اللسان : جمع على فعل ثم خفف وكسرت الهاء لأجل الياء ، ومن العرب من يقول : هائم والآنبي هائم ثم يجمونه على هيم .

(٣) هو مليح الهذلى ، والبيت فى اللسان :

لِإِنَّا مَا حَالَ دُونَ كَلَامِ سَعْدَى تَنَاقَى الدَّارِ وَاتَّـلَهُ الْغَيُّورُ

يُولَدَهَا»^(١) ، أى لا يُجْمَلُ والماء وذلك فى السبَايا . وناقَةُ والِه: إذا اشتدَّ
وَجَدُّهَا عَلَى ولدها . والمِلَالَةُ التى من عاداتها أن يشتدَّ وَجْدُهَا على ولدها صارت
الواو ياء لكسرة ما قبلها . وماء مَوْلَهُ ومَوْلَتَهُ أرسل فى الصحراء فذهب ،
وقول رؤُوبَة :

بِه تَمَطَّتْ غَوَلٌ كُلِّ مِيلَةٍ بنا حَرَاجِيجُ الْمَهَارَى الثَّفَةِ^(٢)
أراد البلاد التى تَوَلَّه الإنسان ، أى تحيِّره .

فصل

وأما التَّعَبُّ فهو غاية الحب وغاية الذل ، يقال . عبده الحبُّ ، أى ذلّه .
وطريقٌ مُعَبَّدٌ بالأقدام ، أى مُذَلَّلٌ ، وكذلك الحب قد ذلَّه الحب ووطَّأه ،
ولا تصَّاح هذه المرتبة لأحد غير الله عز وجل ، ولا يغفر الله سبحانه لمن أشرك
به فى عبادته ، ويغفر ما دون ذلك لمن شاء . فحجة العبودية هى أشرف أنواع
الحبة ، وهى خالص حق الله على عباده ، وفى الصحيح عن مُعَاذٍ أَنه قال : كنت
سائراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يَا مُعَاذُ ، قُلْتُ : كَيْفَ يَكُونُ يَارَسُولَ اللَّهِ
وَسَعْدَيْكَ ، قال : ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قال : يَا مُعَاذُ ، قُلْتُ : كَيْفَ يَكُونُ يَارَسُولَ اللَّهِ
وَسَعْدَيْكَ ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً فَقَالَ : يَا مُعَاذُ ، قُلْتُ : كَيْفَ يَكُونُ يَارَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ،
قال : أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قال :
حَقُّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ لَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا

(١) رواه البيهقى فى السنن . كما قال السيرطى .

(٢) تَمَطَّتْ : أى سارت سيراً طويلاً . والغزل : بعد المفاضة . والحراجيج جمع حرجوج وهى الناقة الملويلة على وجه الأرض . والمهاري : الإبل المنسوبة إلى مهرة بن حيدان . والثفة : السكالة والذليلة .

فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم بالنار^(١) . وقد ذكر الله سبحانه رسوله بالعبودية في أشرف مقاماته ، وهى مقام التحدى ، ومقام الإسراء ، ومقام الدعوة ، فقال فى التحدى : (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ)^(٢) ، وقال فى مقام الإسراء : (سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)^(٣) ، وقال فى مقام الدعوة : (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ)^(٤) . وإذا تدافع أولو العزم الشفاعة الكبرى يوم القيامة يقول المسيح لهم : اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فقال ذلك المقام بكمال العبودية لله وكمال مغفرة الله له ، فأشرف صفات العبد صفة العبودية ، وأحب أسمائه إلى الله اسم العبودية ، كاثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَامٌ ، وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّةٌ »^(٥) . وإنما كان حارث وهام أصدقها لأن كل أحد لا بد له من هم وإرادة وعزم ينشأ عنه حرثه وفعله ، وكلُّ أحدٍ حارثٌ وهام ، وإنما كان أقبحها حربٌ ومُرَّةٌ لما فى مسمى هذين الأسمين من الكراهة ونفور العقل عنهما وبالله التوفيق .

(١) رواه الشيخان والإمام أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبان كما قال السيوطى .

(٢) الآية ٢٣ . سورة البقرة (٢) أول سورة الإسراء .

(٣) الآية ١٩ . سورة الجن .

(٤) فى تيسير الوصول للشيخاني : أخرجه أبو داود واللفظ له وللنسائي مختصراً

كما روى النسائي الأول منه مسلم والترمذى وابن ماجه وغيرهم .

الباب الثالث

في نسبة هذه الأسماء بعضها إلى بعض هل هي بالترادف أو التباين

فالأسماء الدالة على مسمى واحد نوعان : أحدهما أن يدلّ عليه باعتبار الذات فقط ، فهذا النوع هو المترادفُ ترادفاً محضاً ، وهذا كالحنطة والقمح والبرّ والأسم والكنية والألقاب إذا لم يكن فيه مدح ولا ذمّ وإنما أتى به لجرد التعريف ، والنوع الثاني أن يدلّ على ذاتٍ واحدة باعتبار تباين صفاتها كأسماء الرب تعالى ، وأسماء كلامه ، وأسماء نبية ، وأسماء اليوم الآخر ، فهذا النوع مترادفٌ بالنسبة إلى الذات ، متباينٌ بالنسبة إلى الصفات ، فالرب والرحمن والعزیز والقدير والمَلِكُ يدلّ على ذاتٍ واحدةٍ باعتبار صفاتٍ متعددة ، وكذلك البشير والنذير والحاشر والعاقب والمآخى ، وكذلك يوم القيامة ويوم البعث ويوم الجمع ويوم التغابن ويوم الآزفة ونحوها ، وكذلك القرآن والفرقان والكتاب والهدى ونحوها ، وكذلك أسماء السيف فإن تعددها بحسب أوصاف وإضافات مختلفة ، كالمهند والعصّب والصّارم ونحوها ، وقد عرفت تباين الأوصاف في أسماء الحجة ، وقد أنكر كثير من الناس الترادف في اللغة ، وكانهم أرادوا هذا المعنى ، وأنه ما من إسمين لمسمى واحدٍ إلا وبينهما فرقٌ في صفةٍ أو نسبةٍ أو إضافة ، سواء علمت لنا أو لم تُعلم ، وهذا الذي قالوه صحيحٌ باعتبار الواضع الواحد ، ولكن قد يقعُ الترادفُ باعتبار واضعين مختلفين يسمى أحدهما المسمى باسم ، ويسميه الواضع الآخر باسم غيره ، ويشتهر الوضعان عند القبيلة الواحدة ، وهذا كثير ومن ههنا يقع الاشتراك أيضاً ، فالأصل في اللغة هو التباين وهو أكثر اللغة والله أعلم .

الباب الرابع

في أنه العالم العلوي والسفلي إنما وجب بالجنة ولأجلها وأنه مركبات الأفعوك
والشمس والقمر والنجوم ومركبات الأرض كنه والحيوانات
ومركبة كل منحرك إنما وجدت بسبب الحب .

وهذا باب شريف من أشرف أبواب الكتاب ، وقبل تقريره لابد من
بيان مقدمة وهي أن الحركات ثلاث : حركة إرادية ، وحركة طبيعية ، وحركة
قسرية ، وبيان الحصر أن مبدأ الحركة إما أن يكون من المتحرك أو من غيره ،
فإن كان من المتحرك فإما أن يقارنها شعوره وعلمه بها أولاً ، فإن قارنها الشعور
والعلم فهي الإرادية ، وإن لم يقارنها الشعور والعلم فهي الطبيعية ، وإن كانت من
غيره فهي القسرية ، وإن شئت أن تقول للمتحرك إما أن يتحرك بإرادته أولاً ،
فإن تحرك بإرادته فحركته إرادية ، وإن تحرك بغير إرادته فإما أن تكون حركته
إلى نحو مركزه أولاً ، فإن تحرك إلى جهة مركزه فحركته طبيعية ، وإن تحرك
إلى غير جهة مركزه فحركته قسرية ، إذا ثبت هذا فالحركة الإرادية تابعة لإرادة
المتحرك ، والمراد إما أن يكون مراداً لنفسه أو لغيره ، ولا بد أن ينتهي المراد
لغيره إلى مراد نفسه دفعا للدور والتسلسل . والإرادة إما أن تكون جلب منفعة
ولذة إما للمتحرك وإما لغيره ، أو دفع ألم ومضرة إما عن المتحرك أو عن غيره ،
والعاقل لا يجلب لغيره منفعة ولا يدفع عنه مضرة إلا لما له في ذلك من
اللذة ودفع الألم ، فصارت حركته الإرادية تابعة للجنة ، بل هذا حكم كل حي
متحرك . وأما الحركة الطبيعية فهي حركة الشيء إلى مستقره ومركزه ، وتلك
تابعة للحركة التي اقتضت خروجها عن مركزه ، وهي القسرية التي إنما تكون
بقسر قاسر أخرجه عن مركزه إما باختياره كحركة الحجر إلى أسفل إذا رمى به

إلى جهة فوق ، وإما بغير اختيار يُحرَّكه كتحريك الرياح للأجسام إلى جهة معاًبها ، وهذه الحركة تابعة للقاسر ، وحركة القاسر ليست منه بل مبدؤها من غيره ، فإن الملائكة موكَّلةٌ بالعالم العلوى والسفلى تدبره بأمر الله عز وجل كما قال الله تعالى : (فَأَلْمَدَبَرَاتِ أُمْرًا)^(١) وقال : (فَأَلْمُقَسَّمَاتِ أُمْرًا)^(٢) وقال تعالى : (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ، فَأَلْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ، وَالنَّازِرَاتِ نَشْرًا ، فَأَلْمُفَارِقَاتِ فَرْقًا ، فَأَلْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا)^(٣) وقال : (وَالنَّازِعَاتِ غُرْقًا . وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ، وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ، فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ، فَأَلْمُدَبَّرَاتِ أُمْرًا)^(٤) وقد وكل الله سبحانه بالأفلاك والشمس والقمر ملائكةً تحرَّكها ، ووكل بالرياح ملائكةً تصرِّفها بأمره وهم خزنتها ، قال الله تعالى : (وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا يُرِيحُ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)^(٥) وقال غير واحد من السلف : عتت على الأنزان فلم يقدروا على ضبطها (ذكره البخارى فى صحيحه) ووكل بالقطار ملائكةً ، وبالسحاب ملائكةً تسوقه إلى حيث أمرت به ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَفْلَاحُ مِنَ الْأَرْضِ إِذْ سَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ يَقُولُ : اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ فَمَتَّبَعَ السَّحَابَةَ حَتَّى انْتَهَتْ إِلَى حَدِيقَةٍ فَأَفْرَغَتْ مَاءَهَا فِيهَا ، فَنَظَرَ فَإِذَا رَجُلٌ فِي الْحَدِيقَةِ يُحْمِلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاةٍ ، فَقَالَ لَهُ : مَا اسْمُكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ فُلَانُ الْإِسْمُ الَّذِى سَمِعَهُ فِي السَّحَابَةِ ، فَقَالَ : إِنِّى سَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ فِي هَذِهِ السَّحَابَةِ : اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ ، فَمَا تَصْنَعُ فِي هَذِهِ الْحَدِيقَةِ ؟ فَقَالَ . إِنِّى أَنْظَرُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَجْعَلُهُ ثَلَاثَةَ أَثْلَاثٍ :

(١) الآية ٥ . سورة النازعات . (٢) الآية ٤ . سورة الذاريات .

(٣) أوائل سورة المرسلات . (٤) أوائل سورة النازعات .

(٥) الآية ٦ . سورة الحاقة .

جُئْتُ أَتَصَدَّقُ بِهِ ، وَتُكْتُ أَنْفَتَهُ عَلَى عِيَالِي ، وَتُكْتُ أَرُدُّهُ فِيهَا ^(١) . ووَكَّلَ الله سبحانه بالجبال ملائكة ، وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه جاءه ملك الجبال يسلم عليه ويستأذنه في هلاك قومه إن أحب ، فقال : « بَلْ أَسْتَأْذِنِي لَمْ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ لَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ^(٢) » ووَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكَ يَقُولُ : يَارَبَّ نَظْفَةَ ؟ يَارَبَّ عِلْقَةَ ؟ يَارَبَّ مَضْغَةَ ؟ يَارَبَّ ذَكَرًا ؟ أَمْ أُنْثَى ؟ فَمَا الرِّزْقُ ؟ فَمَا الْأَجَلُ ؟ وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ؟ ووَكَّلَ بِكُلِّ عَبْدٍ لِرَبِّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا : حَافِظَانِ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ يَكْتُبَانِ أَعْمَالَهُ ، وَمُقَبَّلَاتٍ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ أَقْلَهُمُ اثْنَانِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ^(٣) ، ووَكَّلَ بِالْمَوْتِ مَلَائِكَةٌ ، ووَكَّلَ بِمَسَاءِلَةِ الْمَوْتِ مَلَائِكَةٌ فِي الْقُبُورِ ، ووَكَّلَ بِالرَّحْمَةِ مَلَائِكَةٌ ، وبالعذاب مَلَائِكَةٌ ، وبالمؤمن مَلَائِكَةٌ يَثْبُتُونَهُ وَيُؤَرِّثُونَهُ ^(٤) إِلَى الطَّاعَاتِ أَزَا ، ووَكَّلَ بِالنَّارِ مَلَائِكَةٌ يَبْنُونَهَا وَيُوقِدُونَهَا ، وَيَصْنَعُونَ أَغْلَاطَهَا وَسُلَاسَهَا وَيُقِيمُونَ بِأَمْرِهَا ، ووَكَّلَ بِالْجَنَّةِ مَلَائِكَةٌ يَبْنُونَهَا وَيَفْرَشُونَهَا ، وَيَصْنَعُونَ أَرَائِكَهَا وَسُرُرَهَا وَمَحَافَهَا وَنَمَارِقَهَا وَزَرَائِبَهَا ^(٥) ، فَأَمَرَ الْعَالَمَ الْعُلُوِّ وَالسُّفْلَى وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ بِتَدْيِيرِ الْمَلَائِكَةِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَأَمْرُهُ ، (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) ^(٦) و (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ

(١) أخرجه مسلم مطولا .

(٢) في كتاب الشفاء . بل أرجو ، وقال شارحه الخفاجي : هذا الحديث رواه الشيخان وأصحاب الكتب الستة .

(٣) من أمر الله : بأمر الله وإذنه كما جاء في تفسير الخازن .

(٤) يؤزونه : يفرغونه .

(٥) الأرائك : الأسرة المنجدة المزينة . والصحاف : آية الأكل . والنمارق :

الوسائد . والزراي : البسط .

(٦) الآية ٢٧ . سورة الأنبياء .

وَيَفْعُلُونَ مَا يُمْرُونَ^(١) . فأخبر أنهم لا يعصونه في أمره ، وأنهم قادرون على تنفيذ أوامره ليس بهم عجز عنها ، بخلاف من يترك ما أمر به عجزاً فلا يعصى الله ما أمره ، وإن لم يفعل ما أمر به ، وكذلك البحار قد وُكِّلت بها ملائكة تسجرها^(٢) وتمنعها أن تفيض على الأرض فتغرق أهلها ، وكذلك أعمال بنى آدم خيرها وشرها قد وُكِّلت بها ملائكة تحصيلها وتحفظها وتكتبها ، ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتم إلا به . وهى خمس : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر .

وإذا عُرِفَ ذلك عُرِفَ أن كل حركة في العالم فسببها الملائكة ، وحركتهم طاعة الله بأمره وإرادته ، فيرجع الأمر كله إلى تنفيذ مراد الرب تعالى شرعاً وقدرًا ، والملائكة هم المنفذون ذلك بأمره ، ولذلك سُمُّوا ملائكة من الألوكة وهى الرسالة ، فهم رسل الله في تنفيذ أوامره .

والمقصود أن حركات الأفلاك وما حوته تابعة للحركة الإرادية المستلزمة للحجة ، فالحجة والإرادة أصل كل فعل ومبداء ، فلا يكون الفعل إلا عن حجة وإرادة ، حتى دفعه للأمور التى يينغضها ويكرهها ، فإنما يدفعها بإرادته ومحبه لأضدادها واللذة التى يمدّها بالدفع كما يقال : شفى غيظه ، وشفى صدره ، والشفاء والعافية يكون للمحبوب وإن كان كرهها ، مثل شرب الدواء الذى يُدفع به ألم المرض ، فإنه وإن كان مكروهاً من وجه فهو محبوب لما فيه من زوال المكروه وحصول المحبوب ، وكذلك فعل الأشياء الخالفة للهوى ، فإنها وإن كانت مكروهة فإنما تُفعل لحجة وإرادة ، وإن لم تكن محبوبة لنفسها فإنها

(١) الآية ٦ . سورة التحريم .

(٢) تسجرها : تملأها . قال الله تعالى : (والبحر المسجور) .

مستلزمةٌ للمحسوب لنفسه . فلا يترك الحق ما يُحبه ويهواه ، إلا لما يُحبه ويهواه ، ولكن يترك أضعفهما محبةً لأقواهما محبةً ، ولذلك كانت المحبة والإرادة أصلاً للبغيض والكراهة ، فإن البغيض المكروه ينافي وجودَ المحبوب ، والفعل إما أن يتناول وجودَ المحبوب أو دفعَ المكروه المستلزم لوجود المحبوب ، فعاد الفعل كله إلى وجود المحبوب .

والحركة الاختيارية أصلها الإرادة ، والقسرية والطبيعية تانفتان لها ، فعاد الأمر إلى الحركة الإرادية ، فجميع حركات العالم العلوى والسفلى تابعة للإرادة والمحبة ، وبها تحرك العالم ولأجلها ، فهي العلة الفاعلية والغائية ، بل هي التي بها ولأجلها وجد العالم ، فما تحرك في العالم العلوى والسفلى حركةٌ إلا والإرادة والمحبة سببها وغايتها ، بل حقيقة المحبة حركة نفس الحب إلى محبوبه ، فالمحبة حركةٌ بلا سكون . وكالُ المحبة هو العبودية ، والذل ، والخضوع ، والطاعة للمحسوب ، وهو الحق الذى به وله خُلقت السموات والأرض والدينى والآخرة ، قال تعالى : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)^(١) وقال الله تعالى : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا)^(٢) وقال تعالى : (أَحْسِبْتُمْ أَنَّنا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)^(٣) .

والحق الذى خُلِق به ولأجله انخلق هو عبادة الله وحده التى هي كمال محبته والخضوع والذل له ، ولوازم عبوديته من الأمر والنهى والثواب والعقاب ، ولأجل ذلك أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وخلق الجنة والنار . والسموات والأرض إنما قامت بالعدل الذى هو صراط الله الذى هو عليه وهو أحبُّ

(١) الآية ٨٥ . سورة الحجر . (٢) الآية ٢٧ . سورة ص .

(٣) الآية ١١٦ . سورة المؤمنون .

الأشياء إلى الله تعالى قال الله تعالى حاكياً عن نبيه شعيب عليه السلام :
 (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا
 إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)^(١) فهو على صراطٍ مستقيم في شرعه وقدره ، وهو
 العدل الذي به ظهر الخلق والأمر والثواب والعقاب ، وهو الحق الذي به وله
 خلقت السموات والأرض وما بينهما ، ولهذا قال المؤمنون في عبادتهم : (رَبَّنَا
 مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ)^(٢) فز هو اربهم سبحانه أن يكون خلق
 السموات عبثاً لغر حكمة ولا غاية محمودة ، وهو سبحانه يُحمد لهذه الغايات
 الحمودة كما يُحمد لذاته وأوصافه ، فالغايات الحمودة في أفعاله هي الحكمة التي
 يحبها ويرضاها ، وخلق ما يكره لاستلزامه ما يحبه وترتيب المحبوب له عليه ،
 ولذلك يترك سبحانه فعل بعض ما يحبه لما يترتب عليه من فوات محبوب له
 أعظم منه ، أو حصول مكرره أكره إليه من ذلك المحبوب ، وهذا كما ثبت
 قلوب أعدائه عن الإيمان به وطاعته ، لأنه يكره طاعتهم ويفوت بها ما هو
 أحب إليه منها من جهادهم وما يترتب عليه من الموالاة فيه والمعاداة ، وبذل
 أوليائه نفوسهم فيه ، وإيثار محبته ورضاه على نفوسهم ، ولأجل هذا خلق
 الموت والحياة وجعل ما على الأرض زينة لها ، قال تعالى : (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ
 وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)^(٣) . وقال : (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى
 الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)^(٤) .

(١) الآية ٥٦ . سورة هود .

(٢) الآية ١٩١ . سورة آل عمران .

(٣) الآية ٢ . سورة الملك .

(٤) الآية ٧ . سورة الكهف .

وقال تعالى : (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِنَبِّئُكُمْ أَيْسَرُ أَحْسَنُ عَمَلًا)^(١) فأنخبر سبحانه عن
خلق العالم والموت والحياة وتزيين الأرض بما عليها أنه للابتلاء والامتحان
ليختبر خلقه أيهم أحسن عملاً ، فيكون عمله موافقاً لحابُّ الرب تعالى ، فيوافق
الغاية التي خلق هو لها وخلق لأجلها العالم ، وهي عبوديته المتضمنة لمحبة وطلاعته ،
وهي العملُ الأحسنُ وهو مَوَاقِعُ محبته ورضاه ، وقدَّر سبحانه مقاديرَ تخالفها
بمحكمته في تقديرها ، وامتنحن خلقه بين أسره وقدَّره ليلوهم أيهم أحسنُ عملاً .
فانقسم الخلق في هذا الابتلاء فريقين : فريقاً داروا مع أسره ومحابَّه ،
ووقفوا حيث وقف بهم الأمر ، وتحرَّكوا حيث حرَّكهم الأمر ، واستعملوا
الأمر في القَدَر ، وركبوا سفينةَ الأمر في بحر القَدَر ، وحسَّكوا الأمر
على القَدَر ، ونازعوا القَدَر بالقَدَر امتثالاً لأسره واتباعاً لرضائه ، فهؤلاء
هم الناجون .

والفريق الثاني عارضوا بين الأمر والقَدَر ، وبين ما يحبه ويرضاه ، وبين
ما قدَّره وقضاه ، ثم افترقوا أربعَ فِرَاقٍ :
فرقةٌ كذَّبت بالقَدَر بحافَظَةٍ على الأمر ، فأبطلت الأمر من حيث حافظت
على القَدَر ، فإن الإيمان بالقَدَر أصل الإيمان بالأمر ، وهو نظام التوحيد ، فمن
كذَّب بالقَدَر نقَضَ تكذيبه إيمانه ،

وفرقةٌ رَدَّت الأمر بالقَدَر وهؤلاء من أكَفَرَ الخلق ، وهم الذين حكى الله
قولهم في القرآن إذ قالوا : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ تَأْثَرْنَا وَلَا أَبَاؤُنَا وَلَا حَرَمُنَا

(١) الآية ٧ . سورة هود .

(١) . وقالوا أيضاً : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ) (٣) . وقالوا أيضاً : (لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاكُمْ) (٤) . وقالوا أيضاً : (أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ) (٥) . فجعلهم الله سبحانه وتعالى بذلك مكذِّبين خارقين ليس لهم علم ، وأخبر أنهم في ضلال مبين .

وفرقته دارت مع القَدَر ، فسارت بسيره ، ونزلت بنزوله ، ودانت به ، ولم تبالِ وافقَ الأمرَ أو خالفه ، بل دينها القَدَر ، فالحلالُ ما حلَّ بيدها قَدَرًا ، والحرامُ ما حرَّمته قَدَرًا ، وهم مع من غلبَ قَدَرًا من مسلمٍ أو كافرٍ ، برًّا كان أو فاجرًا ، وخواصُّ هؤلاء وعبادهم لما شهدوا الحقيقة الكونية القَدَرية صـاروا مع الكفار المسلطين بالقَدَر ، وهم خُفَراؤهم ، فهؤلاء أيضاً كفار .

وفرقته وقفت مع القَدَر مع اعترافها بأنه خلافُ الأمر ، ولم تدن به ولكنها استرسلت معه ، ولم تُحكِّم عليه الأمر وتجيزت عن دفع القَدَر بالقَدَر اتباعاً للأمر ، فهؤلاء مفرطون ، وهم بين عاجزٍ وعاصٍ لله ، وهؤلاء الفرقى كلهم مؤتمنون بشيخهم إبليس ، فإنه أولُ من قدم القَدَر على الأمر وعارضه به ، وقال : (رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) (٥) وقال : (قَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) (٦) فردَّ أمر الله بقَدَره ، واحتجَّ على ربه بالقَدَر . وانقسم أتباعه أربعَ فرق كما رأيت ، فإبليس

-
- (١) الآية ١٤٨ . سورة الأنعام (٢) الآية ٣٥ . سورة النحل .
 (٣) الآية ٢٠ . سورة الزخرف (٤) الآية ٤٧ . سورة يس .
 (٥) الآية ٣٩ . سورة الحجر (٦) الآية ١٥ . سورة الأعراف .

وجنوده أرسلوا بالقدر إرسالاً كونياً . فالقدر دينهم . قال الله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُمُهُمْ أُزًّا)^(١) فدينهم القدر ، ومصيرهم سقر . فبعث الله الرسل بالأمر وأمرهم أن يحاربوا به أهل القدر ، وشرع لهم من أمره سنة ، وأمرهم أن يركبوا فيها هم وأتباعهم في بحر القدر ، وخمس بالنجاة من ركبها كما خص بالنجاة أصحاب السفينة ، وجعل ذلك آية للعالمين . فأصحاب الأمر حرب لأصحاب القدر حتى يرُدُّوهم إلى الأمر ، وأصحاب القدر يحاربون أصحاب الأمر حتى يخرجوهم منه ، فالرسل دينهم الأمر مع إيمانهم بالقدر وتحكيم الأمر عليه ، وإبليس وأتباعه دينهم القدر ودفع الأمر به ، فتأمل هذه المسألة في القدر والأمر وانقسام العالم فيها إلى هذه الأقسام الخمسة ، وبالله التوفيق .

فحركات العالم العلوى والسفلى وما فيها مرافقة للأمر ، إما الأمر الدينى الذى يحبه الله ويرضاه ، وإما الأمر الكونى الذى قدرة وقضاه ، وهو سبحانه لم يقدره سدئ ولا قضاء عبثاً ، بل لما فيه من الحكمة والغايات الحميدة ، وما يترتب عليه من أمور يحب غايتها وإن كره أسبابها ومبادئها ، فإنه سبحانه وتعالى يحب المغفرة وإن كره معاصى عباده ، ويحب السر وإن كره ما يستتر عبده عليه ، ويحب العتق وإن كره السبب الذى يعتق عليه من النار ، ويحب العفو كما فى الحديث : « أَللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَأَعْفُ عَنِّي »^(٢) وإن كره ما يعفو عنه من الأوزار ، ويحب الثوابين وتوبتهم وإن كره معاصيهم

(١) الآية ٨٤ . سورة مريم .

(٢) روى بالاسانيد الصحيحة فى كتب الترمذى والنسائى وابن ماجه وغيرهما

كما جاء فى الأذكار للنورى

التي يتوبون إليه منها ، ويجب الجهاد وأهله بل هم أحب خلقه إليه وإن كره
أفعال من يجاهدونه ، وهذا باب واسع قد فُتِح لك فادخل منه يُطالعك على
رياض من المعرفة مُوقَّعة مات من فاته بحسرتها ، وبالله التوفيق .

وهذا موضع يضيق عنه عدَّة أسفار واللييب يدخل إليه من بابه ، ومسرُّ
هذا الباب أنه سبحانه كامل في أسمائه وصفاته ، فله الكمال المطلق من جميع
الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه ما ، وهو يحب أسمائه وصفاته ، ويجب ظهور
آثارها في خلقه ، فإن ذلك من لوازم كماله ، فإنه سبحانه وتعالى يحب الوبر ،
جيل يحب الجمال ، عليم يحب العلماء ، جواد يحب الأجواد ، قوى ،
والؤمن القوى أحب إليه من المؤمن الضعيف ، حيي يحب أهل الحياء ، وفي
يحب أهل الوفاء ، شكور يحب الشاكرين ، صادق يحب الصادقين ، محسن
يحب المحسنين .

فإذا كان يحب الغفور والمغفرة والحليم والصفح والستر لم يكن بد من
تقديره للأسباب التي تظهر آثار هذه الصفات فيها ، ويستدل بها عباده على
كمال أسمائه وصفاته ، ويكون ذلك أدعى لهم إلى محبته وحده وتمجيده والثناء
عليه بما هو أهله ، فتحصل الغاية التي خلَق لها الخلق ، وإن فاتت من بعضهم
فذلك انقوات سبب لكمالها وظهورها ، فتضمن ذلك القوات المكروه له أمراً
هو أحب إليه من عدمه ، فتأمل هذا الموضع حق التأمل . وهذا نكشف
يوم القيامة للخلق بأجمعهم حين يجمعهم في صعيد واحد ، ويوصل إلى كل نفس
ما ينبغي إيصاله إليها من الخير والشر ، واللذة والألم ، حتى مثقال الذرة ،
ويوصل كل نفس إلى غايتها التي تشهد هي أنها أولى بها ، فينشد ينطق الكون

بأجمعه بحمده تبارك وتعالى قالاً وحالاً ، كما قال سبحانه وتعالى : (وَتَرَى
الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَتُخْفَى بَيْنَهُمْ
بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)^(١) ، فحذف فاعل القول لأنه غير
معين ، بل كل أحدٍ يحمده على ذلك الحكم الذى حكم فيه ، فيحمده أهل
السموات وأهل الأرض ، والأبرار والفجار ، والإنس والجن حتى أهل النار .
قال الحسن أو غيره : لقد دخلوا النار وإن حمده لنى قلوبهم ما وجدوا عليه
سبيلاً ، وهذا والله أعلم هو السر الذى حذف لأجله الفاعل فى قوله : (قِيلَ
أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا)^(٢) وقوله : (وَقِيلَ أَدْخُلَا النَّارَ
مَعَ الدَّاحِلِينَ)^(٣) كأن الكون كله نطق بذلك وقاله لهم ، والله تعالى
أعلم بالصواب .

-
- (١) الآية ٧٥ . سورة الزمر
(٢) الآية ٧٢ . سورة الزمر .
(٣) الآية ١٠ . سورة التحريم .

الباب الخامس

في دواعي المحبة ومعلقاتها

الداعي قد يُراد به الشعور الذي تتبَّعه الإرادةُ والليل ، فذلك قائمٌ بالحبِّ ، وقد يُراد به السببُ الذي لأجله وجدت المحبةُ وتعلَّقت به ، وذلك قائمٌ بالمحبوب ، ونحن نريد بالداعي مجموعَ الأمرين ، وهو ما قام بالمحبوب من الصفات التي تدعو إلى محبته ، وما قام بالحب من الشعور بها ، والموافقة التي بين الحب والمحبوب ، وهي الرابطة بينهما وتسمّى بين المخلوق والمخلوق مناسبةً وملاءمةً .

فهاهنا أمور : وصفُ المحبوب وجماله ، وشعورُ الحب به ، والمناسبةُ وهي العلاقة والملاءمة التي بين الحب والمحبوب ، فتى قويت الثلاثة وكملت ، قويت المحبة واستحكمت ، ونقصان المحبة وضعفها بحسب ضعف هذه الثلاثة أو نقصها ، فتى كان المحبوب في غاية الجمال ، وشعورُ الحب بجماله أتمَّ شعور ، والمناسبة التي بين الرّوحيين قويةٌ ، فذلك الحبُّ اللازم الدائم ، وقد يكون الجمال في نفسه ناقصاً لسكن هو في عين المحب كامل ، فتسكون قوّة محبته بحسب ذلك الجمال عنده ، فإن حُبَّكَ للشئ يُعْمى ويُصمِّم ، فلا يرى المحبُّ أحداً أحسنَ من محبوبه ، كما يُحكى أنَّ عَزَّة دخلت على الحجاج فقال لها : يا عَزَّة والله ما أنتِ كما قال فيك كثيرٌ ، فقالت : أيها الأمير إنه لم يرني بالعين التي رأيتني بها . ولا ريب أن المحبوب أحلى في عين محبه وأكبر في صدره من غيره ، وقد أفصح بهذا القائلُ في قوله^(١) :

فوالله ما أدرى أزيدت ملاحه وحُسنًا على النّسوان أم ليس لي عقلُ

(١) هو الحكم بن معمر الحضري .

وقد يكون الجمال مَوْفَرًا ولكنه ناقصُ الشعور به فتَضَعُفَ محبته لذلك ،
فلو كُشِفَ له عن حقيقته لأسر قلبه ، ولهذا أَمَرَ النساءَ بستر وجوههن عن
الرجال ، فإن ظهور الوجه يُسْفِر عن كمال المحاسن فيقع الافتتان ، ولهذا شُرِعَ
للخاطب أن ينظر إلى الخطوبة ، فإنه إذا شاهد حسنَهَا وجمالَهَا كان ذلك أدعى
إلى حصول المحبة والألفة بينهما كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم في قوله :
« إذا أَرَادَ أَحَدُكُمْ خِطْبَةَ امْرَأَةٍ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَا يَدْعُوهُ إِلَى نِكَاحِهَا فَإِنَّهُ
أَحْرَى أَنْ يُؤَدِمَ بَيْنَهُمَا » ^(١) أى يُلَاقِمُ ويوافق ويصُاحِبُ . ومنه الأدام الذى
يَصُلُحُ به الخبز ، وإذا وُجِدَ ذلك كله وانتفتتِ المناسبة والعلاقة التى بينهما لم
تستحكم المحبة ، وربما لم تقع البتة ، فإن التناسب الذى بين الأرواح من أقوى
أسباب المحبة .

* فكلُّ امرئٍ يصبو إلى من يناسبه *

وهذه المناسبة نوعان : أصلية من أصل الخلقة ، وعارضة بسبب المجاورة
أو الاشتراك فى أمرٍ من الأمور ، فإن من ناسب قصدك قصده حصل التوافقُ
بين رُوحك ورُوحه ، فإذا اختلف القصدُ زال التوافقُ ، فأما التناسبُ الأصلى
فهو اتفاق أخلاق وتشاكل أرواح وشوق كل نفس إلى مُشاكلها ، فإن شبه
الشيء ينجذب إليه بالطبع ، فتكون الروحان متشاكلتين فى أصل الخلقة ،
فتنجذب كلٌّ منهما إلى الأخرى بالطبع ، وقد يقع الانجذاب والميلُ

(١) مأخوذ من حديثين الأول رواه أبو داود ولفظه : « إذا خطب أحدكم
المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نِكَاحِهَا فَلْيَفْعَلْ ، والآخر رواه النسائي
عن المنيرة بن شعبة رضى الله تعالى عنه قال : « خطبت امرأة فى عهد رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال لى : أنظرت إليها ؟ قلت : لا قال : فانظر إليها فإنه أجد
أن يؤدم بينكما . »

بالخاصية ، وهذا لا يعلل ولا يُعرف سببه كأنجذاب الحديد إلى الحجر
المغناطيس . ولا ريب أن وقوع هذا القدر بين الأرواح أعظم من وقوعه بين
الجمادات كما قيل :

محاسنها هيولى^(١) كل حسنٍ ومغناطيسُ أفئدة الرجال
وهذا الذى سَمَّلَ بعضَ الناس على أن قال : إن العشق لا يقف على
الحسن والجمال ولا يلزم من عَدَمِهِ عَدَمُهُ ، وإنما هو تشاكل النفوس وتمازجها
في الطباع الخلوقة ، كما قيل^(٢) :

وما الحبُّ من حُسْنٍ ولا من ملاحقٍ ولكنه شئٌ به الروحُ تكلف^(٣)
قال هذا القائل : لتحقيقته أنه مرآة يُبصر فيها المحبُّ طباعه وورقته في صورة
محبوبه ، ففي الحقيقة لم يحبَّ إلا نفسه وطباعه ومشاكله .

قال بعضهم لمحبوبه : صادفتُ فيك جوهرَ نفسى ومُشاكَلتهما في كل
أحوالهما ، فانبعثت نفسى نحوك وانقادت إليك ، وإنما هوَيتُ نفسى . وهذا
صحيح من وجه ، فإن المناسبةَ غِلَّةُ الضَّمِّ شرعاً وقدرأً ، وشاهدُ هذا بالاعتبار أن
أحبَّ الأغذية إلى الحيوان ما كان أشبهَ بجوهر بدنه وأكثرَ مناسبةً له ، وكلما
قويت المناسبة بين الغاذى والغذاء كان ميلُ النفس إليه أكثرَ ، وكلما بعدت
المناسبة حصصات التفرقة عنه ، ولا ريب أن هذا قدرٌ زائدٌ على مجرد الحسن

(١) الهيولى : مادة الشيء الذى يصنع منها . وعند القدماء : مادة ليس لها
شكل ولا صورة معينة قابلة للتشكيل والتصوير ، وهى التى صنع الله تعالى منها
أجزاء العالم المادية .

(٢) هو لمحمد بن داود الظاهرى كما جاء فى ديوان الصبابة .

(٣) كلف الشيء وبه : أحبه وأولع به .

والجمال ، ولهذا كانت النفوس الشريفة الزكية العلوية تعشق صفات السكّال بالذات ، فأحبُّ شيء إليها العلم والشجاعة والعفة والجود والإحسان والصبر والنبات لمناسبة هذه الأوصاف لجوهرها ، بخلاف النفوس اللئيمة الدنية فإنها يَمَعَزِلُ عن محبة هذه الصفات ، وكثير من الناس يَحْمِلُهُ على الجود والإحسان فِرْطُ عِشْقِهِ وَمَحَبَّتِهِ لَهُ وَالذِّمَّةُ الَّتِي يَجِدُهَا فِي بَذْلِهِ ، كما قال المأمون : لَقَدْ حُبَّبَ إِلَيَّ الْعَفْوُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ لَا أُؤَجَّرَ عَلَيْهِ . وقيل للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : تَعَلَّمْتَ هَذَا الْعِلْمَ اللَّهُ ؟ فقال : أَمَا اللَّهُ فَعَزِيزٌ ، وَلَكِنْ شَيْءٌ حُبَّبَ إِلَيَّ فَعَمَلُهُ . وقال آخر : إِنِّي لَا فَرِحَ بِالْعَطَاءِ وَأَلْتَذُّ بِهِ أَكْثَرُ أَعْظَمَ مِمَّا يَفْرَحُ الْآخِذُ بِمَا يَأْخُذُهُ مِنِّي . وفي هذا قيل في مدح بعض الكرماء من أبيات :
وَتَأْخُذُهُ عِنْدَ الْمَكَارِمِ هَزْرَةٌ كَمَا أَهْتَزَّ عَبْدُ الْبَارِحِ ^(١) النُّصْنُ الرُّطْبُ
وقال شاعر الحماسة :

تراه إذا ماجتُه مَهْلًا كأنك تعطيه الذي أنت سائلُه ^(٢)

وكثير من الأجواد يعشق الجود أعظم عِشْقٍ ، فلا يصبر عنه مع حاجته إلى ما يجود به ، ولا يقبل فيه عذْلَ عَاذِلٍ ، ولا تأخذه فيه لومة لائم ، وأما عشاق العلم فأعظم شَغَفًا به وعشقًا له من كل عاشقٍ بمعشوقه ، وكثير منهم لا يَشْفَلُهُ عنه أَجَلُ صُورَةٍ مِنَ الْبَشَرِ . وقيل لامرأة الزبير بن بكار أو غيره : هَنِيئًا لَكَ إِذَا لَيْسَتْ لَكَ ضَرَّةٌ ، فقالت : والله لهذه الكتب أضرتُ على من عِدَّة ضرائر .

(١) البارح : الريح الحارة في الصيف .

(٢) البيت لزهير بن أبي سلى ، وقد ورد في شرح ديوانه (ص ١٤٢) طبعة دار الكتب المصرية . ونسب في الأغاني (ج ١٣) طبع بولاق لعبد الله ابن الزبير الأسدي .

وحدثني أخو شيخنا عبد الرحمن بن تيمية عن أبيه قال : كان الجُدُّ إذا دخل الخلاء يقول لي : اقرأ في هذا الكتاب وارفع صوتك حتى أسمع . وأعرف من أصابه مرضٌ من صُداعٍ وُحَى وكان الكتاب عند رأسه ، فإذا وَجَدَ إفاقةً قرأ فيه ، فإذا غلب وضعه ، فدخل عليه الطبيب يوماً وهو كذلك فقال : إن هذا لا يَحِلُّ لك فإنك تُعِين على نفسك وتكون سبباً لفوات مطلوبك . وحدثني شيخنا قال : ابتدأتُ مرضٌ فقال لي الطبيب : إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض ، قلت له : لا أصبر على ذلك وأنا أحاكمك إلى علمك ، أليست النفس إذا فرحت وسُرَّت قَوِيَت الطبيعةُ فدفعت المرض ؟ فقال : بلى ، قلت له : فإن نفسي تَسُرُّ بالعلم فتقوى به الطبيعة فأجدُ راحة ، فقال : هذا خارجٌ عن علاجنا ، أو كما قال :

فَعشَقُ صفات السَّكَّال من أَفْعَ العَشَقِ وأَعْلَاه ، وإنما يكون بالنَّاسِبةِ التي بين الرُّوحِ وتلك الصفات ولهذا كان أعلى الأرواح وأشرفها أَعْلَاهَا وأشرفها معشوقاً كما قيل :

أنت القَتِيلُ بِكلِّ من أَحَبَبْتَهُ فاختَرْتَ لِنَفْسِكَ في المَوَى من تَصْطَفِي
فإذا كانت المحبةُ بالمشاكلة والنَّاسِبةُ ثَبَتَتْ وتمكَّنت ولم يُرْ لها إلا مانعٌ
أقوى من السبب ، وإذا لم تكن بالمشاكلة فإنما هي محبةٌ لغرضٍ من الأغراض
تزول عند انقضاءه وتضعُحلُّ ، فمن أَحَبَّكَ لأمرٍ ولَّى عند انقضائه ، فداعى المحبة
وباعثها إن كان غرضاً للمحبِّ لم يكن لمحبهته بقاء ، وإن كان أمراً قائماً بالمحبوب
سريع الزوال والانتقال زالت محبهته بزواله ، وإن كان صفةً لازمةً فمحبهته باقيةٌ
يبقى داعيها ما لم يعارضه معارضٌ يوجب زوالها ، وهو إما تغيُّر حال في المحب ،
أو أذى من المحبوب ، فإن الأذى إما أن يُضْعِفَ المحبةَ أو يزيلها .

قال الشاعر :

خذى العفو منى تستديى مودتى ولا تنطقي فى سورتى حين أغضب
فانى رأيت الحب فى القلب والأذى إذ اجتمعنا لم يلبث الحب يذهب

وهذا موضع انقسم المحبون فيه قسمين : فرقة قالت : ليس بحب صحيح مايزله الأذى ، بل علامة الحب الصحيح أنه لا ينقص بالجفوة ولا يذهبه أذى قالوا : بل الحب يلتذ بأذى محبوبه له ، كما قال أبو الشيص :

وقف الهوى بى حيث أنتِ فليس لى متأخر عنه ولا متقدم
وأهنتنى فأهنت نفسى جاهداً ما من يهون عليك من يسكرم
أشبهت أعدائى فصرت أحبهم إذ كان حظى منك حظى منهم
أجد الملامة فى هوائك لذينة حبا لذكرك فليكنى اللوم^(١)

فهذا هو الحب على الحقيقة فإنه متضمن لغاية الموافقة ، بحيث قد اتخذ مراده ومراد محبوبه من نفسه ، فأهان نفسه موافقة لإهانة محبوبه له ، وأحب أعداءه لما أشبههم بحبوه فى أذاه . وهذا وإن كانت الطباع تأباه لكنه موجب الحب التام ومقتضاه . وقالت فرقة : بل الأذى منيل للحب ، فإن الطباع مجبولة على كراهة من يؤذيها ، كما أن القلوب مجبولة على حب من يحسن إليها . وما ذكره أولئك فدعوى منهم .

والإنصاف أن يقال : يجتمع فى القلب بغض أذى الحبيب وكراهته ، ومحبة من وجه آخر ، فيحبه ويُبغض أذاه ، وهذا هو الواقع ، والغالب منها يوارى

(١) تقدمت هذه الأبيات فى الصفحة ٢٢ .

المغلوب ويبقى الحكم له ، وقد كشف عن بعض هذا المعنى الشاعرُ
في قوله (١) .

ولو قلتَ طناً في النار أعلمُ أنه رضا لكِ أو مُدُن لنا من وصالكِ
لقدّمتُ رَجُلِي نحوها فوطئتها هدى منك لي أو ضلّلة من ضلالكِ
وإن ساءني أن نلتقي بمساء فقد سرّني أني خَظَرْتُ بِبِالِكِ (٢)
فهذا قد أنصف حيث أخبر أنه يسوّه أن يناله محبوبه بمساء ويسرّه
خطوره بياله ، لا كمن ادّعى أنه يلتذّ بأذى محبوبه له ، فإن هذا خارجٌ عن
الطباع ، اللهم إلا أن يكون ذلك الأذى وسيلةً إلى رضى المحبوب وقربه ، فإنه
يلتذّ به إذا لاحظ غايته وعاقبته ، فهذا يقع ، وقد أخبرني بعض الأطباء قال :
إنّي ألتذّ بالدواء الكريه إذا علمتُ ما يحصلُ به من الشفاء ، وأضعه على لساني
وأترشّقه بحبة له ، ومن هذا التذّادُ المحبين بالمشاقّ التي توصلهم إلى وصال
محبوبهم وقربه ، وكلما ذكروا روح الوصال وأن مام فيه طريقٌ موصلٌ إليه ،
لذّ لهم مقاساته ، وطاب لهم تحمّله . كما قال الشاعر :

لها أحاديثُ من ذكرالك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نورٌ تستضيء به ومن حديثك في أعقابها حادى
إذا شككت من كلال السير أوعدها رَوْحَ اللقاء فتقوى عند ميعاد

والقصود أن المحبة تستدعى مشاكلةً ومناسبةً ، وقد ذكر الإمام أحمد بن
حنبل رحمه الله تعالى في مسنده من حديث عائشة رضى الله عنها : أن امرأةً

(١) هو عبد الله بن الدمينه .

(٢) سيأتى هذا البيت في الباب العشرين وفيه لئن ساءني ... لقد سرّني الخ ،
وهو المصواب .

كانت تدخل على قريش فتضحكهم ، فقدمت المدينة فنزلت على امرأة تضحك
الناس ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : على من نزلت فلانة ؟ قالت : على فلانة
المضحكة ، قال : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما
تنافرت منها اختلف » . وأصل الحديث في الصحيح ^(١) . وذكر لبقراط
رجل من أهل النقص يحبه فاعتم لذلك وقال : ما أحبني إلا وقد وافقته في بعض
أخلاقه ، وأخذ المتنبي هذا المعنى قلبه وأجاد فقال :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني فاضل ^(٢)

وقال بعض الأطباء : العشق امتزاج الروح بالروح لما بينهما من التناسب
والتشاكل ، فإذا امتزج الماء بالماء امتنع تخليص بعضه من بعض ، ولذلك تبلى
الحبة بين الشخصين حتى يتألم أحدهما بتألم الآخر ، ويسقم بسقمه وهو لا يشعر
ويذكر أن رجلاً كان يحب شخصاً فرض فدخل عليه أصحابه يعودونه فوجدوا
به خفة فانبسط معهم ، وقال : من أين جئتم ؟ قالوا : من عند فلان عدنا ،
فقال : أو كان عليلًا ؟ قالوا : نعم وقد عوفي ، فقال : والله لقد أنكرت علي
هذه ولم أعرف لها سبباً غير أني توهمت أن ذلك العلة نالت بعض من أحب ،
ولقد وجدت في يومي هسداً راحة ففرحت طمعاً أن يكون الله سبحانه وتعالى
شفاه ، ثم دعا بدواة فكتب إلى محبوبه ^(٣) :

(١) رواء البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم .

(٢) في بعض نسخ الديوان :

• فهي الشهادة لي بأني كامل •

(٣) الشعر لابن نواس قاله في رجة بن نجاح كما في ديوانه (ص ٢٩٩) مسمى
ببعض اختلاف وزايدة بيتين والقوافي فيه مفتوحة خطاباً للذكر . وجاء في ديوان
العبادة لابن أبي حجلة أنها قيلت في عنان جارية الناطق في هناك كما هي هنا
مكسورة خطاباً للنوث .

إني حُجِمْتُ ولم أشعرُ بِحُجْمِكَ حتى تحدثَ عَوَادِي بِشكْوَالِكَ
 قُلْتُ مَا كَانَتْ الْحُمَى لَتَطْرُقَنِي من غير ما سببٍ إِلَّا لِحُجْمِكَ
 وَخَصَلَةٍ كُنْتُ فِيهَا غَيْرَ مُتَّهِمٍ عَافَانِي اللَّهُ مِنْهَا حِينَ عَافَكَ
 حَتَّى اتَّفَقَتْ نَفْسِي وَنَفْسُكَ فِي هَذَا وَذَلِكَ فِي هَذَا وَفِي ذَلِكَ
 وَيُحْسِكِي أَنْ رَجُلًا مَرَضَ مِنْ يُحِبُّهُ فَعَادَهُ الْمَحَبَّةُ فَرَضَ مِنْ وَقْتِهِ ، فَعُوفَى
 بِمُحَبَّتِهِ فَمَا يَعُودُهُ فَلَمَّا رَأَاهُ عُوفَى مِنْ وَقْتِهِ وَأَنْشَدَ :

مَرَضَ الْحَبِيبُ فَعُدُّهُ فَرَضْتُ مِنْ حَذَرِي ^(١) عَلَيْهِ
 وَأَتَى الْحَبِيبُ يَعُودُنِي فَبَرِئْتُ مِنْ نَظَرِي إِلَيْهِ

وَأَنْتِ إِذَا تَأَمَّلْتَ الْوُجُودَ لَا تَكْادُ تَجِدُ اثْنَيْنِ يَتَحَابَّانِ إِلَّا وَبَيْنَهُمَا مَشَاكِلَةٌ
 أَوْ اتِّفَاقٌ فِي فِعْلٍ أَوْ حَالٍ أَوْ مَقْصِدٍ ، فَإِذَا تَبَايَنْتِ الْمَقَاصِدُ وَالْأَوْصَافُ وَالْأَفْعَالُ
 وَالطَّرَاقُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَّا النَّفَرَةُ وَالْبَعْدُ بَيْنَ الْقُلُوبِ ، وَيَكْفِي فِي هَذَا الْحَدِيثُ
 الصَّحِيحُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ
 وَتَرَاجُعِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ
 سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَى وَالسَّهَرِ » ^(٢) .

فَإِنْ قِيلَ : فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْتُمْ يَقْتَضِي أَنَّهُ إِذَا أَحَبَّ شَخْصٌ شَخْصًا أَنْ
 يَكُونَ الْآخَرُ يَحِبُّهُ فَيَشْتَرِكَانِ فِي الْحُبِّ ، وَالْوَاقِعُ يُشْهَدُ بِخِلَافِهِ ، فَكَمْ مِنْ مُحِبٍّ غَيْرِ
 مُحِبُّوبٍ بَلْ بَسِيفِ الْبَغْضِ مَضْرُوبٍ ، قِيلَ : قَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي جَوَابِ هَذَا
 السُّؤَالِ ، فَأَمَّا أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ حَزْمٍ فَإِنَّهُ قَالَ : الَّذِي أَذْهَبَ إِلَيْهِ أَنَّ الْعَشْقَ اتِّصَالٌ
 بَيْنَ أَجْزَاءِ النَّفْسِ لِلْقِسْمَةِ فِي هَذِهِ الْخَلْقَةِ فِي أَصْلِ عُضْوٍ رَفِيعٍ ، لَا عَلَى

(١) فِي رَوَايَةٍ أُخْرَى : مِنْ وَجْدِي عَلَيْهِ .

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَأَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ .

ما حكاه محمد بن داود عن بعض أهل الفلسفة أن الأرواح أكرّ مقسومة لكن على سبيل مناسبة قواها في مقرّ عالمها العلوى وبجاورتها في هيئة تركيبها . وقد علمنا أن سرّ التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال ، فالشكل إنما يستدعى شكله والمثل إلى مثله ساكن . وللبجاسة عمل محسوس وتأثير مشاهد . والتنافر في الأضداد ، والمواقفة في الأنداد ، والنزاع فيما تشابه موجود بيننا ، فكيف بالنفس وعالمها العالم الصافي الخفيف ، وجوهرها الجوهر الصعّاد المعتدل ، وسنخها^(١) المهيأ لقبول الاتفاق والميل والتوق والانحراف والشهوة والنفار ؟ والله تعالى يقول : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا)^(٢) فجعل غلة السكون أنها منه ، ولو كان غلة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب أن لا يستحسن الأتقص من الصور ، ونحن نهد كثيراً عن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره ولا يجد تحيداً لقلبه عنه ، ولو كان المواقفة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافق ، فعلما أنه نى في ذات النفس ، وربما كانت الحبة لسبب من الأسباب ، وتلك تفى بفناء متبها .

قال : وما يؤكد هذا القول أننا قد علمنا أن الحبة ضروب : فأفضأها محبة المتحابين في الله عز وجل إما لاجتهاد في العمل ، وإما لاتفاق في أصل المذهب ، وإما لفضل علم يمنحه الإنسان . ومحبة القرابة ، ومحبة الألفة والاشتراك في المطالب ، ومحبة التصاحب والمعرفة ، ومحبة لبر يضعه المرء عند أخيه ، ومحبة لطمع في جاه المحبوب ، ومحبة المتحابين لسر^٣ يجتمعان عليه يلزمها ستره ،

(١) السنخ : الأصل من كل شيء .

(٢) الآية ١٨٨ . سورة الأعراف .

ومحبة لبوغ اللذة وقضاء الوطر ، ومحبة العشق التي لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس . وكل هذه الأجناس فنقضية مع انقضاء عليها ، وزائدة بزيادتها ، وناقصة بنقصانها ، متأكدة بدنوها ، فائرة ببعدها ، حاشا محبة العشق الصحيح المتمكن من النفس . ثم أورد هذا السؤال ^(١) قال : والجواب أن نفس الذي لا يجب من يحبه مُسَكَّنَةٌ الجهات ببعض الأعراض الساترة ، والحُجُب المحيطة بها من الطبائع الأرضية ، فلم يُحَسَّ بالجزء الذي كان متصلاً بها قبل حلولها حيث هي ، ولو تخلّصت لاستويا في الاتصال والمحبة . ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشرّكها في المجاورة . طالبة له فاحدة إليه باحثة عنه مشبهة للملاقاة ، جاذبة له لو أمكنها كالغناطيس والحديد ، وكالنار في الحجر .

وأجابت طائفة أخرى أن الأرواح خُلِقَتْ عَلَى هيئة الكرة ثُمَّ قُسمت . فأى رُوحين تلاقينا هناك وتجاوزتا تألفتا في هذا العالم وتجاوتا ، وإن تنافرتا هناك تنافرتا هنا ، وإن تألفتا من وجه وتنافرتا من وجه كانتا كذلك هاهنا ، وهذا الجواب مبنى عَلَى الأصل الفاسد الذي أَصْلَهُ هؤلاء أن الأرواح موجودة قبل الأجساد ، وأنها كانت متعارفة متجاوزة هناك ، تتلاقى وتعارف وهذا خطأ ، بل الصحيح الذي دلّ عليه الشرع والعقل أن الأرواح مخلوقة مع الأجساد ، وأن الملك الموكَّلَ بِنَفْخِ الرُّوحِ في الجسد ينفخ فيه الرُّوحَ إذا مضى

(١) يشير إلى السؤال الذي تقدم في الصفحة ٧٤ وهو : فإن قيل فهذا الذي ذكرتم يقتضى أنه إذا أحب شخص شخصاً أن يكون الآخر يحبه فيشتركان في المحبة والرائع يشهد بخلافه . وهذا السؤال ليس لفظ ابن حزم وإنما أوردته المؤلف بالمنع .

على النطفة أربعة أشهر ودخلت في الخامس ، وذلك أول حدوث الروح فيه .
ومن قال إنها مخلوقة قبل ذلك فقد غلط ، وأقبح منه قول من قال : إنها
قديمة ، أو توقفت في ذلك ، بل الصواب في الجواب أن يقال : إن المحبة
كما تقدم قسمان : محبة عَرَضِيَّةٌ غَرَضِيَّةٌ ، فهذه لا يجب الاشتراك فيها بل
يقارنها مَقْتُ المحبوب وبغضه للمحب كثيراً ، إلا إذا كان له معه غرضٌ
نظيرُ غرضه فإنه يحبّه لغرضه منه ، كما يكون بين الرجل والمرأة اللذين لكل
منهما غرضٌ مع صاحبه . والقسم الثاني محبة رُوحَانِيَّةٌ سببها المشاكلة والاتفاق
بين الرُّوحَيْنِ ، فهذه لا تكون إلا من الجانبَيْنِ ولا بدّ ، فلو فُتِّشَ المحب
المحبة الصادقة قلبَ المحبوب لوجد عنده من محبته نظيرَ ما عنده أو دونه
أو فوقه .

فصل

وإذا كانت المحبة من الجانبَيْنِ استراح بها كلُّ واحدٍ من المحبين ،
وسكن ذلك بعضَ ما به وعده نوعاً من الوصال ، وقالت امرأةٌ من العرب :
حَبَبْتُ ولم أَخْجُجْ لذنْبِ عَمَلْتُهُ ولكن لتُعْدِنِي عَلَى قَاطِعِ الْحَبْلِ
ذهبتَ بعقلي في هواه صغيرةً وقد كبرت سني فردَّ به عقلي
وإلا فسوءُ الحبِّ بيني وبينه فإنك يا مولاي توصفُ بالعدل
وقال آخر :

فياربَّ! أشغلها بحبي كما بهيَا شَغَلْتَ فَوَادِي كِي يَخْفَ الذي ييا
وقالت امرأةٌ تعاتبُ بَعْلَهَا . أسأل الذي قسم بين العباد معاشهم أن يقسم
الحبَّ بيني وبينك ، ثم أنشدت :

أُدْعُو الَّذِي صَرَفَ الْهَوَى مَنِّي إِلَيْكَ وَمَنْكَ عَنِّي
أَنْ يَيْتَلِيكَ بِمَا أَبْتَـلَا نِي أَوْ يَسْلُ الْحَبَّ مَنِّي

وَقَالَ آخِرُ :

فِيَارَبِّ إِنْ لَمْ تَقْسِمِ الْحَبَّ بَيْنَنَا بِشَطَرَيْنِ فَاجْعَلْنِي عَلَى هَجْرهَا جَلْدًا
وَأَعْقِبْنِي السُّلْوَانَ عَنْهَا وَرُدِّلِي فَوَادِيَّ مِنْ سَلَمَى أَثْبُكَ بِهِ حَمْدًا
وَقَالَ أَبُو الْمَذْبِيلِ الْعَلَّافُ : لَا يَجُوزُ فِي دَوْرِ الْفَلَكَ وَلَا فِي تَرْكِيبِ الطَّبَائِعِ
وَلَا فِي الْوَاجِبِ وَلَا فِي الْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ مَحَبَّةٌ لَيْسَ لِمُحِبُّوهِ إِلَيْهِ مِيلٌ ، وَإِلَى
هَذَا الْمَذْهَبِ ذَهَبَ أَبُو الْعَبَّاسِ النَّاشِيءُ حَيْثُ يَقُولُ :

عَيْنَاكَ شَاهِدَتَانِ أَنْكَ مِنْ حَرِّ الْهَوَى تَجْدِينِ مَا أُجِدُّ
بِكَ مَا بَنَا لَكِنْ عَلَى مَضَضٍ تَتَجَلَّدِينَ وَمَا بَنَا جَلْدُ

وَقَالَ أَبُو عَمِيْنَةَ :

تَبَيَّنَتْ بِنَا تَهْدِي وَأَهْدِي بِذِكْرِهَا كَلَانَا يَقَاسِي اللَّيْلَ وَهُوَ مُسَهَّدُ
وَمَا رَقَدَتْ إِلَّا رَأَتْنِي ضَجِيعَهَا كَذَلِكَ أَرَاهَا فِي الْكُرَى حِينَ أَرْقُدُ
تَقِرُّ بِذَنْبِي حِينَ أَغْفُو وَنَلْتَقِي وَأَسْأَلُهَا يَقْظَانَ عَنْهُ فَتَجْجَدُ
كَلَانَا سِوَاهُ فِي الْهَوَى غَيْرِ أَنَّهَا تَجَلَّدُ أَحْيَانًا وَمَالِي تَجَلَّدُ

وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ أَذْيَنَةَ :

إِنْ الَّتِي زَعَمْتَ فَوَادِكَ مَا هِيَ خُلِقْتَ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوَى لَهَا
فَبِكَ الَّذِي زَعَمْتَ بِهَا فَكَلَاكَ أَبَدِي لِصَاحِبِهِ الصَّبَابَةِ كُلَّهَا

فَإِذَا تَشَاكَلَتِ النُّفُوسُ وَتَمَازَجَتِ الْأَرْوَاحُ وَتَفَاعَلَتِ تَفَاعَلَتْ عَنْهَا الْأَبْدَانُ ،
وَطَلَبَتْ نَظِيرَ الْإِمْتِزَاجِ وَالْجَوَارِ الَّذِي بَيْنَ الْأَرْوَاحِ ، فَإِنَّ الْبَدْنَ آلَةُ الرُّوحِ
وَمَرْكَبُهُ ، وَبِهَذَا رَكَّبَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ شَهْوَةَ الْجَمَاعِ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى طَلِبًا

للأمتزاج والاختلاط بين البدنين ، كما هو بين الرُّوحين ، ولهذا يسمى جماعاً
وخلطاً ونكاحاً وإنشاءً ، لأن كل واحدٍ منها يُقضى إلى صاحبه فيزول
القضاء بينهما .

فإن قيل : فهذا يوجب تأكُّدَ الحبِّ بالجماع وقوَّته به والواقعُ خلافه ، فإن
الجماعَ يُطْفِئُ نارَ المحبة ويُبَرِّدُ حرارتَها ويسكِّنُ نفسَ المحبِّ ، قيل : الناسُ
مختلفون في هذا فمنهم من يكون بعد الجماع أقوى محبةً وأمكنَ وأثبتَ بما قبله ،
ويكون بمنزلة من وُصف له شيءٌ ملائمٌ فأحبَّه ، فلما ذاقه كان له أشدَّ محبةً ،
وإليه أشدَّ اشتياقاً ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث
عروج الملائكة إلى ربهم أنه سبحانه يسألهم عن عبادته — وهو أعلم بهم —
فيقولون : إنهم يسبحونك ويمجدونك ويقَدِّسونك فيقول : وهل رأوني ؟
فيقولون : لا ، فيقول : فكيف لو رأوني ؟ فتقول الملائكة : لو رأوك لكانوا
أشدَّ تسبيحاً وتقديساً وتمجيداً ثم يقولون : ويسألونك الجنة فيقول : وهل
رأوها ؟ فيقولون : لا ، فيقول : فكيف لو رأوها ؟ فتقول الملائكة : لو رأوها
لكانوا أشدَّ لها طاملاً وذكر الحديث^(١) . ومعلوم أن محبةً من ذاق الشيء
الملائمَ وعُدِمَ صبره عنه أقوى من محبة من لم يذُقْهُ ، بل نفسه مقطومةٌ
عنه ، والمودةُ التي بين الزوجين والمحبةُ بعد الجماع أعظمُ من التي كانت قبله .
والسببُ الطبيعي أن شهوة القلب تتزججُ بلذَّةِ العين ، فإذا رأت العينُ اشتهى
القلبُ ، فإذا باشر الجسمُ الجسمَ اجتمع شهوةُ القلب ولذَّةُ العين ولذة
المباشرة ، فإذا فارق هذه الحال كانت نزاعُ نفسه إليها أشدَّ ، وشوقه إليها
أعظمَ كما قيل :

وأكثرُ ما يكونُ الشوقُ يوماً إذا دنتِ الديارُ من الديارِ

(١) رواه البخارى مطولاً ومسلم والإمام أحمد .

ولذلك يتضاعف الألم والحسرة على من رأى محبوبه أو باشره ثم حيل
بينه وبينه ، فتضاعف ألمه وحسرتة في مقابلة مضاعفة لذّة من عاوده ، وهذا في
جانب المرأة أقوى فإنها إذا ذاقّت عُسيلة الرجل ولا ضياء أول عُسيلة لم تسكد
تصبر عنه بعد ذلك ، قال أيمن بن خزيمة :

يميت العتَابَ خِلَاطُ النِّسَاءِ وَيُحْيِي اجْتِنَابُ الْخِلَاطِ الْعِتَابَا

وتزوَّج زهير بن مسكين الفهرى جارية ولم يكن عنده ما يرضيها به ، فلما
أمكته من نفسها لم ترّ عنده ما ترضى به فذهبت ولم تعدّ ، فقال في ذلك أشعاراً
كثيرة ، منها :

تقول وقد قبَلْتُهَا أَلْفَ قُبْلَةٍ كَفَالَكُ أُمَامِي ۖ لَدَيْكَ ضَوَى الْقُبْلِ
فقلت لما حُبُّ عَلَى الْقَلْبِ حَفْظُهُ وطولُ بَكَاءِ تَمْضِيضٍ لَهُ الْقَلْبُ
فقلت لعمرُ اللَّهِ مَالِدَةُ الْفَتَى من الحبِّ في قولٍ يخالفه الفعل
وقال آخر :

رَأَتْ حُبِّي سَعَادُ بِلَا جِمَاعٍ فقالت حبلُنا حبلُ انقطاع
ولمت أريد حبّاً ليس فيه متاعٌ منك يدخل في متاعى
فلو قَهَلْتَنِي أَلْفَ أَلْفِ مَآ لما أرضيت إلّا بالجماع
إذا ما ألصبتُ لم يكُ ذا جِمَاعٍ يرمى المحبوبَ كالشيء المضعاع
جماعُ الصبِّ غَايَةُ كُلِّ أَتَى وداعيةٌ لأهل العشق داعى
فقلت لها وقد ولّت تعالى فإنك بعد هذا لن تُراعى
وإنك لو سألتِ بقاء يومٍ خلتِ عن جماعك لن تطاعى

فَقَالَتْ مَرْحَبًا بِنْتِي كَرِيمٍ وَلَا أَهْلًا بِذِي الْخَنَعِ الْبِرَاعِ^(١)
إِذَا مَا الْبَعْلُ لَمْ يَكُ ذَا جِجَاعٍ يُزَى فِي الْبَيْتِ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ
وَقَالَ آخَرُ :

وَلَمَّا شَكُوْتُ الْحَبَّ قَالَتْ كَذَبْتَنِي فَكَمْ زَوْرَةٍ مَنَى قَصْدُكَ خَالِيًا
فَا حُلَّ فِيهَا مِنْ إِزَارٍ لِلذِّقْرِ قَعَدْتُ وَحَاجَاتُ الْفَوَادِ كَمَا هِيَ
وَهَل رَاحَةُ اللَّوْرِ فِي وَرْدٍ مَسْهَلٍ وَيَرْجِعُ بَعْدَ الْوَرْدِ ظَمَانٌ صَادِيًا
وَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ :

لَمْ يَصْفُ وَصَلَ لِمَعْشُوقَيْنِ لَمْ يَذُقَا^(٢) وَصَلًا يَجِلُّ عَلَى كُلِّ الذِّاذَاتِ
وَقَالَ هُدْبَةُ بْنُ الْخَشْرَمِ :

وَاللَّهِ مَا يَشْفِي الْفَوَادِ الْمَائِمَا نَثُ الرِّقَى وَعَقْدُكَ التَّمَامَا
وَلَا الْحَدِيثُ دُونَ أَنْ تُتَلَازَمَا وَلَا الْأَزَامُ دُونَ أَنْ تُتَافَمَا^(٣)
وَلَا الْقِعَامُ دُونَ أَنْ تُتَافَمَا^(٤) وَتَعْلَمُوا الْقَوَائِمُ الْقَوَائِمَا
وَقَالَ آخَرُ :

قَوْلَا لِمَا تَكَّةِ الْتَى فِي نَظَرَةٍ قَضَتْ الْوَطْرُ

(١) الخنع : الذى يكتفى من النساء بالمغازلة والملاعبة ، وخنع فلان النساء :
مالهن وعاشرن بالمنازلة والملاعبة . واليراع : الجبان الذى لا قلب له . وعلى
النشيبه : من لا رأى ولا عقل له .

(٢) كذا ... والبيت غير موجود فى ديوان الاحنف المطبوع .

(٣) القعام : أن تشم رائحة جسدها وتملا به أنفك .

(٤) القعام : أن تقبلها حتى ترتوى . والقغم : اللحى وفى الحديث (من حفظ

ما بين قغميه) أى ما بين لحية .

لأنى أريدك للنكا حـ ولا أريدك للنظر
لو كان هذا مقننى لتقنيتُ عنها بالقرن

وقال آخر :

دواء الحبّ تقبيلٌ وشَمٌّ ووضعُ للبطون على البطون
ورَهْرَهْ تَذرفُ العينان منه وأخذُ بالمناكب والقرون^(١)
وقالت امرأةٌ وقد طُلبت منها المحادثة :

ليس بهذا أمرتنى أُمّى ولا بتقبيلٍ ولا بشم
لكن جماعاً قد يسلى همى يسقط منه خاتمى فى كُدى

وقد كشف الشاعر سبب ذلك حيث يقول :

لوضمَّ صبَّ إمّته ألقا أجدى وزادت لوعةً وغرامُ
أرواحهم من قبل ذاك تألّفت فتألّفت من بعدها الأجسام
وقال المؤلف :

سألت قتيبة الحبّ عن علة الهوى وقلتُ له أشكو إلى الشيخ حالياً
قال دواء الحب أن تُصِيقَ الحشا بأحشاء من تهوى إذا كنت خالياً
وتتحدّأ من بعد ذلك تماثلاً وتلثّمه حتى يرى لك ناهياً
فتقضّى حاجاتِ الفؤاد بأمرها على الأمن مادام الحبيب مؤاتياً
إذا كان هذا فى حلالٍ مُبَيّن وصالٌ به الرحمن تلقاه راضياً
وإن كان هذا فى حرامٍ فإنّه عذابٌ به تأتى العنا والمكاوليا
قال هؤلاء : ولا يستحكم الحبّ إلا بعد أن يشقّ الرجلُ رداءه وتشقّ
المرأة المشوقة بُرْقَعها ، كما قال الشاعر :

(١) الرمز : شدة الحركة فى الجماع . والقرن : ذؤابة المرأة ، الحصلة من الشعر

إِذَا شَقَّ بُرْدُ شَقِّ بِالْبُرْدِ بُرْقَعُ دَوَّالَيْكَ حَتَّى كُلُّنَا غَيْرُ لَانِسِ
 قَمَكُم قَدْ شَقَّقْنَا مِنْ رِداءِ مُحَبَّرٍ وَمِنْ بَرْقَعٍ عَنْ طِفْلَةٍ غَيْرِ عَانِسِ^(١)
 وَلَمَّا بَلَغَ بَعْضُ الظُّرَفَاءِ^(٢) قَوْلُ الْمُأْمُونِ : مَا الْحُبُّ إِلَّا قَبْلَةٌ . الْآيَاتِ^(٣)
 قَالَ : كَذَبَ الْمُأْمُونُ ثُمَّ قَالَ :

وَبَاضَ الْحُبُّ فِي قَلْبِي فَوَا وَيْلَا إِذَا فَرَّخُ
 وَمَا يَنْفَعُنِي حَبِي إِذَا لَمْ أَكُنْسِ الْبَرْبَخَ^(٤)
 وَإِنْ لَمْ يَضَعِ الْأَصْدَ عُخْرُجِيهِ عَلَى الْمَطْبَخِ

وَقَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ :

أَعَاقَبَهَا وَالنَّفْسُ بَعْدُ مَشَوَّقَةٌ إِلَيْهَا وَهَلْ بَعْدَ الْعِنَاقِ تَدَانِي
 وَأَلْتَمُّ فَاهَا كَيْ تَزُولَ صَبَابَتِي فَيَشْتَدَّ مَا أَلْتَمُّ مِنَ الْهَيَّانِ
 وَلَمْ يَكْ مُقْدَارُ الَّذِي بِي مِنَ الْجَوَى لِيَشْفِيهِ مَا تَرَشَّفُ الشَّفَتَانِ
 كَأَنَّ فَوَادِي لَيْسَ يَشْفِي غَالِيَهُ سَوَى أَنْ أَرَى الرُّوحِينَ تَمْتَزِجَانِ^(٥)

وَقَالَ الطَّبْرَانِيُّ فِي مَعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ : حَدَّثَنَا بَكْرُ بْنُ سَهْلٍ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ
 ابْنُ يَوْسُفَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مَيْسَرَةَ ، عَنْ طَاوُسٍ ، عَنْ
 ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ عِنْدَنَا يَتِيمَةٌ قَدْ خُطِبَهَا

(١) محبر : مزين ومنمق . والمائس : البكر النصف والجمع عوالس وعانس .

(٢) هو أبو العبر كما جاء في الأغاني للأصفهاني .

(٣) ستأتي الآيات في صفحة ٨٥ . وفيها : ما الحب إلا نظرة .

(٤) البربخ : منفذ المياه وبجراه ، وبالوعدة من الحزف وغيره وهو هنا

يدعى القرج .

(٥) تقدمت هذه الآيات في صفحة ٣٢

الأوسط من حديث ابن عمر يرفعه : فَضْلُ مَا بَيْنَ لَذَّةِ الْمَرْأَةِ وَلَذَّةِ الرَّجُلِ كَأَثَرِ الْخَيْطِ فِي الطَّيْنِ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ سَتَرَهُنَّ بِالْحَيَاءِ وَقَالَ : لَمْ يَرَوْهُ عَنْ لَيْثٍ إِلَّا أَبُو الْمُسَيْبِ سَلَّمَ بْنِ سَلَامٍ عَنْ سُؤَيْدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَسَامَةَ عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ خَالِدٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ رَضَى اللَّهِ عَنْهُمَا . قُلْتُ : وَهَذَا أَيْضًا لَا يَصِحُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِسْنَادُهُ مَظْلَمٌ لَا يَحْتَجُّ بِمَثَلِهِ .

فصل

وَرَأَتْ طَائِفَةً أَنَّ الْجَمَاعَ يُفْسِدُ الْعَشْقَ وَيُبْطِلُهُ أَوْ يُضَعِفُهُ ، وَاحْتَجَّتْ بِأُمُورٍ مِنْهَا : أَنَّ الْجَمَاعَ هُوَ الْغَايَةُ الَّتِي تُطْلَبُ بِالْعَشْقِ فَمَا دَامَ الْعَاشِقُ طَالِبًا فَعَشْقُهُ ثَابِتٌ ، فَإِذَا وَصَلَ إِلَى الْغَايَةِ قَضَى وَطَرَهُ ، وَبَرَكَدَتْ حَرَارَةُ طَلِبِهِ ، وَطَفِئَتْ نَارُ عَشْقِهِ . قَالُوا : وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ طَالِبٍ لَشَيْءٍ إِذَا ظَفِرَ بِهِ ، كَالظَّامِ إِذَا رَوَّى ، وَالْجَائِعِ إِذَا شَبِعَ ، فَلَا مَعْنَى لِلطَّلَبِ بَعْدَ الظَّفَرِ . وَمِنْهَا : أَنَّ سَبَبَ الْعَشْقِ فِكْرِيٌّ وَكَلَامِيٌّ قَوِيٌّ الْفِكْرُ زَادَ الْعَشْقَ ، وَبَعْدَ الْوُصُولِ لَا يَبْقَى الْفِكْرُ ، وَمِنْهَا : أَنَّهُ قَبْلَ الظَّفَرِ مَمْنُوعٌ ، وَالنَّفْسُ مُوَلَّعَةٌ بِحُبِّ مَا مُنِعَتْ مِنْهُ كَمَا قَالَ (١) :

وَزَادَنِي كَلْفًا فِي الْحُبِّ أَنَّ مُنِعْتُ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنِعَما
وَقَالَ الْآخَرُ (٢) :

لَوْلَا طَرَادُ الصَّيْدِ لَمْ تَكُنْ لَذَّةٌ فَتَتَارَدِي لِي بِالْوَصَالِ قَلِيلًا
قَالُوا : وَكَانَتِ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ فِي كُفْرِهِمْ لَا يَرْجُونَ ثَوَابًا وَلَا يُخَافُونَ عَذَابًا ، وَكَانُوا يَصُونُونَ الْعَشْقَ عَنِ الْجَمَاعِ ، كَمَا ذُكِرَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا عَلِقَ امْرَأَةً فَمَكَانَ

(١) هُوَ الْأَحْرَصُ .

(٢) هُوَ كُشَايِمٌ كَمَا جَاءَ فِي دِيْوَانِ الصَّبَابَةِ .

يأتيها شنين وما جرى بينهما ريبة ، قال : فرأيت ليلة بياض كنفها في ليلة ظلماء
فوضعت يدي على يدها فقالت : مه لا تفسد ما صلح فإنه ما نكح حب إلا
فسد. فأخذ ذلك المأمون فقال :

ما الحب إلا نظيرةٌ وغزٌ كَفٌّ وعَضْدٌ
أو كُتِبَ فيها رُفٌّ أَجَلٌ من نَفَثِ العُقْدِ
ما الحب إلا هكذا إن نكح الحب فسد
من كان هذا حبه فإمسا يعني الولد

وهوى آخر امرأة قدام الحال بينهما في اجتماع وحديث ونظر ، ثم إنه
جامعها قطعت الوصل بينهما فقال :

لو لم أواقع دام لي وصلها فليتني لا كنت واقعتها
وقيل لآخر شكاً فراقاً بحبوبة له ^(١) :

أكثر من وطنها وأوطأ مسأمةً فارق بنفسك إن الرفق محمود

وذكر عمر بن شبة عن بعض علماء أهل المدينة قال : كان الرجل يحب
الفتاة فإذا ظفر بها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار ، واليوم يشير إليها وتشير
إليه فيعدها وتعدّه ، فإذا التقيا لم يشك حبا ولم يُنشد شعراً وقام إليها كأنه
أشهد على نكاحها أبا هريرة رضى الله عنه .

يخط من داخل الدهايز منصرفاً إلا وخلخالها قد قارب الساقا

قال الأصمى : قلت لأعرابية : ماتعدون العشق فيكم ؟ قالت : العناق
والفضة والغمزة والمحاذة .

(١) ستأتي القصة في صفحة ٨٩ .

ثم قالت : يا حضري فكيف هو عندهم ؟ قلت : يقعد بين شعبها الأربع
ثم يُجهد بها . قالت : يا ابن أخي ما هذا عاشقٌ هذا طالب ولد .

وسئل أعرابيٌّ عن ذلك فقال : مصُّ الرِّيق ، واثمُّ الشَّفة ، والأخذ من
أطايب الحديث ، فكيف هو فيكم أيها الحضري ؟ فقال : العفس^(١) الشديد ،
والجمع بين الركبة والوريد ، ورَهْزٌ يوقظ النائم ، ويَشْفِي القلب الهائم . قال :
بالله ما يفعل هذا العدو الشديد فكيف الحبيب الودود ؟

وقال بعضهم : الحبُّ يطيب بالنظر وَيُفسد بالنزِر . قال هولاء : والحب
الصحيح يوجب إعظامَ المحبوب وإجلالَه والحياء منه ، فلا تطاوع نفسه أن
يلقى جلباب الحياء عند محبوبه ، وأن يُلقِيَه عنه ، ففي ذلك غاية إذلاله وقهره
كما قيل :

إذا كان حظ الرءى من مُحبِّه حراماً فخطي ما يحلُّ ويَحْمَلُ
حديثُ كماء المُرَّين بين فُصُوله عتابٌ به حسن الحديث يُفَصِّلُ
ولسَّمْ فمِ عَذْب اللِّثاتِ كأنما جناهن شهدَتْ فُتَّ فيه القَرَنُفُلُ
وما العشق إلا عَفَّةٌ ونزاهةٌ وأنسُ قلوبِ أنسِن التَّغْزُلُ
وإني لأستحي الحبيبَ من التي تَرِيبُ وأدعى للجميل فأتَّحِلُ
وزعم بعضهم أنه كان يُشَرِّط بين العشيقة والعاشق أنَّ له من نصفها الأعلى
إلى سُرَّتِها ينال منه ما يشاء من ضمٍّ وتقبيل ورَشْفٍ ، والنصفُ الأسفلُ يَحْرُمُ
عليه ، وفي ذلك قال شاعر القوم :

فلحِبِّ شَطْرٍ مطلقٍ من عِقَالِهِ ولللبَّلِ شَطْرٌ ما يُرام مَشِيعُ

(١) عفسه عفساً : طرحه على الأرض وضدَّ له شغطاً شديداً ، وضربه
على عجزه .

وقال الآخر :

لما شطر فن حلّ ويحلّ ونصف كالبجيرة ما يهاج^(١)
وهذا كان من دين الجاهلية فأبطلته الشريعة ، وجعلت الشطرين كليهما
للبلع . والشعراء قاطبة لا يرون بالمحاذة والنظر للأجنبيات بأساً ، وهو مخالف
للشرع والعقل فإن فيه تعريضاً للطبع لما هو مجبول على الميل إليه ، والطبع
يسرق ويفلب ، وكم من مفتون بذلك في دينه ودنياه ، فإن قيل فقد أشد
الحاكم في مناقب الشافعي له :

يقولون لا تنظر وتلك بليّة ألا كل ذي عينين لابد ناظر
وليس اكتحال العين بالعين رية إذا عفّ فيما بين ذاك الضمائر^(٢)
فإن محت عن الشافعي فإنما أراد النظر الذي لا يدخل تحت التكليف ،
كنظرة الفجأة أو النظر المباح . وقد ذهب أبو بكر محمد بن داود الأصفهاني
إلى جواز النظر إلى من لا يحل له كما مضى كلامه إن شاء الله تعالى . قال
أبو الفرج بن الجوزي : وأخطأ في ذلك وجّه عليه خطؤه اشتهاؤه بين الناس
وافتنائه . وذهب أبو محمد بن حزم إلى جواز العشق للأجنبية من غير رية ،
وأخطأ في ذلك خطأ ظاهراً فإن ذريعة العشق أعظم من ذريعة النظر ، وإذا

(١) البل بالكسر : المباح يقال : حل بل وهو إتباع . والبجيرة : الناقة ،
كانت في الجاهلية إذا ولدت خمسة أبطن ، شقوا أذننها وأعفوها أن ينفع بها
ولم ينعوها مرعى ولا ماء ، وقد أبطلها الإسلام . قال تعالى : (ما جعل الله من
بحيرة) الآية ١٠٦ . سورة المائدة .

(٢) في معجم البلدان لياقوت أن هذين البيتين للخصيل بن عبيد فلم تتأكد
لسبتهما إلى الشافعي .

كان الشرعُ قد حرّم النّظر لما يؤدى إليه من المفسد كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى، فكيف يجوز تعاطى عشق الرجل لمن لا يحل له ؟

والمقصود أن هذه الفرقة رأت أن الجماع يُفسد العشق فغارت عليه مما يفسده . وإن لم تتركه ديانة . وقيل لبعض الأعراب : ما ينال أحدكم من عشيقته إذا خلى بها ؟ قال : اللّمس والقُبْل وما يشاكلها . قال : فهل يتناولان إلى الجماع ؟ فقال : أبى وأمى ليس هذا بعاشق ، هذا طالب ولد . ويُحكى أن رجلاً عشق امرأةً فقالت له يوماً : أنت صحيح الحبّ غير سقيم — وكانوا يُسمّون الحبّ على الخنا الحبّ السقيم — فقال : نعم ، فقالت : اذهب بنا إلى المنزل ، فما هو إلّا أن حصلت فى منزله فلم يكن له همةٌ غيرُ جاعها ، فقالت له وهو كذلك :

أسرفت فى وطننا والوطء مقطّعةٌ فارقى بنفسك إن ائزق محمود
فقال لها وهو على حاله :

لولم أظأك لما دامت محبتنا لكن فعلى هذا فعلٌ مجهود
فنفرت من تحته وقالت : يا خيث أراك خلافَ ما قلت من صحة الحب ، ولم تجعل جماعى إلّا سبباً لذهاب حبك ، والله لا ضمنى وإياك سقفٌ أبداً . وسيأتى تمام الكلام فى هذا فى باب عفاف المحبين ، إن شاء الله تعالى .

فصل

الخطاب بين الفريقين أن الجماع الحرام يفسد الحبّ ، ولا بدّ أن تنتهى المحبة بينهما إلى المعادة والتباعد والتلى كما مرّ مشاعده بالعيان ، فكل محبة لغير الله آخرها قلى وبغض ، فكيف إذا قارنها ما هو من أكبر الكبائر ؟

وهذه عداوة بين يدي العداوة الكبرى التي قال الله تعالى فيها : (الْأَخِلَاءُ
يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ)^(١) وسنذكر إن شاء الله تعالى من
ظفر بمحبوبه وترك قضاء وطّره منه رغبة في بقاء محبته وخشية أن تنقلب قلبه
وبغضا في الباب للعود به فإن ذلك أليق به . وأما الجماع المباح فإنه يزيد الحب
إذا صادف مراد الحب ، فإنه إذا ذاق لذته وطعمته أوجب له ذلك رغبة أخرى
لم تكن حاصلة قبل الذوق . ولهذا لا يكاد اليكران يصبر أحدهما عن الآخر ،
هذا ما لم يعرض للحب ما يفسده ويوجب نقله إلى غير المحبوب . وأما ما احتج
به الآخرون فجوابه أن الشهوة والإرادة لم تطفأ نارها بالسكينة ، بل فترت
شهوة ذلك الوقت ثم تعود أمثالها ، وإنما يظهر هذا إذا غاب أحدهما عن حبيبه ،
وإلا فإدام برأى منه وهو قادر عليه متى أحب فإن النفس تسكن بذلك
وتطمئن به ، وهذا حال كل من كان بمحضرة ما يحتاج إليه من طعام وشراب
ولباس وهو قادر عليه ، فإن نفسه تسكن عنده ، فإذا حيل بينه وبينه اشتد طلبه
له ونزاع نفسه إليه ، على أن الحب للشيء متى أفرط في تناول محبوبه ففرت
نفسه منه ، وربما انقلبت محبته كراهية . وسيأتي مزيد بيان لهذا في باب سلو
المحبين إن شاء الله تعالى .

فصل

ودواعي الحب من المحبوب جماله ، إما الظاهر أو الباطن أوهما معا ، فمتى
كان جميل الصورة جميل الأخلاق والشيم والأوصاف كان الداعي منه أقوى ،
وداعي الحب من المحب أربعة أشياء : أولها : النظر إما بالعين أو بالقلب إذا

(١) الآية ٦٧ : سورة الزخرف .

وُصِفَ له ، فكثيرٌ من الناس يحب غيره ويفنى فيه حبةً وما رآه لكن وُصِفَ له ، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم المرأة أن تنعت المرأة لزوجها حتى كأنه ينظرُ إليها (والحديث في الصحيح) ^(١) ، اثناني : الاستحسان ، فإن لم يورث نظره استحساناً لم تقع الحجة ، الثالث : الفكر في المنفور وحديث النفس به ، فإن شغل عنه بغيره مما هو أهمُّ عنده منه لم يعلّق حبه بقلبه ، وإن كان لا يعدم خطراتٍ وسواخٍ ، ولهذا قيل : العشق حركة قلبٍ فارغ . ومتى صادف هذا النظرُ والاستحسانُ والفكرُ قلباً خالياً تمكّن منه كما قيل :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكّن

فإن قيل : فهل يتوقف على الطمع في الوصول إلى المحبوب أم لا ؟ قيل : الناس في هذا على أقسام : منهم من يعشق الجمال المطلق ، فقلبه مُعلّق به إن استقلت ركائبه ، وإن حلت مضاربُه ، وهذا لا يتوقف عشقه على الطمع . ومنهم من يعشق الجمال المقيّد سوا طمعت نفسه في وصاله أم لم تطمع ، ومنهم من لا يعشق إلا من طمعت نفسه في وصاله ، فإن يئس منه لم يعلّق حبه بقلبه ، والأقسام الثلاثة واقعة في الناس ، فإذا وُجد النظرُ والاستحسانُ والفكرُ والطمعُ هاجت بلائُه ، وأمکن من معشوقه مقاتله ، واستحكم داؤه ، وعجزَ عن الأطباء دواؤه .

تالله ما أسرَّ الهوى من عاشقٍ إلا وعزَّ على النفوس فكلاً كهُ
وإذا كان النظرُ مبدأً للعشق ، فحقيق بالمطلق أن لا يعرض نفسه للإسار الدائم بواسطة عينه ، وإذا قد أفضى بنا الكلام إلى النظر فلنذكر حكمه وغائلته .

(١) رواية البخارى : ولا تباشر المرأة المرأة فتتمتها لزوجها كأنه ينظر إليها ، ورواه أبو داود والترمذى والإمام أحمد في مسنده . ونعت : وصف .

الباب السادس

في أمّ لأم النظر وغائته وما يجنى على صاحبه

قال الله تعالى : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ) الآية ^(١) فلما كان غضُّ البصر أصلاً لحفظ الفرج بدأ بذكره ، ولما كان تحريمه تحريم الوسائل فيباح للمصلحة الرجحية ، ويحرم إذا خيف منه الفساد ولم يعارضه مصلحة أرجح من تلك المفسدة ، لم يأمر سبحانه بغضه مطلقاً بل أمر بالنقض منه ، وأما سنن الفرج فواجب بكل حال ، لا يباح إلا بحقه ، فلذلك عمّ الأمر بحفظه .

وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب ، فإذا غضَّ العبدُ بصره غضَّ القلب شهوته وإرادته ، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته . وفي الصحيح أن الفضل بن عباس رضى الله عنهما كان رديف ^(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر من مزدلفة إلى منى ، فمرت ظعن ^(٣) يجريين فطافق الفضل ينظر إليهنَّ فحوّل رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه إلى الشق الآخر ^(٤) ، وهذا منع وإنكار بالفعل . فلو كان النظر جائزاً لأقرّه عليه . وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إِنْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّيْنِ

(١) الآيتان ٣٠ و ٣١ . سورة النور .

(٢) الرديف . الراكب خلف الراكب .

(٣) جمع ظعينة : الراحلة يرتحل عليها ، المودج ، الزوجة .

(٤) في البخارى ومسلم والترمذى وغيرهم .

أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا حَمَالَهَ ، فَالْعَيْنُ تَزْنِي وَزِنَاهَا النَّظَرُ ، وَاللِّسَانُ يَزْنِي وَزِنَاهُ التُّطْقُ ، وَالرَّجُلُ تَزْنِي وَزِنَاهَا الْخَطَى ، وَالْيَدُ تَزْنِي وَزِنَاهَا الْبَطْشُ ، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ ^(١) . فبدأ بزنى العين لأنه أصل زنى اليد والرجل والقلب والفرج ، ونبه بزنى اللسان بالكلام على زنى الفم بالقبيل ، وجعل الفرج مصدقاً لذلك إن حقق الفعل ، أو مكذباً له إن لم يُحققه . وهذا الحديث من أبين الأشياء على أن العين تعصى بالنظر وأن ذلك زناها ، ففيه ردٌّ على من أباح النظر مطلقاً . وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يَا عَلِيُّ لَا تُنْجِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الثَّانِيَةَ ^(٢) » .

ووقعت مسألة : ما تقول السادة العلماء في رجل نظر إلى امرأة نظرة فعلق حبها بقلبه واشتد عليه الأمر ، فقالت له نفس : هذا كله من أول نظرة فلو أعدت النظر إليها لرايتها دون ما في نفسك فساوت عنها ، فهل يجوز له تعمُّدُ النظر ثانياً لهذا المعنى ؟ .

فسكان الجواب : الحمد لله لا يجوز هذا لمشرة أوجه : أحدها : أن الله سبحانه أمر بغص البصر ولم يجعل شفاء القلب فيما حرّمه على العبد . الثاني : أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن نظر الفجأة ، وقد علم أنه يؤثر في القلب فأمر بمداواته بصرف البصر لا بتكرار النظر . الثالث : أنه صرح بأن الأولى له وليست له الثانية ، ومحال أن يكون داؤه مما له ودواؤه فيما ليس له . الرابع : أن الظاهر قوة الأمر بالنظرة الثانية لاتناقضه ، والتجربة شاهدته به ، والظاهر

(١) أورده المنذرى بنحوه وقال : رواه مسلم والبخارى باختصار والنسائي وأبو داود .

(٢) رواه أحمد والترمذي وأبو داود . كما قال الحافظ المنذرى .

أن الأمر كما رآه أول مرة فلا تحسنُ الخاطرة بالإعادة . الخامس : أنه ربما رأى ما هو فوق الذى فى نفسه فزاد عذابه . السادس : أن إبليس عند قصده للنظرة الثانية يقوم فى ركائبه فيزين له ما ليس بحسنٍ لِتَتِمَّ البلية . السابع : أنه لا يُعَانُ على بليته إذا أعرض عن امتثال أوامر الشرع وتداوى بما حرّمه عليه ، بل هو جديرٌ أن تتخلف عنه الموعظة . الثامن : أن النظرة الأولى سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس ، ومعلومٌ أن الثانية أشدَّ سُمًّا فكيف يتداوى من السمِّ بالسمِّ ؟ . التاسع : أن صاحب هذا المقام فى مقام معاملة الحق عزَّ وجلَّ فى ترك محبوبٍ كما زعم ، وهو يريد بالنظرة الثانية أن يتبين حال المنظور إليه ، فإن لم يكن مرضياً تركه ، فإذا يكون تركه لأنه لا يلائم غرضه لا لله تعالى ، فأين معاملة الله سبحانه بترك المحبوب لأجله ؟ . العاشر : يتدين بضرب مثلٍ مطابق للحال وهو أنك إذا ركبت فرساً جديداً فالت بك إلى درجٍ ضيق لا ينفذ ولا يمكنها تستدير فيه للخروج ، فإذا همت بالدخول فيه فاكبحها لئلا تدخل ، فإذا دخلت خطوة أو خطوتين فصيح بها وردها إلى وراء عاجلاً قبل أن يتمكن دخولها ، فإن رددتها إلى ورأها سهل الأمر ، وإن توانيت حتى ولجت^(١) وسقطتها داخلاً ثم قت تجذبه بذبنها عسر عليك أو تعذر خروجها ، فهل يقول عاقل إن طريق تخليصها سوفها إلى داخل ؟ فكذلك النظرة إذا أثرت فى القلب ، فإن عجز الحازم وحتم المادّة من أولها سهل علاجه ، وإن كرّر النظر ونقب عن محاسن الصورة ونقالها إلى قلب فارغ فنقشها فيه تمكنت المحبة ، وكما تواصلت النظرات كانت كلاماً يستقى الشجرة فلا تزال شجرة الحب تنمى حتى يفسد القلب ويُعرض عن الفكر فيما أمر به ، فيخرج

(١) ولجت : دخلت .

بفاحبه إلى المحن ، ويوجب ارتكابَ المحظورات والقتن ، ويلقى القلب في التلّف . والسببُ في هذا أن الناظر التذّت عينه بأوّل نظرة فطلبت المعاودة ، كأكل الطعام اللذيذ إذا تناول منه لقمة ، ولو أنه غَضَّ أَوَّلًا لاستراح قلبه وسَلِمَ ، وتأمّل قول النبي صلى الله عليه وسلم : « النظرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ ^(١) » فَإِنَّ السَّهْمَ شَأْنُهُ أَنْ يَسْرَى فِي الْقَلْبِ فَيَعْمَلُ فِيهِ عَمَلُ السِّمِّ الَّذِي يُسْقَاهُ الْمَسْمُومُ ، فَإِنْ بَادَرَ وَاسْتَفْرَغَهُ وَإِلَّا قَتَلَهُ وَلَا بَدَّةَ .

قال المَرُودِيُّ : قلت لأحمد : الرجل ينظر إلى المملوكة . قال : أخاف عليه الفتنة ، كم نظرة قد أَلَت في قلب صاحبها البلبال ^(٢) . وقال ابن عباس : الشيطان من الرجل في ثلاثة : في نظره وقابله وذكره ، وهو من المرأة في ثلاثة : في بصرها وقلبها وعجزها .

فصل

ولما كان النظرُ من أقرب الوسائل إلى الحُرْمِ اقتضت الشريعة تحريمه ، وأباحتَه في موضع الحاجة ، وهذا شأن كل ما حرّم تحريم الوسائل فإنه يباح للمصلحة الراجحة ، كما حرّمت الصلاة في أوقات النهي لثلاث تكون وسيلةً إلى التَّشْبِه بالكفار في سجودهم للشمس ، أُبيحت للمصلحة الراجحة كقضاء الفوائت وصلاة الجنائزة وفعل ذوات الأسباب على الصحيح . وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « النظرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ فَمَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنْ نَحَّاسِينَ أَمْرَأَةٍ أَوْرَثَ اللَّهُ قَلْبَهُ حَالَاوَةً يَجِدُهَا

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده .

(٢) جمع بلبال وبلباله : شدة الهم والوساوس .

إلى يَوْمٍ يَلْقَاهُ» ، أو كما قال . وقال جريرُ بن عبد الله رضى الله عنهما : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة فأمرني أن أصرف بصرى^(١) . ونظرة الفجأة هي النظرة الأولى التي تقع بغير قصدٍ من الناظر ، فما لم يَعْتَمِدْهُ القلبُ لا يُعَاقَبُ عليه ، فإذا نظر الثانية تعمداً أُنِجِمَ ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم عند نظرة الفجأة أن يصرف بصره ولا يستديم النظر ، فإن استدامت كسكريره ، وأرشد من ابتلى بنظرة الفجأة أن يداويه بإتيان أمراته ، وقال : إنَّ معها مثل الذي معها^(٢) ، فإن في ذلك التسلي عن المطلوب بجنسه . والثاني أن النظر يثير قوة الشهوة فأمره بتدقيقها بإتيان أهله ، ففتنة النظر أصل كل فتنة كما ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَا تَرَكَتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ الْمُنَاسَةِ^(٣) » ، وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « اتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا الدَّسَاءَ » وفي مسند محمد بن إسحاق السراج من حديث علي بن أبي طالب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الدَّسَاءُ وَالْخَمْرُ » وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لم يكفر من كفر بمن منى إلا من قبل النساء ، وكفر من بقى من قبل النساء .

-
- (١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى . كما فاك الحافظ المنذرى .
 (٢) ورد الأمر بإتيان الأهل في مثل هذه الحالة في أحاديث رواها أحمد ومسلم وأبو داود .
 (٣) رواه البخارى ومسلم وأحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه . كما قال السيوطى .

فصل

وفي غضّ البصرِ عدّة فوائد : أحدها تخليص القلب من ألم الحسرة ، فإن من أطلق نظره دامت حسرتُه ، فأضرَّ شيء على القلب إرسال البصر ، فإنه يرى ما يشتدّ طلبه ولا صبرَ له عنه ولا وصولَ له إليه ، وذلك غايةُ ألمه وعذابه ، قال الأصمعي : رأيت جاريةً في الطواف كأنها مَهَاةٌ ، فجعلتُ أنظر إليها وأملأُ عيني من محاسنها فقالت لي : يا هذا ما شانك ؟ قلت : وما عليك من النظر ؟ فأنشأت تقول :

وكنّت متى أرسلتَ طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتكَ المناظرُ
رأيتَ الذي لا كله أنتَ قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنتَ صابرُ

والنظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرميّة ، فإن لم تقتله جرحته ، وهي بمنزلة الشرارة من النار ترمي في الحشيش اليابس ، فإن لم تُحرقه كَلَّه أحرقت بعضه كما قيل :

كل الحوادث مبداها من النظر ومُعظمُ النار من مُستصغِرِ الشرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر
والمرء ما دام ذا عينٍ يُملِكُها في أعينِ الغيدِ موقوفٌ على الخطر
يسرّ مقلّته ما ضرَّ مهجته لا مرحباً بسرورٍ عاد بالضرر
والناظر يرمي من نظره سهام غرضها قلبه وهو لا يشعر ، فهو إنما يرمي قلبه ، ولي من أبيات :

يارامياً بسهام اللعظِ مجتهداً أنتَ القتلُ بما ترمي فلا تُصيب
وباعثَ الطرف يَرْتَادُ الشفاءَ له تَوَقُّهُ إِنَّهُ يَأْتِيكَ بِالْعَاطِبِ

وقال الفرزدق :

تزوّد منها نظرة لم تدغ له فؤاداً ولم يشعُر بما قد تزوّدَا
لم أرَ مقتولاً ولم أرَ قاتلاً بغير سلاحٍ مثانها حين أقصدا

وقال آخر :

ومن كان يؤثني من عدوّ وحاسدٍ فإني من عيني أتيتُ ومن قلبي
هما اغتوراني^(١) نظرة ثم فسكرة فما أبقيا لي كل من رقادٍ ولا لبّ

وقال آخر :

رمانى بها طرقي فلم تُخطِ مقاتي وما كل من يُرعى تصاب مقاتله
إذا ميتٌ فابكوني قتيلاً لطرّفه قتيل صديقي حاضرٍ مايزيله

وقال ابن المعتز :

متيمٌ يرعى نجومَ الدّجى يبكي عليه رحمةً عاذله
عيني أشاطت^(٢) بدمي في الموى فابكوا قتيلاً بعضه قاتله

ومثله للمتنبي :

وأنا الذي اجتلبت المنية طرفه فمن المطالب والقتيلُ القاتلُ
وقال أيضاً :

يانظرةً نلتِ أرقاداً وغادرت في حدّ قلبي ما بقيتُ فلولاً
كانت من الكحلّاء سُولى وإنما أجلى تمثّل في فؤادي سولاً

وقال أيضاً :

(١) اغتوراني : تداواني .

(٢) أشاط دمه وأشاطه غيره أهلكه : أو عرضه للقتل

وَقِيَ الْأَمِيرُ مِنَ الْعِيُونِ^(١) فَإِنَّهُ مَالَا يَزُولُ يَأْسُهُ وَسَخَاهُ
يَسْتَأْسِرُ الْبَطْلُ الْكَمَى^(٢) بِنَظَرِهِ وَيَحُولُ بَيْنَ قَوَادِهِ وَعِزَّاهِ
وَقَالَ الصُّورِيُّ :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرَعِ الْبُرُوقَ الْلَوَاحِجَا وَنَمَتَ جَرَى مِنْ تَحْتِكَ السَّيْلُ سَالِحَا
غَرَسْتَ الْهَوَى بِاللَّحْظِ ثُمَّ احْتَقَرْتَهُ وَأَهْمَلْتَهُ مُسْتَأْنَسًا مُتَسَاوِحَا
وَلَمْ تَدْرِ حَتَّى أَيْنَعْتَ شَجَرَاتُهُ وَهَبَّتْ رِيَّاحُ الْوَجْدِ فِيهِ لَوَاقِحَا
فَأَمْسَيْتَ تَسْتَدْعِي مِنَ الصَّبْرِ عَازِبًا عَلَيْكَ وَتَسْتَدْنِي مِنَ النَّوْمِ نَازِحًا^(٣)

وَدَخَلَ أَصْبَهَانَ مُغْنًى فَكَانَ يَتَغَنَّى بِهَذَيْنِ الْيَتِيمَيْنِ :
سَمَاعًا يَا عِبَادَ اللَّهِ مَنِ وَكَفُّوا عَنْ مِلَاحِظَةِ الْمَلَّاحِ
فَإِنَّ الْحُبَّ آخِرُهُ الْمَنَايَا وَأَوَّلُهُ شَسْبِيهِ بِالْمُزَاحِ

وَقَالَ آخَرُ :

وَشَادَنٍ^(٤) لَمَّا بَدَا أَسْلَمَنِي إِلَى الرَّدَى
بِظَرْفِهِ وَلَطْفِهِ وَطَرَفِهِ لَمَّا بَدَا
أَرَدْتُ أَنْ أَصِيدَهُ فَصَادَ قَلْبِي وَعَدَا

وَقَالَ آخَرُ يَمَاتِبُ عَيْنَهُ :

وَاللَّهِ يَا بَصْرِي الْجَانِي عَلَى جَسَدِي لِأَطْفَانٍ بَدَمَعِي لَوَعَةً الْحَزَنِ
تَاللَّهِ تَطْمَعُ أَنْ أَبْكِي هَوَى وَضَعِي وَأَنْتَ تَشْبَعُ مِنْ مُغْنَصٍ وَمِنْ وَصَنِ
هِيَهَاتَ حَتَّى تَرَى طَرَفًا بِلَا نَظَرٍ كَمَا أَرَى فِي الْهَوَى شَخْصًا بِلَا بَدَنِ

(١) فِي دِيْوَانِ الْمُتَنَبِّئِ : وَقِيَ الْأَمِيرُ هَوَى الْعِيُونِ .

(٢) الْكَمَى : السَّجَاعُ ، الْجَرَى ، الْمَقْدَامُ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَاحُ أَوْ لَمْ يَكُنْ .

(٣) عَازِبًا وَنَازِحًا : بَعِيدًا .

(٤) الشَّادَنُ : وَلَدُ الظُّلَيْيَةِ وَجَمْعُهُ شَوَادِنُ .

وقال آخر :

يا من يرى سقى يزيدُ وعِلَّتْ أَعْيَتْ طليبي
لا تعجبينُ فهكذا تنجني العيونُ عَلَى القلوب

وقال آخر :

لواحظناُ تنجى ولا عِلْمَ عندنا وأنفسنا مأخوذةٌ بالجرائر^(١)
ولم أرى أغبى من نفوسٍ عنائفٍ تُصَدِّقُ أخهارَ العيونِ الفواجر
ومن كانت الأجفان حُجَّابَ قلبه أَذِنَ عَلَى أحشائه بالفواقِر^(٢)

وقال آخر :

ومستفتح باب البلاء بنظرةٍ تزوّد منها قلبه حَسْرَةَ الدهر
فوالله ما تدرى أيدرى بما جنث على قلبه أم أهلكته وما يدرى

وقال آخر :

أنا ما بين عدوينِ هما قلبي وطرفي
ينظر الطرف ويهوى القلبُ والمقصودُ حتفى

وقال الخفاجى^(٣)

رَمَتْ عَيْنُهَا عَيْنِي وَرَاحَتُ سَلِيمَةٍ كَمَنْ حَاكَمَ بَيْنَ السَّكِينَةِ وَالْعَبْرِي^(٤)
فِيَا طَرْفُ قَدْ حَذَرْتُكَ النَّظْرَةَ الَّتِي خَلَسْتَ فَبَارَقْتَ نَهْيًا وَلَا زَجْرًا

(١) الجرائر جمع جريرة : الذنوب والجنايات .

(٢) الفواقِر جمع فاقرة : الدواهي .

(٣) هو عبد الله بن سعيد المعروف بابن سنان الخفاجى وهو غير الشهاب أحمد الخفاجى فإن هذا متأخر .

(٤) العبرى : الباكية .

وياقلبُ قد أرداك طرفي مرةً فويحك لم طاوَعته سرّةً أخرى
 ولي من أبياتٍ لعل معناها مبتكر :
 ألم أقل لك لا تسرق ملاحظةً فسارقُ اللحظ لا ينجو من الدرك^(١)
 نصبتُ طرفي له لما بدا شرّاً فكان قلبي أولى منه بالشرّك
 الفائدة الثانية أنه يورث القلب نوراً وإشراقاً يظهر في العين وفي الوجه
 وفي الجوارح ، كما أن إطلاق البصر يورثه ظلمةٌ تظهر في وجهه وجوارحه .
 ولهذا والله أعلم ذكر الله سبحانه آية النور في قوله تعالى : (اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ) عقيب قوله : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)^(٢) وجاء
 الحديث مطابقاً لهذا حتى كأنه مشتقٌّ منه وهو قوله : « النظره سهمٌ مسمومٌ من
 سهام إبليس ، فمن غضّ بصره عن محاسن امرأةٍ أورث الله قلبه نوراً »^(٣)
 الحديث .

الفائدة الثالثة أنه يورث صحة الفراسة فإنها من النور وسماته ، وإذا استدار
 القلب صحّت الفراسة لأنه يصير بمنزلة المرآة العجولة تظهر فيها المعلومات كما هي ،
 والنظر بمنزلة التنفس فيها ، فإذا أطلق العبدُ نظره تنفّست نفسه السعداء في
 مرآة قلبه فطمّنت نورها كما قيل :

مرآة قلبك لا تريك صلاحه والنفسُ فيها دائماً تنفّس
 وقال شجاع السكرماني : من عمر ظاهره باتباع السنة ، وباطنه بدوام
 المراقبة ، وغضّ بصره عن المحارم ، وكفّ نفسه عن الشهوات ، وأكل من
 (١) الدرك : النجاة أو العقاب وهي ما يترتب على الفعل من الخير والشر إلا
 أن استعماله في الشر .

(٢) الآيتان ٣٥ و ٣٠ . سورة النور .

(٣) تقدم هذا الحديث في ص (٩٦) وفيه : أورث الله قلبه حلاوة .

الحلال لم تخطيء فراسته . وكان شجاعاً لا تخطيء له فرائسه . والله سبحانه وتعالى يميز العبد على عمله بما هو من جنسه ، فمن غصَّ بصره عن المحارم عوضه الله سبحانه وتعالى إطلاق نور بصيرته ، فلما حبس بصره الله أطلق الله نور بصيرته ، ومن أطلق بصره في المحارم حبس الله عنه بصيرته .

الفائدة الرابعة أنه يفتح له طرق العلم وأبوابه ، ويسهل عليه أسبابه ، وذلك بسبب نور القلب ، فإنه إذا استنار ظهرت فيه حقائق المعلومات ، وانكشف له بسرعة ، ونفذ من بعضها إلى بعض . ومن أرسل بصره تكدر عليه قلبه وأظلم ، وأنسد عليه باب العلم وطريقه .

الفائدة الخامسة أنه يورث قوة القلب وثباته وشجاعته ، فيجعل له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة . وفي الأثر : إن الذي يخالف هواه يفرق^(١) الشيطان من ظله ، ولهذا يوجد في المتبع لهواه من ذل القلب وضعفه ومهانة النفس وسقارتها ما جعله الله لمن آثر هواه على رضاه . قال الحسن : إنهم وإن هم لبجّت بهم البغال وطقّقت بهم البراذين^(٢) إن ذل المعصية لفي قلوبهم . أبى الله إلا أن يذل من عصاه . وقال بعض الشيوخ : الناس يطالبون العزّ بأبواب الملوك ، ولا يجدونه إلا في طاعة الله . ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه ، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه ، وفيه قسطن ونصيب من فعل من عاداه بمعاصيه ، وفي دعاء القنوت : إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت .

الفائدة السادسة أنه يورث القلب سروراً وفرحة ، وانشراحاً أعظم من اللذة والسرور الحاصل بالنظر ، وذلك لقوره عدوه بمخالفته ومخالفة نفسه وهواه ،

(١) يفرق : يخشى ويخاف .

(٢) الهمليجة : حسن سير الدابة . والطقطة : حكاية صوت حوافر الدواب .

والبراذين : الدواب مفرداً برذون وبرذونة .

وأيضاً فإنه لما كَفَّ لذته وحبس شهوته لله وفيها مسرةٌ نفسه الأمانة بالسوء
أعاضه الله سبحانه مسرةً ولذةً أكل منها ، كما قال بعضهم : والله لَلذَّةُ العفة
أعظمُ من لذةِ الذنب . ولا ريب أن النفس إذا خالفت هواها أعقبتها ذلك فرحاً
وسروراً ولذةً أكل من لذةِ موافقةِ الهوى بما لا نسبة بينهما . وهاهنا يمتاز
العقل من الهوى .

الفائدة السابعة أنه يُخَلِّص القلبَ من أسر الشهوة ، فإن الأسير هو أسيرُ
شهوته وهواه ، فهو كما قيل :

* طليق برأى العين وهو أسير *

ومتى أسرت الشهوةُ والهوى القلبَ تمسَّك منه عدوُّه وسامه سوء العذاب
وصار :

كمصفورةٍ في كفِّ طفلٍ يسومها حياضَ الردى والطفلُ يلهو ويلعب
الفائدة الثامنة أنه يسدُّ عنه باباً من أبواب جهنم ، فإن النظر بابُ الشهوة
الحاملة على مُواقعة الفعل ، وتحريمُ الرب تعالى وشرعه حجابٌ مانعٌ من
الوصول ، فتي هَتَكَ الحجابَ ضَرِي^(١) عَلَى المَحْظُور ، ولم تَقِفْ نفسه منه عند
غاية ، فإن النفس في هذا الباب لا تَقْتَنِعُ بغايةٍ تقف عندها ، وذلك أن لذتها في
الشيء الجديد ، فصاحب الطارف لا يَقْتَنِعُهُ التليد^(٢) ، وإن كان أحسنَ منه
منظراً وأطيبَ نَجْوَراً ، ففضُّ البصر يسدُّ عنه هذا الباب الذي عَجَزَت الملوكة عن
استيفاء أغراضهم فيه .

الفائدة التاسعة أنه يقوِّم عقله ويزيده ويثبته ، فإن إطلاق البصر وإرساله

(١) ضرى به أو عليه : لزمه وأولع به ، اعتاده وتجراً عليه .

(٢) التليد . القديم وضده الطارف .

لَا يَحْصُلُ إِلَّا مِنْ خِفَّةِ الْعَقْلِ وَطَيْشِهِ وَعَدَمِ مَلَاَحِظَاتِهِ لِلْعَوَاقِبِ ، فَإِنْ خَاصَمَ الْعَقْلُ
مَلَاَحِظَةَ الْعَوَاقِبِ . وَمُرْسِلُ النَّظَرِ لَوْ عَلِمَ مَا تَجْنِي عَوَاقِبُ نَظَرِهِ عَلَيْهِ لَمَا أَطْلَقَ
صَرَهُ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

بِوَأَعْقَلِ النَّاسِ مَنْ لَمْ يَرْتَكِبْ سَبِيحًا حَتَّى يَفْكَرَ مَا تَجْنِي عَوَاقِبُهُ
الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ أَنَّهُ يُخَلِّصُ الْقَلْبَ مِنْ سُكْرِ الشَّهْوَةِ وَرَقْدَةِ الْغَفْلَةِ ، فَإِنْ
إِطْلَاقَ الْبَصَرِ يُوجِبُ اسْتِحْكَامَ الْغَفْلَةِ عَنْ اللَّهِ وَالْأَرْوَاقِ الْآخِرَةِ ، وَيُوقِعُ فِي سُكْرَةِ
الْعَشْقِ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ عَشَّاقِ الصُّورِ : (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ كَفَى سَكْرَتِهِمْ
يَعْمَهُونَ)^(١) . فَالنَّظَرَةُ كَأَنَّ مِنْ خَرٍ ، وَالْعَشْقُ هُوَ سُكْرُ ذَلِكَ الشَّرَابِ ،
وَسُكْرُ الْعَشْقِ أَعْظَمُ مِنْ سُكْرِ الْخَرِ ، فَإِنْ سَكَرَ الْخَرُ يُفَيِّقُ ، وَسَكَرَ الْعَشْقُ
فَلَمْ يَفَيِّقْ إِلَّا وَهُوَ فِي عَسْكَرِ الْأَمْوَاتِ ، كَمَا قِيلَ :

سَكَرَانَ سُكْرُ هَوًى وَشُكْرُ مَدَامَةٍ وَمَتَى إِفَاقَتُهُ مَنْ بِهِ سُكْرَانُ ؟
وَقَوَائِدُ غَضِّ الْبَصَرِ وَأَفَاتُ إِرْسَالِهِ أَضْعَافُ أَضْعَافٍ مَا ذَكَرْنَا ، وَإِنَّمَا
نَبِّهْنَا عَلَيْهِ تَنْبِيْهًا وَلَا سِيَّما النَّظَرَ إِلَى مَنْ لَمْ يَحْمِلِ اللَّهَ سَبِيلًا إِلَى قَضَاءِ الْوَطَرِ مِنْهُ
شَرْعًا ، كَالْمُرْدَانِ الْحَسَّانِ ، فَإِنْ إِطْلَاقَ النَّظَرِ إِلَيْهِمْ السَّمُّ النَّاقِعُ^(٢) وَالِدَاءُ
الْعُضَالُ^(٣) . وَقَدْ رَوَى الْحَافِظُ مُحَمَّدُ بْنُ نَاصِرٍ مِنْ حَدِيثِ الشَّعْبِيِّ مُرْسَلًا . قَالَ :
قَدِمَ وَفَدُ عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِيهِمْ غُلَامٌ أَسْرَدُ ظَاهِرُ
الْوَضَاءِ^(٤) ، فَاجْلَسَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَقَالَ : كَانَتْ خَطِيئَتُهُ
لِمَنْ مَضَى مِنَ النَّظَرِ . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ : إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَحْدُ النَّظَرَ إِلَى

(١) الْآيَةُ ٧٢ . سُورَةُ الْحَجَرِ .

(٢) السَّمُّ النَّاقِعُ : الْبَالِغُ الْآثَرُ ، الْقَاتِلُ .

(٣) الدَّاءُ الْعُضَالُ : الشَّدِيدُ الْمَعْجِزُ ، الَّذِي لَا طِبَّ لَهُ .

(٤) الْوَضَاءُ : الْحَسَنُ وَالْجَمَالُ وَالنَّظَاقَةُ

الغلام الأمرد فأتهموه . وقد ذكر ابن عديّ في كامله من حديث بقية عن
 الوازع عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : نهى رسول الله صلى
 الله عليه وسلم أن يحدّ الرجل النظر إلى الغلام الأمرد ، وكان إبراهيم
 النخعي وسفيان الثوري وغيرهما من السلف يَنْهَوْنَ عن مجالة المردان . قال
 النخعي : مجالستهم فتنة وإناهم بمنزلة النساء . وبالجلة فكم من مُرسِلٍ لحظاته
 رجع بجيش صبره مغلولاً ، ولم يُقلع حتى تشحط^(١) بينهم قتيلاً .
 يا ناظرأ ما أقلعت لحظاته حتى تشحط بينهم قتيلاً

(١) تشحط : تخبط واضطرب وتمرغ .

الباب السابع

في ذكر مناظرة بين القلب والعين ولوم كل منهما صاحبه والحكم بينهما

لما كانت العين رائداً ، والقلب باعناً وطالبا ، وهذه لها لذة الرؤية ، وهذه له لذة الظفر ، كانا في الهوى شريكي عنان . ولما وقعا في العناء ، واشتركا في الولهاء ، أقبل كل منهما يلوم صاحبه ويعاتبه .

فقال القلب للعين : أنت التي سُمِّيتي إلى موارد الملكات ، وأوقعيني في الحسرات بمُتابعةك اللحظات ، ونزَّهت طرفك في تلك الرياض ، وطلبت الشفاء من الخلدق المراض ، وخالفتِ قولَ أحكم الحاكمين : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ)^(١) وقولَ رسوله صلى الله عليه وسلم : (النَّظَرُ إِلَى الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ ، فَمَنْ رَكَهُ [مِنْ] خَوْفِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَثَابَهُ اللَّهُ إِيْمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ » ، (رواه الإمام أحمد) حدثنا هشيم ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق ، عن محارب بن دثار ، عن صلة ، عن حذيفة .

وقال عمر بن شبة : حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، حدثنا عنبة بن عبد الرحمن القرشي ، حدثنا أبو الحسن المدني ، حدثنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نَظَرُ الرَّجُلِ فِي مُحَاسِنِ الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ مَسْمُومٌ ، فَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ السَّهْمِ أَعْقَبَهُ اللَّهُ عِبَادَةً تَسْرُهُ »^(٢) . فَمَنْ الْمَلُومُ سِوَى مَنْ رَمَى صَاحِبَهُ بِالسَّهْمِ الْمَسْمُومِ ؟ أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَضَرَّ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنَ الْعَيْنِ وَاللِّسَانِ ؟ فَمَا عَطِبَ

(١) الآية ٣٠ . سورة التور .

(٢) تقدمت هذه الأحاديث في المصنفين ٩٥ و ٩٦ .

أكثرُ من عَطِبَ إلا بهما ، وما هَلَكَ أ كثرُ من هَلَكَ إلا بسببهما ، فله كم
من مَوْرَد هَلَكَةٍ أورداه ، ومصدِر رَدَى عنه أصدراه ، فمن أَحَبَّ أن يحيا شعيدياً
أو يعيش حميداً فليَقُضْ من عِنان طَرَفِهِ ولسانه ليسلم من الضرر ، فإنه كامنٌ
في فضول الكلام وفضول النظر . وقد صرَّح الصادق المصدوق بأن العينين
ترنيان وهما أصل زنى الفرج ، فإنهما له رائدان ، وإليه داعيان ، وقد مثل
رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة فأمر السائل أن يصرف بصره ،
فأرشده إلى ما ينفعه ويدفع عنه ضرره ، وقال لابن عمه على رضى الله عنه محذراً
له بما يوقع في الفتنة ويورث الحسرة : « لا تُتَّبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ » (١) .
أو ما سمعت قولَ العقلاء : من سَرَّحَ ناظره ، أتعِبَ خاطره ، ومن كثرت
لحظاته ، دامت حَسَرَاتُه ، وضاعت عليه أوقاته ، وفاضت عبراته ، وقولَ
الناظم (٢) :

نظرُ العيون إلى العيون هو الذى جعل الملاك إلى القواد سبيلاً
ما زالت اللحظات تغزو قلبه حتى تشحط ينهن قتيلاً
وقال آخر (٣) :

تَمَتَّعْتُمَا يَا مِقَاتَى بِنَظْرَةٍ وَأوردتْ قَلْبِي أَمْرَ الْمَوَارِدِ
أَعْيَنِي كَفًّا عَنْ قَوَادِي فَإِنَّهُ مِنَ الظُّلْمِ سَعَى اثْنَيْنِ فِي قَتْلِ وَاحِدٍ

فصل

قالت العين . ظلمتني أولاً وآخرأ ، وبُؤْتُ يائى باطنأ وظاهرأ ، وما أنا

(١) تقدمت هذه الأحاديث في الصفحات ٩٥ و ٩٦ .

(٢) البيتان لابن مرداس كما جاء في سحر العيون .

(٣) البيتان للأرجاني كما جاء في تزيين الأشواق وفيهما : أعيناي .

إِلَّا رَسُولُكَ الدَّاعِي إِلَيْكَ ، وَرَأْدُكَ الدَّالُّ عَلَيْكَ .

وَإِذَا بَعَثَ بَرَاءُ نَحْوَ الَّذِي تَهْوَى وَتَعْتَبُهُ ظَلَمْتَ الرَّائِدَا
فَأَنْتَ الْمَلِكُ الْمَطَاعُ ، وَنَحْنُ الْجُنُودُ وَالْأَتْبَاعُ . أَرَكِبْتَنِي فِي حَاجَتِكَ خَيْلَ
الْبَرْدِ ، ثُمَّ أَقْبَلْتَ عَلَيَّ بِالْهَيْدِ وَالْوَعِيدِ . فَلَوْ أَمَرْتَنِي أَنْ أَغْلِقَ عَلَى بَابِي ، وَأَرْخِيَ
عَلَيَّ حِجَابِي ، لَسَمِعْتُ وَأَطَعْتُ ، وَلَمَّا رَعَيْتَ فِي الْحُمَى ^(١) وَرَمَعْتَ ، أُرْسَلْتَنِي
لِصَيْدٍ قَدْ نُصِبَتْ لَكَ حَبَائِلُهُ وَأَشْرَاكُهُ ، وَاسْتَدَارَتْ حَوْلَكَ فِخَاكُهُ وَشِبَاكُهُ .
فَقَدَوْتَ أَسِيرًا ، بَعْدَ أَنْ كُنْتَ أَمِيرًا ، وَأَصْبَحْتَ مَمْلُوكًا ، بَعْدَ أَنْ كُنْتَ مَلِيكًا .
هَذَا وَقَدْ حَكَمَ لِي عَلَيْكَ سَيِّدُ الْأَنْامِ وَأَعْدَلُ الْحُكَامِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، حَيْثُ
يَقُولُ : « إِنْ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ ، وَإِذَا
فَسَدَتْ فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ ، إِلَّا وَهِيَ الْقَلْبُ ^(٢) » ، وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ : الْقَلْبُ مَلِكٌ وَالْأَعْضَاءُ جُنُودُهُ ، فَإِنْ طَابَ الْمَلِكُ طَابَتِ جُنُودُهُ ، وَإِذَا
خَبِثَ الْمَلِكُ خَبِثَتِ جُنُودُهُ . وَلَوْ أَنْعَمْتَ النَّظَرَ لَعَلِمْتَ أَنَّ فِسَادَ رِعْيَتِكَ بِفِسَادِكَ ،
وَصَلَاحَهَا وَرَشْدَهَا بِرِشَادِكَ ، وَلَكِنَّكَ هَلَكْتَ وَأَهْلَاكَتَ رِعْيَتَكَ ، وَحَمَلْتَ
عَلَى الْعَيْنِ الضَّعِيفَةِ خَطِيئَتَكَ ، وَأَصْلَ بَلِيَّتِكَ أَنَّهُ خَلَا مِنْكَ حُبُّ اللَّهِ وَحُبُّ
ذِكْرِهِ وَكَلَامِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَأَقْبَلْتَ عَلَى غَيْرِهِ وَأَعْرَضْتَ عَنْهُ ، وَتَعَوَّضْتَ
بِحُبِّ مَنْ سِوَاهُ وَالرَّغْبَةِ فِيهِ مِنْهُ . هَذَا وَقَدْ سَمِعْتَ مَا قَصَّ عَلَيْكَ مِنْ إِنْكَارِهِ
سَبْحَانَهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ اسْتَبْدَالَهُمْ طَعَامًا بِطَعَامٍ أَذْنَى مِنْهُ ، فَذَمُّهُمْ عَلَى ذَلِكَ
وَنَعَاهُ عَلَيْهِمْ ، وَقَالَ : « أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ^(٣) »

-
- (١) الحمى : الموضع فيه كلاً يحمى من الناس أن يرضع فيه . وحمى الله محارمه
ورمعت الماشية : رعت كيف شاءت في خصب وسعة .
(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .
(٣) الآية ٦١ . سورة البقرة .

فكيف بمن استبدل بحبة خالقه وفاطره ، ووليّه ومالك أسرّه ، الذى لاصلاح له ولا فلاح ، ولا نعيم ولا سرور ، ولا فرحة ولا نجاة ، إلا بأن يوحدّه فى الحب ، ويكون أحبّ إليه مما سواه ، فانظر بالله بمن استبدلت ؟ وبهجة من تعوّضت ؟ رضيت لنفسك بالحبس فى الحبس^(١) ، وقلوبٌ يحببها قبول حول العرش . فلو أقبلت عليه وأعرضت عن سواه لرأيت العجائب ، ولأمنت من المتالف والمعاطب ، أو ما علمت أنه خصّ بالفوز والنعيم ، من أتاه بقلب سليم ، أى سليم مما سواه ، ليس فيه غير حبه واتّباع رضاه . قالت . وبين ذنبى وذنبك عند الناس كما بين عمائى وعماك فى القياس . وقد قال من ييده أزمته الأمور : (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ^(٢)) .

فصل

فلما سمعت الكبد تحاورها الكلام ، وتناوّلها الخصام ، قالت : أنتم على هلاكى تساعدنّما ، وعلى قتلى تعاوننا . ولقد أنصف من حكى مناظرتكما ، وعلى لسانى متظلماً منكما :

يقول طرّفى لقلبي هيّجت لى ستماً	والعين تزعم أن القلب أنكها ^(٣)
والجسم يشهد أن العين كاذبة	وهي التى هيّجت للقلب تبلوها
لولا العيون وما يجنّين من ستم	ما كنت مطرّحاً من بعض قتلاها
فقلت الكبد المظلوم اتّمّدا	قطعتانى وما راقبتا الله

(١) الحبس مثلثة : البستان . وهو أيضاً المخرج . وكانوا يةضنون حوائجهم فى البساتين .

(٢) الآية ٤٦ . سورة الحج .

(٣) أنكها : أوقع بها ؛ ونكى : غلب وقهر وانتهس .

وقال آخر^(١) :

يقول قلبي لطوفي أن بكى جزعاً تبكى وأنت الذى حملتني الوجعاً
فقال طرفى له فيما يعاتبه بل أنت حملتني الآمال والطمعاً
حتى إذا ما خلا كل بصاحبه كلاهما بطويل السقم قد قنعاً
نادتهما كبدي لا تبعدا فلقد قطعاني هما لاقيما قطعاً
وقال آخر :

عابت قلبي لما رأيت جسمى نحىلا
فأزيم القلب طرفى وقال كنت الرسولا
فقال طرفى لقلبي بل كنت أنت الدليلا
فقلت كفا جميعاً تركتاني قتيلاً

ثم قالت : أنا أتولى الحسك بينكما . أنما فى البالية شريكاً عياناً ، كما أنكما
فى اللذة والمسة قرسارهان . فالعين تلند ، والقلب يتعن ويشتعى ، ولهذا قال
فيكما القائل :

ولما سلوت الحب بشراً ناظري لقلبي فقال القلب لى ولك الهنا
تخاصمت من إحياء ليلك ساهراً وخصمتني من لوعة الهجر والضنا
كلانا مهتماً بالبقاء فإن تعد فلا أنت يقيقك الغرام ولا أنا
وإن لم تدر كسكنا عنايةً مُقَّابِ القلوب والأبصار ، وإلا فالك من قرّة
ولا للقلب من قرار ، قال الشاعر :

فوالله ما أدرى أنفى ألومها على الحب أم عيني المشؤمة أم قلبي
فإن لمت قلبي قال لى العين أبصرت وإن لمت عيني قالت الذنب للقلب

(١) فى سحر البيون أنه ابن جنسكيتا البغدادى .

فعمى وقلبي قد تقاسما دمي فيارب كن عوناً على العين والقلب
 قالت: ولما سقيت القلب ماء المحبة بكؤوسك ، أوقدت نارا الشوق
 فازتفع إليك البخار ، فتقاطر منك فشرقت بشربه أولاً ، وشرقت بحره لاره
 ، ثانياً ، قال :

خذى يدي ثم اكشفي الثوب فانظري ضنى جسدي لكنني أنست
 وليس الذي يجري من العين ماؤها ولكنها روح تذوب فتقطر
 قالت : والحاكم ينسكا الذي يحكم بين الروح والجسد إذا اختصما بين يديه
 فإن في الأثر المشهور : لا تزال الخصومة يوم القيامة بين الجلائق حتى تختصم
 الروح والجسد فيقول الجسد للروح : أنت الذي حررتني وأمرتني
 وصرفتني ، وإلا فأنا لم أكن أتحرك ولا أفعل بدونك . فتقول الروح له :
 وأنت الذي أكلت وشربت وبشرت وتنعمت ، فأنت الذي تستحق العقوبة ،
 فيرسل الله سبحانه إليهما ملكاً يحكم بينهما فيقول : منكما مثل مقعد
 بصير وأعمى يمشي ، دخلاً بستاناً فقال المقعد للأعمى : أنا أرى ما فيه من الثمار
 ولكن لا أستطيع القيام ، وقال الأعمى : أنا أستطيع القيام ولكن لا أبصر
 شيئاً ، فقال له المقعد : تعال فاحملني فأنت تمشي وأنا أتناول ، فعلى من تكون
 العقوبة ؟ فيقول : عليهما ، قال فكذلك أنتم^(١) . وبالله التوفيق .

الباب الثامن

في ذكر النبه التي اصبحت بها من أباغ النظر

الى صه لا يحل له ان يستمتع به وأباغ عصفه

قالت هذه الطائفة : بيننا وبينكم الكتاب ، والسنة ، وأقوال أئمة الإسلام والمعقول الصحيح .

أما الكتاب فقولهُ تعالى : (أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَكْثُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ)^(١) وهذا يعم جميع ما خلق الله فما الذي أخرج من عمومهِ الوجه المليح ؟ وهو من أحسن ما خلق . وموضع الاستدلال به والاعتبار أقوى ، ولذلك يسبِّحُ الخالق سبحانه عند رؤيته ، كما قال بعض الناظرين إلى جميل الصورة :

ذى طلعةٍ سبحانٍ فالتى صبحه ومماطفٍ^(٢) جلّت يمينُ الناس
مرّت بأرجاء الخيال طيوفهُ فبكت على رَسَمِ السُّلُو الدارس^(٣)

ورؤية الجمال البديع تُنطقُ السِّنة الناظرين بقولهم : سبحان الله رب العالمين ، وتبارك الله أحسنُ الخالقين ، والله تعالى لم يخلق هذه المحاسن عبثاً ، وإنما أظهرها ليستدل الناظرُ إليها على قدرته ووحدانيته وبديع صنعه ، فلا تُعطل عما خلقت له .

وأما السُّنة فالحديثُ المشهور : « النَّظَرُ إِلَى أَلْوَجِهِ الْمَلِيحِ عِبَادَةٌ »^(٤) .

(١) الآية ١٨٤ . سورة الأعراف .

(٢) المواضع التي تتشبه من الجسد .

(٣) درس درساً . عفا وذهب أثره وبلى وتقادم عهده .

(٤) سيأتي الكلام على هذا الحديث وما بعده في الباب التاسع .

وفي الحديث الآخر : « أَطْلُبُوا الْخَيْرَ مِنْ حِسَانِ الْوُجُوهِ » . وفي هذا إرشادٌ إلى تصفُّح الوجوه وتأملها . وخطب رجلٌ امرأةً فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم في نكاحها ، فقال : هَلْ نَظَرْتَ إِلَيْهَا ؟ فقال : لا ، قال : اذهب فانظر إليها . ولو كان النظرُ حراماً لما أطلق له أن ينظر فإنه لا يأمن الفتنة .
وأما أقوال الأئمة فحكي السمعاني أن الشافعي رضى الله عنه كتب إليه رجلٌ في رقعة :

سل المفتي المكي هل في تراوُرٍ ونظرةٍ مشتاقٍ الفؤاد جُنَاحٌ^(١)
فأجابه الشافعي :

معاذَ إلهِ المرَّش أن يُذهبَ التقي تَلاصُقُ أكبادٍ بهنٍ جراح
وذكر الخرائطي هذا السؤال والجواب عن عطاء بن أبي رباح ،
وأوَّله : سألت عطاء المكي . وذكر الحاكم في مناقب الشافعي رضى الله عنه
من شعره :

يقولون لا تنظر وتلك بَلِيَّةٌ ألا كلُّ ذى عينين لابدَّ ناظر
وليس آكتحالُ العين بالعين رِيبةٌ إذا عفَّ فيما بين الضمائر
وذكر الاستربادي في كتاب مناقب الشافعي أن رجلاً كتب إلى سعيده
ابن المسيَّب :

يا سيِّدَ التابعين والبرِّرة نسيْتُ في العشق سورةَ البقرة
فكن بفتواك مشفقاً رَقِصاً باهى بك اللهُ أكرمَ البرِّرة
هل حرمَ اللهُ لَثمَ خَدِّ قَتِي أوصافه بالجمال مشتهرة

(١) الجناح بالضم : الإثم والجرم والميل إلى الإثم .

فأجابه سعيد :

ياسائلى عن خفى لَوَعَتِهِ عايك بالصبر تَحْمَدَنَّ أَثَرَهُ
ولا تكن طالباً لفاحشةٍ أو كالذى ساق سبيله مطرَهُ
وراقب الله واخشَ سَطْوَتَهُ وخالف الفاسقين والفَجَرَةَ
وقبل الخلد من حبيبك ذا فى كل يومٍ وليس له عَشَرَةٌ
وقال أبو العباس المبرّد فى الكامل : قال أعرابى أنشدني أبو العالبيه :
سألت الفتى المكىّ ذا العلم ما الذى يحلّ من التقبيل فى رمضان
فقال لى المكىّ أما لزوجةٍ فسبعٌ وأما خُلَّةٌ^(١) فثمان
وذكر أبو بكر الخطيب فى كتابه رواه مالك عن بعضهم :

أقول لَمُنْتُ بين مكّة والصفاء لك الخير هل فى وصلهنّ حرام
وهل فى صموتِ الحِجَلِ مَهْضُومَةُ الحشا

عَذَابِ التَّنْأَا إِن لَمْتُ أَثَامَ^(٢)
فقال لى الماتى وسالت دموعه عَلَى الخلد من عينيه فهى تُؤَامُ
ألا ليتنى قَبَلْتُ تلكَ عَشِيَّةَ بيطن مِنّى والمُحَرِّمونَ نِيَامَ

وقال الجاهك فى كتاب مناقب الشافعى : حدثنا أبو العلاء بن كوشيار
الحارى ، أنبأنا على بن ساجان الأخفش ، عن محمد بن الجهم قال : سمعت الربيع
يقول . حضرت الشافعى بمكة وقد دفع إليه رجل رقة فيها :

-
- (١) الخلة : الصدانة والمحبة التى تخلت القلب والصديق يستوى فيه المذكور
والمؤنث : وخلة الإنسان أهل مودته وخلة الرجل : الزوجة .
(٢) الحجل : القيد وهو الخلخال أيضاً . وجارية صموت : لا يسمع لخلخالها
صوت لامتلاء ساقها ، ومهضومة الحشا : ضامرة البطن .

أقول لمفتى خَيْفِ مَكَّةَ والصفاء لك الخير هل في وصلهنَّ حرام
وهل في صُمُوتِ الحَجَلِ مهْضُومَةُ الحِشَا
عِذابِ النَّسَايَا إِن كَلِمَتُ أَفَام
قال فوقَّع الشافعي فيها :

فقال لي المفتى وفاضت دموعه عَلَى الخَدِّ من عَيْنٍ وَهْنٌ تُؤَام
أَلَا لَيْتَنِي قَبَّلْتُ تِلْكَ عَشِيَّةً يِطْنُ مِنِّي وَالْمُحْرِمُونَ قِيَام
وقال عمرو بن سفيان ابن ابنة جامع بن مُرْخِيَّة^(١) :

إِنَّا سَأَلْنَا مَالِكًا وَقَرِينَهُ لَيْثَ بْنَ سَعْدٍ عَنِ لَيْثِ الْوَاقِ^(٢)
أَيُّجُوزُ قَالَا وَالَّذِي خَلَقَ الْوَرَى مَاحِرَّمِ الرَّحْمَنِ قُبْلَةَ عَاشِقٍ
ذكر ذلك صاحب كتاب رستاق الاتفاق وهو شاعر المصريين، وأنشد
فيه عمرو بن سفيان هذا وكتب بها إلى ابن عُيَيْنَةَ :

قُلْنَا لِسُفْيَانَ الْهَلَالِي مَرَّةً حَرَّمْتَ ضَمَّ الْعَاشِقِ لِلشَّتَاقِ
لَحْمِيهِ مِنْ بَعْدِ تَأْيِي نَالِهِ فَأَجَابَ لَا وَالوَاحِدِ الْخَلَّاقِ
وَأَنشَدَ فِيهِ كَلِمَةَ جَامِعٍ ، وَكَتَبَ بِهَا إِلَى عَلِيِّ بْنِ زَيْدِ بْنِ جُدْعَانَ :
سَأَلْنَا ابْنَ جُدْعَانَ عَنْ عَمْرِو أَخِي الْعَلَا أَيْخَرُمُ أَمْ الْحُبُّ فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ
قَالَ لَنَا الْمَسْكِيُّ وَنَاهِيكَ عِلْمُهُ أَلَا لَا وَمَنْ قَدْ جَاءَ بِالشَّعْفِ وَالْوَرِ
وَأَنشَدَ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَدْبَرِ وَكَتَبَ بِهَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ بْنِ عِيَّاشٍ أَحَدِ
أُئِمَّةِ الْقُرَاءِ :

(١) في تاج العروس : ومرخية كحسنة لقب جامع بن مالك بن شداد قال :
وفي التكملة لقب جامع بن شداد بن ربيعة بن عبد الله بن أبي بكر بن قلاب .
(٢) الواق : المحب .

سألت ابن عيَّاشٍ وكان معلِّماً لك الخير هل في ضمة الحب من وِزر
فقال أبو بكر ولا في لِسَامِهِ أَلَمْ يَأْتِنَا التَّنْزِيلُ بِالْوَضْعِ لِلْإِضْر
وَأُنْشِدْ لآخر : وكتب بها إلى الإمام أحمد بن حنبل قال : وزعم بعضهم
أنه إسحاق بن مَعَاذٍ بن زهير شاعر أهل مصر في وقته :

سألتُ إمامَ الناسَ بَجَلِ ابنِ حَنْبَلٍ عن الضمِّ والتثقيب هل فيه من بأس
فقال إذا جُنِلَ العِزَاءُ فَوَاجِبٌ لأنك قد أَحْيَيْتَ عِبْدًا من الناس
وَأُنْشِدْ لابن مُرْخِيَّةٍ ، وكتب بها إلى أبي حنيفة :

كُتِبَتْ إلى النعمان يوماً رسالةٌ نسأله عن لَثَمِ حَبٍّ مَنَعَ
فقال لنا لا إثم فيه وإنه شَيْءٌ إذا كانت لعشرٍ وأربع
وكتب رجل إلى أبي جعفر الطحاوي :

أبا جعفرٍ ماذا تقول فإنه إذا نابنا خَطْبٌ عليك المَعْوَلُ
فلا تُنْكِرَنَّ قَوْلِي وَأَبْشِرْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ عَن الأَمْرِ الذي عنه نَسألُ
أَبالْحُبِّ عَارِءٍ أم من الحب مَهْرَبٌ وهل من أَعْمَا^(١) أهل الصباة يَنْجِلُ
وهل بمباحٍ فيهِ قَتْلُ مَتِيمٍ يهاجره أَحبَّاهُ وهو يوصل
فَرَأَيْكَ في رَدِّ الجوابِ فإنني بما فيه تقضى أيها الشيخُ أَفْعَلُ
فأجابه الطحاوي :

نسأفضى قضاء في الذي عنه نَسألُ وَأَحْكُمُ بين العاشقين فأعدل
فديتك ما بالحب عَارِءٌ عَلِمْتُهُ وَلَلْعَارِ تَرُكُ الحب إن كنت تعقل
ومهما لحا في الحب لَاحِرٌ فإنه لعمرك عندى من ذوى الجهل أَجْهَلُ

(١) لما : لام .

وليس مباحاً عندنا قتلُ مسلمٍ بلا تَرَقٍّ^(١) بل قاتلُ النفسِ يُقتلُ
واسكنه إن مات في الحبِّ لم يكن له قودٌ فيه ولا عنه يُقتلُ^(٢)
وصالكٌ من تهوى وإن صدَّ واجبٌ عليك كذا حكمُ النبيِّ يفعلُ
فهذا جوابٌ فيه عندي قناعةٌ لما جثت عنه أيها الصبُّ تسألُ

ويكفي أن المعتزلة من أشدَّ الناس تعظيماً للذنوب ، وهم يخلدون أصحابَ
الكبائر ولا يرونَ تحريمَ ذلك ، كما ذكره الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في
تاريخه المشهور لبعض المعتزلة :

سألنا أبا عثمانَ عمراً وواصلاً عن الضمِّ والتقبيل للخذِّ والجيدِ
فقالا جميعاً والذي هو عادلٌ يجوز بلا إثمٍ فدع قولَ تفنيدٍ^(٣)

وقال إسحاق بن شبيب :

سألنا شيوخَ الواسطيين كلَّهم عن الرَّشْفِ والتقبيل هل فيهما إثمٌ
فقالوا جميعاً ليس إثمًا لزوجةٍ ولا خلَّةٍ والضمُّ من هذه غُثمٌ
وأناشد أبو الحسن علي بن إبراهيم بن محمد بن سعد الخير في كتابه
شرح الكامل :

فلما أن أبيحَ لنا التلاق تعانقنا كما اعتنق الصديقُ
وهل حرجاً تراه أو حراماً مشوقٌ ضمَّه صيبٌ مشوقٌ

وقال الخطيب في تاريخ بغداد : حدثنا أبو الحسن علي بن أيوب بن الحسن
إمامه ، حدثنا أبو عبد الله المرزباني وابن حيوية وابن شاذان قالوا : حدثنا

(١) الترة : الدحل ، أى الثأر عامة أو الظلم فيه .

(٢) النود : القصاص . والمقل : الدية . عقل القتيل : أعطى ديته . وقد عقل

عنه ، أى غرم عنه إذا لزمته دية فأداها عنه .

(٣) تفنيد فلان : تدمر لراى أخطأ فيه .

أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة نَفَطَوَيْنِ بِتَرْطُوبَةٍ قَالَ : دخلت على محمد بن داود الأصماني في مرضه الذي مات فيه فقلت له : كيف تبتدك ؟ قال : حب من تعلم أوردني ماترى ، فقلت له : مامنعك عن الاستمتاع به مع القدرة عليه ؟ قال : الاستمتاع على وجهين : أحدهما النظر المباح ، والثاني اللذة المحظورة . فأما النظر المباح فأوردني ماترى ، وذكر القصة^(١) . وستأتى في باب غفائ العشاق . والقصود أنه لم يرَ النظر إلى معشوقه ولا عشقه حراماً . وجرى على هذا المذهب أبو محمد بن حزم في كتاب « طوق الحمامة » له . قالوا : ونحن نحاكمكم إلى واحدٍ يُعَدُّ بألاف مؤلفه وهو شيخ الإسلام ابن تيمية فإنه سئل :

ما تقول السادة الفقهاء رضى الله عنهم في رجل عاشق في صورة وهى مُصِرَّة على هجره منذ زمنٍ طويلٍ لا تزیده إلا بعداً ، ولا يزداد لها إلا حباً ، وعشقه لهذه الصورة من غير فسق ولا خنى ، ولا هو ممن يُدَسُّ عشقه بزنى ، وقد أقضى به الحال إلى الهلاك لاحتماله ، إن بقى مع محبوبه على هذه الحالة ، فهل يُخَلَّ لمن هذه حاله أن يُهَجَرَ ؟ وهل يجب وصاله على الجبوب المذكور ؟ وهل يَأْتَمُّ ببقائه على هجره ؟ وما يجب من تفاصيل أمرها ؟ وما السكل واحدٍ منهما على الآخر من الحقوق مما يوافق الشرع الشريف ؟

فأجاب بخطه بجوابٍ طويلٍ قال في أثنائه : فالعاشق له ثلاثُ مقامات : ابتداء ، وتوسط ، ونهاية . أما ابتداءه فواجبٌ عليه فيه كتمانُ ذلك وعدمُ إفشائه للخلق ، مراعيًا في ذلك شرائطَ الفتوة من العفة مع القدرة ، فإن زاد به الحال إلى اللقام الأوسط فلا بأس بإعلام محبوبه بمحبته إياه ، فيخفَّ بإعلامه وشكواه إليه ما يبد منه ، ويحذر من اطلاع الناس على ذلك ، فإن زاد به الأمر حتى خرج عن الحدود والضوابط التحق بالجانين والموسوسين . فانقسم العشاق

قسمين : قسمٌ قَنِعُوا بالنظرة بعد النظرة ، فمنهم من يموت وهو كذلك ولا يُظهر سرّه لأحدٍ ، حتى محبوبه لا يدري به ، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ فَسَكَنَ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ »^(١) ، والقسمُ الثاني أباحوا لمن وصل إلى حدٍّ يخاف على نفسه منه القُبلة في الحين ، قالوا : لأن تركها قد يؤدّي إلى هلاك النفس ، والقُبلةُ صغيرةٌ وهلاكُ النفس كبيرةٌ . وإذا وقع الإنسان في مرَصين داوى الأخطر ولا خطر أعظمُ من قتل النفس ، حتى أوجبوا على المحبوب مطاوعته على ذلك إذا علم أن ترك ذلك يؤدّي إلى هلاكه ، واحتجوا بقول الله تعالى : (إِنَّ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ)^(٢) وبقوله تعالى : (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ)^(٣) وبحديث الذي قال : يارسول الله ، إني لقيت امرأةً أجنبيةً فأصبت منها كلَّ شيءٍ إلا النكاح ، قال : أصليتَ معنا ؟ قال : نعم ، قال : إن الله قد غفرَ لك^(٤) فانزل الله تعالى : (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)^(٥) ، ثم قال : فإن كان هذا السائلُ كما زعم من لا يدنس عشقه بزنى ، ولا يصحبه بخنى فيُنظرُ في حاله ، فإن كان من الطبقة الأولى

(١) أنكر المؤلف هذا الحديث وذكّر رأيه في تخريجه في أواخر الباب الرابع عشر

(٢) الآية ٣٠ . سورة النساء .

(٣) الآية ٣٢ . سورة النجم .

(٤) أخرجه الترمذى بنحوه وفي إسناده قيس بن الربيع وضمفه وكيع

وابن المديني وقال ابن معين : ضعيف الحديث لا يساوى شيئاً . وكما رواه الترمذى أيضاً من طريق آخر وقال : هذا الحديث ليس بمتصل لأن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يسمع من معاذ وكذا قال ابن المديني وابن خزيمة : لم يسمع من معاذ بن جبل رضى الله عنه . راجع تفسير الخازن وتهذيب التهذيب .

(٥) الآية : ١١٥ . سورة هود .

فالنظر كافٍ لهم إن صدقت دعواهم ، وإن كان من الطبقة الثانية فلا بأس بشكواه إلى محبوبه كي يَرِقَّ عليه ويرحمه ، وإن غلب عليه الحال فالتحق بالثالثة أبيع له ما ذكرنا بشرط أن لا يكون أنموذجاً لفعل القبيح المحرم ، فيلتحق بالكبائر ويستحق القتل عند ذلك ويزول عنه العذر ويحق عليه كلمة العذاب . انتهى ما ذكرناه من جوابه .

قالوا : وقد جوزت طائفة من فقهاء السلف والخلف والعلماء استمناء الإنسان يده إذا خاف الزنى^(١) ، وقد جوزت طائفة من الفقهاء لمن خاف على نفسه في الصوم الواجب من شدة الشَّيق أن تتشقق أنثىكه أن يجامع امرأته ، وبنوا على ذلك فرعاً : وهو إذا كان له امرأتان حائضٌ وصائمةٌ فهل يطأ هذه أو هذه كلي وجهين . ولا ريب أن النظر والقبلة والضم إذا تضمن شفاءً من دائه كان أسهل من الاستمناء باليد والوطء في نهار رمضان .

وقد جوز بعض الفقهاء للمرأة إذا خافت الزنى أن تبتذل لها شيئاً تدخله في فرجها وتخرجه لئلا تقع في محذور الزنى .

ولا ريب أن الشريعة جاءت بالالتزام الدخول في أدنى المفسدين دفعاً لأعلاهما ، وتفويت أدنى المصلحتين تحصيلاً لأعلاهما ، فأين مفسدة النظر والقبلة والضم من مفسدة المرض والجنون أو الهلاك جملة ؟ فهذا ما احتجبت به هذه الفرقة ونحن نذكر ما لها وما عليها في ذلك بحول الله وقوته وعونه .

(١) لأن أجاز العلماء ذلك لمن خشى من الزنا فإنهم لم يطأوا جوازه إطلاقاً يبيح استمناها لمن أراد وكلما أراد ولم يبيحوها إلا بالقدر الذي يمنع من ارتكاب جريمة الزنا وبمد استنفاد الوسائل التي تساعد على إطفاء نار الشهوة مثل الصوم واجتناب كل ما يثيرها من لظن وقراءة .

الباب التاسع

في الجواب عما احتجبت به هذه الطائفة ومالها وما عليها في هذا الاستنباح
 وشبههم التي ذكروها دائرة بين ثلاثة أقسام : أحدها : تقولُ صحيحةٌ
 لاجبة لهم فيها ، والثاني : تقولُ كاذبةٌ عن نسبتِ إليه من وضع الفساق
 والفجار كما سنبينه ، الثالث : تقولُ مجملةٌ محتملةٌ لخلاف مذهبوا إليه .
 فأما احتجاجهم بقوله تعالى : (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَكْثُوتِ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ)^(١) فهو نظير احتجاجهم بعينه على إباحة
 السماع الشيطاني الفسقي بقوله تعالى : (فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ
 فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)^(٢) ، قالوا : والقولُ عامٌ لحملوا لفظه ومعناه ما هو بربٍّ
 منه . وإنما القول هاهنا ما أمرهم الله باستماعه ، وهو وحْيُهُ الذي أنزله على رسوله
 وهو الذي قال فيه : (أَلَمْ يَذَرُّوا الْقَوْلَ)^(٣) وقال تعالى : (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا
 لَهُمُ الْقَوْلَ)^(٤) فهذا هو القول الذي أمروا باتِّباع أحسنه كما قال : (وَاتَّبِعُوا
 أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ)^(٥) والنظر الذي أمرنا شبحانه به المؤدِّي
 إلى معرفته والإيمان به ومحبيته والاستدلال على صدقِ رُسُلِهِ فيما أخبروا به عنه
 من أسمائه وصفاته وأفعاله وعقابه وثوابه ، لا النظر الذي يوجب تعلق الناظر

(١) الآية ١٨٤ . سورة الاعراف .

(٢) الآيتان ١٧ و ١٨ . سورة الزمر .

(٣) الآية ٦٩ . سورة المؤمنون .

(٤) الآية ٥١ . سورة القصص .

(٥) الآية ٥٥ . سورة الزمر .

بالصورة التي يجرُّمُ عليه الاستمتاع بها نظراً ومباشرة ، فهذا النظر الذي أمر الله سبحانه وتعالى صاحبه بغضِّ بصره ، هذا مع أن القوم لم يُدَبِّتُوا بِالْمُرْدَانِ ، وهم كلوا أَشْرَفَ نفوساً ، وأطهرَ قلوباً من ذلك ، فإذا أمرهم بغضِّ أبصارهم عن الصورة التي تباح لهم في بعض الأحوال خشيةً الافتتان ، فكيف النظر إلى صورة لا تباح بحال ؟ ثم يقال لهذه الطائفة : النظر الذي ندب الله إليه نظراً يثاب عليه الناظر ، وهو نظراً موافق لأمره ، يقصد به معرفة ربه ومحَبَّته ، لا النظرُ الشيطاني . ويشبه هذا الاستدلال استدلال بعض الزنادقة المنتسبين إلى الفقه على حِلِّ الفاحشة بملوك الرجل بقوله تعالى : (إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)^(١) ، ومُعْتَقِدُ ذلك كافرٌ حلالُ الدم بعد قيام الحجة عليه ، وإنما تسترّت هذه الطائفة لخواها وشهواتها ، وأوهمت أنها تنظر عبدةً واستدلالاً ، حتى آل ببعضهم الأمر إلى أن ظنوا أن نظرهم عبادةً ، لأنهم ينظرون إلى مظاهر الجمال الإلهي ، ويزعمون أن الله سبحانه وتعالى عن قول إخوان النصارى يظهر في تلك الصورة الجميلة ، ويعلمون هذا طريقاً إلى الله ، كما وقع فيه طوائف كثيرة ممن يدعى المعرفة والسلوك .

قال شيخنا رحمه الله تعالى :^(٢) وكفرٌ هؤلاء شرٌّ من كفر قوم لوط ، وشرٌّ من كفر عبّاد الأصنام ، فإن أولئك لم يقولوا : إن الله سبحانه يتجلى في تلك الصورة ، وعُبادُ الأصنام غاية ما قالوه : (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)^(٣) ، وهؤلاء قالوا : نعبدهم لأن الله ظهر في صورهم . وحكى لى شيخنا : أن

(١) الآية ٦ سورة المؤمنون . والآية ٣٠ . سورة المعارج .

(٢) هو شيخه أبو العباس أحمد بن تيمية .

(٣) الآية ٣ سورة الزمر .

رجلاً من هؤلاء مرَّ به شابٌّ جميلٌ فجعل يُتبعه بصره ، فأنكر عليه جليسُ له وقال : لا يصُحَّ هذا المثلَّك ، فقال : إني أرى فيه صفاتٍ معبودى وهو مظهرٌ من مظاهر جماله ، فقال : لقد فعلت به وصنعت ، فقال : وإن . قال شيخنا : فلن الله أمةً معبودها موطوؤها . قال : وسئل أفضلُ متأخريهم العفيفُ التلَّسَّانى فقيل له : إذا كانت الوجود واحداً فما الفرق بين الأخت والأبنت والأجنبية حتى تحلَّ هذه ؟ فقال : الجميعُ عندنا سواء ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا : حرامٌ ، قلنا : حرامٌ عليكم^(١) . ومن هؤلاء الزنادقة من يخصَّ ذلك ببعض الصوَر ، فيؤلاء من جنس النصارى بل هم إخوانهم ، فالنظر عند هؤلاء إلى الصوَر المحرَّمة عبادة ، ويشبه أن يكون هذا الحديث من وضع بعض هؤلاء الزنادقة ، أو بُجَّانُ المُسَاق ، وإلا فرسول الله صلى الله عليه وسلم برىء منه . وسئل شيخنا عن يقول : النظر إلى الوجه الحسن عبادة ، ويروى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فهل ذلك صحيحٌ أم لا ؟ فأجاب بأن قال : هذا كذبٌ باطل ، ومن روى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم أو ما يشبهه فقد كذب عليه صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا لم يروِه أحدٌ من أهل الحديث لا بإسناد صحيحٍ ولا ضعيف بل هو من الموضوعات ، وهو مخالفٌ لإجماع المسلمين . فإنه لم يقل أحدٌ إن النظر إلى المرأة الأجنبية والصبيَّ الأمرد عبادة . ومن زعم ذلك ، فإنه يُستتاب فإن تاب وإلا قُتل ، فإن النظر منه ماهو حرامٌ ، ومنه ماهو مكروهٌ ، ومنه ماهو مباحٌ والله أعلم . وأما الحديث الآخر ، وهو : « أَطَابُوا الْخَيْرَ مِنْ

(١) ما نظن إلا أن هذه الكلمة مكذوبة على العفيف فلايس من المعلوم أن يقولها مع ما قيل من أنه كان من الأولياء الصالحين .

حِسَانِ الْوُجُوهِ^(١) » فهذا وإن كان قد رُوِيَ بإسناد إلا أنه باطلٌ لم يصحَّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو صحَّ لم يكن فيه حجةٌ لهذه الطائفة ، فإنه إنما أمر بطلب الخير منهم لا بطلب ومالهم ونيل المحرم منهم ، فإن الوجه الجميل مَظَنَّةُ الفعل الجميل ، فإن الأخلاق في الغالب مناسبةٌ للخِلقَةِ بينهما نسبٌ قريب ، وأما أمر النبي صلى الله عليه وسلم للخطاب بأن ينظر إلى الخطوبة فذلك نظرٌ للحاجة ، وهو مأمور به أمرٌ استجباب عند الجمهور ، وأمرٌ إيجاب عند بعض أهل الظاهر ، وهو من النظر المأذون فيه لمصلحة راجعة ، وهو دخول الزوج على بصيرة وأبعد من ندمه ونفرتة عن المرأة ، فالنظر المباح أنواعٌ هذا أحدها بخلاف النظر إلى الصورة المحرمة .

فصل

وأما ما ذكره السمعاني عن الشافعي — رحمه الله تعالى — فن تحريف الناقل . والسائل لم يذكر لفظ الشافعي ، والبيتان هكذا هما :

سَأَلْتُ الْفَتَى لِلْكَيْ فِي تَزَاوُرٍ وَنَظَرَةٍ مُشْتَاتِ الْفَوَادِ جُنَاحُ
فَقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يُذْهَبَ التَّقَى تَلَاصُقُ أَكْبَادٍ بَهَنٍ جِرَاحُ
فهذا السائل هو الذي ذكر السؤال والجواب ، وهو مجهول لا يُعرَف هل هو ثقة أم لا ؟ ثم إن الجواب لا يدلُّ على نقصود هذه الفرقة بوجه ما ، بل هو حجةٌ عليها فإنه نهى أن يُذهب التقى تلاصُق هذه الأكباد ، فكأنه قال :

(١) في أدب الدنيا والدين للباوردي : سئل ابن عائشة عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا الخواص من حسان الوجوه » فقال : معناه من أحسن الوجوه التي تحمل . وقال شارحه . أى الطلقة المستبشرة وجوههم ، وقيل : من له بشر عند الطلب وإن لم يكن جميل الوجه .

لا تتلاصق هذه الأكبَادُ لثلاً يُذهب تلاصقها التقي ، فالتلاصقُ المذكور فاعلٌ ،
والتقي مفعولٌ ، فكأنه قال : لا يفعل لثلاً يُذهب التلاصقُ التقي . وجوابُ
آخرُ وهو أن هذا التلاصقَ إنما يكون غير مذهبٍ للتقي إذا كان في عشق
مباح بل مستحبٍّ كعشق الزوجة والأمة^(١) .

وأما ما ذكره راعن سعيد بن المسيب — رحمه الله تعالى — فقد أجاب عنه
سعيد نفسه ، فإنه لما مرَّ به مرُخيةُ هذا السائل — وكان من بني كلاب —
قال سعيد : هذا من أ كذب العرب ، قيل : كيف يا أبا محمد ؟ قال : أليس
الذي يقول :

سألت سعيد بن المسيب مفتي المدينة هل في حبِّ دَهماء^(٢) من وِزر
فقال سعيد بن المسيب إنما تُتلام على ما تستطيع من الأمر
كذب والله ما سألتني عن شيء من هذا قطُّ ولا أفتيته . وإذا كان هذا
جواب سعيد في مثل هذا فما جوابه لمن سأله أن يقبل حبياً أجنبياً كل يوم
وليلة عشرة ؟ فبيح الله الفسقة الكذابين على العلماء لاسياً على مثل سعيد ،
فهو لاء كلهم فسقة كاذبون أرادوا تنفيق فسقيهم بالكذب على علماء وقتهم ،
كما نفق النفاق أبو نواس كذبه على إسحاق بن يوسف الأزرق . قال عبد الله

(١) وردت هذه النصّة في طبقات السبكي : عن الربيع بن سليمان وفيها قال
الربيع : فأنكرت على الشافعي أن يفتي لحديث بمثل هذا فقلت : يا أبا عبد الله تفق
بمثل هذا لمثل هذا الشاب ؛ فقال لي : يا أبا محمد ، هذا رجل هاشمي قد عرس في
هذا الشهر ، يعني شهر رمضان ، وهو حديث السن ، فسأل هل عليه جناح أن
يقبل أو يضم من غير وطء فأفتيته بهذا ؟ قال الربيع : فتبعت الشاب فسألته عن
حالهِ فذكر لي أنه مثل ما قال الشافعي ، قال : فما رأيت فِراسة أحسن منها .
(٢) الدهماء : السوداء : والنسفة الدهماء : الخالصة الحمرة وعامة الناس
وسوادهم .

ابن محمد بن عائشة : أتيت إسحاق بن يوسف الأزرق يوماً ، فلما رأني بكى ، قلت : ما يبكيك ؟ قال : هذا أبو نوح أس ، قلت : ماله ؟ قال : يا جارية ، اثنييني بالقرطاس فإذا فيه مكتوب :

ياساحرَ المقتلين والجديرِ وقاتلي منه بالموايعيد
توعدي الوصلَ ثم تُخْلِفِي ويلاه من مخلفٍ لموعودي
حدثني الأزرق المحدث عن شمير وعوف عن ابن مسعود
لا يخلفُ الوعدَ غيرَ كافرةٍ أو كافرٍ في الجحيم مصفود

كذب والله على وعلى التابعين وعلى الصحابة . ولو صحَّ عن سعيد لم يكن لكم فيه حجة . فإن سعيداً أمره بالصبر أولاً ، ومراقبة الله وخوف سطوته ومخالفة الفسقة ، ثم أمره بتقيل خد من يحبه كل يوم عشر مرات ، وهذا قطعاً إنما أراد به من يحل له تقيله من زوجة أو سُرِّيَّة ، فأمره أن يعتاض يقيلتها من لا يحل له ، ولا يُظَنُّ بعلماء الإسلام غيرَ هذا إلا مفترط في الجهل أو مُتهم على الدين .

وأما ذكره المبرِّد عن الأعرابي الذي سأل المذني المسكي عن القبلة في رمضان فقال : للزوجة سبع والخلة ثمان فهذا المستفتى والمفتي لا يعرف واحد منهما حتى يقبل خبره ، ولو صحَّ ذلك وعُرف المستفتي والمفتي لكأن الخلة هي أمته الجميلة ، وهي التي يحل تقيلها ثمانياً فأكثر .

وأما أن يفتي أحد من أهل الإسلام بأنه يحل تقيل المرأة الأجنبية الحرمه عليه ثمانياً في رمضان أو غيره فعاذ الله من ذلك ، وهكذا حكم الأثر الذي ذكره الخطيب في كتابه رواه مالك ، ولا يُظَنُّ بعالم أنه تمنى أن يقبل امرأة أجنبية وهو مُحَرَّم بيطن وني ، فإن القبلة المذكورة تعرّضُ الحُجَّ للفساد وتبطله عند طائفة ، فإن صحَّ هذا فإنما أراد امرأته أو أمته .

وأما الأثر الذي ذكره الحاكم في مناقب الشافعي — رحمه الله تعالى —
فليس بين الحاكم وبين الربيع من يحتج به . ويدل على أن القصة كذبٌ ظاهرٌ
أن المستفتى زعم أن الشافعي أجاب بقوله : فقال لي المفتي وفاضت دموعه .
وهذا إنما هو حكاية المستفتى قول المفتي فن هو الحاكم عن الشافعي ؟ فدعوا
هذه الأكاذيب والترهات .

وأما ما ذكرتم عن عمرو بن سفيان ابن بنت جامع فمن ذكر هذا عن عمرو
ابن سفيان ؟ ومن هو عمرو بن سفيان ابن بنت جامع بن مُرخِية هذا ؟ وهذا
موضعُ البيتين المشهورين :

سألنا عن ثُمالة كلٍّ حتى فقال القائلون ومن ثُمالة (١)
فقلتُ محمدُ بنُ يزيدٍ منهم فقالوا زدتنا بهمُ جهالةُ

وهل يحل لأحد أن يصدق عن مالك والليث بن سعد أنهما أجازا تقبيلَ
خُدَّ المرأة الأجنبية المعشوقة أو خُدَّ الأسرد الجليل الصورة ؟ هذا وقصةُ مالك مع
الذي ضمَّ صبيًّا إليه فألقى بضربه ستانةً سوطِ فات ، فقال له أبو القتي :
قتلتَ ابني ، فقال : قتله الله . فمن هذا تشديدهُ وفتواه هل يفتي بجواز تقبيل
خُدود المُرْد الحسان ؟ نعم ما حرّم الرحمنُ قبلةَ عاشقٍ يحلُّ لمعشوقه مواصلةً ،
ولا قبلةَ الرجل خُدَّ ولده كما قبل الصديق — رضى الله عنه — خُدَّ ابنته عائشة
رضى الله عنها ، ورأى أعرابيُّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقبلُ أحدَ ابني ابنته
فقال : وإنسكم لتتَّبَلون الصبيان ؟ إن لي عشرةً من الولد ما قبلتهم ، فقال :

(١) في ترجمة المبرد لابن خلكان : ثُمالة واسمه عوف بن أسلم بطن من
الأزد . وذكر النالي في الأمالى : لأنها لعبد الصمد بن الممزدل وأورد هذين البيتين
وبعدهما ثالث قال : ويقال : إن هذه الأبيات المبردة وكان يشتهر أن يشتهر بهذه
التميلة فصنع هذه الأبيات فشاعت وحصل له مقصوده من الاشتهار .

« أَوْ أَمْلِكُ لَكَ إِنْ نَزَعَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَائِكَ » (١) ؟

وأما صاحبُ كتابِ رُسْتاقِ الاتِّقافِ وهو شاعرُ المصريين فلعمروُ الله لقد أفسدت إذ أسندت ، فإنه الفاسقُ الماجنُ المسىُّ أبا الرِّقْعَمَقِ (٢) ، ولكن لا يُنكر هذا المتنُ بهذا الإسناد ، فإنه لا يليقُ إلا به .

وأما قصة إبراهيم بن المدبر عن أبي بكر بن عيَّاش فقل غير مُصدّق عن قائلٍ غيرِ معصوم .

وأما ما ذكروا عن الإمام أحمد — رحمه الله تعالى — فوالذي لا إله غيره إنه لمن أقبح الكذب عليه ، ولو أن هذا الكاذبُ الفاسقَ ثَقِ هذه الكذبةُ بغيره لراج أمرُها بعضَ الرّواج ، ولكن من شدة جهله نفقها بأحمد ابن حنبل وهو كمن نسب إليه القولَ بأن القرآن مخلوق ، أو تقديمَ عليٍّ على أبي بكر ، أو تقديمَ الرأى على الشُّنّة ، وأمثال ذلك ، وكذلك ما ذكره عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى ، ولو صحَّ لم يكن فيه حجةٌ لهذه الطائفة ، فإنه قال : لا إثم فيه إذا كانت لعشرٍ وأربع ، ولم يقل إذا كانت أجنبية ، ونحن نقول بما قال أبو حنيفة — رحمه الله تعالى — إذا كان العشوق حلالاً .

وأما ما ذكر عن الطحاوى فلا نعلم صحته ، وإن صحَّ فإنما أراد به التقبيلَ المباح ، فإن الرجلَ قد يُبتلى بهجر زوجته أو أمته له فيسأل أطباء الدين وأطباء الجسم وأطباء الحب عن دوائه ، فيجيبه كلٌّ منهم بمقتضى علمه وما عنده ، وقد شكى مُعَيْثُ زوجُ بَرِيرَةَ حُبّه لها فشفع عندها النبي صلى الله عليه وسلم أن

(١) من حديثين رواهما البخارى ومسلم .

(٢) هو أحمد بن محمد الألبانكى له ترجمة في يتيمة الدهر للثعالبي ووفيات الأعيان لابن خلسكان .

تراجعه فلم تفعل^(١)، وشكى إليه رجل أن امرأته لا ترد يد لأمس فقال :
 طلقها ، فقال : إني أخاف أن تتبعها نفسى ، فقال : انشمتع بها . ذكره الإمام أحمد
 والنسائي . قال بعض أهل العلم : راعى النبي صلى الله عليه وسلم دفع أعلى المفسدين
 بأدناها ، فإنه لما شكى إليه أنها لا ترد يد لأمس أمره بطلاقها ، فلما أخبره عن
 حبها وأنه يخاف أن لا يصبر عنها ولعل حبه لها يدعوها إلى معصية أمره أن يسكها
 مداواة لقلبه ودفعاً للمفسدة التي يخافها باحتمال للمفسدة التي شكى منها . وأجاب
 أبو عبيدة عنه بأنها كانت لا ترد يد لأمس يطلب منها العطاء ، فكانت
 لا ترد يد من سألها شيئاً من مال الزوج ، ورد عليه هذا التأويل بأنه لا يقال
 لطالب العطاء لأمس وإنما يقال له ملتصق . وأجابت طائفة أخرى عنه بأن طرأ
 للمصية على النكاح لا توجب فساد . وقال النسائي : هذا الحديث منكسر .
 وعندي أن له وجهاً غير هذا كله ، فإن الرجل لم يشك من المرأة أنها تزني
 بكل من أراد ذلك منها ، ولو سأل عن ذلك لما أقره رسول الله صلى الله عليه
 وسلم على أن يقيم مع بقى ويكون زوج بقى^(٢) ، وإنما شكى إليه أنها
 لا تجذب نفسها من لاعبها ووضع يدها عليها أو جذب ثوبها ونحو ذلك ، فإن
 من النساء من تلين عند الحديث واللعب ونحوه . وهى حصان^(٣) عفيفة إذا
 أريد منها الزنى ، وهذا كان عادة كثير من نساء العرب ولا يتعدون
 ذلك عيباً ، بل كانوا فى الجاهلية يرون للزوج النصف الأسفل وللمشيق
 النصف الأعلى .

فَلَحِبٌ مَّا ضَمَّتْ عَلَيْهِ نَقَابَهَا وَلِلْبَعْلِ مَّا ضَمَّتْ عَلَيْهِ الْمَازِرُ

-
- (١) رواه البخارى وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائي وابن ماجه .
 (٢) الديوث : الذى يقرد على أهله .
 (٣) المرأة الحصان : المتزوجة والعفيفة .

والمقصود أن القوم كانوا مع العاشق على معشوقه إذا كان يُباح له وصالة ،
وسنذكر ذلك في باب مساعدة العشاق بالمباح من التلاق إن شاء الله تعالى .

وأما ما ذكرنا عن شيوخ المعتزلة وشيوخ الواسطيين ، فأما أبو عثمان
المذكور وهو عمرو بن عبيد ، وواصل وهو واصل بن عطاء ، وهما شيخا القوم
ولو أفتيا بذلك لكانت فتيا من مبتدئين مذمومين عند السلف والخلف ،
فكيف والخبر بذلك رجل مجهول من المعتزلة كذب على من يعظهما المعتزلة
لينفق فستمه ؟

وأما قصة محمد بن داود الأصماني فغايتها أن تكون من سعيه المعفو المغفور ،
لا من عمله المشكور ، وسلط الناس بذلك على عرضه ، والله يغفر لنا وله ، فإنه
تعرض بالنظر إلى السقم الذي صار به صاحب فراش ، وهذا لو كان ممن يُباح
له لكان نقصاً وعيباً ، فكيف من صبي أجنبي ؟ وأرضاه الشيطان بحبه والنظر
إليه عن مواصاته ، إذا لم يطمع في ذلك منه ، فقال منه ما عرّف أن كيد
لا يتجاوزه وجعله قدوة لمن يأتّم به بعده كأبي محمد بن حزم الظاهري وغيره ،
وكيد الشيطان أدق من هذا .

وأما أبو محمد فإنه على قدر يُنسه وقسوته في التمسك بالظاهر وإغائه للمعاني
والمناسبات والحكم والعِلل الشرعية انما في باب العشق والنظر وسماع الملامح
الحُرمة ، فوسع هذا الباب جداً وضيّق باب المناسبات والمعاني والحكم الشرعية
جداً ، وهو من انحرافه في الطرفين حين ردّ الحديث الذي رواه البخاري في
محيجه في تحريم آلات اللغو بأنه معاق غير مُسنَد ، وخفي عليه أن البخاري
لقد من علمه عنه وسمع منه ، وهو هشام بن عمار ، وخفي عليه أن الحديث قد
أسنده غير واحد من أئمة الحديث غير هشام بن عمار ، فأبطل سنة صحيحة

ثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا مطعن فيها بوجه^(١) .

وأما من حاكمتونا إليه وهو شيخ الإسلام ابن تيمية فنحن راضون بحكمه ، فأين أباح لكم النظرَ الحَرَمَ وعشقَ المُرْدان والنساء الأجانب ؟ وهل هذه إلا كذبٌ ظاهر عليه ؟ وهذه تصانيفه وفتاواه كلها ناطقةٌ بخلاف ما حكيتموه عنه ؟ وأما الفتيا التي حكيتموها فكذب عليه لا تناسب كلامه بوجه ، ولولا الإطالة لذكرناها جميعها حتى يعلم الواقف عليها أنها لاتصدُر عن دونه فضلا عنه ، وقلت لمن أوقفني عليها : هذه كذب عليه لا يشبه كلامه ، وكان بعض الأمراء قد أوقفني عليها قديما وهي بخط رجلٍ متهم بالكذب ، وقال لي : ما كنت أظن الشيخ برقة هذه الحاشية ، ثم تأملتها فإذا هي كذبٌ عليه ، ولولا الإطالة لذكرنا من فتاويه ما يبين أن هذه كذب .

وأما ما ذكرتم من مسألة التزام أدنى للمفسدين لدفع أعلاهما ، فنحن لاننكر هذه القاعدة بل هي من أصح قواعد الشريعة ، ولكن الشأن في إدخال هذه الصورة فيها . بل نحاكمكم إلى هذه القاعدة نفسها فإن احتمال مفسدة ألم الحب مع غض البصر وعدم تقبيل المحبوب وضمه ونحو ذلك أقل من مفسدة النظر والتقبيل ، فإن هذه المفسدة تجرُّ إلى هلاك ألقاب وفساد الدين ، وغاية ما يُقدَّر من مفسدة الإمساك عن ذلك شتمُ الجسد أو الموتُ تناديا عن التعرض للحرام ، فأين إحدى المفسدين من الأخرى ؟ على أن النظر والقُبلة

(١) الحديث الذي يشير إليه هو قوله صلى الله عليه وسلم : « ليسكون من أمتي أقوام يستحلون الحر (أي الفرج) والحرير والخمر والممازف ولينزلن أقوام إلى جنب علم يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم لحاجة فيقولوا ارجع إلينا غداً فيبيتهم الله تعالى ويضع العلم ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة » .

والضمُّ لا يمنع السقم والموت الحاصل بسبب الحب ، فإن العشق يزيد بذلك ولا يزول .

فما صبا بة مشتاق على أملٍ من الوصال كمشتاق بلا أمل

ولا ريب في أن محبة من له طمع أقوى من محبة من يئس من محبوبة ،
ولهذا قال الشاعر :

وأبرح ما يكون الحب يوماً إذا دنت الديار من الديار
فإن قيل : فقد أباح الله سبحانه للمضطر الميتة والدم والحِمَّ الخنزير ، وتناولها
في هذه الحال واجب عليه . قال مسروق والإمام أحمد - رحمهما الله تعالى - :
من اضطرَّ إلى أكل الميتة فلم يأكل فمات دخل النار ، فتأية النظرة والقُبلة
والضمة أن تكون محرمة ، فإذا اضطرَّ العاشق إليها فإن لم تكن واجبة فلا
أقل من أن تكون مباحة ، فهذا قياس واعتبار صحيح ، وأين مفسدة موت
العاشق إلى مفسدة ضمة ولحمه ؟

فالجواب أن هذا يتبين بذكر قاعدة ، وهي أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل
في العبد اضطراباً إلى الجماع بحيث إن لم يفعله مات ، بخلاف اضطرابه إلى
الأكل والشرب واللباس ، فإنه من قوام البدن الذي إن لم يباشره هلك ، ولهذا
لم يُبيح من الوطء الحرام ما أباح من تناول النذاء والشراب المحرم ، فإن هذا
من قبيل الشهوة واللذة التي هي تنمة وفضل ، ولهذا يمكن الإنسان أن يعيش
طول عمره بغير تزوج وغير تَسَرُّ ، ولا يمكنه أن يعيش بغير طعام ولا شراب ،
ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم الشباب أن يداووا هذه الشهوة بالصوم ، وقال
تعالى عن عشاق العُردان : (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ

النساء^(١) فأخبر أن الحامل على ذلك مجرد الشهوة لا الحاجة فضلاً عن الضرورة ، والشهوة المجردة لا تلتحق بالضروريات ولا بالحاجات ، والحمة عنها خشية إفضائها إلى مرض أصعب منها جار مجرى الحمة عن تناول ما يضر من الأطعمة والأشربة ، وذلك لا تدعو الضرورة إلى تناوله وإن كانت النفس قد تشبهه ، فالقبلة والنظر والضم ونحوها جار مجرى تناول الفاكهة المضرة والزفرة المضرة للمحرم ومن به مرض يضره معه تناول ذلك ، فإذا قال المريض : أنا إن لم أتناول ذلك وإلا خشيت الموت لم يكن صادقاً في قوله ، وإنما الحامل له على ذلك مجرد الشهوة ، وربما زاد تناول ذلك في مرضه ، فالطبيب الناصح لا يفسح له فيه ، فكيف يفسح الشارع الحكيم الذي شريعته غاية طب القلوب والأديان وبها تحفظ صحتها وتدفع موادها الفاسدة في تناول ما يزيد الداء ويقويه ويمده ؟ هذا من الحال ، بل الشريعة تأمر بالجمية عن أسباب هذا الداء خوفاً من استحكامه وتولد داء آخر أضعب منه .

وأما مسألة من خاف تشقق أنثيين وأنه يباح له الوطء في رمضان ، فهذا ليس على إطلاقه ، بل إن أمكنه إخراج مائه بغير الوطء لم يجز له الوطء بلا نزاع ، وإن لم يمكنه ذلك إلا بالوطء المباح فإنه مجرى مجرى الإفطار لعذر المرض ثم يقضى ذلك اليوم ، والإفطار بالمرض لا يتوقف على خوف الهلاك ، فكيف إذا خاف تلف عضو من أعضائه القاتلة ، بل هذا نظير من اشتد عطشه وخاف إن لم يشرب أن يحدث له داء من الأدواء ، أو يتلف عضو

(١) الآية ٨١ سورة الاعراف ، والآية ٥٥ سورة النمل وفيها (أنتكم) .

من أعضائه ، فإنه يجوز له الشرب ثم يقضى يوماً مكانه . فإن قيل : فلو اتفق له ذلك ولم يكن عنده إلا أجنبية هل يباح له وطؤها لئلا تتلف أندياه ؟ قيل : لا يباح له ذلك ، ولكن له أن يخرج ماءه باستمنائه ، فإن تعذر عليه فهل يجوز له أن يمكنها من استخراج مائه بيدها ؟ هذا فيه نظر ، فإن أبيع جرى مجرى تطيب المرأة الأجنبية للرجل ومسها منه ماتدعو الحاجة إلى مسه . وكذلك تطيب الرجل للمرأة الأجنبية ومسها ماتدعو الحاجة إليه والله أعلم .

وقد سئل أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الكلّوذاني في رقعة :

قل لأبي الخطاب نجم الهدى وقدوة العالم في عصره
لا زلت في فتواك مستأمناً من خدع الشيطان أو مكره .
ماذا ترى في رشا أغنيدي حاز الآلى والدّر في ثغره^(١)
لم يحك بدر التّم في حسنه حتى حكى الزُّبور^(٢) في حُضره
فهل يُجيز الشرعُ تقييله لمستهام خاف من وزره
أم هل على المشتاق في ضمه من غير إدناء إلى صدره
إنّم إذا مالم يكن مضيراً غير الذى قدّم من ذكره
فأجاب :

يا أيها الشيخ الأديب الذى قد فاق أهل العصر في شعره
تسأل عن تقييل بدر الدجى وعطف زنديك على نحره

-
- (١) الرشا : ولدا الظبية إذا قوى ومشى . والاغيد : المتنى في لين ونعومة ،
واللى : سمرة في الشفة تستحسن . وشفة لمياء : لطيفة رقيقة اللحم .
(٢) الزبور والزبار : حشرة أليمة السع ، وهو أيضاً : الخفيف الظريف .
والحضر : عدو في وثب ، وارتفاع الفرس في وثبه .

هل ورد الشرعُ بتحليله لمستهامٍ خاف من وزيره
من قارف الفتنة ثم ادعى الـ مصصة قد نافق في أمره
هل فتنة المرء سوى الضمّ والتـ قبيح للحبّ على نغره
وهل دواعي ذلك المشتبهى إلا عناقُ البدر في خذره
وبذله ذاك لمشتاقه يزرى على هاروت في سجره
ولا يُميزُ الشرعُ أسبابَ ما يُورط المسلم في خطره
فانجُ ودع عنك صداع الهوى عماك أن تسلم من شره
هذا جوابُ الكَلَوَازِيّ قد جاءك يرجو الله في أجره

فهذا جواب أهل العلم، وهو مطابق لما ذكرناه، والله تعالى أعلم.

وسئل الإمام أبو الفرج بن الجوزي - رحمه الله - بأبيات :

يا أيها العالمُ ماذا ترى في عاشقٍ ذاب من ألوجدٍ
من حبّ ظبيٍّ أغيدٍ أهيفٍ سهلٍ المحيّا حسنِ القدّ
فهل ترى تقييسه جازراً في القمـ والعينين والحدّ
من غير مافحشٍ ولا ريبةٍ بل بعناقٍ جائزٍ الحدّ
إن كنت ماتفتي فإني إذاً أصبح من وجدى وأستعدى

فكتب - رحمه الله تعالى - الجواب :

ياذا الذي ذاب من ألوجدٍ وظل في ضُرٍّ وفي جدٍ
إسمع فذلك النفس من ناصحٍ بنصحه يَهْدِي إلى الرُّشدِ
لوصحّ منك العشقُ ماجئتي تسألني عنه وتستعدى
فالعاشقُ الصادقُ في حبه ما باله يسأل ما عندى

— ١٣٦ —

عَظِيهِ الْعَشَقُ فَمَا إِنْ يُرَى	يُعِيدُ فِي الْعَشَقِ وَلَا يُبْدَى
وَكُلُّ مَا تَذَكَّرَ مُسْتَفْتِيًا	حَرَمَهُ اللَّهُ عَلَى الْعَبْدِ
إِلَّا لَمَّا حَلَّاهُ رَبُّنَا	فِي الشَّرْعِ بِالْإِبْرَامِ وَالْعَقْدِ
فَعَدَّ مِنْ طُرُقِ الْهَوَى مُعْرِضًا	وَقَفَ بِيَابِ الْوَاحِدِ الْفَرْدِ
وَسَلَّهُ يَشْفِيكَ وَلَا يَيْتَلَى	قَلْبِكَ بِالْتَعَذِيبِ وَالصَّدِّ
وَعَفَّ فِي الْعَشَقِ وَلَا تَبْدِيهِ	وَأَصْبِرْ وَكَاتِمِ غَايَةَ الْجُهْدِ
فَإِنْ نَمَتْ مُحْتَسِبًا صَابِرًا	تَفَرَّغْدًا فِي جَنَةِ الْخُلْدِ

الباب العاشر

في ذكر حقيقة النفس وأوصافه وكلام الناس فيه

قالدي عليه الأطباء قاطبة أنه مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا ، يجلبه
 المرء إلى نفسه بتسايط فكره على استحسان بعض الصور والشئال ، وسببه
 النفساني الاستحسان والفكر ، وسببه البدني ارتفاع بخار رديء إلى الدماغ
 عن مَنِيٍّ محتقن ، ولذلك أكثر ما يعتري العُزَّاب ، وكثرة الجماع تزيله بسرعة .
 وقال بعض الفلاسفة : العشق طمع يتولد في القلب ويتحرك وينبني ، ثم
 يتربى ويمتدح إلى مواد من الحرص ، وكلما قوى ازداد صاحبه في الاحتياج
 واللجاج والتمادي في الطمع والحرص على الطلب ، حتى يؤديه ذلك إلى النعم
 والقلق ، ويكون احتراق الدم عند ذلك باستحالته إلى السوداء والتهاب
 الصفراء واقلابها إليها . ومن غلبة السوداء يحصل له فساد الفكر ، ومع فساد
 الفكر يكون زوال العقل ورجاء مالا يكون وتمنى مالا يتم حتى يؤدي إلى
 الجنون ، فينثذِر بما قتل العاشق نفسه ، وربما مات غمًا ، وربما نظر إلى معشوقه
 فأت فرحًا ، وربما شهق شهقة فتختنق رُوحه فيبقى أربعة وعشرين ساعة فيظن
 أنه قد مات ، فيدفن وهو حي ، وربما تنفس الصعداء فتختنق نفسه في تأمور^(١)
 قلبه ، وينضم عليها القلب ولا ينفرج حتى يموت ، وتراه إذا ذكر له من يهواه
 هرب دمه واستحال لونه . وقال أفلاطون : العشق حركة النفس الفارغة .
 وقال أرسطاطاليس : العشق عى الحس عن إدراك عيوب المحبوب . ومن هذا
 أخذ جرير قوله :

(١) التأمور: دم القلب، وقيل كل دم .

فلست براء عيب ذى الودّ كله ولا بعض مافيه إذا كنت راضيا
فعين الرضى عن كل عيب كليله ولكن عين السخط تبدي المساويا
وقال أرسطو : العشق جهل عارض صادف قلبا فارغا لا شغل له من تجارة
ولا صناعة . وقال غيره : هو سوء اختيار صادف نفسا فارغة .
قال قيس بن الملوّح :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا
وقال بعضهم : لم أرَ حقا أشبه بياطل ، ولا باطلا أشبه بحق من العشق ،
هزل جِد ، وجِدَه هزل ، وأوله لعب ، وآخره عطب . وقال الجاحظ : العشق
اسم لما فضل عن المحبة ، كما أن السرف اسم لما جاوز الجود ، والبخل اسم
لما جاوز الاقتصاد ، فكل عشق يسمى حبا ، وليس كل حب يسمى عشقا ،
والمحبة جنس والعشق نوع منها . ألا ترى أن كل محبة شوق ، وليس كل
شوق محبة ؟ وقالت فرقة أخرى : العشق هو الاستهيام^(١) والتضرع والأودان
بالمعشوق ، والوجد هو الحب الساكن ، والهوى أن يهوى الشيء فيتبعه غيا
كان أو رشداً ، والحب حرف ينتظم هذه الثلاثة . وقال المأمون ليحيى بن
أكرم : ما العشق ؟ فقال : سوانح تسنح للمرء فيهم بها قلبه وتؤثرها نفسه .
فقال له يمامة بن أشرس : اسكت يا يحيى ، إنما عليك أن تجيب فى مسألة
طلاق ، أو تحريم صاد ظلياً ، فأما هذه فمن مسائلنا نحن ، فقال له المأمون : قل
يا يمامة : قال : العشق جليس متمتع ، وأليف مؤنس : وصاحب ملك .
مسالك لطيفة ، ومذاهب غامضة ، وأحكامه جارية ، ملك الأبدان وأرواحها ،

(١) كذا . والاستهيام : الهيام : وهو جنون العشق .

والقلوبَ وخواطرها ، والعقولَ وآراءها ، قد أعلَى عِنان طاعتها ، وقوَّةَ تصرُّفها
توارى عن الأبصار مدخله ، ونعمى فى القلوب مسلكه . فقال له المؤمنون :
أحسنت يا ثمامة . وأمر له بألف دينار .

وقال بعضهم : قلت لجنون قد أذهب عقله العشق : أجز هذا البيت :
وما الحبُّ إلا شملة قد دحت بها عيونُ المها باللحظ بين الجوانح
فقال يديها :

ونارُ الهوى تخفى وفى القلب فعلها كفعل الذى جاءت به كفء فادح
وقال الأصمى : سألت أعرابياً عن العشق فقال : جلَّ والله عن أن يرى ،
وخفى عن أبصار الورى ، فهو فى الصدور كامن ككُمون النار فى الحجر ، وإن
قدح أورى ، وإن ترك توارى . وقال بعضهم : العشق نوعٌ من الجنون ،
والجنون فنون ، فالعشق فنٌّ من فنونه . واحتج بقول قيس^(١) :

قالوا جنت بمن تهوى قلت لهم العشقُ أعظمُ مما بالجنانين
العشقُ لا يستفيق الدهرَ صاحبه وإنما بصرعُ الجنونِ فى الحين^(٢)

وقال آخر : إذا امتزجت جواهرُ النفوس بوصف المشاكاة أنتجت لمح نور
ساطع تستضيء به النفسُ فى معرفة محاسن المبعشوق فتسلك طريقَ الوصول إليه .
وقال أعرابي : العشقُ أعظمُ مسلكاً فى القلب من الروح فى الجسم ، وأملكُ
بالنفس من ذاتها ، بطن وظهر فامتنع وصفه عن اللسان ، وخفى نعتُه عن البيان
فهو بين السحر والجنون ، لطيفُ المسلك والكُمون . وقيل : العشق ملكُ
عشوم^(٣) ، مسلطٌ ظلوم ، دانت له القلوب ، وانقادت له الأبواب ، وخضعت

(١) هو قيس بن الملوح المعروف بجنون ليل .

(٢) تقدم هذان البيتان فى صفحة ٤٤

(٣) العشوم : الذى يخبط الناس ويأخذ كل ما قدر عليه .

له النفوس . العقل أسيرُهُ ، والنظرُ رسولُهُ ، واللاحظُ لفظُهُ ، دقيقُ المسالكِ ،
عسيرُ المخرجِ . وقيل لآخر : ما تقول في العشق ؟ فقال : إن لم يكن طَرَفًا من
الجنون ، فهو نوعٌ من السحر .

وأما الفلاسفة المشاؤون^(١) فقالوا : هو اتفاق أخلاق ، وتشاكل محَبَّاتٍ
ومجانسها ، وشوقُ كُلِّ نفسٍ إلى مُشاكلها ومجانسها في الخلقة القديمة قبل
إهباطها إلى الأجساد ، قلت : هذا مبنىٌ على قولهم الفاسد بتقدم النفوس على
الأبدان ، وعليه بنى ابنُ سينا قصيدته المشهورة :

* هَبَطْتُ إِلَيْكَ مِنَ الْحُلِّ الْأَرْفَعِ *

وسمعت شيخنا يحكى عن بعض فضلاء المناربة وهو جمال الدين بن الشريريشي
شارحُ المقامات أنه كان ينكر أن تكون هذه له قال : وهى مخالفةٌ لما قرره
في كتبه من أن حدوث النفس الناطقة مع البدن .

وقال آخرون في وصفه : دَقَّ عن الأفهام مَسَاكُهُ ، وَخَفَى عن الأبصار
مَوْضِعُهُ ، وحارت العقول في كيفية تَمَكُّنِهِ ، غير أن ابتداء حركته وعظم سلطانه
من القلب ، ثم يتغشى سائر الأعضاء فيبدى الرُّعْدَةَ في الأطراف ، والصفرة في
الألوان ، والضعف في الرأى ، واللَّجَلَجَةَ في الكلام . والزَّلَلُ والعِثَارُ ، حتى
يُنْسَبَ صاحبه إلى الجنون . وقيل لأبي زهير المديني : ما العشق ؟ قال : الجنون
والذل وهو داء أهل الظَّرف . ونظر عاشقٍ إلى معشوقه فارتعدت فرائضه
وغشِيَ عليه ، فقيل للحكيم : ما الذى أصابه ؟ فقال : نظر إلى من يحبه فانفرج
له قلبه فتحرك الجسم بانفراج القلب . فقيل له : نحن نحب أولادنا وأهلنا ولا

(١) المشاؤون : أتباع أرسطو . وقيل : لقبوا به لأنه كان يعلمهم وهم مشاة ،
أو لأن محل التعليم كان يسمى بالمشى . وفي تاج المروس للزبيدي : المشائيون : فرقة
من الحكماء كانوا يمشون في ركاب أفلاطون .

يصيننا ذلك ، فقال : تلك محبة العقل وهذه محبة الروح ، قال :

وما هو إلا أن يراها فُجَاءَةً فتصطك رِجلاه ويسقط للجنب

وقال : العشق ملكٌ مسلطٌ على قهر النفوس وأسر القلوب ، قال الشاعر :

ملك القلوب فأصبحت في أسره وبودّها. أن لا يفكّ أسارها

وقال أعرابي في وصفه : بالقلب وثبتته ، وبالنفود وجبتته^(١) ، وبالأحشاء

ناره ، وضائر الأعضاء خدأته ، فالقلب من العاشق ذاهلٌ ، والدمع منه

هامل^(٢) . والجسم منه ناحل . سرور الليالي تجده ، وإساءة المحبوب لا تقده .

وقيل : ليس هو موقوفاً على الحسن والجمال ، وإنما هو تشاكل النفوس

وتمازجها في الطباع المخلوقة فيها كما قيل :

وما الحب من حُسن ولا من مَلَاحةٍ ولكنّه شئٌ به الروحُ تكلف

وقيل : أولُ العشق عَناءٌ ، وأوسطه سُقمٌ ، وآخره قتل . كما قال

ابن الفارض رحمه الله :

هو الحب فاستلم بالخشاما الهوى سَهْلٌ فما اختاره مُضَيٌّ به وله عَمَلٌ

وعش خالِكاً فالحبُّ أوله عَنَى^(٣) وأوسطه سُقمٌ وآخره قتلٌ

(١) وجبتته : خففته واضطرابه .

(٢) هملت العين : فاضت وسالت .

(٣) في الديوان : فالجيب راحته عنا . وأوله سقم . . . الخ .

الباب الحادي عشر

في العشق هل هو اضطرارى خارج عن الاختيار أو أمر اختياري واختلف

الناس في ذلك وذكر الصواب فيه

فنعول : اختلف الناس في العشق هل هو اختياري أو اضطرارى خارج عن مقدور البشر ؟ فقالت فرقة : هو اضطرارى وليس باختيارى ، قالوا : وهو بمنزلة محبة الظمان للماء البارد ، والجائع للطعام ، وهذا مما لا يُملك .

قال بعضهم : والله لو كان لى من الأمر شيء ما عذبتُ عاشقاً ، لأن ذنوب العُشَّاق اضطرارية ، فإذا كان هذا قوله فيما تولد عن العشق من فعل اختياري فما الظن بالعشق نفسه ؟ وقال أبو محمد بن حَزْم : قال رجلٌ لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا أمير المؤمنين ، إنى رأيت امرأةً فعشقتُها ، فقال عمر : ذاك مما لا يُملك . وقال كامل فى سَلَمَى :

يلوموننى فى حُبِّ سَلَمَى كأنما يَرَوْنَ الهوى شيئاً تَمَيَّمتُهُ^(١) عَمداً
ألا إنما الحبُّ الذى صدَّعَ الحشا قضاءً من الرحمن يَبْلُو به العبدَ

وقال التميمي فى كتاب امتزاج الأرواح : سئل بعض الأطباء عن العشق فقال : إن وقوعه بأهله ليس باختيارٍ منهم ، ولا بجرصهم عاينه ، ولالذة لأكثرهم فيه ، ولكن وقوعه بهم كوقوع العِلَلِ المُدَنِّفَةِ . والأمراض المُتَنَفِّة ، لافرق بينه وبين ذلك . وقال للدائى : لام رجلٌ رجلاً من أهل الهوى فقال : لو صَحَّ لذى هوّى اختياراً لاختر أن لايهوى . ويدل على ذلك من السنة ما رواه

(١) تيمم الشيء : تعمدته وارتجاه .

البخارى فى صحيحه من قصه بريرة أن زوجها كان يمشی خلفها بعد فراقها له وقد صارت أجنبيةً منه، ودموعه تسيل على خديه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يَا عَبَّاسُ أَلَا تَعَجَّبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بِرِيرَةَ وَمِنْ بُغْضِ بِرِيرَةَ مُغِيثًا ؟ ثُمَّ قَالَ لَهَا : لَوْ رَاجَعْتِيهِ ، فَقَالَتْ : أَتَأْمُرُنِي ؟ فَقَالَ إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ ، قَالَتْ : لِحَاجَةٍ لِي فِيهِ . » ولم ينهه عن عشيقها فى هذه الحال ، إذ ذلك شئ لا يملك ولا يدخل تحت الاختيار . وقال جامع :

سألت سعيد بن المسيب مفتى آل مدينة هل فى حبّ دَهْمَاءٍ مِنْ وَرْدٍ
فقال سعيد بن المسيب إنما يلام على ما يُسْتَطَاع من الأمر^(١)

قالوا : والعشق نوع من العذاب ، والعاقِلُ لا يختار عذاب نفسه ، وفى هذا قال المومِّل :

شَفَّ المومِّلَ يَوْمَ الحِيسَةِ النظرُ لبت المومِّلَ لم يُخلَقْ له بَصَرُ
يكفى المحبِّين فى الدنيا عذابهم والله لا عَذَابَتُهُمْ بعدها سَقَرُ

فيقال : إنه تمحى بعد هذا . وقال آخر : ليس الهوى إلى أرأى قِيمَتِكَه ، ولا إلى العقل فيذركه ، ثم أنشد :

ليس خطبُ الهوى بخطب يسير لا يُنبئُكَ عنه مثلُ خير^(٢)
ليس أمرُ الهوى يُدبَّرُ بالرأى ولا بالقِياس والتفكير
إنما الأمرُ فى الهوى خطراتٌ مُخَدِّثَاتُ الأمور بعد الأمور

وقال القاضى أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن سلمان النُّوْقَاقِى^(٣) فى كتابه

(١) تقدم هذان البيتان وفيهما : تلام .

(٢) قيل أنها املية بنت المهدي ؛ حكاه الصولى كما فى تزيين الاشواق .

(٣) نوقات : محلة بسجستان يقال لها : دنوها فمربت .

« محنة الظراف » : العشاقُ معذورون على الأحوال ، إذ الشق إنما دهاهم عن غير اختيار ، بل اعتراهم عن جبر واضطرار ، والمرء إنما يلام على ما يستطيع من الأمور ، لا على المتعصّي عليه والمقدور . فقد قيل : إن الحامل كانت ترى يوسف عليه الصلاة والسلام فتضع حُلماً ، فكيف ترى هذه وضعته ؟ أباختيارٍ كان ذلك أم باضطرارٍ ؟ قال غيره : وهؤلاء النسوة قَطَّعن أيديهنّ لما بدا لهن حسن يوسف عليه السلام وما تمكّن حبه من قلوبهن ، فكيف لو شغفن حباً ؟ وكان مُصعَّبُ بنُ الزُّبَيْرِ إذا رآته المرأة حاضت لحسنه وجماله . قال فيه الشاعر :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنْ آلِ كَعْبٍ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ

ومن هاهنا أخذ أحمد بن الحسين الكندي المتنبي قوله :

تَقِ اللَّهَ وَاسْتُرْ ذَا الْجَمَالِ بِبُرْقِعٍ فَإِنْ لَحْتَ حَاضَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ^(١)

فإذا كان هذا من مجرد الرؤية فكيف بالحجة التي لا تُملك ؟ وقال هشام ابن عروة عن أبيه : مات بالمدينة عاشقٌ فصلّى عليه زيد بن ثابت ، فقيل له في ذلك فقال : إني رَحِمْتُهُ . وروى أبو السائب الخزومي - وكان من العلم والدين بمكان - متعلّقاً بأستار الكعبة وهو يقول : أَللّهُمَّ أَرْحَمْ الْعَاشِقِينَ وَقَوِّ قُلُوبَهُمْ واعطف عليهم قلوبَ المعشوقين ، فقيل له في ذلك فقال : وَاللّهِ لَلدُّعَاءِ لَهُمْ أَفْضَلُ مِنْ عُمرَةٍ مِنَ الْجَمْرَانَةِ^(٢) ثم أنشد :

يَاهَجْرُ كَفَّ عَنْ الْهَوَى وَدَعِ الْهَوَى لِلْعَاشِقِينَ يَطِيبُ يَاهَجْرُ
مَاذَا تَرِيدُ مِنَ الَّذِينَ جَفَوْنَهُمْ قَرَحِي وَحَشِّو قُلُوبَهُمْ جَعْرُ

(١) في ديوان المتنبي : خف الله . والعواتق : الشابات من النساء .

(٢) الجمرة : موضع بين مكة والطائف على سبعة أميال من مكة .

مُتَبَلِّدِينَ^(١) من الهوى ألوانهم ما يُجِنُّ قلوبهم صُفْرُ
وسوابقُ العبرات فوق خدودهم دررٌ تَقِيضُ كأنها قطرٌ
وَيُذَكِّرُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ بِجَارِيَةٍ تَتَغَنَّى:

هَلْ عَلَى وَنَحْكَاءِ إِنْ هَوَيْتُ مِنْ حَرَجٍ
فَتَبَسَّمَ وَقَالَ: «لَا حَرَجَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»^(٢)، قالوا: وفدفتسر كثيرٌ من السَّافِ
قوله تعالى: (رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ)^(٣) بالعشق. وهذا لم يريدوا
به التخصيص، وإنما أرادوا به التمثيل. وأن العشق من تحميل ما لا يُطاق. وللراد
بالتحميل هاهنا التحميلُ القَدَرِيُّ لا الشرعيُّ الأَمْرِيُّ. قالوا: وقد رأينا جماعةً
من العشاق يطوفون على مَنْ يدعوا لهم أن يعافيتهم الله من العشق، ولو كان
اختياراً لأزالوه عن نفوسهم. ومن هاهنا يتبين خطأ كثيرٍ من العاذلين،
وعَذْلُهُمْ في هذه الحال بمنزلة عَذْلِ المريض في مرضة، قال:

(١) المتبلد: المتردد المتحير الساقط إلى الأرض من الضعف.
(٢) في الرسالة التفسيرية جاء: وقدرى أن رجلاً أشد بين يدي رسول الله
صلى الله عليه وسلم:

أقبلت فلاح لها عارضان كالسبيح
أدبرت فقلت لها والفزاد في وهج
هَلْ عَلَى وَيَحْكَاءِ إِنْ عَشِقْتُ مِنْ حَرَجٍ
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا. قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري
في شرح الرسالة: هذا حديث موضوع. ويدل قول المؤلف: ويذكر على أنه غير
متأكد من صحة الحديث.

(٣) الآية ٢٨٦ آخر سورة البقرة.

(١٠م-روضة المحبين)

يا عاذلى والأمرُ فى يده هَلَا عَذَلْتَ وفى يدي الأمرُ
وإنما ينبغى العذلُ قبل تعلق هذا الداء بالقلب كما قيل فيه :
يذكرنى حم وأرمحُ شاجرٍ فملا تنلحم قبل التقدم^(١)

وقالت فرقة أخرى : بل اختيارى تابع لهوى النفس وإرادتها، بل هو
استحكامُ الهوى الذى مدحَ الله مَنْ نَهَى عَنْهُ نَفْسَهُ فقال تعالى : (وَأَمَّا مَنْ
خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)^(٢)
فبحال أن ينهى الإنسان نفسه عما لا يدخل تحت قدرته .

قالوا : والعشق حركةٌ اختياريةٌ للنفس إلى نحو نحبوها ، وليس بمنزلة
الحركات الاضطرارية التى لا تدخل تحت قدرة العبد . قالوا : وقد ذمَّ الله
سبحانه وتعالى أصحابَ المحبة الفاسدة الذين يحبون من دونه أنداداً ، ولو كانت
المحبة اضطرارية لما ذموا على ذلك . قالوا : ولأن المحبة إرادةٌ قوويةٌ ، والعبدُ
يُحمدُ ويُذمُّ على إرادته، ولهذا يُحمدُ مريدُ الخير وإن لم يفعله ، ويُذمُّ مريدُ الشرِّ
وإن لم يفعله . وقد ذمَّ الله الذين يحبون أن تشيعَ الفاحشةُ فى الذين آمنوا ،
وأخبر أن لهم عذاباً أليماً . ولو كانت المحبة لا تُملك لم يتوعدهم بالعذاب على

(١) أى يذكرنى بتلاوة الآية (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله) وقد اختلف
الرواة فى قائل هذا البيت فبعضهم ينسبه لشريح بن أبى أوفى ، وبعضهم للأشتر
النخعى ، وبعضهم لغيرهما . وهو من أبيات قيلت فى محمد بن طلحة رضى الله عنه
لما طمنه القاتل فذكره القرآن لأن حم على قول قتادة اسم من أسماء
الرقاة .

(٢) الآيتان ٤٠ و ٤١ سورة النازعات

ما لا يدخل تحت قدرتهم . قالوا : والعقلاء قاطبةً مُطِيقُونَ عَلَى لَوْمٍ مِنْ يَحِبُّ
ما يضرُّ بِمحبته . وهذا فطرة فطرَ اللهُ عليها الخلقَ ، فلو اعتذرَ بِأَنِّي لَا أملك
قلبي لم يقبلوا له عذراً .

فصل

وفصل النزاع بين الفريقين أن مبادئ العشق وأسبابه اختياريةٌ داخلَةٌ
تحت التكليف ، فإن النظر والتفكير والتعرض للمحنة أمرٌ اختياريٌّ ، فإذا
أُني بالأسباب كان ترثيبُ المسبب عليها بغير اختياره كما قيل :

تَوَكَّعَ بالعشق حتى عَشِقَ فلما استقلَّ به لم يُطِقْ
رَأَى لَجَّةً ظَنَّهَا مَوْجَةً فلما تمكنَ منها غَرِقَ
تَمَسَّى الإقالة من ذنبه فلم يستطعها ولم يَسْتَطِيقْ

وهذا بمنزلة السكر من شرب الخمر ، فإن تناول المسكر اختياريٌّ وما يتولد
عنه السكر اضطراريٌّ ، فتي كان السببُ واقعاً باختياره لم يكن معذوراً فيما تولد
عنه بغير اختياره ، فتي كان السببُ محظوراً ، لم يكن السكرانُ معذوراً . ولأرب
أن متابعة النظر واستدامة الفكر بمنزلة شرب المسكر فهو يلام على السبب ،
ولهذا إذا حصل العشق بسببٍ غير محظور لم يُلَمَّ عليه صاحبه ، كمن كان يعشق
امرأته أو جاريته ثم فارقها وبقي عشقها غير مفارقٍ له ، فهذا لا يُلام على ذلك
كما تقدم في قصة بَرِيرَةَ وَمُغِيثٍ^(١) . وكذلك إذا نظر نظرة فجأة ثم صرف
بصره وقد تمكن العشق من قلبه بغير اختياره ، على أن عليه مدافعتَه وصرفَه

عن قلبه بضدّه ، فإذا جاء أمره يَغْلِبُهُ فهُنَاكَ لَا يَلَامُ بَعْدَ بَذْلِ الْجُهْدِ فِي دَفْعِهِ . وَمَا
يُبَيِّنُ مَا قُلْنَا أَن سَكْرَ الْعَشْقِ أَعْظَمُ مِنْ سَكْرِ الْخمرِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ
عُشَّاقِ الصُّورِ مِنْ قَوْمِ لُوطٍ : (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ فِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)^(١)
وإذا كان أدنى السَّكْرَيْنِ لَا يُعْذَرُ صَاحِبُهُ إِذَا تَعَاطَى أَسْبَابَهُ ، فَكَيْفَ يُعْذَرُ
صَاحِبُ السَّكْرِ الْأَقْوَى مَعَ تَعَاطِي أَسْبَابِهِ ؟ وَإِذْ قَدْ وَصَلْنَا إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ
فَلْنَذْكُرْ بِأَبَا فِي مَكْرَةِ الْحُبِّ وَسَبَبِهَا .

الباب الثاني عشر

في سكرة العساق

ولا بدّ قبل الخوض في ذلك من بيان حقيقة السكر وسببه وتوَلَّدَه فنقول:
السكر لذّة ينجب معها العقل الذي يُعَلِّمُ به القولُ ويحصلُ معه التمييز . قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّادَةَ وَأَنْتُمْ سَكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)^(١) فجعل الغاية التي يزول بها حكمُ السكران أن يعلم ما يقول ، فمتى لم يعلم ما يقول فهو في السكر ، وإذا علم ما يقول خرج عن حكمه ، وهذا هو حدُّ السكران عند جمهور أهل العلم .

قيل للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : بماذا يُعلم أنه سكران ؟ فقال : إذا لم يعرف ثوبه من ثوب غيره ، ونعله من نعل غيره . ويُذكر عن الشافعي رحمه الله تعالى أنه قال : إذا اختلط كلامه المنظوم ، وأنشئ سرّه المكتوم . وقال محمد بن داود الأصفهاني : إذا عزبت عنه الهموم ، وباح بسرّه المكتوم ، فالسكر يجمع معنيين : وجود لذّة ، وعدم تمييز ، والذي يقصد السكر قد يقصد أحدهما وقد يقصد كليهما ، فإن النفس لها هوى وشهوات تلند يادراكمها ، والعلم بما في تلك اللذات من للفساد العاجلة والآجلة يمنعها من تناولها ، والنسلُ يأمرها بأن لا تفعل ، فإذا زال العقل الأمرُ والعلمُ الكاشف انبسطت النفس في هواها ، وصادفت مجالا واسعا .

وحرم الله سبحانه وتعالى السكر اشدين ذكرهما في كتابه من قوله :

(١) الآية ٤٢ سورة النساء .

(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) ^(١) فأخبر الله سبحانه أنه يوجب المفسدة الناشئة من النفس بواسطة زوال العقل ، ويمنع المصلحة التي لا تتم إلا بالعقل .

وقد يكون سبب السكر ألماً كما يكون لذّة . قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) ^(٢) وقد يكون سببه قوة الفرح يادراك المحبوب بحيث يختلط كلامه ، وتتغير أفعاله بحيث يزول عقله ، وربما قتله الفرح بسبب طبيعته وهو انبساط دم القلب انبساطاً خارجاً عن العادة ، والدم حامل الحارّ الغريزي فيبرد القلب بسبب انبساط دمه فيحدث الموت .

وقد جرى هذا لأحمد بن طولون أمير مصر فإنه مرّ بصياد في يوم بارد وعنده بُنى له ، فرق عليهما ، وأمر غلامه أن يدفع إليه ما معه من الذهب ، فصبه في حِجره ومضى ، فاشتدّ فرحه به فلم يحمل ماورد عليه من الفرح فقصى مكانه ، فعاد الأمير من شأنه فوجد الرجل ميتاً والصبي يبكي عند رأسه فقال : من قتله ؟ فقال : مرّ بنا رجلٌ — لاجزاء الله خيراً — فصب في حِجر أبي شيخاً فقتله مكانه ، فقال الأمير : صدق نحن قتلناه . أتاه الغني وهلة

(١) الآية ٩٤ سورة المائدة .

(٢) أول سورة الحج .

واحدة^(١) فَعَجَزَ عن احتمالهِ فقتله ، ولو أعطيناه ذلك بالتدريج لم يقتله
فخرّض الصبيَّ عَلَى أن يأخذ الذهب فأبى وقال : والله لأأمسك شيئاً
قتلى أبى .

والمقصودُ أن السكرَ يوجب اللذّةَ ويمنع العلمَ ، فنه السكرُ بالأطعمة
والأشربة ، فإن صاحبها يحصلُ له لذّةٌ وسرورٌ بها يحمله عَلَى تناولها لأنها
تغيبُ عنه عقله فتغيبُ عنه الموم والغموم والأحزان تلك الساعة ، ولكن
يُفْلِطُ في ذلك فإنها لا تزول ولكن تتوارى ، فإذا سحا عادتْ أعظمَ ما كانت
وأوقره ، فيدعوه عَوْدُهَا إلى العود كما قال الشاعر :

وكأْسٍ شربتُ عَلَى لذّةٍ وأخرى تداويت منها بها
ومن الناس من يقصدُ بها منفعةَ البدن وهو غلط ، فإنه يترتب عليها من
المضرةِ المتولّدة عن السكر ما هو أعظمُ من تلك المنفعة بكثير ، واللذّةُ الحاصلةُ
بذكر الله والصلاة عاجلاً وآجلاً أعظمُ وأبقى وأدفع للموم والغموم
والأحزان .

وتلك اللذّةُ أجابُ شيءٍ للموم والغموم عاجلاً وآجلاً ، ففي لذّةِ
ذكر الله والإقبال عليه والصلاة بالقلب والبدن من المنفعة الشريفة العظيمة
السالمة عن المفساد الدافعة للمضارّ غنّى وعوّضٌ ، للانسان الذى هو إنسانٌ
عن تلك اللذّة الناقصة القاصرة المانعة لما هو أكلُ منها ، الجالبة للألم
أعظمَ منها .

(١) وهلة واحدة : أى دفعة واحدة .

فصل

ومن أسباب السكر حبُّ الصُّور ، فإنه إذا استحكَّ الحبُّ وقوى أسكر الحبِّ ، وأشعارهم بذلك مشهورة كثيرة ولا سيما إذا اتصل الجماعُ بذلك الحبِّ ، فإن صاحبه ينقص تمييزه أو يعدم في تلك الحالة بحيث لا يميز ، فإن انضاف إلى ذلك السكر سكرُ الشراب بحيث يجمع عليه سكرُ الهوى وسكرُ الخمر وسكرُ لذَّة الجماع فذلك غايةُ السكر . ومنه ما يكون شبه حبِّ المال والرئاسة وقوة الغضب ، فإن الغضب إذ قوى أوجب سكرًا يقرب من سكر الخمر .

ويدخل ذلك في الإغلاق الذي أبطل النبي صلى الله عليه وسلم وقوع الطلاق فيه بقوله : « لا طلاقَ في إغلاق » ^(١) رواه أبو داود وقال : أظنه الغضب . وفسره الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى أيضاً بالغضب .

وما يدل على صحة ذلك قوله تعالى : (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) ^(٢) قال السلف في تفسيرها : هو الرجل يدعو على نفسه وأهله في وقت الغضب من غير إرادة منه لذلك ، فلو استجاب الله دعاءه لأهلكه وأهلك من دعا عليه ، ولكن لرحمته لما علم أن الحامل له على ذلك سكرُ الغضب لا يحجب دعاءه .

ومن هذا قولُ الواجد لراحلته بعد يأسه منها وإيقانه بالهلاك : اللهم أنت

(١) في الجامع الصغير : « لا طلاق ولا عتاق في إغلاق » ، قال : رواه أحمد في مسنده وأبو داود وابن ماجه والحاكم ، وكذلك أورده المؤلف في رسالته : « إغاثة اللفان في حكم طلاق الغضب » .
(٢) الآية ١١ . سورة يونس .

عبدى وأنا ربك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أخطأ من شدة فرح الفرج »^(١) ولم يكن بذلك كافراً لعدم قصده . وذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك تحقيقاً لشدة الفرح الذى أفضى به إلى ذلك . وإنما كانت هذه الأشياء قد توجب السكر لأن السكر سببه ما يوجب اللذة القاهرة التى تغمر العقل ، وسبب اللذة إدراك المحبوب ، فإذا كانت المحبة قوية وإدراك المحبوب قوياً والعقل ضعيفاً حدث السكر ، لكن ضعف العقل يكون تارة من ضعف المحبة وتارة من قوة السبب الوارد ، ولهذا يحصل من السكر للمبتدئين فى إدراك الرئاسة والمال والعشق والخمر مالا يحصل لمن اعتاد ذلك وتمكن فيه .

فصل

ومن أقوى أسباب السكر الموجبة له سماع الأصوات المطربة من جنتين : من جهة أنها فى نفسها توجب لذة قوية ينغمر معها العقل ، ومن جهة أنها تحرك النفس إلى نحو محبوبها كأنها ما كان ، فيحصل بتلك الحركة الشوق والطلب مع التخيل للمحبيب وإدناء صورته إلى القلب واستيلائها على الفكرة لذة عظيمة تقهر العقل ، فتجتمع لذة الألحان ولذة الأشجان ، ولهذا يقرن للمعشوق بهذه اللذات سماع الألحان بالشراب كثيراً ليسكن لهم السكر بالشراب والعشق والصوت المطرب ، فيجدون من لذة الوصال وسكره فى هذه الحال مالا يجدونه بدونها .

فالخمر شراب النفوس ، والألحان شراب الأرواح ، ولا سيما إذا اقترن بها من الأقوال ما فيه ذكر المحبوب ووصف حال المحب على مقتضى الحال التى

(١) من حديث رواه مسلم .

هو فيها ، فيجتمع سماع الأصوات الطيبة وإدراك المعاني المناسبة ، وذلك أقوى بكثير من اللذة الحاصلة بكل واحد منها على انفراده ، فتستولي اللذة على النفس والروح والبدن أتم استيلاء فيحدث غايَةُ السكر . فـسـكـيـف يدعى العذر مَنْ تعاطى هذه الأسباب ويقول : إن ماتولّد عنها اضطرارىٌّ غيرُ اختياريٍّ وبالله التوفيق .

البَابُ الثَّالِثُ فِي الْمَحَبَّةِ

فِي أَنَّهُ الْإِذَّةُ ثَابِتَةٌ لِلْمَحَبَّةِ فِي السَّكَمِ وَالْإِنْصَافِ

فكلمة قَوْرِيَّتِ المحبة قوية الذِّةُ بإدراك المحبوب ، وهذا الباب من أجل
أبواب الكتاب وأنعمها . ونذكر فيه بيان معرفة الذِّة وأقسامها وسرايتها فنقول :
أما الذِّة ففُتِرَتْ بأنها إدراك الملائم كما أن الألم إدراك المنافي . قال شيخنا :
والصواب أن يقال إدراك الملائم سببُ الذِّة ، وإدراك المنافي سببُ الألم ،
فالذِّة والألم ينشآن عن إدراك الملائم والمنافي ، والإدراك سببُ لهما ، والذِّة أظهر
من كل ما تُعرَف به فإنها أمرٌ وجدانيٌّ ، وإنما تُعرَف بأسبابها وأحكامها .
والذِّة والبهجة والسرور وقرّة العين وطيبُ النفس والنعيمُ الفاظٌ مُتقاربةٌ
للمعنى ، وهى أمرٌ مطلوبٌ فى الجملة ، بل ذلك مقصود كلِّ حىٍّ ، وذلك أمرٌ
ضرورىٌّ من وجوده ، وذلك فى المقاصد والغايات بمنزلة الحسِّ والعلوم البديهية
فى اللبائىء والمقدمات ، فإن كلَّ حىٍّ له علمٌ وإحساسٌ ، وله عملٌ وإرادةٌ ،
وعلمُ الإنسان لا يجوز أن يكون كماله نظرياً استدلالياً لاستحالة الدور والتسلسل ،
بل لابد له من علمٍ أوّلُهُ بديهيٌّ يبدؤه النفسَ ويبتدئ فيها ، فذلك يُسمى
بديهيّاً وأوّلِيّاً ، وهو من نوع ما تُضطرُّ إليه النفس ويُسمى ضرورياً . فإن
النفس تُضطرُّ إلى العلم تارةً وإلى العمل أخرى ، وكذلك العمل الاختيارى
للمرادى له مرادٌ ، فذلك المراد إما أن يراد لنفسه أو لشيء آخر ، ولا يجوز أن
يكون كلُّ مرادٍ مراداً لغيره حذراً من الدور والتسلسل ، فلا بد من مرادٍ
مطلوبٍ محبوبٍ لنفسه ، فإذا حصل المطلوبُ المرادُ المحبوبُ فاقتراَنَ الذِّةُ

والنعمة والفرح والسرور وقُرّة العين به على قدر قوّة محبته وإرادته والرغبة فيه ، وذلك أمرٌ ذوقِيٌّ وجدِيٌّ ، ولهذا يغلب على أهل الإرادة والعمل من السالكين اسمُ الذوق والوجد لما في وجود المراد المطلوب من الذوق والوجد الموجب للفرح والسرور والنعيم . فبها هنا ثلاثة أنواع من الأسماء متقاربة المعاني ، أحدها : الشهوةُ والإرادةُ والميل والطلب والمحبة والرغبة ونحوها ، الثاني : الذوقُ والوجد والوصولُ والظفر والإدراك والحصولُ والتَّيْلُ ونحوها ، الثالثُ : اللذةُ والفرح والنعيم والسرور وطيب النفس وقُرّة العين ونحوها ، وهذه الأمور الثلاثة متلازمة .

فصل

وإذا كانت اللذة مطالبةً لنفسها فهي إنما تَذمُّ إذا أعقبت ألماً أعظم منها أو منعت لذةً خيراً منها ، وتُحمَدُ إذا أعانت على اللذة الدائمة المستقرة وهي لذةُ الدار الآخرة ونعيمها الذي هو أفضلُ نعيمٍ وأجله كما قال الله تعالى : (وَلَا تُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) ^(١) ، وقال تعالى : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) ^(٢) ، وقال تعالى : (بَلْ تُؤْزِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) ^(٣) ، وقال تعالى : (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) ^(٤) ، وقال العارفون بتفاوت ما بين الأمرين لفرعون ،

(١) الآيتان ٥٦ و ٥٧ . سورة يوسف .

(٢) الآية ٣٠ . سورة النحل .

(٣) الآيتان ١٦ و ١٧ . سورة الأعلى .

(٤) الآية ٦٤ . سورة المنكبوت .

(فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا
لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِنَّ مِنَ السُّجْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَنْبَى) ^(١) ،
والله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلقَ لدار القرار وجعل اللذة كلها بأسرها فيها
كما قال الله تعالى : (وَفِيهَا مَا شَتَّاهُمُ الْآنَفُسُ وَتَلَذَّ الْأَعْيُنُ) ^(٢) ، وقال
تعالى : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) ^(٣) ، وقال النبي صلى
الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا أَعْيُنٌ رَأَتْ
وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ بَلَّهَ مَا أَطْلَعْتُمْ » ^(٤) أى غيرَ
ما اطلعتم عليه ، وهذا هو الذى قصده الناصح لقومه الشفيق عليهم حيث قال :
(يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) ^(٥) فأخبرهم أن الدنيا متاعٌ يُتَمَتَّعُ بها
إلى غيرها . والآخرة هى المستقرُّ والغاية .

فصل

وإذا عُرِفَ أَنَّ لَذَاتِ الدُّنْيَا وَنَعِيمَهَا مَتَاعٌ وَوَسِيلَةٌ إِلَى لَذَاتِ الدَّارِ الْآخِرَةِ
وَلَدَاتِ خُلِقَتْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعٍ

(١) الْآيَتَانِ ٧٢ وَ ٧٣ سُورَةِ طه .

(٢) الْآيَةُ ٧١ سُورَةِ الزَّخْرَفِ .

(٣) الْآيَةُ ١٧ سُورَةِ السَّجْدَةِ .

(٤) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ بِبَعْضِ اخْتِلَافٍ فِي الزِّيَادَةِ الْآخِرَةِ
وَهِيَ لَمْ تَرُدَّ فِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ .

(٥) الْآيَتَانِ ٣٨ وَ ٣٩ سُورَةِ الْمُزَمِّنِ .

الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ» (١) فَكُلُّ لَذَّةٍ أَعَانَتْ عَلَى لَذَاتِ الدَّارِ الْآخِرَةِ فَهِيَ مَحْبُوبَةٌ مَرْضِيَّةٌ لِلرَّبِّ تَعَالَى ، فَصَاحِبُهَا يَلْتَذُّ بِهَا مِنْ وَجْهِينَ : مِنْ جِهَةٍ تَنْعَمُهُ وَفُرْقَةٍ عَيْنُهُ بِهَا ، وَمِنْ جِهَةٍ يُصَالِحُهَا لَهُ إِلَى مَرْضَاةِ رَبِّهِ وَإِفْضَائِهَا إِلَى لَذَّةٍ أَكْمَلَ مِنْهَا ، فَهَذِهِ هِيَ اللَّذَّةُ الَّتِي يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَسْمِيَ فِي تَحْصِيلِهَا ، لَا اللَّذَّةُ الَّتِي تُتَعَبُّ بِهَا غَايَةُ الْأَلْمِ وَتَقْوَتْ عَلَيْهِ الْأَعْظَمُ اللَّذَاتِ ، وَلِهَذَا يَثَابُ الْمُؤْمِنُ عَلَى كُلِّ مَا يَلْتَذُّ بِهِ مِنَ الْمُبَاحَاتِ إِذَا قَصَدَ بِهِ الْإِعَانَةَ وَالتَّوَصُّلَ إِلَى لَذَّةِ الْآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا ، فَلَا نِسْبَةَ بَيْنَ لَذَّةِ صَاحِبِ الزَّوْجَةِ أَوْ الْأَمَةِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي يَحِبُّهَا وَعَيْنُهُ قَدْ قَرَّتْ بِهَا ، فَإِنَّهُ إِذَا بَاسَرَهَا وَالتَّذُّ قَلْبُهُ وَبَدَنُهُ وَنَفْسُهُ بِوَصَالِهَا أَثِيبَ عَلَى تِلْكَ اللَّذَّةِ فِي مَقَابَلَةِ عَقُوبَةِ صَاحِبِ اللَّذَّةِ الْحَرَمَةِ عَلَى لَذَّتِهِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، «وَفِي بَضْعٍ أَحَدِكُمْ أَجْرٌ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّنَايِ أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ : أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الْحَرَامِ أَكَانَ عَلَيْهِ وَزْرٌ؟ قَالُوا : نَعَمْ قَالَ : فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ يَكُونُ لَهُ أَجْرٌ» (٢) .

وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ اللَّذَّةَ تَتَضَاعَفُ وَتَتَزَايِدُ بِحَسَبِ مَا عِنْدَ الْعَبْدِ مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَى اللَّهِ وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لَهُ وَالرَّغْبَةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، فَإِنَّ الشَّهْوَةَ وَالْإِرَادَةَ الْمُنْقَسِمَةَ فِي الصُّورِ اجْتَمَعَتْ لَهُ فِي صُورَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَالْخُوفَ وَالْهَمَّ وَالنَّعْمَ الَّذِي فِي اللَّذَّةِ الْحَرَمَةِ مَعْدُومٌ فِي لَذَّتِهِ ، فَإِذَا اتَّفَقَ لَهُ مَعَ هَذَا صُورَةٌ جَمِيلَةٌ وَرَزَقَ حُبَّهَا وَرَزَقَتْ حُبَّهُ وَانْصَرَفَتْ دَوَاعِي شَهْوَتِهِ إِلَيْهَا ، وَقَصُرَتْ بَصَرُهُ عَنْ

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ قَالَ السُّيُوطِيُّ : وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَالنَّسَائِيُّ .

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَسَيِّئَاتُ بَعْضِهِ مَعْرُوفَاتُ خُرَيْجِهِ لِلنَّسَائِيِّ وَالْبُزْجِيِّ : الْجَمَاعُ أَوْ الْفَرَجُ

نَفْسِهِ وَعَقْدُ الزَّوْجِ وَهُوَ أَيْضًا يَبْقَى الطَّلَاقُ كَمَا هُوَ .

النظر إلى شواها ونفسه عن التطلّع إلى غيرها فلا مناسبة بين لذته ولذّة صاحب الصورة المحرّمة . وهذا أطيب نعيم يُنال من الدُّنيا ، وجعله النبي صلى الله عليه وسلم ثالثَ ثلاثة بها يُنال خيرُ الدُّنيا والآخرة وهي : قلبٌ شاكر ، ولسانٌ ذاكر ، وزوجةٌ حسنة إن نظر إليها سرته ، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله، فالله المستعان .

وقال القاسم بن عبد الرحمن : كان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقرأ القرآن فإذا فرغ قال : أين العزّاب ؟ فقول : ادنوا مني ثم قولوا : اللهم ارزقني امرأة إذا نظرتُ إليها سرتني ، وإذا أمرتها أطاعتني ، وإذا غيبت عنها حفظت غيبتني في نفسها ومالي .

والألم والحزنُ والهمُّ والنمُّ ينشأ من عَدَم العلم بالمحبوب النافع ، أو من عدم إرادته وإيثاره مع العلم به ، أو من عدم إدراكه والظفر به مع محبته وإرادته ، وهذا من أعظم الألم . ولهذا يكون ألم الإنسان في البرزخ ^(١) وفي دار الحيوان ^(٢) بنوات محبوبه أعظم من ألمه بفواته في الدُّنيا من ثلاثة أوجه ، أحدها : معرفته هناك بكمال ما فاته ومقداره ، الثاني : شدّة حاجته إليه وشوق نفسه إليه مع أنه قد حيل بينه وبينه كمال قال الله تعالى : (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ) ^(٣) ، الثالث : حصول ضده المؤلم له . فليتأمل العاقلُ هذا الموضع وليُنزل نفسه منزلة من قد فاته أعظم محبوبٍ وأنفعه وهو أفقرُ شيء وأحوجُه إليه فواتاً لا يرجي تدارُكُه وحصل على ضده ، فيالها من مصيبة ما أوجعها ، وحالة ما أظلمها ،

(١) البرزخ : الحاجز بين شيئين ، وما بين الموت والبعث ، فن مات فقد دخل البرزخ . قال تعالى : (ومن وراءهم برزخ إلى يوم يبعثون) .
 (٢) دار الحيوان : هي الدار الآخرة .
 (٣) آخر آية من سورة سبأ .

فأين هذه الحال من حالة مَنْ يلتذُّ في الدنيا بكل ما يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى من الأكل والشرب واللباس والذكاح وشفاء الغيظ بقتل العدو وجهادٍ في سبيله، فضلاً عما يلتذُّ به من معرفة ربه ووجهه له وتوحيده والإثابة إليه والتوكل عليه والإقبال عليه وإخلاص العمل له والرضا به وعنه ، والتفويض إليه وفرح القلب وسروره بقربه والأنس به والشوق إلى لقائه كما في الحديث الذي صححه ابن حبان والحاكم : « وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّفَارِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ ^(١) » وهذه اللذة لا تزال في الدنيا في زيادةٍ مع تنقيصها بالعدو الباطن من الشيطان والهوى والنفس والدنيا والعدو الظاهر ، فكيف إذا تجرّدت الروح وفارقت دار الأحزان والآفات واتّصلت بالرفيق الأعلى (مع آله الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً) ^(٢) . فإذا أفضى إلى دار النعيم فهناك من أنواع اللذة والبهجة والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، قبوئاً وتعمساً للنفوس الوضيعة الدنيئة التي لا يهزّها الشوق إلى ذلك طرباً ، ولا تمتدُّ نارُ إرادتها لذلك رغباً ، ولا تعبدُ عما يصدُّ عن ذلك رهباً ، فبصارها كما قيل :

خفافيشُ أعشاها النهارُ بضوئه ولأعمها قِطْعٌ من الليل مظلم ^(٣)
تجول حول الحش ، إذا جالت النفوسُ العلويةُ حول العرش ، وتندسُ في الأسجبار ، إذا طارت النفوس الزكية إلى أعلى الأوكار .

(١) تقدم مطولاً وممزواً إلى مسند أحمد في الصفحة ٣٠ .

(٢) الآيتان ٦٨ و ٦٩ . سورة النساء .

(٣) الخفافيش : الطوطى يطير في الليل ويعمى في النهار والجمع خفافيش .
ولأعمها : وافقها . والقطيع بالسكسر : ظلمة آخر الليل أو القطعة منه .

فلم تَرَأْسُال الرجال تفاوتوا إلى الفضل حتى عُد ألف بواحد

فصل

وكلّ لَذَّةٍ أُعْقِبَتِ الْمَأْأُ أو منعت لَذَّةً أُكِلَ مِنْهَا فليست بلَذَّةٍ في الحقيقة وإن غالطت النفس في الالتذاذ بها ، فأى لَذَّةٍ لَا كِل طعائم شهى مسموم يُقَطَّعُ أَمْعَاءُهُ عَنْ قَرِيبٍ ؟ وهذه هى لذاتُ الكُفَّارِ والنُفَسَاتِ بعلوهم في الأرض وفسادهم وفرحهم فيها بغير الحق ومَرَحهم . وذلك مثل لَذَّةِ الذين اتَّخذوا من دون الله أَوْلِيَاءَ يَحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ، فقالوا بِهِمْ مَوَدَّةَ بَيْنِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ اسْتَحَالَتْ تِلْكَ اللَّذَّةُ أَعْظَمَ أَلَمٍ وَأَمْرَةٍ . ومن ذلك لَذَّةُ العقائد الفاسدة والفرحُ بِهَا ، وَلَذَّةُ غَلَبَةِ أَهْلِ الْجَوْرِ وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ وَالزُّنَى وَالسَّرِقَةِ وَشَرْبِ الْمُسْكِرَاتِ ، . وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أَنَّهُ لَمْ يُمَكِّنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ خَلِيدٍ يَرِيدُهُ بِهِمْ ، إِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ مِنْهُ لِيُنِيلَهُمْ بِهِ أَعْظَمَ الْأَلَمِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (أَيْخَسِبُونَ أَنَّمَا نُفِذُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) (١) وقال تَعَالَى : (فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) (٢) .

فصل

وأما اللَذَّةُ الَّتِي لَا تُعْقِبُ الْمَأْأُ فِي دَارِ الْقَرَارِ وَلَا تَوْصِلُ إِلَى لَذَّةٍ هُنَاكَ فَهِيَ لَذَّةٌ بَاطِلَةٌ ، إِذْ لَا مَنَافِعَ فِيهَا وَلَا مُضَرَّةَ ، وَزَمَنُهَا يَسِيرٌ لَيْسَ لِمَتَّعِ النَّفْسَ بِهَا قَدْرٌ وَهِيَ لَا بَدَأَ أَنْ تَشْغَلَ عَمَّا هُوَ خَيْرٌ وَأَنْفَعُ مِنْهَا فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ وَإِنْ لَمْ تَشْغَلْ

(١) الْآيَتَانِ : ٥٦ و ٥٥ . سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ .

(٢) الْآيَةُ ٥٦ . سُورَةُ التَّوْبَةِ .

غن أصل اللذة في الآخرة وهذا القسم هو الذي عناه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «كُلُّ لَهْوٍ يَلْمُؤُ بِهِ الرَّجُلُ فَهُوَ بَاطِلٌ إِلَّا رَمْيُهُ بِتَوَسِيَةٍ وَتَأْدِيَتُهُ فَرَسَهُ وَمُلَاعَبَتُهُ أَهْلَهُ فَإِنَّ مِنْ أَلْحَقٍّ»^(١) (رواه مسلم) ولهذا كانت لذة اللعب بالدف في العرس جائزة فإنها تعين على النكاح ، كما تعين لذة الرمي بالقوس وتأديب الفرس على الجهاد ، وكلاهما محبوب لله . فما أعان على حصول محبوبه فهو من الحق ، ولهذا عُدَّ ملاعبة الرجل امرأته من الحق لإعانتها على مقاصد النكاح الذي يحبه الله سبحانه وتعالى ، ومالم يُعَيَّنْ على محبوب الرب تعالى فهو باطل لا فائدة فيه ، ولكن إذا لم يكن فيه مضرة راجعة لم يُحَرِّمْ ولم يُنَهْ عنه ، ولكن إذا صدَّ عن ذكر الله وعن الصلاة صار مكروهاً بغيضاً للرب عز وجل مَقِيَّتاً عنده إما بأصله وإما بالتجاوز فيه . وكلُّ ما صدَّ عن اللذة المطلوبة فهو وبالٌ على صاحبه . فإنه لو اشتغل حين مباشرته له بما ينفعه ويَجْلِبُ له اللذة المطلوبة الباقية لكان خيراً له وأنفع .

ولما كانت النفوس الضعيفة كنفوس النساء والصبيان لا تنقاد إلى أسباب اللذة العظمى إلا بإعطائها شيئاً من لذة اللهو واللعب بحيث لو قطعت عنه كل الطعام طلبت ما هو شرٌّ لها منه رخص لها من ذلك فيما لم يرخص فيه لغيرها . وهذا كما دخل عمر بن الخطاب رضى الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده جوار يضرب بالدف فأسكتهم لدخوله وقال « هذا رَجُلٌ لَا يُحِبُّ الْبَاطِلَ »^(٢) فأخبر أن ذلك باطلٌ ولم يمنع منهُ لما يترتب له من

(١) غير موجود في صحيح مسلم ، وقال العراقي في تخریج أحاديث الإحياء : رواه أصحاب السنن الأربعة .

(٢) رواه الإمام أحمد في قصة أخرى نيس فيها ذكر الدف والجواري بل قاله صلى الله عليه وسلم للأسود بن سريع وكان يُلشده شعراً .

عليه من المصلحة الراجحة ، وَيَتَرُكُنْ بِهِ مَفْسَدَةً أَرْجَحَ مِنْ مَفْسَدَتِهِ ، وَأَيْضًا
فِيحْصُلُ لَهُمْ مِنَ التَّائِبِ بِتَرْكِ مَفْسَدَةٍ هِيَ أَكْثَرُ مِنْ مَفْسَدَتِهِ ، فَتُمْكِنُهُمْ مِنْ
ذَلِكَ مِنْ بَابِ الرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ وَالْإِحْسَانِ ، كَمَا مَكَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
أَبَا عُمَيْرٍ مِنَ اللَّعِبِ بِالْمَصْفُورِ بِمَحْضَرَتِهِ ^(١) ، وَمَكَنَ الْجَارِيَتَيْنِ مِنَ الْغَنَاءِ بِمَحْضَرَتِهِ ^(٢)
وَمَكَنَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِنَ النَّظَرِ إِلَى الْحَبَشَةِ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ ^(٣) ،
وَمَكَنَ تِلْكَ الْمَرْأَةَ أَنْ تَضْرِبَ عَلَى رَأْسِهِ بِالْإِدْفِ ^(٤) وَنَظَّارُ ذَلِكَ . فَأَيْنَ هَذَا مِنْ
اتِّخَاذِ الشُّيُوخِ الْمَشَارَ إِلَىهِمْ الْمُقْتَدَى بِهِمْ ذَلِكَ دِينًا وَطَرِيقًا مَعَ التَّوَسُّعِ فِيهِ غَايَةً
التَّوَسُّعِ بِمَا لَارِبِي فِي تَحْرِيمِهِ ؟ وَنَظِيرُ هَذَا إِعْطَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُؤَلَّفَةَ
قُلُوبَهُمْ مِنَ الزَّكَاةِ وَالْغَنِيمَةِ لَضَفِّ قُلُوبِهِمْ عَنْ قُلُوبِ الرَّاسِخِينَ فِي الْإِيمَانِ مِنْ
أَحْبَابِهِ ، وَلِهَذَا أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ وَمَنْعَ هَؤُلَاءِ وَقَالَ : أَرْكَبُهُمْ إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ
فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغَنَاءِ وَالْخَيْرِ ، وَنَظِيرُ هَذَا مَزَاحُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ مَنْ
كَانَ يَمْزَحُ مَعَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ وَالصَّبِيَّانِ وَالنِّسَاءِ تَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ ، وَاسْتِجْلَابًا
لِإِيمَانِهِمْ ، وَتَقْرِيبًا لَهُمْ . وَفِي مَرَاثِلِ الشَّعْبِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
عَلَى أَهْلِ الدَّرَكَةِ فَقَالَ : « خُذُوا يَا بَنِي أَرْفَدَةَ ^(١) حَتَّى تَعْلَمَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى
أَنَّ فِي دِينِنَا فَسْحَةً » (ذَكَرَهُ أَبُو عُبَيْدٍ وَقَالَ : الدَّرَكَةُ : لَعِبَةُ الْعَجَمِ) فَالْنَبِيُّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبْذُلُ لِلنَّفْسِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْمَنَافِعِ مَا يَتَأَنَّفَهُ بِهٍ عَلَى الْحَقِّ لِلْأُمُورِ بِهِ
وَيَكُونُ الْمَبْذُولُ مِمَّا يَلْتَذُّ بِهِ الْآخِذُ وَيُحِبُّهُ ، لِأَنَّ ذَلِكَ وَسِيلَةٌ إِلَى غَيْرِهِ ، وَلَا يَفْعَلُ

(١) الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ .

(٢) هُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ .

(٣) رُبَّمَا يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى إِشَادَةِ النَّسَاءِ عِنْدَ قَدِيمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
الْحَافِظِ الرَّاقِي : رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ وَلَا يَسُ فَيَذْكُرُ لِلدَّقِّ وَالْإِلْحَانِ .

(٤) أَرْفَدَةُ : أَبُو الْجَبِشِ . وَالحَدِيثُ رَوَاهُ الْخُرَائِمِيُّ فِي اعْتِدَالِ الْقُلُوبِ وَفِي
الْأَصْحَاحِ بِلَفْظِ جَدُوا .

ذلك مع من لا يحتاج إليه كالمهاجرين والأنصار ، بل يبذل لهم أنواعاً أخر من الإحسان إليهم ، والمنافع في دينهم ودنياهم . ولما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه من لا يجب هذا الباطل ولا سماعه ، ولا يحتاج أن يُتَأَلَّفَ بما يُتَأَلَّفُ به غيره ، وليس مأموراً بما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم من التأليف على الإيمان به ، وطاعته بكل طريق - كان إعراضه عنه كلاً بالنسبة إليه ، وحال النبي صلى الله عليه وسلم أكمل .

فصل

إذا عُرِفَ هذا فاقسامُ الذاتِ ثلاثةٌ : لذّةٌ جُبانِيّةٌ ، ولذّةٌ خياليّةٌ وَهْمِيّةٌ ، ولذّةٌ عقلِيّةٌ رُوحانيّةٌ .

فاللذّةُ الجُبانِيّةُ لذّةُ الأكل والشرب والجماع ، وهذه اللذّةُ يشترك فيها مع الإنسان الحيوانُ البهيمُ ، فليس كمالُ الإنسان بهذه اللذّةُ لمشاركة أبقص الحيوانات له فيها ، ولأنها لو كانت كلاً لكان أفضلُ الإنسان وأشرفهم وأكملهم أكثرهم أكلاً وشرباً وجاعاً ، وأيضاً لو كانت كلاً لكان نصيبُ رسل الله وأنبيائه وأوليائه منها في هذه الدار أكل من نصيب أعدائه . فلما كان الأمرُ بالصدق تبين أنها ليست في نفسها كلاً ، وإنما تكون كلاً إذا تضمنت إعانةً على اللذّة الدائمة العظمى كما تقدّم .

فصل

وأما اللذّةُ الوهميّةُ الخياليّةُ فلذّةُ الرئاسة والتعاضد على الخلق والفخر والاستعالة إليهم .

وهذه اللذة وإن كان طَلَبُهَا أَشْرَفَ نفوساً من مَلابِ اللذة الأولى فإن آلامَهَا وما توجبه من المَفسد والمضار أعظمُ من التناذدِ النفسِ بها ، فإن صاحبها منتصبٌ لمعاداة كل من تعاظم وترأس عليه . ولهذا شروطٌ وحقوقٌ تفوّت على صاحبها كثيراً من لذاته الحسيّة ، ولا يتمُّ إلا بتحمُّلِ مشاقِّ وآلامِ أعظم منها . فليست هذه في الحقيقة بلذة وإلا فرحت بها النفسُ وسُرَّت بحصولها . وقد قيل : إنه لاحتمية اللذة في الدُّنيا وإنما غايَتُها دفعُ آلامِ كما يُدفعُ أَلَمُ الجوع والعطش وأَلَمُ الشهوة بالأكل والشرب والجماع . ولذلك يُدفعُ أَلَمُ الخمول وسقوطُ القدر عند الناس بالرئاسة والجاه . والتحقيقُ أن اللذة أَمْرٌ وجوديٌّ يستلزم دفع الأَلَمِ بما بينهما من التضادِّ .

فصل

وأما اللذةُ العقليةُ الروحانيةُ فهي كلذة المعرفة والعلم والاتصاف بصفات السكّال من الكرم والجود والعفة والشجاعة والصبر والحلم والبرورة وغيرها ، فإن الالتذاذ بذلك من أعظم اللذات ، وهو لذّة النفس الفاضلة العُلوية الشريفة ، فإذا انضمت اللذة بذلك إلى لذّة معرفة الله تعالى ومحبته وعبادته وحده لا شريك له والرضا به عوضاً عن كل شيء ولا يتعوّض بغيره عنه فصاحب هذه اللذة في جنّة عاجلةٍ نُسبتُها إلى لذات الدنيا ، كنسبة لذّة الجنة إلى لذّة الدنيا ، فإنه ليس للقلب والروح أَلَذُّ ولا أَطيبُ ولا أحلى ولا أنعم من محبة الله والإقبال عليه وعبادته وحده وقرّة العين به والأنسِ بقربه والشوقِ إلى لقائه وبرؤيته ، وإن مثقال ذرّةٍ من هذه اللذة لا يُعدّلُ بأمثال الجبال من لذات الدنيا ولذلك كان مثقالُ ذرّةٍ من إيمانٍ بالله ورسوله يُخلّص من الخلود في دار الآلام

فكيف بالإيمان الذي يمنع دخولها؟ قال بعض العارفين: مَنْ قَرَّتْ عَيْنُهُ بِاللَّهِ قَرَّتْ بِهِ كُلُّ عَيْنٍ ، وَمَنْ لَمْ تَقَرَّ عَيْنُهُ بِاللَّهِ تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ عَلَى الدُّنْيَا حَسَرَاتٍ ، وَيَكْفَى فِي فَضْلِ هَذِهِ اللَّذَّةِ وَشَرَفِهَا أَنَّهَا تُخْرِجُ مِنَ الْقَلْبِ أَلَمَ الْحَسْرَةِ عَلَى مَا يَفُوتُ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَأَلَّمُ بِأَعْظَمِ مَا يَلْتَمِذُ بِهِ أَهْلُهَا ، وَيَفِرُّ مِنْهُ فِرَارَهُمْ مِنَ الْمَوْتِ . وَهَذَا مَوْضِعُ الْحَاكِمِ فِيهِ الذَّوْقُ لَا يَجْرَدُ لِسَانُ الْعَالَمِ . وَكَانَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ يَقُولُ : مَسَاكِينُ أَهْلِ الدُّنْيَا خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَذُوقُوا طَيْبَ نَعِيمِهَا ، فَيَقَالُ لَهُ : وَمَا هُوَ ؟ فَيَقُولُ : مَحَبَّةُ اللَّهِ وَالْأُنْسُ بِهِ وَالشَّوْقُ إِلَى لِقَائِهِ وَمَعْرِفَةُ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ .

وقال آخر : أَطْيَبُ مَا فِي الدُّنْيَا مَعْرِفَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ ، وَالَّذِي مَانَى الْآخِرَةَ رَوْيَتُهُ وَسَمَاعُ كَلَامِهِ بِلا واسطة .

وقال آخر : وَاللَّهِ إِنَّهُ لَيَمُرُّ بِالْقَلْبِ أَوْقَاتٌ أَقُولُ فِيهَا : إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ لَمَنْهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ . وَأَنْتَ تَرَى مَحَبَّةَ مَنْ فِي مَحَبَّتِهِ عَذَابُ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ كَيْفَ تَوْجِبُ لِصَاحِبِهَا لَذَّةً يَتَمَنَّى أَنَّهُ لَا يَفَارِقُهُ حُبُّهُ كَمَا قَالَ شَاعِرُ الْحَمَاسَةِ :

تَشَكَّى الْمَحْبُونُ الصَّبَابَةَ لَيَتَنَى تَحْمَلْتُ مَا يَلْتَمُونَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحْدِي^(١)
فَكَانَتْ لِقَلْبِي لَذَّةُ الْحَبِّ كُلُّهَا فَلَمْ يَلْتَمَهَا قَبْلِي مَحَبٌّ وَلَا بَعْدِي
قَالَتْ رَابِعَةٌ : شَغَلُوا قُلُوبَهُمْ بِحُبِّ الدُّنْيَا عَنْ اللَّهِ ، وَلَوْ تَرَكُوهَا لَجَالَتْ فِي الْمَلَكُوتِ ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَيْهِمْ بِطَرَائِفِ الْفَوَائِدِ . وَقَالَ سَلَمُ الْخَوَاصِ : تَرَكْتُهُمْ وَأَقْبَلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَوْ أَقْبَلْتُمْ عَلَيْهِ لَرَأَيْتُمْ الْمَجَانِبَ . وَقَالَتْ أَمْرَأَةٌ مِنْ

(١) تقدم هذا البيت في الصفحة ٢٢ .

العبادات: لو طالعت قلوب المؤمنين بفكرها ما دُخِر لها في حُجُب الغيوب من خير الآخرة لم يَصِفُ لها في الدنيا عيش ، ولم تَقَرَّ لها في الدنيا عين . وقال بعض الحُجَّين : إِنْ حَبَّه عز وجل شغل قلوب مُحِبِّيه عن التلذُّذ بمحبة غيره ، فليس لهم في الدنيا مع حبه عز وجل لَذَّةٌ تُدَانِي محبته ، ولا يؤمُّون في الآخرة من كرامة الثواب أكبرَ عندهم من النظر إلى وجه محبوبهم . وقال بعض السَّلف : مامن عبدٍ إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا ، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة ، فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً ففتح عينيه اللَّاتين في قلبه فأبصر بهما من اللذة والنعيم ما لا خطر له بما وعدَّ به مَنْ لا أصدقُ منه حديثاً ، وإذا أراد به غير ذلك تركه على ما هو عليه ثم قرأ : (أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)^(١) ولو لم يكن للقلب المشتغل بمحبة غير الله المعرض عن ذكره العقوبة إلا صدوؤه وقسوته وتعطيله عما خُلِقَ له لسكفى بذلك عقوبة .

وقد روى عبد العزيز بن أبي رَوَّاد عن نافع عن ابن عمر رضی الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إِنْ هَذِهِ الْقُلُوبَ تَصَدَّأُ كَمَا يَصَدُّ الْحَدِيدُ ، قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمَا جَآؤَهَا ؟ قَالَ : « تَلَاوَةُ الْقُرْآنِ »^(٢) وقال بعض العارفين : إِنْ الْحَدِيدَ إِذَا لَمْ يُسْتَعْمَلْ غَشِيَهُ الصَّدَأُ حَتَّى يَفْسُدَ ، كَذَلِكَ الْقَلْبُ إِذَا عَطَّلَ مِنْ حُبِّ اللَّهِ وَالشَّوْقِ إِلَيْهِ وَذِكْرِهِ غَابَهُ الْجَهْلُ حَتَّى يَمِيتَهُ وَيُهْنِكَه . وقال رجل للحسن : يَا أَبَا سَعِيدٍ أَشْكُو إِلَيْكَ قَسْوَةَ قَلْبِي ، قَالَ : أَذْبَهُ بِالذِّكْرِ . وَأَبْعَدُ الْقُلُوبَ مِنْ اللَّهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي ، وَلَا يُذْهَبُ قَسَاوَتُهُ إِلَّا حُبُّ مُتَرَقٍّ ، أَوْ خَوْفُ مُزْعَجٍ ، فَإِنْ قِيلَ : مَا السَّبَبُ الَّذِي لِأَجْلِهِ يَأْتِي الْحُبُّ بِمِجْهِ وَإِنْ لَمْ

(١) آية ٢٤ سورة محمد .

(٢) في شرح الإحياء للمحافظ المراقى قال : رواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف .

يظفر بحبيبه ؟ قيل : الحب يوجب حركة النفس وشدة طلبها ، والنفس خلقت متحركة بالطبع كحركة النار ، فالحب حركتها الطبيعية ، فكل من أحب شيئاً من الأشياء وجد في حبه لذةً وروحاً ، فإذا خلا عن الحب مطلقاً تعطلت النفس عن حركتها وثقلت وكسلت وفارقتها خفة النشاط. ولهذا تجد السكالي أكثر الناس همّاً وغماً وحزناً ، ليس لهم فرح ولا سرور ، بخلاف أرباب النشاط والجِدَّة في العمل أي عمل كان ، فإن كان النشاط في عملهم عالمون بحسن عواقبه وحلاوة غايته ، كان التذاذهم بحبه ونشاطهم فيه أقوى . والله التوفيق .

الباب الرابع عشر

فيمن مدح العشق وتمناه ، وغبط ساءبه علي ما أوتيه من مناه

هذا موضع انقسم الناس فيه قسمين ، وربما كان الشخص الواحد فيه مجموع
الحالتين . فقسم مدحوا العشق وتمنّوه ورغبوا فيه ، وزعموا أن من لم يذق
طعمه لم يذق طعم العيش . قالوا : وقد تبين أن كمال اللذة تابع لكمال الحب
فأعظم الناس لذة بالشئ أكثرهم محبة له ، وقد تقدّم تقريره . قالوا : وقد
حبّب الله سبحانه وتعالى إلى رُسُلِهِ وأَنْبِيَاءِهِ نساءهم وسرايهم ، فكان آدم
أبو البشر شديد المحبة لحوّاء ، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه خلق زوجته منه
ليسكن إليها . قالوا : وحبه لها هو الذي حمل على موافقتها في الأكل من
الشجرة . قالوا : وأول حب كان في هذا العالم سبب آدم لحوّاء وصار ذلك
سنة في ولده في المحبة بين الزوجين . قالوا : وهذا داود من محبته للنساء جمع
بين مائة امرأة . وكذلك ابنه سليمان . قالوا : وقد عاب اليهود — عليهم لعائن
الله — رسول الله صلى الله عليه وسلم محبة النساء وكثرة تزوّجه ، فأنزل الله سبحانه
وتعالى ذبا عن رسوله صلى الله عليه وسلم وإخباراً بأن ذلك من فضله وإنعامه
عليه : (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُنْكَاهَ عَظِيمًا)^(١) . قالوا : وقد كان عند إبراهيم
خليل الرحمن أجمل النساء سارة ، ثم تسرى بهاجر وكانت المحبة لها . قال سعد
ابن أبي وقاص رضي الله عنه : كان إبراهيم الخليل يحب سرّيته هاجر محبة

(١) الآية ٥٣ . سورة النساء .

شديدة ، وكن يزورها في كل يوم على البراق من الشام من شغفه بها .
قال الخرائطي : حدثنا نصر بن داود ، حدثنا الواقدي ، عن محمد بن صالح ،
عن سعد بن إبراهيم ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه فذكره ، وقد ثبت في
الصحيح من حديث الشعبي عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : بعثني
رسول الله صلى الله عليه وسلم على جيش وفيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ،
فلما رجعت قلت : يا رسول الله ، من أحب الناس إليك ؟ قال : وما تريد ؟
قلت : أحب أن أعلم . قال : عائشة ، قلت : إنما أعني من الرجال ، قال :
أبوها^(١) وذكر مبارك بن فضالة عن علي بن زيد عن عمته عن عائشة ، أن فاطمة
رضي الله عنهم ذكرت لها عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها : يا بنية إنما حبيبة
أبيك . وأصل الحديث في الصحيح من حديث الليث عن ابن شهاب عن محمد
ابن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها قالت : أرسل أزواج النبي صلى الله
عليه وسلم فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم إليه ، فدخلت وهو مضطجع معي
في مِرْطَى^(٢) ، فقالت : يا رسول الله ، إن أزواجك يسألك العدل في ابنة
أبي قحافة ، وأنا ساكتة ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَلَسْتَ
تُحِبِّينَ مَا أَحَبُّ ؟ » قالت : بلى ، قال : فَأَجِبِي مَذْهَبِي^(٣) وثبت في الصحيح من
حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن أبي قلابة عن عبد الله بن يزيد عن عائشة
رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَقْسِمُ بين نسائه فيعدل

(١) رواه البخاري ومسلم بنحوه .

(٢) المِرْطَى : كساء من خز أو صوف أو كتان يؤتز به وتنانع به المرأة
وجمع مِرْطَى .

(٣) رواه مسلم والنسائي .

ويقول: «اللهم هذا فعلي فيما أمرك فلا تلني فيما تنالك ولا أمرك»^(١)
يريد صلى الله عليه وسلم أنه يطابق العدل بينهم في النفقة عليهم والقسم بينهم،
وأما التسوية بينهم في المحبة فليست إليه ولا يملكها.

وقال ابن سيرين: سألت عبيدة^(٢) عن قوله تعالى: (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ
تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ)^(٣) فقال: يعني الحب والجماع.

وقال ابن عباس: لا يستطيع أن يعدل بينهم في الشهوة ولو حرص.

وقال أبو قيس مولى عمرو بن العاص: بعثني عمرو إلى أم سلمة فقال:
سألتها أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل أسنانه وهو صائم؟ فإن قالت لا
فقل لها إن عائشة رضي الله عنها حدثتنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان
يقبلها وهو صائم، فسألتها فقالت: لا، فأخبرنا بما قال عبد الله^(٤)، فقالت
أم سلمة رضي الله عنها إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى عائشة
رضي الله عنها لم يمالك عنها، أما أنا فلا. وقال بيان الشعبي: أتاني رجل
فقال: كل أمهات المؤمنين أحب إلا عائشة، فقلت: أما أنت فقد خالفت
رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت عائشة رضي الله عنها أحبهن إلى قلبه.

وقال مصعب بن سعد: فرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأمهات
المؤمنين رضي الله عنهن عشرة آلاف عشرة آلاف، وزاد عائشة ألفين وقال:

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه وجاء في
تفسير القرطبي ج ٥ هـ اللهم هذه قسمتي،

(٢) هو عبيدة السلماني كما جاء في تفسير القرطبي

(٣) الآية ١٢٩. سورة النساء.

(٤) كذا. ولعل الصواب أبو عبد الله أو عمرو والثابت في صحيح مسلم أنه صلى
الله عليه وسلم كان يقبل أم سلمة وهو صائم.

إنها حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان مسروق إذا حدث عن عائشة رضى الله عنها يقول : حدثتني الصديقة بنت السديق حبيبة رسول رب العالمين المبرأة من فوق سبع سموات . قال أبو محمد بن - زم : وقد أحب من الخلفاء الزائدين والأئمة المهديين كثير .

قال الخراطى : واشترى عبد الله بن عمر - بارية رومية فكان يحبها حباً شديداً ، ف وقعت ذات يوم عن بقله له فجعل يمسح التراب عن وجهها ويفديها . وكانت تقول له : أنت قالون ، تعنى جيد ، ثم إنها هربت منه فوجد عليها وجداً شديداً وقال :

قد كنتُ أحسبني قالونَ فانسرفت فاليوم أعلمُ أنى غيرُ قالونِ
وقصة مُغيثٍ وعشيقه بريرة سقى إنه كان يطوف وراءها ودموعه تسيل
على خديه^(١) فى الصحيح . وكان عروة بن أذينة شيخ مالِك من العلماء
الثقات الصلحاء وقفت عليه امرأة قتالت : أنت الذى يقال له الرجلُ الصالح
وأنت تقول :

إذا وجدتُ لبيبَ الحبِّ فى كبدى عمدتُ نحو سقاء القوم أبترِدُ
هذا برزتُ ببرِّ الماءِ ظاهره فمن لئار على الأشياء تتقدُّ^(٢)
وكان محمد بن سيرين ينشد :

إذا خدرتُ رجلى تذكرتُ من لها فناديتُ لُبْنى باسمها ودعوتُ
دعوتُ التى لو أن نفسى تطيعنى لألقيتُ نفسى نحوها وقضيتُ^(٣)

(١) تقدمت هذه القصة فى الصفحة ١٤٣ .

(٢) تقدم هذان البيتان بتغيير فى اللفظ فى الصفحة ٤٦ ولم يذسبإلى قائلهما .

(٣) البيتان لقيس بن ذريح .

وقال صالح عن ابن شهاب : حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن ابن مسعود رضى الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في قريب من ثمانين رجلاً ليس فيهم إلا قرشي ، والله ما رأيت صنعة وجوه قط أحسن من وجوههم يومئذ ، قال : فذكروا النساء فتحدثوا فيهن وتحدثت معهم حتى أحببت أن نسكت ، قالوا : ولولا ليلانة الحب ولذته ما تمناه اللعنون . وقال شاعر الحماسة :

تَشَكَّى الحَبِيتُ الصَّبَابَةَ لِيَنِي تَحَلَّتْ مَا يَلْقَوْنَ مِنْ يَنِيهِمْ وَحَدَى
فَكَانَتْ لِقَلْبِي لَذَّةُ الْحَبِّ كُلِّهَا فَلَمْ يَلْقَهَا قَبْلِي عِبُّ وَلَا بَسْدِي^(١)

قالوا : والعشيقُ المباحُ مما يؤجر عليه الناشقُ كما قال شريك بن عبد الله — وقد سئل عن العشاق — فقال : أشدُّهم سبًّا أعفاهم أجراً . وصدق والله إذا كان المَعشوقُ ممن يحبُّ اللهُ للناشِقِ قُرْبَهُ ووسلَهُ . وقالت امرأة :

لَنْ يَقْبَلَ اللَّهُ مِنْ مَعشوقَةٍ عَمَلًا يَوْمًا وَعاشقَهَا كَهْفَانُ مَهْجُورٍ
لَيْسَتْ بِمَأْجُودَةٍ فِي قَتْلِ عَاشِقِهَا لَكِنْ عَاشِقَهَا فِي ذَلِكَ مَأْجُورٍ

ونحن نقول : متى باتت مهاجرةً لفراش عاشقها الذي هو بعلها لعنتها الملائكة حتى تصبح . قالوا : والعشيقُ يسنى المتل ويذهب الهم ويبعث على حسن اللباس وطيب المطعم ومكارم الأخلاق ويعلى الهمة ويحمل على طيب الرأفة وكرم العشرة وحفظ الأدب والأروعة ، وهو بلاء الصالحين ومحنة العابدين ، وهو ميزان المقول وجلاء الأذعان ، وهو خلق الكرام كما قيل :

وَمَا أَحَبَّيْتُهَا فُحْشًا وَلَكِنْ رَأَيْتُ الْحَبَّ أَخْلَاقَ الْكِرَامِ
قالوا : وأرواحُ المُشَاقِّ عَطْرَةٌ لَطِيفَةٌ ، وأبدانهم رَقِيقَةٌ ضَعِيفَةٌ ، وأزواجهم

بطيئته الانتقاد لمن قاضها ، حاشا سكنها الذي سكنت إليه ، وعمدت حبها عليه .
وكلامهم ومناديتهم تزيد في العقول ، وتحرك النفوس ، وتطرب الأرواح ،
وتلهو بأخبارهم أولو الألباب .

فلحاديث العشاق زينة مجالسهم ، ورؤح محادثتهم ، ويكفي أن يكون
الأعرابي الذي لا يُذكر مع الملوك ولا مع الشجعان الأبطال يعشق ويشتهر
بالمشوق فيذكر في مجالس الملوك والخلفاء ومن دونهم ، وتدوّن أخباره
وتروى أشعاره ، ويُنسب له المشوق ذكرًا مخلصًا . ولولا العشق لم يُذكر له اسم
ولم يُرفع له رأس .

وقال بعض العقلاء : العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان ، إن تركته
ضرك ، وإن أكلته منه قتلك .

وقال ابن عبد البر في كتابه « بهجة المجالس » : وجد في محبة لبعض
أهل الهند : المشوق ارتياح جميل في الروح ، وهو معنى تذبذب النجوم في
مطارح شعاعها ، ويتولد في الطباع بوصلة أشكالها ، وتقبله الروح بلطف
جوهرها ، وهو يعدّ جلاء القلوب ، وصقل الأذهان ما لم يفرط ، فإذا أفرط
صار سقمًا قاتلاً ، ومرضاً منهكاً^(١) لا تنفذ فيه الآراء ، ولا تنفع فيه الحيل ،
والعلاج منه زيادة فيه .

وقال أعرابي : هو أنيس النفس ، ومحادث العقل ، تُجنيه الضمائر ، وتخدمه
الجوارح . وقال عبد الله بن طاهر أمير خراسان لولده : اعتقوا تظرفوا ، وعرفوا
تشرّفوا . وقال قدامة : وصفه بعض البلغاء فقال : يشجع الجبان ، ويسخى
البيخل ، ويصقّ ذهن البليد ، ويفصح لسان العبي ، ويبعث حزم العاجز ،

(١) كذا .. والصواب ناهكا لأن فعله ثلاثي : أى مضنياً .

وَيَذُلُّ لَهُ عِزُّ الْمُلُوكِ ، وَتُضَدَّعُ لَهُ صَوْلَةٌ^(١) الشَّجَاعِ ، وَهُوَ دَاعِيَةُ الْأَدَبِ ، وَأَوَّلُ
بَابٍ تَفْتَقُّ بِهِ الْأَذْهَانُ وَالْبَطْنَ ، وَتُسْتَخْرَجُ بِهِ دَفَائِقُ الْمَسَايِدِ وَالْحِيلِ ، وَإِلَيْهِ
تُسْتَرْوَحُ الْمَعَمِّ ، وَتَسْكُنُ نَوَافِرُ الْأَخْلَاقِ وَالشَّيَمِ ، يُمْتَنِعُ جَالِسُهُ ، وَيُؤْنَسُ أَلِفُهُ .
وَلَهُ مَرُورٌ يَجُولُ فِي النُّفُوسِ ، وَفَرَحٌ يَسْكُنُ فِي الْقُلُوبِ . وَقِيلَ لِبَعْضِ الرُّسَاءِ :
ابْنُكَ قَدْ عَشِقَ ، فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، الْآنَ رَقَّتْ حَوَاشِيهِ ، رَلَفَتْ مَعَانِيهِ ، وَمَلَكَتْ
إِشَارَاتُهُ ، وَظَلَرَفَتْ حَرَكَاتُهُ ، وَحَسُنَتْ مَبَارَاتُهُ ، وَجَادَتْ رَسَائِلُهُ ، وَجَلَّتْ شِمَائِلُهُ ،
فَوَاطَبَ عَلَى الْمَلِيحِ ، وَاجْتَنَبَ الْقَبِيحِ .

وَقِيلَ لِآخِرِ ذَلِكَ فَقَالَ : إِذَا عَشِقَ لَطْفٌ وَظَلَرَفَ وَدَقَّ وَرَوَّى . وَقِيلَ
لِبَعْضِهِمْ : مَتَى يَكُونُ الْفَتَى بَاطِلًا ؟ قَالَ : إِذَا صُنِّفَ كِتَابًا ، أَوْ وَصِفَ هَوًى أَوْ
حَبِيبًا . وَقِيلَ لِسَعِيدِ بْنِ أَسْلَمَ : إِنْ ابْنُكَ شَرَعَ فِي الرَّقِيقِ مِنَ النِّسَاءِ : فَقَالَ :
دَعُوهُ يَظْلُرُفُ وَيَنْفُفُ وَيَلْعَافُ . وَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ :

وَمَا النَّاسُ إِلَّا الْمَاشِقُونَ ذُووُ الْهَوَى وَلَا خَيْرَ فِعْمٍ لَا يُجِيبُ وَبِمَشَقِّ
وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ مُبَايَرَ :

إِنْ الْغَوَايِي جَنَّةٌ رِيحَانُهَا نَضَرُ الْحَيَاةُ فَأَيْنَ عَنْهَا نَعْرِفُ^(٢)
لَوْلَا مَلَا حَتَمٌ مَا كَانَتْ لَنَا دُنْيَا نَلَذُّ بِهَا وَلَا تَتَصَرَّفُ
وَقَالَ غَيْرُهُ :

وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي نَعِيمِهَا وَأَنْتَ وَحِيدٌ مَفْرَدٌ غَيْرُ عَاشِقٍ
وَقَالَ آخَرُ :

هَلْ الْمَيْشُ إِلَّا أَنْ تَرَوْحَ وَتَغْتَدِي وَأَنْتَ بِكَأْسِ الْعَشَقِ فِي النَّاسِ نَشْرَانُ

(١) الصَوْلَةُ: السَّلَاطَةُ فِي الْحَرْبِ وَنَحْوُهَا وَيُقَالُ: هُوَ ذُو صَوْلَةٍ : مُقَدِّمٌ

(٢) عَزَفَتْ نَفْسُهُ عَنِ الشَّيْءِ : انْصَرَفَتْ عَنْهُ وَزَهَدَتْ فِيهِ .

وقال المطوى :

مادِنتُ بالحبِّ إلّا والحبُّ دينُ الكرام

وقال آخر :

نظرتُ إليها نظرةً فمَوَّيتُها ومن ذالهُ عقلٌ سليمٌ ولا يَهْوِي

وقال آخر :

وما سرّني أني خلتُ من الهوى ولو أن لي ما بين شرقٍ ومغرب

وقال آخر :

وما تَلِفْتُ إلّا من العشقِ مُهْجَتِي وهل طاب عيشٌ لامرئٍ غيرِ عاشق

وقال آخر :

ولا خيّرَ في الدنيا بغيرِ صبايةٍ ولا في نعيمٍ ليس فيه حبيبٌ

وقال الكُمَيْت :

ماذاقَ بُؤْسَ مَمِيشَةٍ ونعيمَها فيما مضى أحدٌ إذا لم يَعْشَقِ

أَلْعَشَقُ فيه حلاوةٌ ومَرارةٌ فاسألْ بذلك من تطعمَ أو ذوقِ

وقال آخر :

وما طابت الدنيا بغيرِ محبّةٍ وأيُّ نعيمٍ لامرئٍ غيرِ عاشق

وقال آخر :

أسكنْ إلى سَكَنٍ تَلَدُّ بِحَبِّهِ ذهبُ الزمانِ وأنتَ خالٍ مفرد

وقال آخر :

إذا أنتَ لم تَعْشَقْ ولم تَدْرِ ما الهوى فأنتَ وعيْدٌ في الفلاةِ سواه

وقال آخر :

إذا أنتَ لم تَعْشَقْ ولم تَدْرِ ما الهوى فسكنْ حَجَرًا من لابسِ الصخرِ جَلَدًا

وقال آخر :

إذا أنت لم تعشق ولم تدّر ما الهوى فقم فاعتلف تبنّا فانت حمار

وقال آخر :

إذا لم تدقّ في هذه الدار صبوّة^(١) فموتك فيها والحياة شواه

وقال الأقرع بن مُعاذ :

ولا خير في الدنيا إذا أنت لم ترّر حبيباً ولا وافي إليك حبيب

وقال آخر :

وما ذاك طمّ العيش من لم يكن له حبيبٌ إليه يطمئنُّ ويسكن
وقال علي بن أبي كثير لابن أبي الزرقاء : هل عشقت قطّ حتى تكتاب
وتراسل وتواعد ؟ قال : لا ، فقال : لا يحمى منك شيء . وكان لبعض الملوك ولد
واحد ساقطُ الهمة ذنوّ النفس فاجر ، فأراد أن يرشّحه للملك فسلط عليه الجوّاري
والقيان^(٢) فعشق منهنّ واحدة ، فأعلم بذلك الملك فسرّ وأرسل إلى المعشوقة
أن تجنّ عليه وقولي : إني لأصلح إلا للملك أو عالم ، فلما قالت له ذلك أخذ في
التعلّم وما عليه الملوك من أدوات الملك حتى برع في ذلك . وقال المرزبان : سئل
أبو نوفل هل يسلم أحدٌ من العشق ؟ فقال : نعم الجلف^(٣) الجاني الذي ليس له
فضل ولا عنده فهم ، فأما من في طبعه أدنى ظرّف أو معه دمانة أهل الحجاز
وظرّف أهل العراف فيهمات . وقال علي بن عبدة : لا يخلو أحدٌ من صبوّة إلا
أن يكون جاني خِلقة ناقصاً أو منقوص الهمة أو على خلاف تركيب الاعتدال .

(١) الصبوّة : الشوق والحنين والميل إلى الحبيب .

(٢) جمع قينة : الأمة المغنية ، وقيل الأمة مغنية كانت أو غير مغنية .

(٣) الجلف : الغليظ الجاني واللاحق .

قالوا: ولا يكمل أحد قط إلا من عشقه لأهل الكمال وتشبه بهم . فالعالم
يبلغ في العلم بحسب عشقه له ، وكذلك صانع كل صناعة وحرفة . ويكفي
أن العاشق يرتاح الكريم الأخلاق والأفعال والشم لتحمد شمائله عند معشوقه
كما قال :

ويرتاح للمعروف في طالب العلى لتحمد يوماً عند ليلى شمائله^(١)
وقال أبو المغجاب : رأيت في الطواف فتى نحيف الجسم بين الضعف يلود
ويتعوذ ويقول :

وددت بأن الحب يجمع كله فيقدف في قلبي وينغلق الصدر
فلا ينقض ما في فؤادي من الهوى ومن فرحى بالحب أو ينقضى العمر

فقلت : يافتى ، أما لهذه البديهة^(٢) حرمة تمنعك عن هذا الكلام ؟ فقال :
بلى والله ولكن الحب ملأ قلبي بفرح التذكر ، ففاضت الفكرة في سرعة
الأوبة^(٣) إلى من لا يشذ عنه معرفة ما بي ، فتمنيت المني . والله ما يسرني
ما بقلبي منه ما فيه أمير المؤمنين من الملك ، وإني أدعو الله أن يثبتني في قلبي
عمرى ، ويجعله ضجيجي في قبري ، دريت به أولم أذر . هذا دعائي أو أنصرف
من حبيتي ، ثم بكى ، فقلت : ما يبكيك ؟ قال : خوف أن لا يستجاب دعائي ،
وله قصيد وفيه رغبة مما يعطى الله سائر خلقه . ثم مضى . قالت هذه الفرقة ،
وغاية ما يقدر في أمر العشق أنه يقتل صاحبه كما هو معروف عند جماعة من
العشاق . وقد قال سويد بن سعيد الجذامي حدثنا علي بن مسهر ، عن أبي يحيى
القتات ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه

(١) الشمائل جمع شمل : الأخلاق واللباع .

(٢) البلية : السكبة المشرفة .

(٣) الأوبة : الرجعة .

وسلم أنه قال : « مَنْ عَشِقَ فَكُتِمَ وَعَفَّ وَصَبَرَ فَاتَ بِهِ شَهِيدٌ »^(١) رواه
عن سُؤَيْدٍ جَاعَةً . وقال الخطيب : حدثنا أبو الحسن علي بن أيوب إمامنا منه
حدثنا أبو عبد الله المرزباني وابن حَيَّوِيَّةَ وابن شاذان قالوا : حدثنا أبو عبد الله
إبراهيم بن محمد بن عرفة نِطَاطَوِيَّةَ قال : دخلت على محمد بن داود الأصهباني في
مرضه الذي مات فيه فقلت له : كيف تجدك ؟ فقال : حبٌّ من تعلم أورثني
ماترى . فقلت : ما منعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه ؟ فقال : الاستمتاع
على وجهين : أحدهما النظر المباح ، والثاني اللذة المحظورة . فأما النظر المباح
فأورثني ماترى ، وأما اللذة المحظورة فإنه منعه منها ما حدثني أبي ، حدثنا
سويد بن شعيب ، حدثنا علي بن مُسْهِرٍ ، عن أبي يحيى البَقَّتَاتِ ، عن مجاهد ،
عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ
عَشِقَ وَكُتِمَ وَعَفَّ وَصَبَرَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ » . قال الحاكم
أبو عبد الله : إنما أتعجب من هذا الحديث ، فإنه لم يحدث به غير سُؤَيْدٍ ، وهو
وداود بن علي وابنه أبو بكر ثقات . ثم رواه الخطيب : حدثنا الأزهرى ،
حدثنا المَعَاذِيُّ بْنُ زَكْرِيَّا ، حدثنا قُطَيْبَةُ بْنُ الْفَضْلِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْأَنْصَارِيَّ ، حدثنا
أحمد بن محمد بن مسروق ، حدثنا سُؤَيْدٌ ، حدثنا ابن مُسْهِرٍ ، عن هشام بن
عُرْوَةَ ، عن أبيه ، عن عائشة رضى الله عنها مرفوعاً . ورواه الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ
عن عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون ، عن عبد العزيز بن أبي حازم ، عن
ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبي صلى الله
عليه وسلم به . ولنظله : « مَنْ عَشِقَ فَكُتِمَ فَاتَ بِهِ شَهِيدٌ » رواه أبو بكر محمد
ابن جعفر بن سهل الخرائطى فى كتاب اعتلال القلوب . حدثنا أبو يوسف
يعقوب بن عيسى من ولد عبد الرحمن بن عوف ، عن الزبير فذكره ، فخرج سُؤَيْدٌ

عن عهدة التفرّد به، على أنه لو تفرّد به فهو ثقة، احتجّ به مسلم في صحيحه . وقال عبد الله بن أحمد : قال لي أبي : أكتب عنه حديث ضمام . وقال البغوي : كان حافظاً وكان أحمد ينتقي لولديه عليه صالح وعبد الله ، فكانا يختلفان إليه . وقال مسلم : ثقة ثقة . وقال أبو حاتم الرازي ويعقوب بن شيبه : هو صدوق . وأكثر ما عيب به التّدليس^(١) وقد صرح هاهنا بالتحديث ، وعيب بأنه ذهب بصره في آخر عمره ، فربما أدخل عليه هذا الحديث في كتبه ، ولكن رواية الأكبر عنه هذا الحديث كان قبل ذهاب بصره ، لأنه إنما عمى في آخر عمره ، وليس هذا بقادر في حديثه .

قلت : وهذا حديث باطل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعاً لا يشترط كلامه ، وقد صحّ عنه أنه عدّ الشهداء ستاً^(٢) فلم يذكر فيهم قتيل العشق شهيداً ولا يمكن أن يكون كلُّ قتيلٍ بالعشق شهيداً فإنه قد بعث عشقاً يستحقّ عليه العقوبة . وقد أنكر حُفّاظ الإسلام هذا الحديث على سُويد وقد تكلم الناس فيه ، فقال ابن المديني : ليس بشيء والضرير إذا كان عنده كتب فهو عيبٌ شديد . وقال يعقوب بن شيبه : صدوق مضطرب الحفظ ولا سيما بعد ما عمى . وقال البخاري : كان قد عمى فيلقن بما ليس من حديثه . وقال أبو أحمد الجرجاني : هذا الحديث أحد ما أنكر على سُويد ، وأنكره البيهقي وأبو الفضل ابن طاهر وأبو الفرج بن الجوزي وأدخله في كتابه الموضوعات .

ولما رواه أبو بكر الأزرق عن سُويد عاتبه عليه ابن الرزبان فأسقط ذكر

(١) التّدليس في البيع : كتمان عيب السلعة عن المشتري . وجاء في القاموس المحيط أن التّدليس في الإسناد هو أن يحدث عن الشيخ الأكبر ولعله ما رآه وإنما سمعه من هو دونه أو من سمعه منه ونحو ذلك .

(٢) كذا .. ولعله : ستة

النبي صلى الله عليه وسلم منه . وكان سُوَيد إذا سئل عنه لا يرفعه ، وهذا أحسنُ
أحواله أن يكون موقوفاً . ولذلك رواه أبو محمد الحسين القارى من حديث
أبي سعد البقال : عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله . وأما سياق
الخطيب له من حديث هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضى الله عنها فلا
يَشْكُ من شَمِّ رَاحِمَةِ الحديث أن هذا باطل على هشام عن أبيه عن عائشة ، ولا
يحتمل هذا المتنُ هذا الإسناد بوجه ، والتحاكم في ذلك إلى أهل الحديث لا إلى
العارين الغرباء منه . والظاهر أن ابن مسروق سرقه وغيرُ إسنادَه . وأما حديث
الزبير بن بكار فن روايه يعقوب بن عيسى وهو ضعيف لا تقوم به حجة قد
ضعفه أهل الحديث ونسبوه إلى الكذب .

الباب الخامس عشر

فيمس ذم العش وتبرسم به وما انتج به كل فربى على صفة مذهبه

قال الله تعالى إخباراً عن المؤمنين : (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا)^(١) وقد أثنى الله عليهم سبحانه بهذا الدعاء الذى سألوه فيه أن لا يحمّلهم ما لا طاقة لهم به ، وقد فُسّر ذلك بالعشق ، وليس المراد اختصاصه به بل المراد أن العشق مملا طاقة للعبد به . وقال مكحول : هو شدة الذلة^(٢) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَا يَلْبِغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ »^(٣) . قال الإمام أحمد : تفسيره أن يتعرض من البلاء لما لا يطيق ، وهذا مطابق لحال العاشق ، فإنه أذلّ الناس لمعشوقه ولما يحصل به رضاء ، والحب مبناه على الذل والخضوع للحبوب كما قيل :

إخضع وذِلّ إن تحب فليس فى . شرع الهوى أنف يُشال ويُعقد^(٤)
وقال آخر :

مساكين أهل العشق حتى قبورهم عليها تراب الذل بين المقابر

(١) آخر سورة البقرة . والإصر : التكاليف الشاقة ، سميت إصرّاً لأنها تمنع المسكاف وتعوقه عن القيام بما كلفه .

(٢) الذلة : غلبة الشهوة وشدها .

(٣) فى مسند الامام أحمد (ج ٥ ص ٤٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان باللفظ : « لا يلبغى المسلم .. الخ » .

(٤) شال : ارتفع . وشال ميزان فلان : غلب فى المفاخرة ونحوها .

وقال آخر :

قالوا عهدناك ذا عزّ فقلت لهم لا يعجب الناس من ذلّ المحيينا
لا تنكروا ذلّة العشاق إنهم مستعدّون بريق الحبّ راضونا

قالوا : وإذا اقتحم العبدُ بحرَ العشق ولعبت به أمواجه فهو إلى الهلاك
أدنى منه إلى السلامة ، كما ذكر الخرائطي أنه كان بالمدينة جاريةً ظريفةً فهويّت
رجلاً من قريش ، وكان لا يفارقها ولا تفارقه قلبها ، وزاد حبّها له فسقيمت ،
وجعل مولاهم لا يعبأ بشكواها ولا يرق لها ، حتى هامت على وجهها ومزقت
ثيابها وأفضت^(١) إلى أمرٍ عظيم . فلما رأى ما صارت إليه عاجلها فلم ينفع فيها
العلاج ، وكانت تدور في السكك بالليل وتقول :

الحبُّ أوّل ما يكون لـجاجة^(٢) تأتي به ونسوقه الأقدارُ
حتى إذا اقتحم الفتى لجج^(٣) الهوى جاءت أمورٌ لا تطلق كِبَارُ
من ذا يطيق كما نطيق من الهوى غلبَ العزاء وباحت الأسرارُ
قال الخرائطي : وأنشدني بعض أصحابنا :

الحبُّ أوّلُ شيءٍ يهيم به قلبُ المحبِّ فيلتقي الموتَ كاللَّعِبِ
يكون مبدؤه من نظرةٍ عرّضتْ ومزجةٍ أشعلت في القلب كاللَّهَبِ
كالنار مبدؤها من قدحةٍ^(٤) فإذا تضرّمت أحرقت مستجمع الحطَبِ

(١) أفضى به إلى كذا : بلغ وانتهى به إليه .

(٢) اللجاجة : التّأدي في العناد .

(٣) اللجج جمع لجة : معظم الماء ويقال : لجة الماء ولجة الظلام .

(٤) القدحة بالكسر : اسم لاقتداج النار . وضرم النار وأضرّمها : أشعلها
وأوقدها وألهبها .

قالوا: وكيف يُمدَح أمرٌ يمنع القرار ، ويسلب المنام ، ويؤله العقل ،
ويُحدث الجنون ، بل هو نفسه جنون ، كما قال بعض الحكماء : الجنون فنون ،
والعشق فنٌّ من فتونه ، كما قال بعض العشاق :

قالوا جُنِفَتْ بَيْنَ تَهْوِي فَقَلْتُ لَهُمْ أَلْعَشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْجَانِينِ
أَلْعَشْقُ لَا يَسْتَفِيْقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ وَإِنَّمَا يُصْرَعُ الْجُنُونُ فِي الْحَيْنِ^(١)

قالوا : وكم من عاشق أٌتلف في معشوقه ماله وعِرْضه ونفسه ، وضيع أهله
ومصالح دينه ودنياه . قال الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَار : جاءت بدويةٌ إلى أُخْتٍ لها
فقلت : كيف بك من حبِّ فلان ؟ قالت : حرَّك اللهُ حُبّه الساكنَ ، وسكَّنَ
المتحرِّك ، ثم أنشأت تقول :

فَلَوْ أَنَّ مَا بِي بِالْحَصَى فَلَقَ الْحَصَى وَبَارَيْجٍ لَمْ يُسْمَعْ لَهُنَّ هُبُوبُ
وَلَوْ أَنَّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كُلَّمَا ذَكَرْتُكَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيَّ ذُنُوبُ

فقلت : والله لأسأله كيف هو من حبك ، فجاءته فسأله فقال : إنما الهوى
هو أنْ ولكنه خولِفَ باسمه ، وإنما يَعْرِفُ ذَلِكَ مَنْ اسْتَبْكَنَهُ الْمَعَالِمُ وَالطُّلُولُ^(٢)
وأنشد أبو الفضل الربيعي :

قَدْ أَمْطَرْتُ عَيْنِي دَمًا فَدَمَاؤُهَا بَعْدَ الدُّمُوعِ مِنَ الْجَفُونِ هَوَامِلُ
كَيْفَ الْعِزَاءِ وَلَا يَزَالُ مِنَ الضَّنَى فِي الْجِسْمِ مِنِّي وَالْجَوَانِحِ نَازِلُ
لَهْفِي عَلَى زَمَنِ مَضَى تَجْتَازُنِي فِيهِ صُرُوفُ الدَّهْرِ وَهِيَ عَوَاقِلُ
قالوا : والعشق هو الداء الدوي^(٣) الذي تذبذب معه الأرواح ، ولا يقع معه

(١) تقدما في الصفحتين ١٣٩ و ١٤٤ .

(٢) جمع طلل : هو ما بقي شاخصا من آثار الديار ونحوها

(٣) الدوي : الشديد المهلك .

الارتياح ، بل هو بحرٌ مَنْ رَكِبَهُ غَرِقَ ، فإنه لا ساحل له ولا نجاة منه ، وهو الذى قال فيه القائل :

وما أحدى في الناس يُحمَدُ أمرُهُ
وما أحدى ما ذاق بُؤْسَ معيشةٍ
فيوجد إلا وهو في الحب أحق
فيعشق إلا ذاقها حين يعشق
وقال العباس بن الأحنف :

ويجَ الحبين ما أشقى نفوسهم
يشقون في هذه الدنيا بعشقهم
إن كان مثلُ الذى بى بالحبيبتنا
لا يرزقون به دُنْيَا ولا دِينَا
وقال آخر :

العشقُ مشغلةٌ عن كل صالحةٍ
وقال محمد بن أبى محمد اليزيدى :

كيف يطيق الناس وصف الهوى
بل كيف يصفو لحليف الهوى
وهو جليلٌ ما له قدرُ
عيشٌ وفيه البينُ والهجرُ
وقال محمد بن أمية :

قرينُ الحب يأنسُ بالهموم
وأعظمُ ما يكون به اعتباطُ
ويكثرُ فكرةُ القلب السقيم
على خطيرٍ ومُطْلِعٍ عظيمٍ
وقال أبو تمام :

أما الهوى فهو العذابُ فإن جرت
وقال ابن أبى حصينة .

والعشقُ يجتذبُ النفوسَ إلى الردى
بالطبعِ واحسدٍ لمن لم يعشق

وقال ابن المعتز :

الحب داءٌ عُضالٌ لا دواء له يحار فيه الأطباء النحارير^(١)
قد كنت أحسب أن العاشقين غلّوا في وصفه فإذا بالقوم تقصيرُ
وقال أعرابي :

ألا ما الهوى والحُبُّ بالشئ هكذا يذلُّ به طوع اللسان فيوصفُ
ولكنَّه شئٌ قضى اللهُ أنه هو الموتُ أو شئٌ من الموت أعنفُ
فأَوَّلُهُ سَقَمٌ وآخره ضنًى وأوسطه شوقٌ يشفُ^(٢) ويتلفُ
وَرَوْعٌ وتسميدٌ وهمٌ وحسرةٌ ووجدٌ على وجدٍ يزيد ويضعفُ
وقال عبد المحسن الصوري :

ما الحبُّ إلا مسلكٌ خَيارٌ عسيرُ النجاة وموْطئٌ زَلَقُ
وقال آخر :

وكان ابتداءه الذي بي مجونا فلما تمكَّن أُمسى جنونا
وكنتُ أظنُّ الهوى هيناً فلاقيتُ منه عذاباً مُهيناً
وقالت امرأة :

رأيت الهوى حُلواً إذا اجتمع الشَّمْلُ ومُرّاً على المهجران لابل هو القتلُ
فمن لم يذُقْ للهجر طعماً فإنه إذا ذاق ملعَم الحب لم يدْرِ ما الوصلُ
وقد ذقتُ طعمه على القرب والنوى فأبده قتلٌ وأقربُه خَبيلٌ^(٣)

-
- (١) عضال : شديد أعياء الأطباء . والنحارير جمع نحير : العالم المتقن .
(٢) يشف : يسهِّم ويضنى .
(٣) الخبل : فساد العقل .

قالوا : والعشق يترك الملكَ مملوكاً ، والسلطانَ عبداً ، كما قال الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل وكانَ ملكَ الأندلس :

ظلُّ من فرطِ حُبِّه مملوكاً ولقد كان قبل ذلك مليكاً
تركتُه جاذراً^(١) القصر صباً مستهماً على الصعيد تريكا
يجعلُ الخلدَ واضعافوقِ رُبِّ للذي يجعل الحريرَ أريكا
هكذا يحسنُ التذللُ بالحرِّ إذا كان في الهوى مملوكاً

وقال الرشيد وقد عشق ثلاثَ جوارٍ من جواريه سه ويقال : إنه المأمون :-

ملكُ الثلاثُ الأنساتُ عِنايَ وحلَّانَ من قلبي بكلِّ مكانٍ
مالى تطاوعنى البريةُ كلُّها وأطيعُهنَّ وهنَّ فى عصيانى
ماذاكَ إلا أن سلطانَ الهوى وبه قورينَ أعزُّ من سلطانى
وقال بعض الملوك^(٢) فى جارية له عشقها وكانت كثيرة التَّجَنَّى عليه :

أما يكفيكِ أنكَ تملكينى وأن الناسَ كلَّهم عبيدى
وأنكِ لو جَهِدْتِ على تلافى لقلتُ من الرضا أحسنَ زيدى
وقال ابن طاهر ملك خراسان :

فإنى وإن حنَّ إليك ضمائرى فاقدرُ حُبِّي أن يذلَّ له قدرى
وقال ابن الأحمر ملك الأندلس :

أياربَه انلخذِ رالتى أذهبتْ نُسكى^(٣) على كل حالٍ أنتِ لا بُدَّ لى منكِ
فإما بذلُّ وهو أليقُ بالهوى وإما بعزُّ وهو أليقُ بالملكِ

(١) جمع جَوذَر : البقرة الوحشية .

(٢) هو هارون الرشيد كما سيأتى فى الباب الثامن والعشرين .

(٣) النسك : العبادة .

قالوا : وكم من هرب من الحب إلى مظان التلّف ليتخلص من التلّف
بالتلّف. قال دِعْبِلُ الشاعر : كنت بالثغر فنودي بالنفير ، فخرجت مع الناس
فإذا بفتى يجرّ رحه بين يديّ فالتفت فنظر إلى فقال : أنت دِعْبِلُ ؟ قلت :
نعم ، قال : اسمع مني ، ثم أنشدني فقال :

أنا في أمرى رشاد بين غزو وجهاد
بدنى يغزو عدوى والبهوى يغزو قوادى

ثم قال : كيف ترى ؟ قلت : جيد والله ، قال : فر الله ما خرجت إلا هارباً
من الحب ، ثم قاتل حتى قتل . وقال أصرم بن حميد :

نحن قومٌ تليّننا الحدقُ الشجلُ على أننا نلين الحديددا
طوع أيدى الأطباء تقتادنا العيينُ وفتاد بالطعان الأسودا
تتقى سخطنا الليوثُ ونخشى صولة الخشف حين يبدى الصدودا^(١)
وترانا عند الكريهة أحراراً رأوا في السلم للغواني عبيدا
قالوا : ورأينا الداخل فيه يمتنى منه الخلاص ، ولات حين مناص ، قال
الخرائطى : أنشدني أبو جعفر العبدى :

إن الله نجاني من الحب لم أعد إليه ولم أقبل مقالة عاذل
ومن لى بمنجاة من الحب بعد ما رمتنى دواعى الحب بين الحبائل
وقال أبو عبيدة : الحبائل الموت ، قال : وأنشدني أبو عبيد الله بن الدولابي :
دعوتُ ربى دعاء فاستجاب له كما دعا ربّه نوحٌ وأيوبُ
أن ينزع الداء من صدرى ويجعله فى صدر سلمى وحمل الداء تعطيبُ

(١) الصولة : السلوة والتدرة والنهر . الخشف : ولد الظبية أول مايولد
يستوى فيه الذكر والأنثى .

أَوْ يَشْفِ^(١) قَلْبِي سَرِيعاً مِنْ حَبَابَتِهِ فَلَا أُحِزُّ إِذَا حَزَّ الْمَحَارِبُ

فالوا: وكم أكتب فتنة العشق رؤوساً على مناخرها في الجحيم ، وأسلمتهم إلى مقاساة العذاب الأليم ، وجرت عنهم بين أطباق النار كيؤوس الجحيم ، وكم أخرجت من شاء الله من العلم والدين ، وكروج الشعرة من العجين ، وكم أزال من نعمة ، وأحلت من نقمة ، وكم أنزلت من معقل عزه عزيزاً فإذا هو من الأذليين ، ووضعت من شريف رفيع القدر والمنصب فإذا هو في أسفل السافلين ، وكم كشفت من عورة ، وأحدثت من روعة ، وأعقت من ألم ، وأحلت من ندم ، وكم أضمرت من نار حسرات أحرقت فيها الأكباد ، وأذهبت قدراً كان للبعد عند الله وفي قلوب العباد ، وكم جابت من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء ، قل أن يفارقها زوال نعمة ، أو فجاءة نقمة ، أو تحويل عافية ، أو طروق بليّة ، أو حدوث رزية ، فلو سألت النعم ما الذي أزالك ؟ والنقم ما الذي أدالك^(٢) ؟ والهموم والأحزان ما الذي جلبك ؟ والعافية ما الذي أبعدك وجنبك ؟ والسّتر ما الذي كشفك ؟ والوجه ما الذي لذهب نورك وكشفك ؟ والحياة ما الذي كدرك ؟ وشمس الإيمان ما الذي كورك^(٣) ؟ وعزة النفس ما الذي أذلّك ؟ وبالهوان بعد الإكرام بدلّك ؟ لأجابتك بلسان الحال اعتباراً ، إن لم تُتجب بالمقال حواراً .

هذه والله بعضُ جنایات العشق على أصحابه لو كانوا يعقلون ، (فتاك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون)^(٤) ويكنى اللبيب

(١) كذا . ولا وجه لحذف الياء إلا للضرورة .

(٢) أدالك : جعل لك القلبة .

(٣) الشمس كورت : أفلت واضمحلت . قال تعالى في سورة التكوين (إذا

الشمس كورت) .

(٤) الآية ٥٢ . سورة النمل .

موعظة واستبصاراً ، ماقصه الله سبحانه وتعالى عليه في سورة الأعراف في شأن أصحاب الهوى المذموم تحذيراً واعتباراً ، فبدأ سبحانه وتعالى بهوى إبليس الحامل له على التكبر عن طاعة الله عز وجل في أمره بالسجود لآدم ، فعمله هوى النفس ، وإجابته بها على أن عصي أمره ، وتكبر على طاعته ، فكان من أمره ما كان ، ثم ذكر سبحانه هوى آدم حين رغب في الخلود في الجنة وحمله هواه على أن أكل من الشجرة التي نهى عنها ، وكان الحامل له على ذلك هوى النفس ومحبتها للخلود ، فكان عاقبة ذلك الهوى والشهوة إخراجها منها إلى دار التعب والنصب . وقيل : إنه إنما أكل منها طاعةً لحواء ، فعمله حبه لها أن أطاعها ودخل في هواها ، وإنما توصل إليه عدوه من طريقها ؟ ودخل عليه من بابها . فأول فتنة كانت في هذا العالم بسبب النساء .

ثم ذكر سبحانه فتنة الكفار الذين أشركوا به مالم ينزل به سلطاناً ، وابتدعوا في دينه مالم يشرعه ، وحرّموا زينته التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، وتعبّدوا له بالفواحش وزعموا أنه أمرهم بها ، واتخذوا الشياطين أولياء من دونه ، والحامل لهم على ذلك كله الهوى والحب القاسد ، وعليه حاربوا رسوله ، وكذبوا كتبه ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم وأهلهم دونه حتى خسروا الدنيا والآخرة . ثم ذكر سبحانه وتعالى قصة قوم نوح وما أصارهم إليه الهوى من العرق في الدنيا ودخول النار في الآخرة . ثم ذكر قصة عاد وما أفضى إليه بهم الهوى من الهلاك القطيع والعقوبة المستمرة . ثم قصة قوم صالح كذلك ، ثم قصة العثاق ، أئمة الفساق ، وناكح الذكران وتاركي النسوان ، وكيف أخذهم وهم في خوضهم يلعبون ^(١) وقطع دابرهم

(١) خاضوا في الحديث : تفاوضوا فيه ، ومن المجاز فلان يخوض في الكلام إذا تكلم فيه على غير هدى . وفي سورة الأنعام (ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) أى في باطلهم يتشاغلون .

وهم في سكر عشقهم يَتَعَبُونَ ؛ وكيف جمع عليهم من العقوبات ما لم يجمعه على أمة من الأمم أجمعين ، ونَجَّلهم سَلَفًا لإخوانهم اللوطية من المتقدمين والمتأخرين ، ولما تجرأوا على هذه المعصية ومَرَدُوا^(١) ، ونهجوا لإخوانهم طريقًا وقاموا بأمرها وقعدوا، ضجَّت الملائكة إلى الله من ذلك ضجيجًا، وعجَّت الأرض إلى ربها من هذا الأمر عجيجًا ، وهربت الملائكة إلى أقطار السموات ، وشكَّتهم إلى الله جميعُ المخلوقات ، وهو سبحانه وتعالى قد حكم أنه لا يأخذ الظالمين إلا بعد إقامة الحجة عليهم ، والتقدم بالوعد والوعيد إليهم ، فأرسل إليهم رسوله الكريم يحذرهم من سوء صنيعهم ، وينذرهم عذابه الأليم ، فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة على رؤوس الملائ منهم والأشهاد ، وصاح بها بين أظهرهم في كل حاضرٍ وباد . وقال فكان في قوله لهم من أعظام الناصحين : (أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ)^(٢) ثم أعاد لهم القول نصحًا وتحذيرًا ، وهم في سكرة عشقهم لا يعلقون ، (إِنَّكُمْ أَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ)^(٣) فأجاب العشاق جواب من أركس في هواه وغيبه فقلبه بعشقه مفتون . و (قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)^(٤) فلما أن حان الوقت المعلوم وجاء ميقات نفوذ القدر المحتوم ، أرسل الرحمن تبارك وتعالى تلام الإنعام والامتحان إلى بيت لوطٍ ملائكة في صورة البشر ، وأجلى ما يكون من السُّور ، وجاءوه في صورة الأضياف النزول بذى الصدر الرحيب ، (سِئَءَ بِمِثْمِ

(١) مرد على الشيء يمرد: مرن عليه وتدرّب ومهر فيه، وأكثر ما يستعمل في الأمر.
ومرد الإنسان والشيء طمان فهو مارد: عتا وان داد في الأمر وتجرأ في الآفام، وفي سورة الروبة (ومن أهل المدينة مردوا على النفاق) .
(٣، ٢) الآيتان ٨٠ و ٨١ سورة الاعراف .
(٤) الآية ٥٦ - سورة النمل

وَضَافَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ^(١) وجاء الصريح إلى اللوطية أن لوطاً قد نزل به شبابٌ لم يَنْظُرْ إلى مثل حُسْنِهِمْ وجمالهم الناظرون ، ولا رأى مثليهم الرّاؤون ، فنادى اللوطية بعضهم بعضاً أن هلمُّوا إلى منزل لوط ففيه قضاء الشهوات ، وَنَيْلُ أَكْبَرِ اللَّذَّاتِ (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) ^(٢) . فلما دخلوا إليه وهجموا عليه قال لهم وهو كَظِيمٌ من الهمِّ والنَمِّ وقلبه بالحزن عَمِيدٌ : (يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَعْفٍ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ) ^(٣) فلما سمع اللوطية مقالَه أَجابوه جوابَ الفاجر الجاهر العنيد : (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ) ^(٤) فقال لهم لوطٌ مقالةً المضطهدِّ الوحيدد : (لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) ^(٥) فلما رأت رسلُ الله ما يقاسي نبيُّه من اللوطية كشفوا له عن حقيقة الحال وقالوا : هوّن عليك ، (يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِيْحُوا إِلَيْكَ) ^(٦) فسُرَّ نبيُّ الله سرورَ الحبِّ وافاه التمرج بفتةً على يد الحبيب ، وقيل له : (فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِتِلْكَ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ) ^(٧) ولما أَبَوْا إلا مُراودته عن أَضيافه ولم يَرَوْا حقَّ الجار ضربَ جبريلُ بِمِخْناحه على وجوههم ففَهِسَ منهم الأعين وأعمى الأبصار ، فخرجوا من عنده عُمِيَانًا يَتَحَسَّسُونَ ويقولون : ستعلم غداً ما يحلُّ بك أيها

المجنون . فلما انشقَّ عمودُ الصبح جاء النداء من عند ربِّ الأرباب ، أن اخسف
بالأمة اللوطيَّة وأذِقْهم أليم العذاب ، فاقطلع القويُّ الأمين جبريلُ مدائنهم على
ريشةٍ من جناحه ورفعها في الجوِّ حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ، وصياح
ديكتهم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها وأتبعوا الحجارة من سجِّل وهو الطين
المستحجر الشديد ، وخوف سبحانه إخوانهم على لسان رسوله من
هذا الوعيد ، فقال تعالى : (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةٍ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ
بَبَعِيدٍ)^(١) فهذه عاقبة اللوطيَّة عُشَّاقِ الصُّور وهم السلف وإخوانهم بعدهم
على الأثر .

وإن لم يكونوا قوم لوطٍ بعينهم	فما قوم لوطٍ منهم ببعيد
وإنهم في الخسف ينظرونهم	على موردٍ من مهلةٍ وصيد
يقولون لا أهلاً ولا مرحباً بكم	ألم يتقدّم ربُّكم بوعيد
فقلوا بلى لكّنكم قد سننتم	صراطاً لنا في العشق غير حميد
أتينا به الذّكر أن من عشقنا لهم	فأوردنا ذا العشق شرّاً ورود
فأنتم بتضعيف العذاب أحق من	متابعكم في ذاك غير رشيد
فقالوا وأنتم زسلكم أنذرتكم	بما قد لقيناه بصدقٍ وعيد
فما لكم فضلٌ علينا فكلنا	نذوق عذاب الهون ^(٢) جدّ شديد
كما كلنا قد ذاق لذّة وصاهم	وتجمّعنا في النار غير بعيد

وكذلك قوم شعيبٍ إنما حملهم على بخس المكيال والميزان فرط محبتهم
للمال ، وغلبهم الهوى على طاعة نبيهم حتى أصابهم العذاب .

(١) الآيتان ٨٢ ، ٨٣ . سورة هود . مسومة : معلة بعلامة .

(١) الهون : الخزي . قال تعالى : (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون)

(١٣ م — روضة المحبين)

أى ذى الخزي .

وكذلك قوم فرعون حملهم الهوى والشهوة وعشق الرئاسة على تكذيب موسى حتى آل بهم الأمر إلى ما آل . وكذلك أهل السبت الذين مسخوا قردة إنما أتوا من جهة محبة الحيتان وشهوة أكلها والحرص عليها . وكذلك الذى آتاه الرب تبارك وتعالى آياته (فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)^(١) وقال تعالى : (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَسَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ)^(٢) وتأمل قوله تعالى : (آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا) فأخبر أن ذلك إنما حصل له بإيتاء الرب له لا بتحصيله هو . ثم قال : (فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا) ولم يقل فسلبناه بل أضاف الانسلاخ إليه وعبر عن براءته منها بلفظة الانسلاخ الدالة على تخليه عنها بالكليّة ، وهذا شأن الكافر . وأما المؤمن ولو عصى الله تبارك وتعالى ما عصاه فإنه لا ينسلخ من الإيمان بالكليّة ، ثم قال : (فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ) ولم يقل فتبعه . فإن فى أتبعه إعلالاً بأنه أدركه ولاحقه ، كما قال الله تعالى : (فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ)^(٣) أى لحقوهم ووصلوا إليهم ثم قال : (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا) فى ذلك دليل على أن مجرد العلم لا يرفع صاحبه ، فهذا قد أخبر الله سبحانه أنه آتاه آياته ولم يرفعه بها ، فالرفعة بالعلم قدر زائد على مجرد تعلمه ، ثم أخبر الله عز وجل عن السبب الذى منعه أن يرفع بها ، فقال : (وَلَسَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) . وقوله : (أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ) أى سكن إليها ونزل بطبعه إليها ، فكانت نفسه أرضية سفلية لاسماوية علوية ، وبحسب ما يُخْلَد العبد إلى الأرض يهبط من السماء ، قال سهل : قسم الله الأعضاء من الهوى ، لكل عضو منه حظاً . فإذا مال عضو

(١) والآيتان ١٧٤ و ١٧٥ سورة الاعراف .

(٢) الآية ٦٠ : سورة البقرة .

منها إلى الهوى رجع ضرره إلى القلب . وللنفس سبع حُجُب سَمَاقِيَّة وُسُيع^(١) حُجُب أَرْضِيَّة ، فكلما دفن العبدُ نفسه أرضاً أرضاً سما قلبه سماء سماء ، فإذا دفن النفس تحت الثرى ، وصل القلبُ إلى العرش . ثم ذكر سبحانه مَثَلَ الْمُتَّبِعِ لِهَوَاهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ الَّذِي لَا يَفَارِقُهُ اللَّيْثُ فِي حَالَتَيْ تَرْكِهِ وَالْحَمْلِ عَلَيْهِ ، فَكَذَا هَذَا لَا يَفَارِقُهُ اللَّيْثُ عَلَى الدُّنْيَا رَاغِبًا وَرَاهِبًا .

والمقصودُ أن هذه السورة من أولها إلى آخرها في ذكر حال أهل الهوى والشهوات وما آل إليه أمرهم ، فالعشقُ والهوى أصلُ كل بلية . قال عَدِيُّ بْنُ ثَابِتٍ : كَانَ فِي زَمَنِ بْنِ إِسْرَائِيلَ رَاهِبٌ يَعْبُدُ اللَّهَ حَتَّى كَانَ يُؤْتَى بِالْجَانِّينَ يُعَوِّذُهُمْ^(٢) فَيَبْرَأُونَ عَلَى يَدَيْهِ ، وَإِنَّهُ أَتَى بِامْرَأَةٍ ذَاتِ شَرَفٍ مِنْ قَوْمِهَا قَدْ جُنَّتْ ، وَكَانَ لَهَا إِخْوَةٌ فَأَتَوْهُ بِهَا فَلَمْ يَزَلِ الشَّيْطَانُ يُزِينُ لَهُ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهَا فَعَمِلَتْ ، فَلَمَّا اسْتَبَانَ حَمْلُهَا لَمْ يَزَلْ يَخُوفُهُ وَيُزِينُ لَهُ قَتْلَهَا حَتَّى قَتَلَهَا وَدَفَنَهَا ، فَذَهَبَ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ حَتَّى أَتَى بَعْضَ إِخْوَتِهَا فَأَخْبَرَهُ بِالَّذِي فَعَلَ الرَّاهِبُ ، ثُمَّ أَتَى بَقِيَّةَ إِخْوَتِهَا رَجُلًا رَجُلًا ، فَعَمِلَ الرَّجُلُ يُلْقِي أَخَاهُ فَيَقُولُ : وَاللَّهِ لَقَدْ أَتَانِي آتٍ فَذَكَرَ لِي شَيْئًا كَبِيرًا عَلَى ذِكْرِهِ فَذَكَرَ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ حَتَّى رَفَعُوا ذَلِكَ إِلَى مُلْكِهِمْ ، فَسَارَ النَّاسُ إِلَيْهِ حَتَّى اسْتَنْزَلُوهُ مِنْ صَوْمُعَتِهِ فَأَقْرَبَتْ لَهُمْ بِالَّذِي فَعَلَ ، فَأَمَرَ بِهِ فَصَلَبَ ، فَلَمَّا رُفِعَ عَلَى الْخَشَبَةِ تَمَثَّلَ لَهُ الشَّيْطَانُ قَتَالَ : أَنَا الَّذِي زَيَّنْتُ لَكَ هَذَا وَأَلْقَيْتُكَ فِيهِ ، فَهَلْ أَنْتَ مُطِيعِي فِيمَا أَقُولُ لَكَ وَأُخَلِّصُكَ ؟ قَالَ :

(١) كَذَا .. بِتَذْكِيرِ الْعَدَدِ وَالْإِشْرَافِ تَأْنِيْثُهُ .

(٢) يُعَوِّذُهُمْ : يَرْقِيهِمْ ، وَعَوْدُهُ تَعْوِيْذًا وَأَعَاذَةٌ إِعَاذَةٌ : دَعَا لَهُ بِالْحِفْظِ وَرَقَاهُ .

وَالْمَوْذَةُ : الرِّقِيَّةُ يَرْقِي بِهَا الْإِنْسَانُ مِنْ فَرْعٍ أَوْ جُنُونٍ لِأَنَّهُ يَعَاذُ بِهَا ، وَهِيَ الَّتِي تَسْكُبُ وَتَعْلُقُ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنَ الْعَيْنِ وَالْفَرْعِ وَالْجُنُونِ .

نعم ، قال : تسجدلى سجدة واحدة ، فسجدله وقتل الرجل ، فهو قول الله تعالى :
(كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)^(١) .

وقال واصل مولى أبي عيينة : دخلت على محمد بن سيرين فقال لي : هل
تزوجت ؟ فقلت : لا ، قال : وما يمنعك ؟ قلت : قلة الشيء ، قال : تزوج
عبد الله بن محمد بن سيرين ولا شيء له فرزقه الله .

ثم حدث أن امرأة من بنى إسرائيل يقال لها ميسونة خاضت إلى حبرين^(٢)
من بنى إسرائيل فعلقاها قال : وكان كل واحدٍ منهما يكتم صاحبة ما يبد منها ،
فأخبرا أنها في حائط^(٣) تغتسل ، قال : فجاءا فتنسورا عليها الحائط . فلما رأتهما
دخلت غمرأ^(٤) من الماء فوارت نفسها ، فقالا لها : إنك إن لم تفعل غدوننا فشهدنا
عليك بالزور ، فأبت فشهدا عليها . فلما قربت ليقام عليها الحد نزل الوحي على
دانيال بتكذيبهما ، فهذا بعض فتنة العشق .

وقد روى شعبة عن عبد الملك بن حمير قال : سمعت مصعب بن سعد
يقول : كان سعد يعلمنا هذا الدعاء ويذكره عن النبي صلى الله عليه وسلم :

(١) الآية ١٦ . سورة الحشر .

(٢) الخبر بالفتح والسكر : واحد أخبار اليهود . وهو أيضاً المالم ، وقيل
المالغ من العلماء .

(٣) الحائط : البستان .

(٤) الغمر : الماء الكثير .

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّسَاءِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ »^(١) .

وقال الحسن بن عرفة : حدثنا أبو معاوية الضرير عن ليث ، عن طاوس ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إنه لم يكن كفرٌ من مضى إلا من قبل النساء وهو كفر من بقي أيضاً .

وقد روى شفيان بن عيينة ، عن سليمان التيمي ، عن أبي عثمان النهدي ، عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا تَرَكَتُ عَلَى أُمَّتِي بَعْدِي أَضَرَّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ »^(٢) .

وروى أبو إسحاق ، عن هيرة بن يريم ، عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي أَنْ تُحْمَرُ وَالنِّسَاءُ »^(٣) . وقال علي بن حرب : حدثنا شفيان ابن عيينة ، عن علي بن زيد ، عن سعيد بن المسيب قال : « مَا أَيْسَ الشَّيْطَانُ مِنْ أَحَدٍ قَطُّ إِلَّا أَنَاهُ مِنْ قَبْلِ النِّسَاءِ » .

وروى شفيان بن حسين ، عن يعلى بن مسلم ، عن سعيد بن جبيرة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « قِيلَ لَادَمَ مَا حَلَّكَ عَلَى أَكْلِ الشَّجَرَةِ ؟ قَالَ : يَارَبَّ زَيَّنْتَ لِي حَوَاءَ ، قَالَ : فَإِنِّي قَدْ عَاقَبْتُهَا لَا تَحْمِلُ إِلَّا كَرَهَا ، وَلَا تَضَعُ إِلَّا كَرَهَا ، وَأَدْمَيْتُهَا فِي الشَّهْرِ مَرَّتَيْنِ » .

(١) رواه الخرائطي في اعتلال القلوب . كما قال السيوطي .

(٢) تقدم تخريجه في الصفحة ٩٦ .

(٣) تقدم تخريجه في الصفحة ٩٦ .

— ١٩٨ —

وقال ابن عباس رضى الله عنهما — أو غيره — : « أول فتنة بني إسرائيل كانت من قبل النساء » .

قالوا : ويكفى . من مضرّة العشق ما اشتهر من مصارع العشاق ، وذلك موجود في كل زمان .

فماذا بعض ما احتجّت به هذه الفرقة لقولها . ونحن نعتمد للحكم بين الطائفتين باباً مستقلاً بعون الله تعالى .

الباب السادس عشر

في الحكم بين المربيين . وفصل النزاع بين الطالبين

فنقول : العشق لا يُحمَد مطلقاً ولا يُذَمّ مطلقاً، وإنما يُحمَد ويُذَمّ باعتبار متعلّقه ، فإن الإرادة تابعة لمرادها ، والحبُّ تابعٌ للمحسوب ، فحقى كان المحبوب مما يُحبُّ لذاته أو وسيلةً توصّله إلى ما يُحبُّ لذاته، لم تُذَمّ المبالغة في محبته بل تحمد . وصلاح حال الحب كذلك بحسب قوّة محبته .

ولهذا كان أعظم صلاح العبد أن يصرف قوى حبه كلّها لله تعالى وحده بحيث يحبّ الله بكلّ قلبه وروحه وجوارحه ، فيؤخّذ محبوبه ويؤخّذ حبه ، وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب توحيد المحبوب أن المحبّة لا تصحّ إلا بذلك ، فتوحيد المحبوب أن لا يتعدّد محبوبه^(١) ، وتوحيد الحب أن لا يبق في قلبه بقية حبٍّ حتى يبذلها له ، فهذا الحب وإن سمي عشقاً فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرّة عينه ، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما ، وأن تكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله ، فلا يحب إلا الله ، كما في الحديث الصحيح : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ خَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي السُّكْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُبَلِّغَ فِي النَّارِ »^(٢) فأخبر أن

(١) الضمير هنا عائد على محذوف وهو المحب .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي . كما جاء في تيسير الوصول .

العبد لا يجد حلاوة الإيمان إلا بأن يكون الله أحب إليه مما سواه ، ومحبةُ رسوله هي من محبته ، ومحبةُ المرء إن كانت لله فهي من محبة الله ، وإن كانت لغير الله فهي مُنْقَصَةٌ لمحبة الله مُضَعِفَةٌ لها ، وتَصَدُقُ هذه المحبة بأن يكون كراهته لأبغض الأشياء إلى محبوبه وهو الكفر بمنزلة كراهته لإلقائه في النار أو أشد . ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة ، فإن الإنسان لا يقدم على محبة نفسه وحياته شيئاً ، فإذا قدّم محبة الإيمان بالله على نفسه بحيث لو خيّر بين الكفر وإلقائه في النار لاختار أن يلقى في النار ولا يكفر كان الله أحب إليه من نفسه ، وهذه المحبة هي فوق ما يجده سائر المُشَاقِّ والحبّين من محبة محبوبهم ، بل لا نظير لهذه المحبة كما لا مثل لمن تعلّقت به وهي محبةٌ تقتضي تقديمَ المحبوب فيها على النفس والمال والولد ، وتقتضي كمالَ الذلِّ والخضوع والتعظيم والإجلال والطاعة والالتقياد ظاهراً وباطناً ، وهذا لا نظير له في محبة مخلوق ولو كان المخلوق من كان .

ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره في هذه المحبة الخاصة كان مشركاً شركاً لا يفرّقه الله كما قال الله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ)^(١) والصحيح أن معنى الآية والذين آمنوا أشدّ حباً لله من أهل الأنداد لأنّادهم كما تقدّم بيانه أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلاً ، كما لا يماثل محبوبهم غيره . وكلّ أدّى في محبة غيره فهو نعيم في محبته ، وكلّ مكروه في محبة غيره فهو قرّة عين في محبته .

ومن ضرب لمحبه الأمثال التي هي في محبة المخلوق للمخلوق كالوصل والهجر والتجنّي بلا سبب من الحبّ وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه علواً كبيراً فهو مخطئ ، أقبح الخطأ وأخشع ، وهو حقيق بالإبعاد والمقت . والآفة إنما هي من

نفسه وقلة أدبه مع محبوبه ، والله تعالى نهى أن يضرب عباده الأمثال فهو لا يقاس بخلقهم . وما ابتدع من ابتدع إلا من ضرب الأمثال له سبحانه . فأصحاب الكلام المحدث المبتدع ضربوا له الأمثال الباطلة في الخبر عنه وما يوصف به ، وأصحاب الإرادة المنحرفة ضربوا له الأمثال في الإرادة والطلب . وكلاهما على بدعة وخطأ .

والعشق إذا تعاقب بما يحبه الله ورسوله كان عشقاً ممدوحاً مثاباً عليه . وذلك أنواع : أحدها محبة القرآن بحيث يغني بسماعه عن سماع غيره ، ويهيم قلبه في معانيه ومراد المتكلم سبحانه منه ، وعلى قدر محبة الله تكون محبة كلامه ، فمن أحب محبوباً أحب حديثه والحديث عنه كما قيل :

إن كنت تزعم حبي فلم هجرت كتابي
أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابي

وكذلك محبة ذكره سبحانه وتعالى من علامة محبته ، فإن الحب لا يشبع من ذكر محبوبه ، بل لا ينساه فيحتاج إلى من يذكره به . وكذلك يحب سماع أوصافه وأفعاله وأحكامه ، فعشق هذا كله من أنفع العشق ، وهو غاية سعادة العاشق ، وكذلك عشق العلم النافع ، وعشق أوصاف الكمال من الكرم والجود والعفة والشجاعة والصبر ومكارم الأخلاق ، فإن هذه الصفات لو صورت صوراً لكانت من أجمل الصور وأبهأها ، ولو صور العلم صورة لكانت أجمل من صورة الشمس والقمر ، ولكن عشق هذه الصفات إنما يناسب الأنفس الشريفة الزكية ، كما أن محبة الله ورسوله وكلامه ودينه إنما تناسب الأرواح العلوية ، السامية الزكية ، لا الأرواح الأرضية الدنية ، فإذا أردت أن تعرف قيمة العبد وقدره فانظر إلى محبوبه ومراده . واعلم أن العشق المحمود لا يعرض فيه شيء من الآفات المذكورة .

بقي هاهنا قسم آخر، وهو عشق محمود يترتب عليه مفارقة المعشوق، كن
يعشق امرأته أو أمته فيفارقها بموت أو غيره فيذهب المعشوق ويبقى العشق كما
هو، فهذا نوع من الابتلاء إن صبر صاحبه واحتسب نال ثواب الصابرين،
وإن سخط وجزع فإنه معشوقه وثوابه، وإن قابل هذه البلوى بالرضا والتسليم
فدرجته فوق درجة الصبر. وأعلى من ذلك أن يقابلها بالشكر نظراً إلى حسن
اختيار الله له، فإنه ما يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، فإذا علم أن
هذا القضاء خير له اقتضى ذلك شكره الله على ذلك الخير الذي قضاه له، وإن لم
يعلم كونه خيراً له فليسلم للصادق المصدق في خبره المؤكد باليمين حيث يقول:
« وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ قَضَاءٍ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ
إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ
خَيْرًا لَهُ وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ »^(١). وإيمان العبد يأمره بأن يعتقد بأن
ذلك القضاء خير له، وذلك يقتضى شكر من قضاه وقدره وبالله التوفيق :

(١) رواه مسلم والامام أحمد بدين قسم .

الباب السابع عشر

في استنباط مخبر الصور الجميلة للوصال الذي يحبه الله ورسوله

قال الله تعالى تعالى عقيب ذكره ما أحلَّ لعباده من الزوجات والإماء وما حرَّم عليهم : (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُظْهِرَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا . يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخِاقَ الْإِنْسَانِ ضَعِيفًا)^(١) أي لا يصبر عن النساء ، كما ذكر الثوري عن ابن طاووس عن أبيه (وخلق الإنسان ضعيفًا) . قال : إذا نظر إلى النساء لم يصبر ، وكذلك قال غير واحد من السلف . ولما كانت الشهوة في هذا الباب غالبية لا بدَّ أن توجب ما يوجب التوبة ، كرَّر سبحانه وتعالى ذكر التوبة مرَّتين ، فأخبر أنَّ مُتَّبِعِي الشهوات يريدون من عباده أن يميلوا مَيْلًا عَظِيمًا ، وأخبر سبحانه وتعالى أنه يريد التخفيف عنَّا لضعفنا ، فأباح لنا أن نكسح ما طاب لنا من أطايب النساء أربعا ، وأن نتسرَّى من الإماء بما شئنا .

ولما كان العبد له في هذا الباب ثلاثة أحوال : حالة جهل بما يحلُّ له ويحرَّم عليه ، وحالة تقصير وتفريط ، وحالة ضعف وقلة صبر ، قابل سبحانه جهل عبده بالبيان والهدى ، وتقصيره وتفريطه بالتوبة ، وضعفه وقلة صبره بالتخفيف .

(١) الآيات ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ . سورة النساء .

وقال عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه : حدثنا أبو معمر ، حدثنا يوسف بن عطية ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ وَحُبِّ إِلَى النَّسَاءِ وَالطَّيِّبُ . الْجَانِعُ يَشْبَعُ وَالظَّمْآنُ يَرْوَى وَأَنَا لِأَشْبَعُ مِنْ حُبِّ الصَّلَاةِ وَالنَّسَاءِ » . وأصله في صحيح مسلم بدون هذه الزيادة^(١) .

وفي صحيح مسلم من حديث عُرْوَةَ عن عائشة رضى الله عنها قالت^(٢) : « ما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بنى المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث بن أبي ضَرَارٍ في السهم لثابت بن قيس بن الشَّامِ أُولَا بن عم له ، فكاتبته عَلَى نفسها ، وكانت امرأةً جميلةً حُلوةً لا يراها أحدٌ إلا أخذت بنفسه ، فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه على كتابتها^(٣) . قالت : فوالله ما هو إلا أن رأيتهَا عَلَى باب الحجرة فكرهتها ، وعلمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى منها ما رأيت ، فقالت : يا رسول الله ، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضَرَارٍ سيد قوم . وقد أصابني من البلاء ما لم يَخَفَ عليك ، فوقع في السهم لثابت بن قيس بن الشَّامِ أُولَا بن عم له ، فبخت رسول الله صلى الله عليه وسلم أستعينه . قال : « فَهَلْ لَكَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ ؟ » قالت : وما هو ؟

(١) في المسند والنسائي والحاكم والطبراني في الكبير والبيهقي في السنن مع تغيير في الفقرات كما جاء في الجامع الصغير للسيوطي .

(٢) الحديث بهذا السياق غير موجود في صحيح مسلم ولكنه جاء في كتاب مناقب أمهات المؤمنين المحب الطبري . وفي المواهب اللدنية أن الذي خرجه هو أبو داود وزاد شارح المواهب أحمد . وكلاهما من حديث لابن اسحاق .

(٣) كاتب العبد : كتب على نفسه بشمته فإذا سعى وأداه عتق .

قال : « أَقْضِي كِتَابَتَكَ وَأَتَزَوَّجُكَ » قالت : نعم يا رسول الله قد فعلت .
 وخرج الخبرُ إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج جويرة بنت
 الحارث ، فقال الناس : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسلوا ما بأيديهم .
 قالت : فلقد أُعْتِقَ بِزَوْجِهِ إِيَّاهَا مِائَةُ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ ، فَمَا أَعْلَمُ
 امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَتَةٍ عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا .

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : خرج سهمي يوم جَلَوْلَاءٍ جارية كأنَّ
 عنقها إبريق فضة ، فما ملكت نفسي أن أقت إليها فقبَّلْتُهَا .

وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه قال : « قدم رسول الله صلى
 الله عليه وسلم خَيْبَرَ فلما فتح الله عليه الحِصْنَ ، ذُكِرَ لَهُ جَالُ صَفِيَّةَ بِنْتِ حِمْيَرٍ
 وَقَدْ قُتِلَ زَوْجُهَا وَكَانَتْ عَرُوسًا ، فَاصْطَفَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ ،
 فَخَرَجَ بِهَا حَتَّى بَلَغَ اسْدَ الرُّوحَاءِ ^(١) فَبَنَى بِهَا ^(٢) ثُمَّ صَنَعَ خَيْسًا ^(٣) فِي نَظْعٍ ^(٤) صَغِيرٍ ،
 ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « آذِنَ مَنْ حَوْلَكَ » فَكَانَتْ تِلْكَ وَلِيمَةً
 رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى صَفِيَّةَ ، ثُمَّ خَرَجْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَوِّسِي ^(٥) لَهَا وَرَاءَهُ بَعَاءَةٌ ، ثُمَّ يَجَاسُ عِنْدَ بَعِيرِهِ فَيَضَعُ رِكْبَتَهُ

(١) فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ : سَدُّ الصَّهْبَاءِ . وَهُوَ الْأَصْوَابُ . وَالرُّوحَاءُ
 بِالْمُهْمَلَةِ : مَكَانٌ قَرِيبٌ مِنَ الْمَدِينَةِ وَابْتَسَتْ قَرَبُ خَيْبَرَ ، فَالْأَصْوَابُ أَنَّهَا الصَّهْبَاءُ ، وَهِيَ
 عَلَى بَرِيدٍ مِنْ خَيْبَرَ ، قَالَهُ ابْنُ سَعْدٍ وَغَيْرُهُ .

(٢) بَنَى بِهَا وَعَالِيَهَا : دَخَلَ بِهَا .
 (٣) الْخَيْسُ : تَمْرٌ أَوْ قُطٌّ وَشَمْنٌ تَخْلُطُ وَتَمَجُّنُ وَتَسْوِي كَالثَرِيدِ وَقَدْ يَجْعَلُ
 عَوْضَ الْأَفْطِ الدَّقِيقِ وَالْفَتِيتِ .

(٤) الطَّعْصُ فِيهِ أَرْبَعُ لُغَاتٍ : بِسَاطٍ مِنْ أَدَمَ .
 (٥) يَحَوِّسِي لَهَا : أَيْ يَجْعَلُ لَهَا حَوِيَّةً وَهِيَ كَسَاءٌ مَحْشُوٌّ ، يَدَارُ حَوْلَ سَنَامِ
 الْبَعِيرِ تَرْكِبُهُ الْمَرْأَةَ .

فَتَضَعُ صَفِيَّةُ رِجْلَهَا عَلَى رَكْبَتِهِ حَتَّى تَرْكَبَ . وَعِنْدَ أَبِي دَاوُدَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ قَالَ :
وَقَعَ فِي سَهْمٍ دَرَّخِيَّةٌ جَارِيَةٌ جَمِيلَةٌ . فَاشْتَرَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْعَةِ
أَرْوَثٍ ، ثُمَّ دَفَعَهَا إِلَى أُمِّ سُلَيْمٍ تَصْنَعُهَا وَتَهَيِّئُهَا وَتَعْتَدُ فِي بَيْتِهَا ، وَهِيَ صَفِيَّةُ
بِنْتُ حُيَيٍّ .

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : حَجَّ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَمَعَهُ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ ،
وَكَانَ خَالِدٌ هَذَا مِنْ رَجَالَاتِ قُرَيْشِ الْمَعْدُودِينَ ، وَكَانَ عَظِيمَ الْقَدْرِ عِنْدَ عَبْدِ الْمَلِكِ
فَإِنَّمَا هُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ إِذْ بَصُرَ رَمَلَةَ بِنْتَ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ فَعَشَقَهَا عَشَقًا
شَدِيدًا ، وَوَقَعَ بِقَلْبِهِ وَقَوَّعًا مَتَمَكِّنًا ، فَلَمَّا أَرَادَ عَبْدُ الْمَلِكِ الْقَوْلَ هَمَّ خَالِدٌ
بِالتَّخَلُّفِ عَنْهُ ، فَوَقَعَ بِقَلْبِ عَبْدِ الْمَلِكِ تَهَمَةٌ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْ أَمْرِهِ ، فَقَالَ :
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، رَمَلَةُ بِنْتُ الزُّبَيْرِ ، رَأَيْتُهَا تَطُوفُ بِالْبَيْتِ فَأَذْهَلَتْ عَقْلِي ، وَاللَّهِ
مَا أَبْدَيْتُ إِلَيْكَ مَا بَى حَتَّى عِيلَ صَبْرِي . وَلَقَدْ عَرَضْتُ النُّومَ عَلَى عَيْنِي فَلَمْ يَقْبَلْهُ ،
وَالسُّكُوتَ عَلَى قَلْبِي فَامْتَنَعَ مِنْهُ . فَأَطَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ التَّعَجُّبَ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ : مَا كُنْتُ
أَقُولُ إِنَّ الْهَوَى يَسْتَأْسِرُ مِثْلَكَ ، قَالَ : فَإِنِّي لِأَشَدُّ تَعَجُّبًا مِنْ تَعَجُّبِكَ مِنِّي .
وَلَقَدْ كُنْتُ أَقُولُ : إِنَّ الْهَوَى لَا يَتِمَكَّنُ إِلَّا مِنْ صَنَفَيْنِ مِنَ النَّاسِ : الشُّعْرَاءَ
وَالْأَعْرَابَ . أَمَّا الشُّعْرَاءُ فَإِنَّهُمْ أَلْزَمُوا قُلُوبَهُمُ الْفَكْرَ فِي النِّسَاءِ وَوَصَفْنَهُ وَالتَّغَزَّلَ
فَقَالَ طَبْعُهُمْ إِلَى النِّسَاءِ فَضَعُفَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ دَفْعِ الْهَوَى فَاسْتَسْلَمُوا إِلَيْهِ مِنْقَادِينَ . وَأَمَّا
الْأَعْرَابُ ، فَإِنْ أَحَدُهُمْ يَخْلُو بِأَمْرَاتِهِ فَلَا يَكُونُ الْغَالِبَ عَلَيْهِ غَيْرُ حَبِهَا ، وَلَا يَشْغَلُهُ
عَنْهُ شَيْءٌ ، فَضَعُفُوا عَنْ دَفْعِ الْهَوَى فَتَمَكَّنَ مِنْهُمْ . فَمَا رَأَيْتُ نَظْرَةً حَالَتْ بَيْنِي
وَبَيْنَ الْحَزْمِ ، وَحِثَّتْ عِنْدِي رُكُوبُ الْإِثْمِ ، مِثْلَ نَظَرْتِي هَذِهِ . فَتَبَسَّمَ عَبْدُ الْمَلِكِ
فَقَالَ : أَفَكُلُّ هَذَا قَدْ بَلَغَ بِكَ ؟ فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا عَرَفْتُ^(١) هَذِهِ الْبَلِيَّةَ قَبْلَ وَقْتِي

(١) عَرَفْتُ الْبَلِيَّةَ : غَشِيَتْنِي .

هذا . فوجهه عبد الملك إلى الزبير يخطب رَمْلَةً على خالد ، فذكروا لها ذلك
فتالت : لا والله أو يطلّق نساءه ، فطلق امرأتين كانتا عنده ،
وظعن^(١) بها إلى الشام وكان يقول :

أليس يزيد الشوق في كل ليلة وفي كل يوم من حبيبتنا قرباً
خليلي مامن ساعة تذكّرانيها من الدهر إلا فرّجت عنى الكربا
أحبّ بنى العوام طراً لحبها ومن أجّلها أحببت أحوالها كلّها
تجول خلاخيل النساء ولا أرى رَمْلَةً خلّ خلا يحول ولا قلباً^(٢)

وذكر الخرائطي : أن بشر بن مروان كان إذا ضرب البعث^(٣) على أحده
من جنده ثم وجده قد أخلّ بمركزه أقامه على كرسى ثم سهر يديه في الحائط ، ثم
انزع الكرسي من تحت رجله ، فلا يزال يَبْشَحْط حتى يموت . وأنه ضرب
البعث على رجل عاشق حديث عهد بعمرس ابنة عمه ، فلما صار في مركزه كتب
إلى ابنة عمه كتاباً ، ثم كتب في أسفله :

لولا مخافة بشر أو عقوبته وأن يرى بعدذا في الكف مسمار
إذا لعطلت نفسي ثم زرتكم إن الحب إذا ما اشتاق زوّار
فلما ورد عليها الكتاب أجابته عنه ، ثم كتبت في أسفله :

(١) ظعن : سار وارتحل . والظعينة الهودج كانت فيه امرأة أولم تكن
والظمينة أيضاً المرأة مادامت في الهودج .

(٢) يحول : يتحرك ويضطرب لسمته . والفلب بالضم : سوار المرأة ، يكون
نظماً واحداً .

(٣) ضرب عليه البعث : أوفده وأمره بالسفر إلى أحد الثغور أو
مركز من المراكز .

ليس المحب الذي يخشى العقاب ولو كانت عقوبته في قجوة النار
بل المحب الذي لا شيء يفزعه أو يستقر ومن يهواه في الدار
فلما قرأ الكتاب قال : لاخير في الحياة بعد هذا . وأقبل حتى دخل المدينة
فأتى بشر بن مروان في وقت غدائه ، فلما فرغ من غدائه أدخل عليه فقال :
ما الذي دعاك إلى تعطيل ثورك ؟ أما سمعت النداء ؟ فقال : اسمع عذري فإما
عفوت وإما عاقبت . فقال : ويلك وهل لك من عذري ؟ قص عليه قصته وقصة
ابنة عمه فقال : أولي لكما . يا غلام ، خط على اسمه من البعث وأعطه عشرة
آلاف درهم والمحق بأبنة عمك .

سهرت ومن أهدى لي الشوق نائم
فوا حسرتا حتى متى أنا قائل
وحتى متى أخفى الهوى وأسرته
أريد الذي قد سرّكم بمسأتي
وعذب قاي بالهوى وهو سالم
لمن لأمي في حبكم أنت ظالم
وأدفن شوقي في الحشا وأكلم
ليتغفل واش أو ليعذر لائم
وقال آخر :

بي لابهها ما أفاقي من تجنّيا
والله يعلم أني لا أسر بأف
خوف البكاء كما أبكي فتتركني
ومن جوى^(١) الحب في الأحشاء أفديها
تلقى من الوجد ملاقيته فيها
أبكي على كبدى طورا وأبكيها
وقال العباس بن هشام الكلبي : ضرب عبد الملك بن مروان بعنا إلى
المن فأقاموا سنين ، حتى إذا كان ذات ليلة وهو بدمشق قال : . والله لأعسن
الليلة مدينة دمشق ولأسمع الناس ماذا يقولون في البعث الذي أغزيت فيه

(١) الجوى : الحرقه وشدة الوجد .

رجالهم، وأغرمتهم أموالهم، فبينما هو في بعض أزقتها إذ هو بصوت امرأة قائمة
تصلي فتسمع إليها، فلما انصرفت إلى مضجعها قالت: اللهم مسير النجيب^(١)،
ومُنزل الكتب، ومعطى الرغب^(٢)، أسألك أن تردّ لي غائبى فتكشف به
هوى، وتقرّ به عيني، وأسألك أن تحسّم بينى وبين عبد الملك بن مروان الذى
فعل بنا هذا، ثم أنشأت تقول:

تطاولَ هذا الليلُ فالعين تَدَمَعُ	وَأَرْقَى حَزَنُ قَلْبِي مُوجِعُ
فَبِتُّ أَقَامَى اللَّيْلِ أَرعى نُجُومَه	وَبَاتَ فُؤَادى بِالْجُوى يَتَقَطَّعُ
إِذَا غَابَ مِنْهَا كَوْكَبٌ فى مَغْيبِهِ	لَمَحْتُ بَعينى كَوْكَبًا حِينَ يَطْلُعُ
إِذَا مَا نَذَكَّرْتُ الَّذى كَانَ بَيْنَنَا	وَجَدْتُ فُؤَادى حَسْرَةً يَتَصَدَّعُ
وَكُلُّ حَبِيبٍ ذَاكِرٌ لِحَبِيبِهِ	يُرَجِّى لِقَاءَهُ كُلَّ يَوْمٍ وَيَطْمَعُ
فَإِذَا العَرْشُ فَرَّجَ مَا تَرى مِنْ صِبَابَتى	فَأَنْتَ الَّذى يَدْعُو الْعِبَادَ فَيَسْمَعُ
دَعْوَتِكَ فى السَّراءِ وَالْخُسْرَى دَعْوَةً	عَلَى حَاجَةٍ بَيْنَ الشَّرَاسِيفِ ^(٣) تَلْدَعُ

فقال عبد الملك لحاجبه: تعرف هذا المنزل؟ قال: نعم هذا منزل يزيد بن
سنان. قال: فما المرأة منه؟ قال: زوجته، فلما أصبح سأل كم تصبر المرأة عن
زوجها؟ قالوا: ستة أشهر.

(١) النجيب جمع نجبية: خيار الإبل.

(٢) الرغب: المطلوب والمرغوب فيه.

(٣) الشراسيف: جمع شرسوف: وهو الطرف اللين من الضلع مما يلي
الطن.

وقال جرير بن حازم عن، يعلى بن حكيم، عن سعيد بن جبير قال : كان عمر
ابن الخطاب رضى الله عنه إذا أمسى أخذ ذرته ثم طاف بالمدينة ، فإذا رأى
شيئاً يتكبره أنكره ، فبينما هو ذات ليلة يمس إذ مرّت امرأة على سطح
وهى تقول :

تطاول هذا الليل وأخضل^(١) جانبه وأرقى أن لا خيل إلا لأعبه
فوالله لو لا الله لأربّ غيرُه لحرك من هذا السرير جوانبه
غفاه ربي والحياه يصدني وأكرم بلى أن تنال مراكبه

ثم تنفست الصعداء وقالت : لمان على عمر بن الخطاب ما لقيت الليلة ،
فضرب باب الدار فقالت : من هذا الذى يأتى إلى امرأة مغيبة^(٢) هذه
الساعة ؟ فقال : افتحى ، فأبت ، فلما أكثر عليها قالت : أما والله لو بلغ أمير
المؤمنين لعاقبك ، فلما رأى عفافها قال : افتحى فأنا أمير المؤمنين ، قالت :
كذبت ما أنت أمير المؤمنين ، فرفع بها صوته وجهر لها فعرفت أنه هو ،
ففتحت له فقال : هيه كيف قلت ؟ فأعادت عليه ما قالت ، فقال : أين زوجك ؟
قالت : فى بئس كذا وكذا ، فبعث إلى عامل ذلك الجند أن سرح فلان بن
فلان ، فلما قدم عليه قال : اذهب إلى أهلك . ثم دخل على حفصة ابنته فقال :
أى بديّة كم تصير المرأة عن زوجها ؟ قالت : شهر أو اثنين وثلاثة ، وفى الرابع
يند الصبر ، فجعل ذلك أجلاً للبعث . وهذا مطابق لجعل الله سبحانه وتعالى

(١) اخضل الليل : أظلم .

(٢) امرأة مغيبة : التى غاب زوجها .

مُدَّةُ الإيلاءِ^(١) أربعة أشهر ، فإنه سبحانه وتعالى علم أن صبر المرأة يضعف بعد الأربعة، ولا تحمل قوَّةُ صبرها أكثرَ من هذه المدَّة ، فجعلها أجلاً للمولى ، وخيرها بعد الأربعة إن شاءت أقامت معه ، وإن شاءت فسخت نكاحه . فإذا مضت الأربعة أشهر عيِّلَ صبرُها . قال الشاعر :

ولما دعوتُ الصبرَ بعدك والبكا أجاب البكا طوعاً ولم يُجبِ الصبرُ

(١) الإيلاء في اصطلاح الشرع أن يحلف الزوج على ألا يقرب زوجته أربعة أشهر فأكثر ويقال : آلى من زوجته يولى إيلاء . قال تعالى : (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر) أى يقسمون ألا يقربوا نساءهم .

الباب الثامن عشر

في أنه دواء الحبيين ، في كمال الوصال الذي أباهم رب العالمين

قد جعل الله سبحانه وتعالى لكل داء دواء ، ويسر الوصال إلى ذلك الدواء شرعاً وقدراً ، فمن أزال الداءى بما شرعه الله له ، واستعان عليه بالقدر وأتى الأمر من بابه صادف الشفاء ، ومن طلب الدواء بما منعه منه شرعاً وإن امتحنه به قدراً فقد أخطأ طريق المداواة ، وكان كالمندوى من داء بداء أعظم منه ، وقد تقدم حديث طاووس عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كَمْ يَرِ الْمُنْتَحَبِينَ مِثْلُ النَّكَاحِ »^(١) . وقد اتفق رأى المقلد من الأطباء وغيرهم في مواضع الأدوية أن شفاء هذا الداء في التقاء الرطوبة والتصاق البدن . وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي الزبير عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة فأتى زينب فقضى حاجته منها^(٢) وقال : « إِنَّ النَّبِيَّ أَتَى تَقِيلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ وَتُدِيرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَلْيَاتِ أَهْلَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ » . وذكر إسماعيل بن عتيّاش ، عن شرحبيل بن مسلم عن أبي مسلم الخولاني رحمه الله أنه كان يقول : يامعشر خولان زوجوا شبابكم وإماءكم فإن الغلة أمر عارم^(٣) فأعدّ وعدتها ، واعلموا أنه ليس لمنعظ إذن . يريد أنه إذا

(١) تقدم ذكره في صفحة ٨٤ بلفظ التزويج .

(٢) لم يكن ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم بمراقة زينب لأنه وجد في نفسه شيئاً حين رأى المرأة ولكنه فعله لتقتدى به الامة في القول .

(٣) عارم : شديد ، فاس ، لا يطاق

استأذن عليه فلا إذن له . وذكر العتي أن رجلاً من ولد عثمان ورجلاً من ولد الحسين خرجا يريدان موضعاً لهما ، فنزلا تحت مَرَجَةٍ ^(١) فأخذ أحسدها فكتب عليها :

خبرينا خُصِصْتَ بالغيث يأسرُ حُ بصدقٍ والصدقُ فيه شفاء
وكتب الآخر :

هل يموت المحب من أَلَمِ الجنبِ ويشفى من الحبيب اللقاء
ثم مضيا ، فلما رجعا وجدا مكتوباً تحت ذلك :
إن جهلاً سؤالك السرحَ عما ليس يوماً عليك فيه نفعاه
ليس للعاشق المحب من الجنبِ سوى لذّة اللقاء شفاءه
وقال أبو جعفر العذري :

أسكرُ الهوى أروى أعظمي ومفصلي إذا سكر الندمان من لذّة الخمر
وأحسن من قرع المثاني وتقرّها تراجع صوت الثغر يُقرع بالثغر ^(٢)
ولما دعوت الصبرَ بعدك والبكا أجاب البكا طوعاً ولم يُجب الصبر ^(٣)
وقال عبد الله بن صالح : كان الليث بن سعد إذا أراد الجماع خلا في منزله
في داره ودعا بثوبٍ يقال له : الهركان ، وكان يلبسه إذ ذاك ، وكان إذا خلا في
ذلك المنزل علم أنه يريد أمراً ، وكان إذا غشي أهله ^(٤) قال : اللهم شد لي أصله ،

(١) السرجة : شجرة عظيمة طويلة ، وجمعها سرح .

(٢) المثاني من الأوتار : الذي بعد الأول . الترجيع : تردد الصوت في قراءة أو أذان أو غناء أو رمز أو غير ذلك مما يترنم به .

(٣) تقدم هذا البيت وحده في صفحة ٢١١ .

(٤) غشى أهله : أتاها ، وغشى المرأة وتغشاها : دخل بها وجامها .

وارفع لي صدره ، وسهل على مدخله ومخرجه ، وارزقني لذته ، وهب لي ذريةً
صالحةً تقاتل في سبيلك . قال : وكان جهّوَرِيًّا فكان يُسمع ذلك منه (رضي
الله عنه) .

وقال الخرائطي : حدثنا عمار بن وثيمة قال : حدثني أبي قال : كان
عبد الله بن ربيعة من خيار قریش صلاحاً وعفةً ، وكان ذكراً لا يرقُدُ فلم يكن
يشهد لقریش خيراً ولا شراً ، وكان يتزوج المرأة فلا تمكث معه إلا أياماً
حتى تهرب إلى أهلها ، فقالت زينب بنت عمر بن أبي سلمة : ما لله يهرب من
ابن عمه ؟ قيل لها : إنهم لا يُطِيقونه ، قالت : فما يمنعه مني ؟ فأنا والله العظيمة
الخلق ، الكبيرة العجز ، الفخمة الفرج ، قال : فتزوجها ، فصبرت عليه ، وولدت
له ستة من الولد .

وقال رشيد بن سعد ، عن زهرة بن معبد ، عن محمد بن المنكدر أنه كان
يدعو في صلاته : اللهم قو لي ذكراً فإن فيه صلاحاً لأهلي . وقال حماد بن
زيد ، عن هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين قال : كان لأنس بن مالك غلامٌ
وكان شيخاً كبيراً ، فرافقه امرأته إلى أنس وقالت : لا أطيقه ، ففرض له عليها
سنة في اليوم واليلة .

وقال علي بن عاصم : حدثنا خالد الخذاء قال : لما خلق الله آدم وخلق
حواء قال له : يا آدم اسكن إلى زوجك ، فقالت له حواء : يا آدم ما أطيب
هذا ! زدنا منه . وفي الصحيح أن سنيان بن داود عليهما السلام طاف في ليلةٍ
واحدة على تسعين امرأة . وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان
يطوف على نسائه في الليلة الواحدة وهن تسع نسوة ، وربما كان يطوف عليهن
بفسل واحد ، وربما كان يفتسل عند كل واحدةٍ منهن .

وقال المروزي : قال أبو عبد الله — يعني أحمد بن حنبل — ليس العزوبة

من أمر الإسلام في شيء . النبي صلى الله عليه وسلم تزوج أربع عشرة ومات عن تسع ، ولو تزوج بشر بن الحارث كتم أمره ، ولو ترك الناس النكاح لم يكن غزو ولا حج ولا كذا ولا كذا ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يصبح وما عندهم شيء ، ومات عن تسع ، وكان يختار النكاح ويحث عليه ، ونهى عن التبذل^(١) ، فمن رغب عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم فهو على غير الحق ، ويعقوب في حزنه قد تزوج ووُلد له ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال : « حُبِّبَ إِلَى النَّسَاءِ » . قلت له : فإن إبراهيم بن أدهم يحكى عنه أنه قال : آروعة صاحب العيال فما قدرت أن أتم الحديث^(٢) حتى صاح بي وقال : وقعت في بُنَيَّات^(٣) الطريق ، أنظر ما كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثم قال : بكاء الصبي بين يدي أبيه يطلب منه الخبز أفضل من كذا وكذا . أين يلحق المتعبد العزب ؟ انتهى كلامه .

وقد اختلف الفقهاء هل يجب على الزوج بجامعة امرأته ؟ فقالت طائفة : لا يجب عليه ذلك ، فإنه حق له فإن شاء استوفاه ، وإن شاء تركه : بمنزلة من استأجر داراً إن شاء سكنها ، وإن شاء تركها .

وهذا من أضعف الأقوال ، والقرآن والسنة والعرف والقياس يرُدُّه . أما القرآن فإن الله سبحانه وتعالى قال : (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ ، بِالْمَعْرُوفِ^(٤)) فأخبر أن المرأة من الحق مثل الذي عليها ، فإذا كان الجماع حقاً للزوج عليها ، فهو حق على الزوج بنص القرآن ، وأيضاً فإنه سبحانه وتعالى أمر الأزواج أن

(١) التبذل : الانقطاع عن الدنيا إلى الله ، والتفرغ للعبادة ، وترك النكاح . ومنه قوله تعالى « وتبذل إليه تبتيلاً » .

(٢) تتمته كما في الإحياء : أفضل من جميع ما أنا فيه .

(٣) بذية الطريق طريق صغير يشبه من الجادة .

(٤) الآية ٢٢٨ . سورة البقرة .

يعاشروا الزوجات بالمعروف ، ومن ضدّ المعروف أن يكون عنده شابة شهوتها تعدل شهوة الرجل أو تزيد عليها بأضعاف مضاعفة ولا يذيقها لذّة الوطء مرّة واحدة . ومن زعم أن هذا من المعروف كفاه طبعه ردّا عليه . والله سبحانه وتعالى إنما أباح للأزواج إمساك نسائهم على هذا الوجه لا على غيره ، فقال تعالى : (فَاِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)^(١) .

وقالت طائفة : يجب عليه وطؤها في العمر مرّة واحدة ليستقر لها بذلك الصّدق . وهذا من جنس القول الأوّل ، وهذا باطل من وجه آخر ، فإن المقصود إنما هو المعاشرة بالمعروف ، والصّدق دخل في العقد تعظيماً لحرمته وفرقاً بينه وبين السفاح^(٢) . فوجوب المقصود بالنكاح أقوى من وجوب الصّدق .

وقالت طائفة ثالثة : يجب عليه أن يطأها في كلّ أربعة أشهر مرّة ، واحتجوا على ذلك بأن الله سبحانه وتعالى أباح للمؤلّ تربيص أربعة أشهر وخير المرأة بعد ذلك ، إن شاءت أن تقيم عنده ، وإن شاءت أن تفارقه . فلو كان لها حق في الوطء أكثر من ذلك لم يجعل للزوج تركه في تلك المدة ، وهذا القول وإن كان أقرب من القوانين اللذين قبله فليس أيضاً بصحيح ، فإنه غير المعروف الذي لها وعليها . وأما جعل مدة الإيلاء أربعة أشهر فنظر أمنه سبحانه للأزواج فإن الرجل قد يحتاج إلى ترك وطء امرأته مدة لعارض من سفر أو تأديب أو راحة نفس أو اشتغال بهم ، فجعل الله سبحانه وتعالى له أجلاً أربعة أشهر . ولا يلزم من ذلك أن يكون الوطء مؤقتاً في كلّ أربعة أشهر مرّة .

وقالت طائفة أخرى : بل يجب عليه أن يطأها بالمعروف ، كما ينفق عليها

(١) الآية ٢٢٩ . سورة البقرة .

(٢) السفاح : الفجور . وقيل (تزوج المرأة سفاحاً) أي بغير سنة ولا كتاب .

ويكسوها ويعاشرها بالمعروف ، بل هذا عمدة المعاشرة ومقصودُها ، وقد أمر الله سبحانه وتعالى أن يعاشرها بالمعروف . فالوطء داخلٌ في هذه المعاشرة ولا بدّ ، قالوا : وعليه أن يشبعها وطئاً إذا أمكنه ذلك كما عليه أن يشبعها قوتاً . وكان شيخنا رحمه الله تعالى يرجّح هذا القول ويختاره .

وقد حصّ النبي صلى الله عليه وسلم على استعمال هذا الدواء ورغب فيه وعاقب عليه الأجر وجعله صدقةً لفاعله فقال : « وفي بضعٍ أحَدُكُمْ صَدَقَةٌ »^(١) . ومن تراجم النساء على هذا : الترغيب في المباشرة ، ثم ذكر هذا الحديث ، ففي هذا كمال اللذة ، وكمال الإحسان إلى الحبيبة ، وحصول الأجر ، وثواب الصدقة ، وفرح النفس ، وذهابُ أفسارها الرديئة عنها ، وخفةُ الروح ، وذهابُ كثابقتها وغلظتها ، وخفةُ الجسم ، واعتدالُ المزاج ، وجلبُ الصّحة ودفعُ المواد الرديئة ، فإن صادف ذلك وجهاً حسناً ، وخُلُقاً دميماً^(٢) ، وعشاقاً وافرأً ، ورغبةً تامةً ، واحتساباً للثواب ، فذلك اللذة التي لا يعادلها شيء ، ولا سيما إذا وافقت كلها فإنها لا تسكّل حتى يأخذ كلُّ جزء من البدن بقسطه من اللذة ، فتلتذّ العين بالنظر إلى المحبوب ، والأذن بسماع كلامه ، والأنفُ بشم رائحته ، والتمُّ بتقبيله ، واليد بلمسه . وتعتكف كلُّ جارحة على ما تطلبه من لذتها ، وتقابله من المحبوب ؛ فإن فقد من ذلك شيء لم تنزل النفس متطلعةً إليه ، متقاضيةً له ، فلا تسكن كل السكون ، ولذلك تسمّى المرأة سَكَنًا لسكون النفس إليها ، قال الله تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا)^(٣) ولذلك فضّل

(١) تقدم مطولاً في الصفحة ١٥٨ وجاء في القاموس المحيط أن البضع بالضم الجماع أو الفرج نفسه، والمهر، والطلاق، وعقد النكاح ضد، والمباشرة: الجماع.
(٢) دمث دمثاً: لان وسهل، ودمثت المرأة دماثة: سهل خلقها .
(٣) الآية ٢١ . سورة الروم .

جماعُ النهار على جماع الليل ، ولسببٍ آخر طبيعي ، وهو أن الليلَ وقتٌ تبرد فيه الحواس وتطلب حفظها من السكون ، والنهار محلّ انتشار الحركات كما قال الله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا)^(١) وقال الله تعالى : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ)^(٢) وتأمّل النعمة في ذلك فرحة الحب برضاء ربه تعالى بذلك ، واحتساب هذه اللذة عنده ، ورجاءه لتخفيف ميزانه ، ولذلك كان أحبّ شيء إلى الشيطان أن يفرق بين الرجل وبين حبيبه ، ليتوصل إلى تعويض كلٍّ منهما عن صاحبه بالحرام كما في السنن عنه صلى الله عليه وسلم : « أَبْغَضُ الْخُلَآلِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الطَّلَاقُ »^(٣) . وفي صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنْ إبْلِيسَ يَنْصِبُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْثُ سَرَايَاهُ^(٤) فِي النَّاسِ فَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فَتَنَةً فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ مَا زِلْتُ بِهِ حَتَّى زَنَيْتُ فَيَقُولُ يَتُوبُ فَيَقُولُ الْآخَرُ مَا زِلْتُ بِهِ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ فَيُذِنُ بِهِ وَيَلْتَزِمُهُ وَيَقُولُ : نَعَمْ أَنْتَ . نَعَمْ أَنْتَ » فهذا الوصال لما كان أحبّ شيء إلى الله ورسوله كان أبغض شيء إلى عدوّ الله ، فهو يسعى في التفريق بين المتحابين في الله المحبة التي يحبا الله ، ويؤلف بين الاثنين في المحبة التي يبغضها الله ويسخطها . وأكثرُ العشاق من جنسده وعسكره ، ويرتقى بهم الحال حتى

-
- (١) الآية ٤٧ سورة الفرقان . والنوم سباتاً : أى راحة وسكوناً ، أو جملناهُ كالموت . وجعل النهار نشوراً : أى زمن اليقظة التي تشبه الانبعاث بعد الموت .
- (٢) الآية ٦٧ سورة يونس .
- (٣) رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم . كما قال السيوطي
- (٤) سراياه : جنوده وجيرشه والسرية قطعة من الجيش .

يصير هو من جندهم وعسكرهم، يقود لهم، ويزين لهم الفواحي، ويؤلف بينهم عليها كما قيل :

عجبت من إبليس في نخوته وقبح ما أظهر من سيئته
تاه على آدم في سجدة وصار قواداً لذريته^(١)

وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم الشباب الذين هم مظنة العشق إلى أنفع أدويتهم . ففي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج » .

وفي لفظ آخر ذكره أبو عبيد : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله رضى الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالباءة » . وذكر الحديث، وبين اللغزين فرق فإن الأول يقتضى أمر العزب بالتزويج ، والثاني يقتضى أمر المتزوج بالباءة ، والباءة : اسم من أسماء الوطاء . وقوله : « من استطاع منكم الباءة فليتزوج » فسرت الباءة بالوطاء وفسرت بؤن النكاح ، ولا ينافي التفسير الأول إذ المعنى على هذا مؤن الباءة ثم قال : « ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » فأرشدهم إلى الدواء الشافى الذى وضع لهذا الأمر ، ثم نقلهم عنه عند العجز إلى البدل وهو الصوم فإنه يكسر شهوة النفس ويضيق عليها مجارى الشهوة ، فإن هذه الشهوة تقوى بكثرة الغذاء وكيفية الغذاء وكيفية يزيدان في توليدها ، والصوم يضيق عليها ذلك فتصير بمنزلة وجاء الفحل^(٢) ، وقل من أدام الصوم لإومات شهوته أو ضمنت

(١) البيتان لآبى نواس .

(٢) وجاء الفحل : دق عروق خصيتيه بين حجرين ولم يخرجهما ، أورضهما

حتى تنفضا فيسكون شبيها بالخصاء .

جداً ، والصوم المشروع يُعدُّ لها . واعتدالها حسنة بين سيئتين ، ووسط بين طرفين مذمومين ، وهما العنة والغلبة الشديدة المفرطة ، وكلاهما خارج عن الاعتدال وكلا طرفي قصد الأمور ذميم ، وخير الأمور أوساطها ، والأخلاق الفاضلة كلها وسط بين طرفي إفراطٍ وتفریط ، وكذلك الدين المستقيم وسط بين انحرافين ، وكذلك السنة وسط بين بدعتين ، وكذلك الصواب في مسائل النزاع إذا شئت أن تحظى به فهو القول الوسط بين الطرفين المتباعدين ، وليس هذا موضع تفصيل هذه الجملة ، فإننا لم نقصد له وبالله التوفيق .

الباب التاسع عشر

في ذكر فضيلة الجمال ، وميل النفوس إليه على كل حال

إعلم أن الجمال ينقسم قسمين : ظاهر وباطن ، فالجمال الباطن هو المحبوب لذاته ، وهو جمال العلم والعقل والجود والعفة والشجاعة ، وهذا الجمال الباطن هو محل نظر الله من عبده وموضع محبته ، كما في الحديث الصحيح : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ »^(١) . وهذا الجمال الباطن يزين الصورة الظاهرة وإن لم تكن ذات جمال ، فتكسو صاحبها من الجمال والمهابة والحلاوة بحسب ما اكتسبت رُوحه من تلك الصفات ، فإن المؤمنَ يُعطى مهابةً وحلاوةً بحسب إيمانه ، فمن رآه هابه ، ومن خالطه أحبه . وهذا أمر مشهود بالعيان ، فإنك ترى الرجلَ الصالحَ المحسنَ ذا الأخلاقَ الجميلة من أحلى الناس صورةً وإن كان أسوداً أو غيرَ جميل ، ولا سيما إذا رُزقَ حظاً من صلاة الليل فإنها تنور الوجه وتحسنه .

وقد كان بعضُ النساءُ تكثرُ صلاة الليل ، فقيل لها في ذلك ، فقالت : إنها تحسن الوجه وأنا أحبُّ أن يحسنَ وجهي . وبما يدلُّ على أن الجمال الباطنَ أحسنُ من الظاهر أن القلوب لا تنفك عن تعظيم صاحبه ومحبته والميل إليه .

فصل

وأما الجمال الظاهر فزينة خَصَّ الله بها بعضَ الصُّوَرِ عن بعض ، وهي من

زيادة الخلق التي قال الله تعالى فيها : (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ) ^(١) قالوا : هو الصورت الحسن والصورة الحسنة . والقلوب كالمطبوعة على محبته كما هي مبطورة على استحسانه .

وقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ » قالوا : يا رسول الله ، الرجل يحب أن تكون نعله حسنة وثوبه حسناً أفذلك من الكبر ؟ فقال : « لا . إن الله جميلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ . الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ » ^(٢) فبطر الحق جعده ودفعه بعد معرفته ، وغمط الناس النظر إليهم بين الازدراء والاحتقار والاستصغار لهم . ولا بأس بهذا إذا كان لله . وعلامته أن يكون لنفسه أشدّ ازدراء واستصغاراً منه لهم . فإما إن احتقرهم لعظمة نفسه عنده فهو الذي لا يدخل صاحبه الجنة .

فصل

وكما أن الجمال الباطن من أعظم نعم الله تعالى على عبده فالجمال الظاهر نعمة منه أيضاً على عبده يوجب شكراً ، فإن شكره بتقواه وصيانيته ازداد جلالاً على جماله ، وإن استعمل جماله في معاصيه سبجانه قلبه له شيئاً ظاهراً في الدنيا قبل الآخرة ، فتعود تلك الحاسن وحشة وقبحاً وشيناً ، ويتفر عنه من رآه ، فكل من لم يتق الله عز وجل في حسنه وجماله انقلب قبحاً وشيناً يشينه به بين الناس ، فحسن الباطن يعلو قبح الظاهر ويستره ، وقبح الباطن يعلو جمال الظاهر ويستره . يَحْسَنَ الْوَجْهَ تَوَقَّ الْخُلُقَ ^(٣) لَا تُبْدِلُنَّ الزَّيْنَ بِالشَّيْنِ

(١) أول سورة فاطر .

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي . كما قال البيهقي في تيسير الوصول .

(٣) الخلق : الفحش .

وَيَا قَبِيحَ الْوَجْهِ كُنْ مُحْسِنًا لَا تَجْمَعُنْ بَيْنَ قَبِيحَيْنِ

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعُر الناس إلى جمال الباطن بجمال الظاهر كما قال جرير بن عبد الله — وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يُسمِّيهِ يوسف هذه الأمة — قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنت امرؤ قد حَسَنَ اللَّهُ خُلُقَكَ فَأَحْسِنْ خُلُقَكَ » (١) . وقال بعض الحكماء : ينبغي للعبد أن ينظر كلَّ يوم في المرأة ، فإن رأى صورته حسنة لم يَتَشَنَّها بقبيح فعله ، وإن رآها قبيحة لم يجمع بين قبح الصورة وقبح الفعل .

ولما كان الجمال من حيث هو محبوباً للنفس ، مظهرًا في القلوب ، لم يبعث الله نبياً إلا جميل الصورة ، حسن الوجه ، كريم الحسب ، حسن الصوت ، كذا قال على بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم أجل خلق الله ، وأحسنهم وجهاً كما قال البراء بن عازب رضى الله عنه وقد سئل : أكان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل السيف ؟ قال : لا بل مثل القمر (٢)

وفي صفته صلى الله عليه وسلم : كأنَّ الشمس تجري في وجهه ، يقول واصفه : لم أرَ قبله ولا بعده مثله .

وقال ربيعة الجُرَشِي : قُسِّمَ الْحُسْنُ نَصْفَيْنِ : فَبَيْنَ سَارَّةَ وَيُوسُفَ نَصْفُ الْحُسْنِ ، وَنَصْفُ الْحُسْنِ بَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ . وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه رأى يوسف ليلة الإسراء وقد أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ (٣) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحب أن يكون الرسول الذي يرسل إليه حسن الوجه حسن

(١) رواه الديلمي كما جاء في منتخب كنز العمال .

(٢) ذكره البخاري في صحيحه ، ورواه مسلم عن جابر بن سمرة .

(٣) رواه مسلم وأحمد في مسنده . كما جاء في منتخب كنز العمال .

الاسم، وكان يقول: «إِذَا أُبْرِدْتُمْ إِلَىٰ بَرِيدٍ فَلْيَسْكُنْ حَسَنَ الْوَجْهِ حَسَنَ
الاسم»^(١).

وقد روى الخرائطي من حديث ابن جريج عن ابن أبي مليكة، عن ابن
عباس رضي الله عنهما يرفعه: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ وَجْهًا حَسَنًا وَاسْمًا حَسَنًا وَخُلُقًا
حَسَنًا وَجَعَلَهُ فِي مَوْضِعٍ غَيْرِ شَأْنٍ لَهُ فَهُوَ مِنْ صَفْوَةِ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ»،
وقال وهب: قال داود: يارب أيَّ عبادك أحب إليك؟ قال: مؤمن حسن
الصورة، قال: فأىَّ عبادك أبغض إليك؟ قال كافر قبيح الصورة.

ويذكر عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان
ينتظره نفر من أصحابه على الباب، فجعل ينظر في الماء ويسوي شعره وحيته، ثم
خرج إليهم، فقالت: يا رسول الله، وأنت تفعل هذا؟ قال: «نعم» إذا خرج
الرجل إلى إخوانه فليهيئ من نفسه فإن الله جميل يحب الجمال»^(٢) وقال
يحيى بن أبي كثير: دخل رجل على معاوية غصصاً، يعنى رمص^(٣) العينين، فخط
من عطائه فقال: ما يمنع أحدكم إذا خرج من منزله أن يتغاهد أديم وجهه؟
وكانت عائشة بنت طلحة من أجمل أهل زمانها، أو أجملهم، فقال أنس بن
مالك: والله ما رأيت أحسن منك إلا معاوية على منبر رسول الله صلى الله عليه
وسلم، فقالت: والله لأننا أحسن من النار في عين المرقور في الليلة القارة.

(١) رواه البزار. كما جاء في الجامع الصغير للسيوطي

(٢) تقدمت الفقرة الأخيرة من هذا الحديث في الصفحة ٢٢٢ أما النص فإن
قول المؤلف في أولها ويذكر، يدل على التضعف.

(٣) الغمص: ما يسيل من العين من الرمص. والرمص: وسخ أبيض جامد يجمع
في موق العين

ودخل عليها أنس يوماً في حاجة فقال : إن القوم يريدون أن يدخلوا عليك
فينظروا إلى جمالك ، قالت : أفلا قلت لي فألبس ثيابي ؟ .

وكان مصعب بن الزبير من أجمل الناس وكان يحسد الناس على الجمال ، فبينما
هو يخطب يوماً إذ دخل ابن جودان من ناحية الأزد ، وكان جميلاً ، فأعرض
بوجهه عن تلك الناحية إلى ناحية أخرى ، فدخل ابن جحران من تلك الناحية ،
وكان جميلاً ، فرمى بصره إلى مؤخر المسجد ، فدخل الحسن البصري ، وكان
من أجمل الناس ، فنزل مصعب عن المنبر .

وخرج نسوة يوم العيد ينظرون إلى الناس فقيل لهن : من أحسن من مرة
بكن ؟ قلن : شيخ عليه عمامة سوداء ، يعندين الحسن البصري . وأخذ مصعب
ابن الزبير رجلاً من أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه ، فقال الرجل : أيها الأمير ،
ما أقبح من أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسننة ، ووجهك هذا الذي
يُسْتَضَاءُ به فأتعلق بأطرافك وأقول : يارب سأل مصعباً فيم قتلني ؟ فقال
مصعب : أطلقوه . فقال الرجل : أيها الأمير ، اجعل ما وهبت لي من حياتي
في حَقْضٍ (١) فقال مصعب : أعطوه مائة ألف درهم ، فقال : إني أشهد الله أن
لعبد الرحمن بن قيس الرقييات (٢) صفها ، قال مصعب : ولم ذلك ؟ قال لتوله :
إنما مصعب شهاب من الاله ته تجلت عن وجهه الظلماء

فضحك مصعب وقال : إن فيك لموضعاً للصنعة ، وأمره بالثبوت .

وقال الزبير بن بكار : حدثنا مصعب الزبيرى ، حدثنا عبد الرحمن بن
أبي الحسن قال : خرج أبو حازم يرى الجمار ومعه قوم متعبدون وهو يكلمهم

(١) الحَفْضُ : الدعة وسعة العيش .

(٢) كذا .. والذي جاء في الأغاني وغيره أن اسمه عبيد الله .

(١٥ م — روضة المحبين)

ويحدثهم ويقصّ عليهم* ، فينما هو يمشى وهم معه إذ نظر إلى فتاة مستترّةٍ بخمارها ،
ترعى الناس بطرفها يميناً ويسرةً ، وقد شغلت الناس وهم ينظرون إليها مبهوتين ،
وقد خبط بعضهم بعضاً في الطريق ، فرآها أبو حازم فقال : يا هذه أتتني الله فإنك
في مشعري^(١) من مشاعر الله عظيم ، وقد فتنت الناس ، فاضربني بخمارك على
جيبك فإن الله عز وجل يقول : (وَأَيْضِرْنَ خَيمَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ)^(٢)
فأقبلت تضحك من كلامه وقالت : إني والله .

من الألاء لم ينججن يبيغين حسنةً والسكن ليقتلن البريء المفضلاً^(٣)

فأقبل أبو حازم على أصحابه وقال : تعالوا ندعو الله أن لا يعذب هذه الصورة
الحسنة بالنار ، فجعل يدعو وأصحابه يؤمنون^(٤) .

وقال صمرة بن ربيعة ، عن عبد الله بن شوذب : دخلت امرأة جميلة على
الحسن البصري فقالت : يا أبا سعيد ، ينبغي^(٥) للرجال أن يتزوجوا على النساء ؟
قال : نعم ، قالت : وعلى مثلي ؟ ثم أسفرت عن وجهٍ لم ير مثله حسناً وقالت :
يا أبا سعيد ، لا تُفتتوا الرجال بهذا . ثم ولّت ، فقال الحسن : ما على رجلٍ كانت
هذه في زاوية بيته ما فاته من الدنيا !

(١) المشعر : موضع مناسك الحج والمشعر الحرام : جبل بآخِر المزدلفة
واسمه قزح .

(٢) الآية ٣١ . سورة الفور .

(٣) البيت للمرجى .

(٤) في الأغاني للأصفهاني قال : بلغ ذلك سعيد بن المسيب فقال : أما
والله لو كان من بعض بضياء أهل العراق (يريد بهم المتزمتين المتخالفين في الورع)
لقال لها : اغربي قبلك الله ! ولكنه ظرف عباد الحجاز .

(٥) لعل الأنسب هو : أيحل . كما جاء في تحفة المروس .

وقال عبد الملك بن قُرَيْب^(١) : كنت في بعض مياه العرب فسمعت الناس يقولون : قد جاءت قد جاءت . فتحول الناس فقامت معهم ، فإذا جارية قد وردت الماء مارأيت مثلها قط في حسن وجهها وتمام خلقها ، فلما رأيت تشوئي^(٢) الناس إليها أرسلت برقة^(٣) معها فكأنه غمامة غطت شمساً ، فقلت : لم تمنعينا النظر إلى وجهك هذا الحسن ؟ فأنشأت تقول :

وكنّت متى أرسلت طرفك رائداً لقاءك يوماً أتعبتك المناظرُ
رأيت الذي لا كله أنت قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

ونظر إليها أعرابي فقال : أنا والله ممن قلّ صبره ، ثم قال :
أَوْخَشِيَّةَ الْعَيْنَيْنِ أَيْنَ لَكَ الْأَهْلُ أَالْحَزَنُ حَلَّوْا أُمَّ مَحَلِّهِمُ السَّهْلُ
وَأَيَّةَ أَرْضٍ أَخْرَجْتِكِ فَإِنِّي أَرَاكَ مِنَ الْفَرْدُوسِ إِن قُنُسَ الْأَصْلُ
قَفِي خَبْرِي نَا مَا طَعِمْتَ وَمَا الَّذِي .

شربت ومن أين استقل بك الزحل^(٤)
لأن علامات الجنان مُبَيِّنَةٌ عليك وإن الشَّكْلَ يشبهه الشَّكْلُ
تناهيت حسناً في النساء فإن يكن لبدر الدُّجَى نسلٌ فَأَنْتِ لَهُ نَسْلُ
وقال آخر^(٥) :

يَا مُنْسَى الْحَزُونِ أَحْزَانَهُ لِمَا أَتَتْهُ فِي الْمَعْرِينَا
إِسْتَقْبَلْتَنَ بِتَمَاهِلِهَا فَقُمْنِ يَضْحَكُنْ وَيَسْكِينَا

(١) هو الأصمعي (أبو سعيد عبد الملك بن قريب)

(٢) تشوئ : نظر وأطلع .

(٣) استقل بك الرجل : جاء وقدم .

(٤) هو أبو نواس الحسن بن هانئ ، ورواية الأغاني :

يَا مُنْسَى الْمَاتَمِ أَحْزَانَهُ لِمَا أَتَاهُمْ فِي الْمَعْرِينَا

تحق لهذا الوجه أن يزدهى^(١) عن حزنه من كان محزوناً

وقال آخر :

أبدرى مكان البدر إن أفل^(٢) البدر وقوى مقام الشمس ما استأخر الفجر
قفيك من الشمس المنيرة ضوءها وليس لها منك التبسم والمنفر

وقال آخر :

رقادى ياطرفى عليك حرام^(٣) فخل دموعاً فيضهن سجام^(٤)
ففى الدمع إطفاء لنار صباية لها بين أحناء الضلوع ضرام^(٥)
ويا كبدي الحرى^(٥) التى قد تصدءت من الوجد ذوبى ما عليك ملام
ويا وجه من ذلت وجوه أعزة له وزهى عزاً فليس يرام
أجر مستجيراً فى الهوى باسطاً إليك يديه والعيون نيام
وذكر الخرائطى عن بعض العلويين قال : بينا أنا عند الحسن بن هانىء
وهو ينشد :

ويلى على سود العيون النهى الضمر البطون
الناطقات عن الضمير ر لنا بالسنة الجفون

فوقف عليه أعرابى ومعه بُذِيه فقال : أعد على ، فأعاد عليه فقال : يا ابن
أخى ، ويلك أنت وحدك من هذا ؟ ويلى أنا وأنت ، وويل ابني هذا ، وويل
هذه الجماعة ، وويل جيراننا كلهم .

(١) يزدهى : يتيه بحسنه ، ويحمل من رآه وكان محزوناً على لسيان حزنه .

(٢) أفل : غاب .

(٣) سجام : سائل بكثرة .

(٤) الضرام : لهب النار .

(٥) الحرى : التى يبيت من مرض أو حزن .

وقال الخرائطي : حدثنا يموت بن المزرع ، حدثنا محمد بن حميد ، حدثنا محمد بن سلمة قال : حدثني أبي قال : أتيت عبد العزيز بن المطلب أسأله عن بيعة الجن للنبي صلى الله عليه وسلم بمسجد الأحزاب ما كان بدوها ، فوجدته مستلقياً يتغنى :

فأروصة بالحزن طيبة الثرى يبيع الندى جثجاها وعرارها^(١)
 بأطيب من أردان عزة موها وقد أوقدت بالمدل الرطب نارها^(٢)
 من الخفرات البيض لم تلق شقوة وبالحسب المكنون صاف نيارها^(٣)
 فإن برزت كانت لعينيك قررة وإن غبت عنها لم يعمك عارها

قلت له : أتغنى أصلحك الله وأنت في جلالك وشرفك ؟ فقال : أما والله لأجلتها ركباً نجد ، قال : فوالله ما أكثر بي وعاد يتغنى :

فأظبية أدماء خفاقة الحشا تجوب بظلمتها مشون الحائل^(٤)
 بأحسن منها إذ تقول تدلللاً وأدمعها تذريرين شوا للكال
 تمتع بذا اليوم القصير فإنه رهين بأيام الصدود الأطاول

قال : فندمت كلّي قولي وقلت له : أصلحك الله أتحدثني في هذا بشيء ؟ قال : نعم حدثني أبي قال : دخلت على سالم بن عبد الله بن عمر رضى الله عنهم وأشعب يغنيه :

-
- (١) الحزن من الأرض : ما غلظ ويبيع الندى يلقيه عنه ، والجذبات : نبات سبلى له زهرة صفراء طيبة الريح ، والعرار جمع عرارة : بهار طيب الرائحة .
 (٢) المدل : العود الليب الرائحة .
 (٣) الخفرات جمع خفرة ، وهى الشديدة الحياء ، والنجان : الأصل والحسب .
 (٤) أدماء : شديدة السمرة ، والظلف : الظفر المشقوق للظبية والبقرة ونحوهما والمتون جمع متن : الظهر .

مَغِيرِيَّةٌ كَالْبَدْرِ سُنَّةٌ وَجْهَهَا مُطَهَّرَةٌ الْأَنْوَابِ وَالْعِرْضُ وَافِرُ
لَهَا حَسْبُ ذَلِكَ وَعِرْضٌ مُهَذَّبٌ وَعَنْ كُلِّ مَكْرُوهِ مِنَ الْأَمْرِ زَاجِرُ
مَنْ انْتَفَرَاتِ الْبَيْضِ لَمْ تَلْقَ رِيَّةً وَلَمْ يَسْتَمِلْهَا عَنْ تُقَى اللَّهِ شَاعِرُ
فَقَالَ لَهُ سَالِمٌ : زِدْنِي ، فَعْنَاهُ :

أَلَمْتُ بِنَا وَاللَّيْلَ دَاجٍ كَأَنَّهُ جَنَاحُ غُرَابٍ عَنْهُ قَدْ نَفَضَ الْقَطَارُ
فَقُلْتُ أَعْطَارُ ثَوِي فِي رِحَالِنَا وَمَا احْتَمَلْتُ لَيْلِي سِوَى طَيْبِهَا عِطَارُ
فَقَالَ لَهُ سَالِمٌ : وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ تَتَدَاوِلَهُ الرُّوَاةُ لَأَجْزَلَتْ جَانِزَتُكَ فَإِنَّكَ مِنْ
هَذَا الْأَمْرِ بِمَكَانٍ .

قَالَ الْخُرَائِطِيُّ : حَدَّثَنَا الْعَبَّاسُ بْنُ الْفَضْلِ ، عَنْ يَعْضِ أَصْحَابِهِ قَالَ : حَبِجْتُ
سَنَةَ مِنَ السَّنِينَ فَإِنِّي لِبَالَرٍ بَذَّةٍ ^(١) إِذْ وَقَفْتُ عَلَيْنَا جَارِيَةً عَلَى وَجْهِهَا بُرْقُعٌ فَقَالَتْ .
يَا مَعْشَرَ الْحَبِجِّ ، نَفَرْتُ مِنْ هُذَيْلٍ ، ذَهَبَ بَنَعْمَهُمُ السَّيْلُ ، وَقَعَدَتْ بِهِمُ الْأَيَّامُ ،
مَا بِهِمْ مُنْجَعَةٌ ^(٢) ، فَنَ يَرِاقِبُ فِيهِمُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَيَعْرِفُ لَهُمْ حَقَّ الْأَخَوَةِ ؟ جَزَاهُ اللَّهُ
خَيْرًا . قَالَ : فَرَضْنَا لَهَا ، فَقُلْتُ لَهَا : هَلْ قُلْتَ فِي ذَلِكَ شَيْئًا ؟ فَأَنْشَأَتْ تَقُولُ :

كَفُّ الزَّمَانِ تَوْشِدُنَا عَنُوءَةً شَلَّتْ أَنْأَمْلُهَا عَنِ الْأَعْرَابِ
قَوْمٌ إِذَا حُلَّ الْعُقَاةُ ^(٣) بِبَابِهِمْ أَلْفَوْا نَوَافِلَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابِ
فَقُلْنَا لَهَا : لَوْ أَمْتَعْتِنَا بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ ، فَكَشَفْتَ الْبُرْقُعَ عَنْ وَجْهِ
لَا وَاللَّهِ لَا تَهْتَدِي الْعُقُولُ لَوْصِفِهِ ، فَلَمَّا رَأَيْنَا قَدْ بَهَتْنَا لِحُسْنِهَا أَنْشَأَتْ تَقُولُ :

-
- (١) فِي مَعْجَمٍ يَأْقُوتُ : الرِّبْذَةُ : قَرْيَةٌ مِنْ قُرَى الْمَدِينَةِ .
(٢) اللَّجْمَةُ : طَلَبُ الْكَلَالِ ، وَمَسَاقُطُ الْغَيْثِ ، وَقَصْدُ ذِي الْمَعْرُوفِ لِمَعْرُوفِهِ
(٣) الْعُقَاةُ : الَّذِينَ افْتَقَرُوا لِأَيْسَافِهِمْ .

الدهرُ أبدى صفتَه قد صانها أبوأي قبل تمرس الأيام^(١)
 فتمتعوا بعيونكم في حسنها وانتهوا جوارحكم عن الآثام
 ثم انصرفت . وكان محمد بن حميد الطوسي يهوى جارية فأرسل إليها مرة
 أُرْجَّةً^(٢) فبكت بكاء شديداً ، فقيل لها : يوجه إليك من تحببته بهدية
 فبيكين هذا البكاء ؟ فغنت :

أهدى له أحبابه أُرْجَّةً فبكي وأشفق من عيافة زاجر^(٣)
 خاف التلونَ والفراقَ لأنها لوان باطنها خلاف الظاهر
 فلما جاءه الرسول أخبره عنها بما أغاظه ، فكتب إليها :^(٤)

ضيعت عهدَ فتى لغيمك حافظ في حفظه عجب وفي تضييعك
 وصددت عنه وما له من حيلة إلا الوقوف إلى أوان رجوعك
 إن تقتليه وتذهبي بجماله فبحسن وجهك لا بحسن صنيعك
 فلما وافقها الرقعة بكت حتى رجمها من حولها ثم اندفعت تقول :

هل لعيني إلى الرقاد شفيع إن قلبي من السقام مرُوع
 لا تراني بخلتُ عنك بدمع لا وحق الحبيب مالى دموع
 إن قلبي إليك صبّ حزين فاستراحت إلى الأئين الضلوع
 ليس في العطف يا حبيبي بدع إنما هجر من يحب بدع

(١) تمرس الأيام : ممارسة نوائها وفواجها .

(٢) الأترجة : نوع من الليمون يجاو اللون ويزيل الكاف .

(٣) عيافة الطير : زجرها . وهو أن تعتبر بأسمائها ومساقطها فتتبادل

أو تتشامم .

(٤) الشعر لابن أبي عيثة .

ثم كتبت إليه : أنا مملوكة لا أملك من أمرى شيئاً ، فإذا كان لك في حاجة فاشترني لأكون طوعاً يدك ، فاشترها ففككت عنده وكانت من أحظى إيمانه ، حتى قتل في وقعة بآبك الخرمي ، فكانت تتمثل في رثائه بقول أبي تمام :

محمد بن حميد أخلقت ريمه أريق ماء المألى مذ أريق دمه
رأيت بهجاء السيف تحتيداً^(١) في النوم بدرأ جلت عن وجهه ظانه
فقلت والدمع من حزن ومن كبد يجرى انسكاباً على الخدين مبهجة
ألم تمت يا شقيق النفس مذ زمن فقال لي لم يمّت من لم يمّت كرمه

فصل

وهذا فصل في ذكر حقيقة الحسن والجمال ما هي ؟ وهذا أمر لا يدرك إلا بالوصف ، وقد قيل : إنه تناسب الخلقة واعتدالها واستواءها . ورب صورة متناسبة الخلقة ، وليست في الحسن هناك . وقد قيل : الحسن في الوجه والملاحظة في العينين . وقيل : الحسن أمر مركّب من أشياء : وضاعة وصباحة وحسن تشكيل وتخطيط ودموية في البشرة . وقيل : الحسن معنى لا تناله العبارة ، ولا يحيط به الوصف ، وإنما للناس منه أوصاف أمكن التعبير عنها . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الذروة العليا منه ، ونظرت إليه عائشة رضي الله عنها يوماً ثم تبسمت ، فسألها مِمّ ذلك ؟ قالت : كأن أبا كبير الهذلي إنما عناك بقوله :

(١) نجاد السيف : حامله . واحتبي : مجلس على أليتيه وضم تخذيه وساقيه إلى بطنه بذراعيه ليستند . ويقال احتبي الثوب : اشتمل به وأداره على ظهره وساقيه .

وَمَبْرَأٍ مِنْ كُلِّ غَيْرِ حَيْضَةٍ وَفَسَادٍ مُرْضِعَةٍ وَدَاءٍ مُغِيلٍ^(١)
وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى أُسْرَةٍ وَجْهَهُ بَرَقَتْ كَبْرَقِ الْعَارِضِ الْمُتَهَلِّلِ^(٢)

ولقي بعضُ الصحابةِ راهباً فقال: صف لي محمداً كأنى أنظر إليه فإني رأيت صفته في التوراة والإنجيل، فقال: لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير، فوق الربعة، أبيض اللون مُشرباً بالحجرة جعداً ليس بالقَطَطِ، جُمَّته إلى شحمة أذنه، صلت الجبين، واضح النحس، أدعج العينين، أفنى الأنف، مفاج النيا، كأن عنقه إبريق فضة، ووجهه كدارة القمر، فأسلم الراهب^(٣). وفي صفة هند بن أبي هالة له صلى الله عليه وسلم: لم يكن بالطويل الممَّطِ، ولا بالقصير المتردد. كان ربعة من الرجال، ولم يكن بالجعد القَطَطِ ولا بالسبط، ولم يكن بالمطمم ولا بالمكتم، وكان في الوجه تدوير، أبيض مُشرب أدعج العينين، أهدب الأشفار، جليل المشاكش والكتند، شئن الكفين والقدمين، دقيق المسربة، إذا مشى تقلع كأنما ينحط من صَبَب، وإذا التفت التفت جميعاً. كأن الشمس تجزى

(١) غير الحيض: بقايا دمه. وأضاف الفساد إلى المرضعة لأنه أراد الفساد الذي يكون من قبلها. والمغيل من الغيل: وهو اللبن الذي ترضعه المرأة ولدها وهي حامل ويروى: وداء معضل، قاله التبريزي في شرح الحامسة. والحديث في الحلية لأبي نعيم.

(٢) الأسرة جمع سرار: وهي خطوط الجبهة، والعارض: السحاب يعترض في الأفق والمتהל: المتلألئ.

(٣) البائن: المفرط في الطول. والقَطَط: القصير الجعد وكان شعره عليه الصلاة والسلام بين الجمودة والسنوطة كما سيأتي بعد هذا. والجمة: الشعر المجموع على الرأس، وقيل الشعر مطلقاً. والصلت: الواسع. والأدعج: الشديد سواد العين في شدة بياضها والقنا: طول الأنف ودقة أرنبتها وحذب في وسطه. الفلاج: تباعد ما بين الشايات والرباعيات خلقة. ودارة النمر: هالته والحديث مذكور بنحوه في منتخب كنز العمال وقال: رواه ابن عساكر.

في وجهه . وكان صلى الله عليه وسلم مع هذا الحسن قد أُلقيت عليه المحبة والمهابة ،
فمن وقعت عليه عيناه أحبه وهابه ^(١) وكل الله سبحانه له مراتبَ الجمال ظاهراً
وباطناً . وكان أحسنَ خلق الله خَلْقاً وَخُلُقاً ، وأجملهم صورةً ومعنى . وهكذا
كان يوسف الصديق صلى الله عليه وسلم . ولهذا قالت امرأة العزيز للنسوة لما
ارْتَبَنَ إِيَّاه لِيُعْذِرَ نَفْسُهَا فِي حُبِّهِ : (قَدْ لَكِنَّ الَّذِي لُمْتُنْنِي فِيهِ) ^(٢) أى هذا
هو الذى فتنت به وشغفت بحبه ، فمن يلومنى على محبته وهذا حسن منظره ؟ ثم
قالت : (وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) ^(٣) أى فنع هذا الجمال ، فباطنه
حَسَنٌ مِنْ ظَاهِرِهِ ، فإنه في غاية العفة والنزاهة والبعد عن الخنا ، والمحبة وإن
غُيِبَ محبوبه فلا يجرى لسانه إلا بحسنة ومدحه . ويتعلق بهذا قوله تعالى في
صفة أهل الجنة : (وَلَقَدْ أَهْلُ الْجَنَّةِ نَقَرَةً وَسُرُوراً) ^(٤) فجعل ظواهرهم بالنضرة
وبواطنهم بالسرور ، ومثله قوله : (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) ^(٥)
فإنه لاشئ أشهى إليهم وأقرّ أعيونهم ، وأنعم لبواطنهم من النظر إليه ، فنصّر
وجوههم بالحسن ، ونعم قلوبهم بالنظر إليه . وقريب منه قوله تعالى : (وَحُلُّوا

(١) الحديث رواه الترمذى في الشمائل على غير هذا الوجه . الممنط : المفرط
الطول . والمتردد : الداخل بعضه في بعض ، وأما المنظم (أى الضخم) : التكثير
اللحم ، والمسكائم : المدور الوجه ، والمشرّب : الذى في بياضه حمرة ، والأهدب :
الطويل الأشفار ، المشاش : يريد رموس المناكب ، والكند : مجتمع الكتفين وهو
الكاهل ، والشثن : الغليظ الأصابع ، والمسربة : هو النمر الدقيق الذى كأنه
قضييب من الصدر إلى السرة ، والتقلع : أن يمشى بقوة ، والصبيب : الحدود .

(٢) الآية ٣٢ . سورة يوسف

(٣) الآية ٣٢ . سورة يوسف .

(٤) الآية ١١ . سورة الدھر .

(٥) الآيتان ٢٢ و ٢٣ . سورة القيامة .

أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ^(١) فهذا زينة الظاهر ثم قال : (وَسَقَاتُكُمْ رَبُّكُمْ شِرَابًا طَهُورًا)^(١) أى مُطَهَّرًا لبواطنهم من كل أذى . فهذا زينة الباطن . ويشبهه قوله تعالى : (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا)^(٢) فهذا زينة الظاهر ثم قال : (وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ)^(٣) فهذا زينة الباطن . وينظر إليه من طرف خفي قوله تعالى : (وَزَيْنَا أَلْسِمَاءَ أَلَدُنِيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا)^(٤) فزين ظاهرها بالمصابيح ، وباطنهما بحفظها من الشياطين . وقريب منه قوله تعالى : (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)^(٥) فذكر الزاد الظاهر والزاد الباطن . وهذا من زينة القرآن الباطنة المضافة إلى زينة ألفاظه وفصاحته وبلاغته الظاهرة . ومنه قوله تعالى لآدم : (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى)^(٦) فقابل بين الجوع والعُرَى دون الجوع والظمأ ، وبين الظمأ والضحى دون الظمأ والجوع ، فإن الجوع عُرَى الباطن وذُلُّه ، والعُرَى جوع الظاهر وذُلُّه . فقابل بين نفى ذلّ باطنه وظاهره ، وجوع باطنه وظاهره ، والظمأ حرّ الباطن ، والضحى حرّ الظاهر ، فقابل بينهما . وسئل المتنبي عن قول امرئ القيس :

كَأَنِّي لَمْ أُرْكَبْ جَوَادًا لِلذِّبْرِ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَعِيبًا ذَاتَ خَلَاخَالِ

-
- (١) الآية ٢١ . سورة الدهر .
 (٢) الآية ٢٥ . سورة الأعراف .
 (٣) الآية ١٢ . سورة فصلت .
 (٤) الآية ١٩٧ . سورة البقرة .
 (٥) الآيتان ١١٨ و ١١٩ . سورة طه .

ولم أسبِ الزُّقَّ الرُّوَّى ولم أقل خيلِي كُرِّي كُرَّةً بعد إجمال^(١)
 فقيل له: إنه عيب عليه مقابلة سبِّي الزُّقَّ الرُّوَّى بالسكر، وكان الأحسن
 مقابلته بتبطن الكاعب جمعاً بين اللذتين، وكذلك مقابلة ركوب الجواد للسكر
 أحسن من مقابلته لتبطن الكاعب فقال: بل الذي أتى به أحسن فإنه قابل
 مركوب الشجاعة بمركوب اللذة واللهو، فهذا مركب الطرب وهذا مركب
 الحرب والطلب، وكذلك قابل بين السبأين، سبأ الزُّقَّ وسبأ الرق.

قلت. وأيضاً فإن الشارب يفتخر بالشجاعة كما قال حسان:

ونشربها فتتركنا ملوكاً وأسدّاً ما يُتمُّهنَّما اللقاء^(٢)
 وهذه جملة اعتراضية من ألعاب الإعراض^(٣).

وقيل: الحسن ما استنطق أفواه الناظرين بالتسبيح والتهليل كما قيل:
 ذى طلعة سبجان فالق صبحه ومعاطف جلت دين الغارس
 وقال علي بن أبيهم:

طلعت فقال الناظرون إلى تصويرها ما أعظم الله
 ودنت فلما سلمت خجلت والتفت بالتفاح خنداها
 وكان دمع الرمل^(٤) أسفلها وكان غصن البان أعلاها

(١) سبأ الخمر واستبأها: شراها لشربها والسبأ: الخمر، والسبأ بتشديد الباء: بيعها. والروى: الكثير المروى والزق: وعاء من جلد يجر شعره ولا ياتف للشراب وغيره.

(٢) نهني فلاناً عن الشيء: كفه عنه وزجره. وهذا البيت قاله حسان قبل أن يسلم. ولم يشرب الخمر بعد إسلامه.

(٣) لعله يشير إلى أن ما ذكره من أمثلة النقابل ليست من مقصود الكتاب لكنها لا تخلو من فائدة يحلو بها الخطاب.

(٤) الدعص: قطعة من الرمل مستديرة.

حتى إذا ثَمَلَتْ بنشوتها قرأت كتاب الباه عيناها
وقال آخر :

ذو صورةٍ بشريّة قمرية تسنطق الأفواه بالتسييح
وقال آخر :

وإذا بدت في بعض حاجتها تسنطق الأفواه بالتسييح
وقال بشار :

تُلقي بتسيحةٍ من حسن ما خلقت وتستغز حشا الرائي بإرعاد
ولي من أبيات :

يا صورةَ البدر ولا الذي صورَ ليس البدرُ يحكيك
مُنَى عَلَى العَيْنِ ولا تبخلى بنظرةٍ فالعين تقدّيك
وإن تمجّجت لهذا فكم قد سبّح الرحمن رأييك
هذا بهذا فازتجى أجر من إن غبت عنه ظلّ يبيحك

قال ابن شبرمة : كفاك من الحسن أنه مشتق من الحسنة . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إذا تم بياض المرأة في حسن شعرها فقد تم حسنُها . وقالت عائشة رضى الله عنها : البياض شطر الحسن . وقال بعض السلف : جعل الله البهاء والهجوع مع الطول ، والدّهاء ، الدمامة مع القصر ، والخير فيما بين ذلك .

ومما يُدْخَلُ في النساء المرأة القصيرة الغليظة وهي التي عنها الشاعر بقوله :

وأنت التي حبيت كل قصيرة إلى ولم تشمر بذاك القصائر
عنيت قصيرات الحجال^(١) ولم أزد قصار النساء شر النساء البجائر

(١) الحجال جمع حجل : سائر كالقبة يزین بالثياب والستور للعروس .

والبحار: هن النساء القصار الغلاظ . وبعضهم يبالغ في هذا حتى يفضل
المهازيل على السمان .

أنشد الزمخشري :

لأعشق الأبيض المنفوخ من سمين لكنني أعشق السمر المهازيلا
إني امرؤ أركب المهر المضمّر في يوم الرهان فدعني واركب الفيلا
وطائفة تفضل السمان وتقول : السمن نصف الحسن ، وهو يستر كل عيب
في المرأة ويبدى محاسنها . وخيار الأمور أوساطها .

ومما يستحسن في المرأة طول أربعة^(١) وهن : أطرافها^(١) ، وقامتها ، وشعرها ،
وعنقها . وقصر أربعة : يدها ، ورجلها ، ولسانها ، وعينها^(٢) ، فلا تبذل مافي
بيت زوجها ، ولا تخرج من بيتها ، ولا تستطيل بلسانها . ولا تطمح بعينها .
وبياض أربعة : لونها ، وفرقها ، وثغرها ، وبياض عينها . وسواد أربعة :
أهدابها ، وحاجبها ، وعينها ، وشعرها . وحررة أربعة : لسانها ، وخذها ، وشفقتها
مع لفس^(٣) ، وإشراب بياضها بحمرة . ودقة أربعة : أفها ، وبنانها ، وخصرها ،
وحاجبها . وغلاظ أربعة : ساقها ، وممصمها ، وعجيزتها ، وذاك منها . وسعة
أربعة : جبينها ، ووجهها ، وعينها ، وصدرها . وضيق أربعة : فها ،
ومنخرها ، وخرق أذنها ، وذاك منها . فهذه أحق النساء بقول كثير :
لو أن عزة خاصمت شمس الضحى في الحسن عند موثق لقضى لها

(١) الأطراف هنا : البدان والرجلان .

(٢) لعله أراء بها المعاني لا الأعيان فلذا أعقبها بتفسير وبيان .

(٣) اللامس : سراد مستحسن في باطن الشفة .

وقال آخر :

لو أبصرَ الوجهَ منها وهو منهزمٌ ليلاً وأعداؤه من خلفه وقفا
وقال آخر :

يا طيبَ مرغى مُقلّةٍ لم تخفِ بوجنتينها زَجَرَ حُرّاس
حلت بوجهٍ لم يفيضَ ماؤه ولم تخضه أعينُ الناس^(١)
وقال آخر :

فلم يزل خدّها رُكنًا ألوذ به والخالُ في خدّها يغنى عن الحجر
وقول الآخر وأنشده المبرد :

وأحسنُ من ربعٍ ومن وصفِ دِمْنَةٍ ومن جَبَلٍ طَيٍّ ومن وصفكم سلماً^(٢)
تَلَاخُظُ عَيْنِي عاشقينَ كلاهما له مُقلّةٌ في خدٍ معشوقه ترغى
وأنشد ثعلب :

خُرَاعِيَةُ الأَطْرَافِ مُرِيَّةُ الحِشَا فَرَارِيَةُ العَيْنَيْنِ طَائِيَّةُ الفَمِ
وَمَكِّيَّةُ فِي الطَّيِّبِ وَالْعَطْرِ دَائِمًا تَبَدَّتْ لَنَا بَيْنَ الحَظِيمِ وَزَمَرٍ
ثم قال : وصفها بما يستحسن من كل قبيلة .

وقال صالح بن حسان يوماً لأصحابه : هل تعرفون بيتاً من الغزل في امرأة
خَفِرَةٍ ؟ قلنا : نعم بيتٌ لحاتم في زوجته ماوية :
يضيء لها البيتُ الظليلُ خصاصه^(٣) إذا هي يوماً حاولت أن تبسماً

(١) لم يفيض ماؤه : لم ينضب . وغاض الماء : غار وقل ونقص . ولم تخفله
الآعين : لم تتحمله .

(٢) الدمنة : آثار الدار أو الناس . وسلع : جبل في المدينة .

(٣) الخصاص جمع خصاصة : وهي الخرق أو الفرجة والخلل في الباب وغيره

قال : ما صنعتُم شيئاً ، قلنا : فبيتُ الأعشى :
 كانَ مِشيتَها من بيت جارتِها مرَّ السحابة لارِيتُ ولا عَجَل
 قال : جعلها تدخل وتخرج ، قلنا : يا أبا محمد ، فأى بيت هو ؟ قال : قول
 أبى قيس بن الأُسَلت : ..
 ويكرمها جارأتها فيزُرُها وتعتل عن إتيانِهن فتُعذَر
 قلت : وأحسن من هذا كله ما قاله إبراهيم بن محمد الملقَّب بنِفطَوَينَه
 رحمه الله :

وخبرها الواشون أن خيالها إذا نمت يُغشي مضجعى ووسادى
 فغفرها فرطُ الحياء فأرسلت تعيرنى غَضْبى بطول رقادى
 وما يستحسن فى المرأة رقة أديها^(١) ، ونعومة مَلَمَسه كما قال قيس بن ذريح :
 تعلق رُوحى رُوحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافاً^(٢) وفى المهد
 فزاد كما زدنا فأصبح نامياً فليس وإن متنا بمنقَصِ العهد
 والسكنه باني على كل حادثٍ ومؤنسنا فى ظلمة القبر واللحد
 يكاد مسيلُ الماء يخرش جلدُها إذا اغتسلت بالماء من رقة الجلد
 قلت : ومن المبالغة فى معنى البيت الأخير قولُ أبى نُوَاس :
 تَوَهَّمَهُ قَلْبى فَأَصْبَحَ خَدُّهُ وفيه مكانُ الوهم من نظرى أثرُ
 ومرَّ بِتَلْبى خاطرٌ فجرحتُهُ ولم أرَ جِسا قَطْ يخرجُه الفكرُ
 وصالحه كُفِّ فألمَ كَفَّهُ فن غمز كُفِّ فى أنامله عقر^(٣)

(١) أديها : جلدها .

(٢) جمع نطفة : ماء الرجل والمرأة . وهى أيضاً الماء الصافى قل أو كثر .

(٣) عقر : جرح .

ولى من أبيات :

يُدعى الحريرُ أديمًا من مَسّه فأديمًا منه أرقٌ وأنعم

فصل

. فيا أيها العاشق سمعه قبل طرفة فإن الأذن تعشق قبل العين أحيانًا ، وحيش
الحبة قد يدخل المدينة من باب السمع كما يدخلها من باب البصر . والمؤمنون
بشتاقون إلى الجنة وما رأوها ، ولو رأوها لكانوا أشدَّ لها شوقًا ، والصَّرورة^(١)
يكاد قلبه يذوب شوقًا إلى رؤية البيت الحرام . فإن شأقتك هذه الصفات وأخذت
بقلبك هذه الحاسن :

فاسمُ بعينيك إلى نِسْوَرةٍ مُهورُهنَّ العملُ الصالح
وحَدَّثَ النفسَ بعشق الألى في عشقهنَّ المتَجَرُّ الرابع
واجعلْ على الوصل فقد أمكنت أسبابه ووقته رائج

فصل

وقد وصف الله سبحانه حُورَ الجنة بأحسن الصفات ، وحلائهن بأحسن
الحلى ، وشوق الخطَّاب إليهن حتى كأنهم يرونهن رؤية العين . قال الطبراني :
حدثنا بكر بن سهل الديلمى . حدثنا عمرو بن هشام البيرونى ، حدثنا سليمان
ابن أبى كريمة ، عن هشام بن حسان ، عن الحسن ، عن أمه ، عن أمِّ سلمة رضى
اللهُ عنها قالت : قلت يارسول الله أخبرنى عن قول الله عزَّ وجلَّ : (حُورٌ
عِينٌ)^(٢) قال : « حُورٌ بِيضٌ ، عَيْنٌ ضِحَامُ أَلْعْيُون . شعر الحُوراء بِمَنْزِلَةِ

(١) الصرورة : الذى لم يحج .

(٢) الآية ٢٢ . سورة الواقعة .

جَنَاحِ النَّسْرِ» قلت : أخبرني عن قوله عز وجل : (كَذَٰلِكَ يُزَكِّيهِ اللَّهُ لِيُخْرِجَ مِنْهُ أَحْسَنَ مَثَلٍ) (١) . قال : « صفاؤهنَّ صفاء الذَّرِّ الذي في الأصداف الذي لم يَمَسَّهُ الأيدي » قلت : يارسول الله أخبرني عن قوله : (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ) (٢) . قال : « خَيْرَاتُ الْأَخْلَاقِ حِسَانُ الْوُجُوهِ » قلت : أخبرني عن قوله : (كَانَهُنَّ بَيْضٌ مَسْكُونٌ) (٣) . قال : « رِقَّتُهُنَّ كَرِقَّةِ الْجِلْدِ الذي رَأَيْتَ في داخل البيضة بما يلي القِشْرَ وهو الغَرَقِيُّ » . قلت : يارسول الله أخبرني عن قوله عز وجل : (عُرُبًا أَتْرَابًا) (٤) . قال : « هُنَّ اللّوَاتِي قُبُضْنَ في دار الدُّنْيَا عَجَازَ رُمْصًا شُطَطًا خَلَقَهُنَّ اللَّهُ بعد السَّكْبَرِ لِيُجْعِلَهُنَّ عَذَارَى عُرُبًا مُتَعَشِّقَاتٍ مُتَحَبِّبَاتٍ أَتْرَابًا على ميلاد واحد » . قلت : يارسول الله نساء الدُّنْيَا أَفْضَلُ أم الحُور الْعَيْنِ ؟ قال : « بل نساء الدُّنْيَا أَفْضَلُ من الحُور الْعَيْنِ كفضيل الظَّهارة عَلَى الْبَطَانَةِ » . قلت : يارسول الله وبِمِ ذَلِكْ ؟ قال : « بِصَلَاتِهِنَّ وَصِيَامِهِنَّ وَعِبَادَتِهِنَّ » اللَّهُ أَلْبَسَ اللَّهُ وُجُوهُهُنَّ النُّورَ ، وَأَجْسَادَهُنَّ الْحَرِيرَ ، بَيْضُ الْأَلْوَانِ ، خُضْرُ الثِّيَابِ . صُفْرُ الْحُلِيِّ ، يَجْلِمُهُنَّ الذَّرُّ ، وَأَمْشَاطُهُنَّ الذَّهَبُ يَقْلُنَّ : نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَمُوتُ ، نَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلَا نُبَاسُ أَبَدًا . نَحْنُ الْمَقِيَّاتُ فَلَا نَنْظَعُنْ أَبَدًا ، أَلَا وَنَحْنُ الرَّاغِبَاتُ فَلَا نَسْخَطُ أَبَدًا ، طُوبَى لِمَنْ كُنَّا لَهُ وَكَانَ لَنَا » قلت : يارسول الله المرأةُ مِنَّا تَتَزَوَّجُ الزَّوْجِينَ وَالثَّلَاثَةَ وَالْأَرْبَعَةَ ثُمَّ تَمُوتُ فَتَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَيَدْخُلُونَ مَعَهَا ، مَنْ يَكُونُ زَوْجَهَا ؟ قال : « يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهَا تُخَيَّرُ فَتُخْتَارُ أَحْسَنَهُمْ خُلُقًا فَتَقُولُ : أَيْ رَبِّ إِنْ هَذَا كَانَ أَحْسَنَهُمْ مَعِيَ خُلُقًا في دار الدُّنْيَا فَزَوِّجْنِيهِ ، يَا أُمَّ سَلَمَةَ ذَهَبَ

(١) الآية ٢٣ . سورة الواقعة .

(٢) الآية ٧٠ . سورة الرحمن .

(٣) الآية ٤٩ سورة الصافات .

(٤) الآية ٢٧ سورة الواقعة .

حسنُ الخُلُقِ بخيرى الدنيا والآخرة^(١) .

فصل

وقد وصفهنَّ الله عزَّ وجلَّ بأنَّهنَّ كواعب ، وهو جمع كاعِبٍ ، وهى المرأة التى قد تكعَّبَ نديها واستدار ولم يتدَلَّ إلى أسفل ، وهذا من أحسن خُلُقِ النساء ، وهو ملازمٌ لِسِنِّ الشباب . ووصفهنَّ بالْخُور وهو حسنُ ألوانهنَّ وبياضه ، قالت عائشة رضى الله عنها : البياضُ نصفُ الحسن . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إذا تمَّ بياضُ المرأة فى حسن شعرها فقد تمَّ حسنُها ، والعرب تمدح المرأة بالبياض . قال الشاعر :

بِيضٌ أوانسٌ ماهِمَنَ بريئةٍ كظباء مكة صَيِّدُهُنَّ حرامٌ
يُحْسِنُ من لِينِ الحديثِ زوانياً وَيَصُدُّهُنَّ عن الخُلُقِ الإسلامُ

والعينُ جمعُ عَيْنَاءٍ ، وهى المرأة الواسعة العين مع شدة سوادها وصفاء بياضها وطول أهدابها وسوادها . ووصفهنَّ بأنَّهنَّ خَيْرَاتٌ حسان وهو جمع خَيْرَةٍ ، وأصلها خَيْرَةٌ بالتشديد كطَبِيبَةٍ ثم خُفِّ الحرف ، وهى التى قد جَمَعَتِ الحسنَ ظاهراً وباطناً فكَمَّلَ خُلُقُها وخُلُقُها فهنَّ خيرات الأخلاق حسان الوجوه ، ووصفهنَّ بالطَّهارة فقال : (وَلَهُمْ فِيهَا أَرْوَاحٌ مُطَهَّرَةٌ) ^(٢) طَهُرْنَ مِنَ الْحَيْضِ وَالْبَوْلِ وَالنَّجْوِ ^(٣)

(١) ذكره المؤلف فى كتابه حادى الأرواح وعقب عليه بقوله : تفرد به سليمان بن أبى كريمة ضعفه أبو حاتم وقال ابن عدى : عامة أحاديثه منكبر ولم أر للتقدمين فيه كلاماً ، ثم ساق هذا الحديث من طريقه وقال : لا يعرف إلا بهذا السند .

(٢) الآية ٢٥ سورة البقرة . والآية ٥٦ بغير وار . سورة النساء .

(٣) التجو : ما يخرج من البطن من ريح وبغائط .

وكلٌّ أذى يكون في نساء الدنيا ، وطهرت بواطنهن من الغيرة وأذى الأزواج وتجنبن عليهم وإرادة غيرهم ، ووصفن بأنهن ممتصورات في الخيام ، أى ممنوعات من التبرج والتبذل لغير أزواجهن ، بل قد قصرن على أزواجهن لا يخرجن من منازلهم ، وقصرن عليهم فلا يردن سواهم ، ووصفن سبحانه بأنهن قاصرات الطرف ، وهذه الصفة أكمل من الأولى ، ولهذا كن لأهل الجنة الأولتين ، فالمرأة منهن قد قصرت طرفها على زوجها من محبتها له ورضاها به ، فلا يتجاوز طرفها عنه إلى غيره كما قيل :

أذودسوام الطرف^(١) عنك وماله على أحدي إلا عليك طريق

وكذلك حال المقصورات أيضاً لكن أولئك مقصورات ، وهؤلاء قاصرات ووصفن سبحانه بقوله : (أَبْكَاراً . عُرُباً أَتْرَاباً)^(٢) وذلك لفضل وطء البكر وحلاوته ولذا ذنه على وطء الثيب^(٣) . قالت عائشة رضي الله عنها : يارسول الله لو مررت بشجرة قد رعى منها وشجرة لم يرع منها ففى أيهما كنت ترزع بعيرك ؟ فقال : « فى التى لم يرع منها^(٤) » تعنى أنه لم يتزوج بكراً غيرها . وصح عنه أنه قال للبايع لما تزوج امرأة ثيباً : « هلا بكراً تلاعبيها وتلاعبك^(٥) » ؟ فإن قيل : فهذه الصفة تزول بأول وطء فتعود ثيباً ، قيل :

(١) سوام الطرف : النظر يحوم حولها .

(٢) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ . سورة الواقعة .

(٣) الثيب : تذكر وتؤنث . والرجل الثيب هو الذى دخل بامرأة ، والمرأة الثيب هى التى دخل بها .

(٤) أخرجه مسلم وأبو حاتم كما جاء فى مناقب أمهات المؤمنين السحب الطبرى . ورتعت البعير : أكلت ماشاءت .

(٥) رواه الشيخان وأبو دواد والترمذى والنسائى . كما جاء فى تيسير الوصول .

الجواب من وجهين : أحدهما أن المقصود من وطء البكر أنها لم تذق أحداً قبل وطئها فتزرع محبته في قلبها ، وذلك أكمل لدوام العشرة فهذه بالنسبة إليها ، وأما بالنسبة إلى الواطئ فإنه يرعى روضة أنفاً لم يرعها أحد قبله ، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله : (لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْفٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ)^(١) ثم بعد هذا تستمر له لذّة الوطء حال زوال البكارة . والثاني أنه قد روى « أن أهل الجنة كلما وطئ أحدُهم امرأة عادت بكراً كما كانت ، فكلما أتاها وجدها بكراً »^(٢) . وأما العُربُ فجمع عروب ، وهي التي جمعت إلى حلاوة الصورة حسن التأنى والتبخل والتعجب إلى الزوج بدلتها وحديثها وحلاوة منطقتها وحسن حركاتها ، قال البخاري في صحيحه : وأما الأتراك فجمع ترّب يقال : فلان ترّبي ، إذا كنتما في سن واحد ، فمن مستويات في سن الشباب لم يقصر بهن الصغر ، ولم يزربهنّ الكبر ، بل شئن سنّ الشباب . وشبههنّ تعالى باللؤلؤ المكنون ، وبالبيض المكنون وبالياقوت والمرجان . فخذ من اللؤلؤ صفاء لونه وحسن بياضه ونعومة ملمسه ، وخذ من البيض المكنون وهو المصون الذي لم تنله الأيدي اعتدال بياضه وشوّه بما يحسنه من قليل صفره ، بخلاف الأبيض الأملق^(٣) المتجاوز في البياض ، وخذ من الياقوت والمرجان حسن لونه في صفائه وإشراجه يسير من الحمرة .

﴿

(١) الآيتان ٥٦ و ٧٤ . سورة الرحمن .

(٢) رواه الطبراني في معجمه وسيأتي قريباً .

(٣) الأملق : الأبيض الناصع البياض بغسیر حمرة ، وهو معيب

في لون الإنسان .

فصل

فاسمع الآن وصفهم عن الصادق المصدوق ، فإن مالت النفس وحدتكم بالخطبة وإلا فالإيمان مدخول^(١) . فروى مسلم في صحيحه من حديث أيوب ، عن محمد بن سيرين قال : إما تفاخروا وإما تذاكروا ، الرجال في الجنة أكثر أم النساء ؟ فقال أبوهريرة رضى الله عنه : أو لم يقل أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى أَضْوَاءِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ امْتَلَأَتَا بِرُؤْيَى مُخِّ سَوْقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَغْرَبَ » .

وقال الطبراني في معجمه : حدثنا أحمد بن يحيى الحلواني والحسن بن علي القسوي قالا : حدثنا سعيد بن سليمان : حدثنا فضل بن مرزوق ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ صُورَةُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، وَالزُّمَرَةُ الثَّانِيَةُ عَلَى أَحْسَنِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِئَتَانِ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ عَلَى كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً يَرَى مُخِّ سَوْقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ الْحُومِ مِمَّا وَحَلَّاهُمَا كَمَا يَرَى الشَّرَابُ الْأَخْضَرُ فِي الزُّجَاجَةِ الْبَيْضَاءِ) . قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي : هذا عندى على شرط الصحيح .

(١) مدخول : داخله الفساد .

وفي الصحيحين من حديث همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلَا يَمْتَخِطُونَ فِيهَا وَلَا يَتَغَوَّطُونَ فِيهَا ، آتِيَهُمْ وَأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَتُجَارِمُهُمُ الْأُلُوءَةُ ^(١) وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مِنْهُمَا سَاقِيَهُمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحَسَنِ ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً » .

وقال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده : حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا الخضر بن عثمان السعدي ، حدثنا أبو أيوب مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قِيدُ سَوْطٍ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلُهَا مَعَهَا ، وَلَقَابُ قَوْسٍ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلُهَا مَعَهَا . وَلَنَصِيفُ امْرَأَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلُهَا مَعَهَا » قال : قلت : يا أبا هريرة وما النّصيف ؟ قال : الخمار فإذا كان هذا قدر الخمار فما قدر لابه ؟

وقال ابن وهب : أخبرنا عمرو أن دراجاً أبا السّمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الرَّجُلَ فِي الْجَنَّةِ لَتَأْتِيهِ امْرَأَةٌ تَضْرِبُ عَلَى مَنْكَبِهِ فَيَنْظُرُ وَجْهَهُ فِي خَدِّهَا أَمْنَى مِنَ الْبَرِّ آةٍ وَإِنْ أَذْنَى لُؤْلُؤَةٍ [عَلَيْهَا] لَتَضِيءَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِ فَيُرَدُّ [عَلَيْهَا] السَّلَامُ وَيَسْأَلُهَا مَنْ أَنْتِ فَتَقُولُ أَنَا

(١) الألوة : العود الهندى الذى يتبخر به . قال الاصمعي : أراها فارسية

المزِيدُ ، وإِنَّهُ لَيَسْكُونُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ ثَوْبًا أَذْنَاهَا مِثْلُ النِّعَانِ فَيَنْفِذُهَا
بَصَرَهُ حَتَّى يَرَى مَخَّ سَاقِيهَا مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ وَإِنَّ عَلَيْهِمُ التَّيْجَانَ وَإِنَّ أَذْنِي
لُؤْلُؤَةٍ عَلَيْهَا كَتُضَى مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ . وبعض هذا الحديث في
جامع الترمذى وهو على شرطه .

وفى صحيح البخارى من حديث أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال « لَعَذُوَّةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا
وَأَقَابُ^(١) قَوْسٍ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعُ قَيْدِهِ — يَعْنِي سَوَاطِئَهُ — خَيْرٌ مِنَ
الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَوْ أَطْلَعْتَ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ لَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا
رِيحًا وَأَضَاءَتِ مَا بَيْنَهُمَا وَلَنَصِيفُهُمَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » .

وفى المسند من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي
صلى الله عليه وسلم : « لِلرَّجُلِ مِنْ [أَهْلِ] الْجَنَّةِ زَوْجَتَانِ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ
عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً يَرَى مَخَّ سَاقِيهَا مِنْ وَرَاءِ الثِّيَابِ » .

وقال ابن وهب : حدثنا عمرو أن دراجاً أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم ،
عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنْ
أَذْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةٌ الَّتِي لَهُ ثِمَانُونَ أَلْفَ خَادِمٍ وَاثْنَانِ سَبْعُونَ زَوْجَةً
وَيُنْصَبُ لَهُ قُبَّةٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ وَيَأْقُوتُ كَمَا بَيْنَ الْجَابِيَةِ وَصَنْعَاءِ »
(رواه الترمذى) .

وفى معجم الطبرانى من حديث أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« خُلِقَ الْخُورُ الْعَيْنُ مِنَ الزَّعْفَرَانِ^(٢) » .

(١) قاب القوس : ما بين مقبضه وطرفه .

(٢) ذكره المؤلف فى كتابه حادى الأرواح بسند الطبرانى وقال : قال =

فصل

إِنْ أُرِدْتَ سَمَاعَ غَنَائِهِمْ فَاسْمَعْ خَبْرَهُ الْآنَ . فَنَفِي مَعْبِجِ الطَّبْرَانِي مِنْ حَدِيثِ
ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنْ أَرْوَجَ
أَهْلَ الْخَنَةِ لَيُعَنَّيَنَّ أَرْوَاجَهُنَّ بِأَحْسَنِ أَصْوَاتٍ مَا سَمِعَهَا أَحَدٌ قَطُّ . إِنْ رَمَى
يُعَنَّيَنَّ بِهِ : نَحْنُ الْخَيْرَاتُ الْحَسَنَاتُ ، أَرْوَاجُ قَوْمٍ كِرَامٍ ، يَنْظُرُونَ بِقُرَّةِ
أَعْيَانٍ . وَإِنْ رَمَى يُعَنَّيَنَّ بِهِ : نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَمُتُّهُ ، نَحْنُ الْآمِنَاتُ فَلَا
نَخَفَنَّهُ ، نَحْنُ الْمُقِيمَاتُ فَلَا نَطْعَمُهُ . وَقَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى . (فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ
يُخْبِرُونَ) ^(١) إِنَّهُ السَّمَاعُ الطَّيِّبُ وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مِنَ الْخَيْرَةِ .

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَغَوِيُّ : حَدَّثَنَا عَلِيٌّ ، أَنَا نَا زَهِيرٌ ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ ،
عَنْ عَاصِمٍ ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : (وَسِيقَ الَّذِينَ آمَنُوا رَبَّهُمْ إِلَى
الْجَنَّةِ زُمَرًا) ^(٢) حَتَّى إِذَا انْتَهَوْا إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهَا وَجَدُوا عَنْدهُ شَجَرَةً يُخْرِجُ
مِنْ تَحْتِهَا سَاقِيَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ، فَعَمَدُوا إِلَى إِحْدَاهَا فَكَأَنَّمَا أَمْرُوا بِهِ فَشَرَبُوا
مِنْهَا فَأَذْهَبَ اللَّهُ مَا فِي بَطُونِهِمْ مِنْ قَذَى أَوْ أَذَى أَوْ بَأْسٍ ، ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى
الْأُخْرَى فَتَطَهَّرُوا مِنْهَا فَجُرَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةُ النِّعَمِ ، وَلَمْ تَتَغَيَّرْ أَشْعَارُهُمْ بَعْدَهَا أَبَدًا
وَلَمْ تَتَشَعَثْ ^(٣) رُؤُوسُهُمْ كَأَنَّمَا أَذْهَنُوا بِالْدهَانِ ، ثُمَّ انْتَهَوْا إِلَى [خَزَنَةٍ] ^(٤)

== الطَّبْرَانِي : لَا يَرَوِي إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ ، تَفَرَّدَ بِهِ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ هَارُونَ ثُمَّ ذَكَرَهُ
مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى مَوْقُوفَةً وَقَالَ : وَلَا يَصِحُّ رَفْعُ الْحَدِيثِ وَحَسْبُهُ أَنْ يَصِلَ إِلَى
ابْنِ عَبَّاسٍ .

(١) الْآيَةُ ١٥ . سُورَةُ الرُّومِ .

(٢) الْآيَةُ ٧٣ . سُورَةُ الزُّمَرِ .

(٣) تَشَعَثَ : تَغَيَّرَ أَوْ تَلْتَفَتَ .

(٤) زِيَادَةُ مِنَ الزَّوْجَرِ لَا ابْنَ حَجَرٍ الْبَيْهَقِيِّ .

الجنة فقالوا : (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَبِيتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)^(١) ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما يطيف ولدان أهل الدنيا بالحييم ، يقدّم عليهم من غيبته فيقولون له : أبشر بما أعدّ الله تعالى لك من الكرامة ، ثم ينطلق غلامٌ من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول : جاء فلان باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا قالت : أنت رأيته ؟ قال : أنا رأيته وهو باثري فيستخف إحداهن الفرح حتى تقوم على أسكفة^(٢) بابها ، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جندل^(٣) اللؤلؤ فوقه صرّح أخضر وأحمر وأصفر من كل لون ، ثم رفع رأسه فنظر إلى سقفه فإذا مثل البرق ولولا أن الله عز وجل قدره لآلم^(٤) أن يذهب بصره ، ثم طأطأ رأسه فإذا أزواجه وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابي^(٥) مبثوثة ، ثم اتكأوا فقالوا : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ)^(٦) ثم ينادى مناد : تَحِيَّوْنَ فَلَا تَمُوتُونَ أَبَدًا ، وتقيمون فلا تظعنون أبدًا ، وتصيحون فلا تمرضون أبدًا^(٧) .

وفي سنن ابن ماجه عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَلَا هَلْ مُشِعَرٌ لِلْجَنَّةِ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا هِيَ وَرَبُّ السَّعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأَلُ وَرِيحَانَةٌ تَهْتَزُّ وَقَصْرٌ مُشِيدٌ وَنَهْرٌ مُطَرِدٌ وَكَمَرَةٌ

(١) الآية ٧٣ . سورة الزمر .

(٢) الأسكفة : عتبة الباب .

(٣) الجندل : الصنجر العظيم .

(٤) ألم : أوشك أن يذهب بصره .

(٥) النمارق : جمع نمرقة : الوسائد الصغيرة .

(٦) والزرابي : جمع زريبة : الطنافس المخملة والبسط .

(٧) الآية ٤٣ . سورة الأعراف .

(٨) جاء في الزواجر لابن حجر معزواً إلى ابن أبي الدنيا

نَضِيجَةً وَزَوْجَةً حَسَنَاءَ جَمِيلَةً وَحُلُلَ كَثِيرَةً وَمَقَامٌ فِي أَبَدٍ فِي دَارِ سَلِيمَةٍ
وَفَاكِهَةٍ وَخُضْرَةٍ وَحَبْرَةٍ وَنِعْمَةٍ فِي حُلَّةٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ». قالوا : نعم يا رسول الله ،
نحنُ المُشْمَرُونَ لها ، قال : « قولوا إن شاء الله » . فقال القوم : إن شاء الله
تعالى .

فصل

فهذا وصفهن وحسنهن فاسمع الآن لذة وصلهن وشأنه، ففي مسند أبي يعلى
الموصلى من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم فذكر حديثاً طويلاً وفيه : « فَأَقُولُ يَا رَبِّ وَعِدْتَنِي الشَّقَاعَةَ فَشَفَعْتَنِي فِي
أَهْلِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فيقول الله تعالى قد شَفَعْتُكَ وَأَذِنْتُ لَهُمْ فِي دُخُولِ
الْجَنَّةِ » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ
مَا أْتَمُّ فِي الدُّنْيَا بِأَعْرَفٍ بِأَزْوَاجِكُمْ وَمَسَاكِينِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِأَزْوَاجِهِمْ
وَمَسَاكِينِهِمْ فَيَدْخُلُ رَجُلٌ مِنْهُمْ عَلَى ثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِمَّا يُنْشِئُ اللَّهُ
وَيُثَنِّسِينَ مِنْ وَلَدِ آدَمَ أَهْمًا فَضَّلَ عَلَى مَنْ أَنْشَأَ اللَّهُ عِبَادَتَهُمَا اللَّهُ فِي الدُّنْيَا
يَدْخُلُ عَلَى الْأُولَى مِنْهُمَا فِي غُرْفَةٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ عَلَى سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلٍ
بِاللُّؤْلُؤِ عَلَيْهِ سَبْعُونَ زَوْجًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ وَإِنَّهُ لَيَضَعُ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهَا
ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى يَدِهِ مِنْ صَدْرِهَا وَمِنْ وَرَاءِ ثِيَابِهَا وَجِلْدِهَا وَلَحْيِهَا وَإِنَّهُ لَيَنْظُرُ
أَحَدُكُمْ إِلَى السَّلَكِ فِي قِصْبَةِ الْيَاقُوتِ كَيْدُهُ لَهَا مِرْآةٌ — يعنى وكَيْدُهُ لَهَا مِرْآةٌ —
فَبَيْنَا هُوَ عِنْدَهَا لَا يَمْلُكُهَا وَلَا تَمْلُهُ وَلَا يَأْتِيهَا مِنْ مِرَّةٍ إِلَّا وَجَدَهَا عَذْرَاءً مَا يَفْتَرُ
ذَكَرُهُ وَلَا يَسْتَكْبِي قُبْلُهَا. فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ نُودِيَ إِنَّا قَدْ عَرَفْنَا أَنَّكَ لَا تَمْلُ
وَلَا تَمْلُ إِلَّا أَنَّهُ لَا مَنَىَّ وَلَا مَنِيَّةَ إِلَّا أَنْ يَسْكُونَ لَكَ أَزْوَاجٌ غَيْرُهَا فَيَخْرُجُ
فَيَأْتِيَهُنَّ وَاحِدَةً وَاحِدَةً كُلَّمَا جَاءَ وَاحِدَةً قَالَتْ : وَاللَّهِ مَا فِي الْجَنَّةِ شَيْءٌ

أَحْسَنُ مِنْكَ وَمَا فِي الْجَنَّةِ شَيْءٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكَ ». وهذا قطعة من حديث الصور الطويل الذي رواه إسماعيل بن رافع^(١) .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضى الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ لَخَيِّمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ طَوَّلَهَا سِتُّونَ مِيلًا لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا ». رواه البخاري وقال : ثلاثون ميلاً .

وفي جامع الترمذي من حديث أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يُعْطَى الْمُؤْمِنُ فِي الْجَنَّةِ قُوَّةٌ كَذَا وَكَذَا مِنَ النَّسَاءِ » قلت : يارسول الله ويطلق ذلك ؟ قال : « يُعْطَى قُوَّةُ مِائَةٍ » قال : هذا حديث صحيح غريب .

وفي معجم الطبراني من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قيل : يارسول الله هل نَصِلُ إِلَى نِسَائِنَا فِي الْجَنَّةِ ؟ فقال : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَصِلُ إِلَى الْيَوْمِ إِلَى مِائَةِ عَذْرَاءٍ » وفي لفظ : قلنا يارسول الله ننْضِي إِلَى نِسَائِنَا فِي الْجَنَّةِ ؟ فقال : « إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْضِي فِي الْغَدَاةِ الْوَاحِدَةِ إِلَى

(١) ذكر المؤلف هذا الحديث في كتابه حادي الأرواح وقال : تفرد به إسماعيل بن رافع وقد روى له الترمذي وابن ماجه وضعفه أحمد ويحيى وجماعة . وقال الدارقطني وغيره : متروك الحديث ، وقال ابن عدى : عامة أحاديثه فيها نظر وقال الترمذي : ضعفه بعض أهل العلم وسمعت محمداً - يعنى البخارى - يقول : هو ثقة مقارب الحديث . وقال لى شيخنا أبو الحجاج الخافظ : هذا الحديث بمجموع من عدة أحاديث ساقه إسماعيل أو غيره هذه السياقة وما تضمنته معروف في الأحاديث والله أعلم . وذكر قطعة منه في موضع آخر من الكتاب وعقب عليها بهذا وزاد قوله : قلت : ولكن إذا روى مثل هذا ما يخالف الأحاديث الصحيحة لم يلتفت إلى روايته . وأيضاً فالرجل الذى روى عنه القرظى لا يدرى من هو .

مِائَةِ عَذْرَاءَ . قَالَ الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمُقَدِّسِيُّ : وَرَجَالُ هَذَا الْحَدِيثِ عِنْدِي عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحِ .

وَفِي حَدِيثٍ لَقِيطُ الْعَقِيلِ الطَّوِيلِ الَّذِي رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي السَّنَةِ وَغَيْرُهَا أَنَّهُ قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَوَلَنَا فِيهَا أَزْوَاجٌ مُصْلِحَاتٌ ؟ قَالَ : « الصَّالِحَاتُ لِلصَّالِحِينَ تَلْذُوهُنَّ مِثْلَ لَذَائِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَتَلْذُوهُنَّكُمْ غَيْرَ أَنْ لَا تَوَالِدَنَّ » .

وَذَكَرَ ابْنُ وَهْبٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ ، عَنْ دَرَّاجٍ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَبِيبَةَ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : أُنْعَمُ فِي الْجَنَّةِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ دَحْمًا دَحْمًا ^(١)) ، فَإِذَا قَامَ عَنْهَا رَجَعَتْ مُطَهَّرَةً بِكَرٍّ) . قَالَ الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ : دَرَّاجٌ اسْمُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَمْعَانَ الْمَصْرِي ، وَثَقَّهُ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ ؛ وَأَخْرَجَ عَنْهُ أَبُو حَاتِمٍ بْنُ حَبِيبَانَ فِي مَحَبِّهِ وَكَانَ بَعْضُ الْأُئِمَّةِ يَنْسِكِرُ بَعْضُ حَدِيثِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَفِي مَعْجَمِ الطَّبْرَانِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي التَّوَكُّلِ ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ التَّمُذَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (إِنْ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا جَامَعُوا نِسَاءَهُمْ عُدْنَ أَبْكَارًا) .

وَفِيهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ : هَلْ يَتَنَاكَحُ أَهْلُ الْجَنَّةِ ؟ فَقَالَ : (بَلَى كَرٍّ لَا يَمَلُّ وَشَهْوَةً لَا تَقْطَعُ دَحْمًا دَحْمًا) .

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ : أَيُّجَامَعُ أَهْلُ الْجَنَّةِ ؟ قَالَ : (دَحْمًا دَحْمًا وَلَسِكِنْ لَا مَنِيَّ وَلَا مَنِيَّةً) .

(١) جَاءَ فِي التَّامُوسِ الْمَحِيطِ : دَحْمٌ دَحْمًا : دَفْعُهُ شَلْدِيدًا . وَالْمَرَأَةُ : نِكَاحُهَا وَالِدَحْمٍ : الْأَصْلُ .

من قصيدة المؤلف في وصف الحور^(١)

يا خاطبَ الحور الحسن وطالبا لوصالهن : بجنة الحيتوان
لو كنت تدري من خطبت ومن طلبت بذلت ما تحوى من الأمان
أو كنت تعرف أين مسكنها جعلت السعى منك لها على الأجفان
أسرع وحث السير جهدك إنما مسراك هذا ساعة لزمان
فأعشى وحدث بالوصال النفس وابذل مهرها مادمت ذا إمكان
واجعل صيامك دون لقاءها ويوم الوصل يوم الفطر من رمضان
واجعل نفوت جمالها الحادى وسر نحو الحبيب واست بالمتوانى
واسمع إذن أوصافها ووصالها واجعل حديثك ربة الإحسان
يا من يطوف بكعبة الحسن التى حقت بذاك الحجر والأركان
ويظل يسعى دائما حول الصفا ومخسر مسعاه كل أوان
ويروم قربان الوصال على منى وانخيف يحجبه عن القربان
فلذا تراه محرمأ أبدا ومو ضع حلة منه فليس بدان
ينغى التمتع مفردا عن حبه متجردا ينغى شفيح قران
ويظل بالجزرات يرمى قلبه هذى مناسكه بكل زمان
والناس قد قضوا مناسكهم وقد حثوا ركاتهم إلى الأوطان
وحدث بهم همهم لهم وعزائم نحو المنازل ربة الإحسان
ورأوا على بفسد خياما مشرفا ل فشمروا يا خيبة الكسلان
فتيمموا تلك الخيام فأنسوا ت مشرقا نور والبرهان
فبين أقمارا بلا نقصان

(١) هى قطعة من قصيدة المؤلف فى السنة سماها : السكافية الشافية فى

الانتصار للفرقة الناجية .

من قاصرات الطرف لا تبغى سوى
 قصرت عليه طرفها من حسنه
 ويحار منه الطرف في الحسن الذى
 ويقول لما أن يشاهد حسنها
 والطرف يشرب من كؤوس جمالها
 كملت خلقتها وأكمل حسنها
 محبوبها من ضائر الشبان
 والطرف منه مطلق بأمان
 قد أعطيت فالطرف كالخيران
 سبحان معطى الحسن والإحسان
 فتراه مثل الشارب النشوان
 كالبدر ليل الست بعد ثمان

* * *

والشمس تجرى في محاسن وجهها
 فيظل يعجب وهو موضع ذلك من
 ويقول سبحان الذى ذا صنعه
 لا الليل يدرك شمسها فتغيب عنه
 والشمس لا تأتى بطرد الليل بل
 وكلاهما مرآة صاحبه إذا
 فبرى محاسن وجهه في وجهها
 حمر الخلدود تغورهن لآلى
 والبرق يبدو حين يبتسم ثغرها
 ريانة الأعطاف من ماء الشبا
 لما جرى ماء النعم بغصنها
 فالورد والتفاح والرمان في
 والقد منها كالقضيبي اللذن في
 في مفرس كالعاج تحسب أنه
 لا الظاهر يلحقه وليس ثديها
 والليل تحت ذوائب الأغصان
 ليل وشمس كيف يجتمعان
 سبحان متقن صنعة الإنسان
 لا الليل يدرك شمسها فتغيب عنه
 يتصاحبان كلاهما أخوان
 ماشاء يبصر وجهه يريان
 وترى محاسنها به بيمان
 سود العيون فواتر الأجفان
 فيضى سقف القصر بالجدران
 ب فغصنها بالماء ذو جريان
 حمل الثمار كثيرة الألوان
 غصن تعالى غارس البستان
 حسن القوام كأوسط القضبان
 على النقا^(١) أو واحد الكثنان
 بلواحق للبطن أو بدوان

(١) النقا: الكثيب من الرمل .

لَكِنَّهُنَّ كَوَاعِبٌ وَنَوَاهِدٌ فَتُدْرِيهِنَّ كَأَحْسَنِ الرُّمَانِ
 وَالْجِيدِ ذُو طُولٍ وَحَسَنِ فِي بَيَا ضٍ وَاعْتِدَالٍ لَيْسَ ذَا نَكْرَانِ
 يَشْكُو الْحِلْيُ بَعَادَهُ فَلَهُ مَدَى السَّيَّامِ وَشَمَاسٌ مِنَ الْهَجْرَانِ
 وَالْيَعْمَانِ فَإِنْ تَشَأْ شَبَّهْنَاهَا بِسَيِّكَتَيْنِ عَالِيَهُمَا كَفَّانِ
 كَالزُّبْدِ لَيْقًا فِي نَعُومَةِ مَلَهَسٍ أَصْدَافٌ دُرٌّ دُورَتِ بوزَانِ
 وَالصَّدْرُ مَتَسَعٌ عَلَى بَطْنٍ لَهَا وَالْخَصْرُ مِنْهُمَا مَغْرَمٌ بَثَانِ
 وَعَلَيْهِ أَحْسَنُ سُرَّةٍ هِيَ زِينَةُ اللَّبْطَانِ قَدْ غَارَتْ مِنَ الْأَعْيَانِ (١)
 حَقٌّ مِنَ الْعَاجِ اسْتِدَارٌ وَحَشْوُهُ حَيَّاتٌ مَسْكٌ جَلٌّ ذُو الْإِتْقَانِ
 وَإِذَا نَزَلَتْ رَأَيْتَ أَمْرًا هَائِلًا نَمًا لِلصِّفَاتِ عَلَيْهِ مِنَ السُّلْطَانِ
 لَا الْحَيْضُ يَغْشَاهُ وَلَا بَوْلٌ وَلَا شَيْءٌ مِنَ الْآفَاتِ فِي النَّسْوَانِ
 فَخِذَانِ قَدْ حَفَّاهُ حَرَسًا لَهُ لُجْنَابُهُ فِي عَزَّةٍ وَصِيْبِيَانِ
 قَامَا بِمُخْدَمَتِهِ هُوَ السُّلْطَانُ يَسْنِيَهُمَا وَحَقٌّ طَاعَةُ السُّلْطَانِ
 وَهُوَ الْمَطَاعُ إِذَا هُوَ اسْتَدْعَى الْحَيِّيبَ أَتَاهُ طَوْعًا وَهُوَ غَيْرُ جَبَانِ
 وَجَاعُهَا فَهُوَ الشِّفَاءُ لَصَبِهَا فَالْصَّبُّ مِنْهُ لَيْسَ بِالضَّجْرَانِ
 وَإِذَا أَتَاهَا عَادَتِ الْحَسَنَاءُ بِكَرٍّ أَمْثَلِ مَا كَانَتْ مَدَى الْأَزْمَانِ
 وَهُوَ الشَّيْءُ الَّذِي هَكَذَا قَالَ الرَّسُولُ لِمَنْ لَهُ أُذُنَانِ
 يَارَبِّ غَفَرًا قَدْ طَلَعَتْ أَقْلَامُنَا يَارَبِّ مَعْذَرَةً مِنَ الطُّغْيَانِ
 أَقْدَامُهَا مِنْ فُضَّةٍ قَدْ رُكِّبَتْ مِنْ فَوْقِهَا سَاقَانِ مَلْتَفَانِ
 وَالسَّاقُ مِثْلُ الْعَاجِ مَلْعُومٌ بِهِ مُنْخُ الْعِظَامِ تَنْسَالُهُ الْعَيْنَانِ
 وَالرَّيْحُ مِثْلُ الْجَسُومِ نَوَاعِمُ وَاللَّوْنُ كَالْيَاقُوتِ وَالْمَرْجَانِ
 وَكَلَامُهَا يَسْبِي الْعُقُولَ بِنَعْمَةٍ زَادَتْ عَلَى الْأَوْتَارِ وَالْعِمْدَانِ
 وَهِيَ الْعَرُوبُ بِشَكْلِهَا وَبَدَلَهَا وَتَحْبُّبُ الزَّوْجِ كُلِّ أَوَانِ

(١) جمع عكته : الطى الذى فى البطن من السمن .

أترابُ سين* واحداً متمايلاً سنُ الشباب لأجل الثُّبَانِ
بكره فلم يأخذ بكارتها سوى ١١ محبوب من إيس ولا من جان
يُعطي المُجاميعُ قُوَّةَ المائة التي اِج تمت لأقوى واحد الإنسان
ولقد أتاها أنه يَغشى بيو م واحداً مائةً من النسوان
ورجاله شرط الصحيح رَوَوْا لهم فيه وذا في معجم الطبراني
وبذاك فُسر شغلهم في سورة من بعد فاطر^(١) يا أبا العرفان
* * *

هذا دليلٌ أن قدر نساءهم متفاوتٌ بتفاوتِ الإيمان
وبه يزول توهم الإشكال عن تلك النصوص بمنة الرحمن
في بعضها مائةٌ أتى وأتى بها سبعون أيضاً ثم جائتَنتان
فتفاوتُ الزوجات مثلُ تفاوتِ ١١ درجات فالأمران مختلفان
وبقوة المائة التي حصلت له أفضى إلى مائة بلا خوران
وأعظم في هذه الدنيا هو ١١ أقوى هناك لزهده في الثاني
فاجمع قواك لما هنا وغضَّ مة لك الطرف واصبر ساعةً لزمان
ما هاهنا والله ما يسوى قَلاً مة ظفر^(٢) واحداً من النسوان
ونصيفها خيرٌ من الدنيا وما فيها إذا كانت من الأمان
لا تُؤثر الأذى على الأعلى فإن تفعل رجعت بذلة وهوان
وإذا بدت في حلةٍ من لبسها وتمايلت ككتايل النسوان
تهتز كالغصن الرطيب وحله وردت وتفتح على رُمان
وتبخترت في مشيها ويمحق ذا ك لئلاها في جنة الرضوان

(١) يشير إلى قوله تعالى في سورة يس: (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون) فقد فسر كثير من السلف الشغل في هذه الآية بافتضاض الأبكار .
(٢) قلامة الظفر : ما سقط منه .

ووصائفُ من خلفها وأمامها
كلبدر ليلةً تمَّ قد حُفَّ في
فلسانهُ وفؤادهُ والطرفُ في
تستهلِق الأفواهَ بالتسبيحِ إذ
والقلب قبل زفافها في عُرْسِهِ
حتى إذا واجهته تقابلا
لسل المتَّيم هل يحلَّ الصبرُ عن
وسل المتَّيم أين خلف صبره
وسل المتَّيم كيف حاله وقد
من منطلق رقت حواشيه ووجَّ
وسل المتَّيم كيف عيشته إذا
يتساقطان لآلئاً منشورةً
وسل المتَّيم كيف مجلسه مع آل
وتدور كاساتُ الرحيق عليهما
يتنازعان الكأسَ هذا مرةً
فيغلبها وتضمه أرايت مَع
غاب الرقيبُ وغاب كلُّ منكدرٍ
أتراها ضَجَرين من ذا العيش لا
لعاشقا هانت عليه نفسه
أترى يليق بماقل بيعُ الذي

وعلى شائلهما وعن أيما
غَسِق الدُّجى بكوا كب الميزان^(١)
دهش وإعجاب وفي سبحات
تبدو فسبحات العظيم الشأن
والعرس إثر العرس متصلان
أرايت إذ يتقابل القمران
ضمَّ وتقبل وعن فئات
في أيٍّ وادٍ أم بأيٍّ مكان
ملئت له الأذنان والعينان
كم به للشمس من جرَّان
وها على فرشيهما خلوات
من بين منظوم كنظامُ جمان^(٢)
محبوب في رُوح وفي ريمان^(٣)
بأ كف أثمارٍ من الولدان
والخود أخرى ثم يتكلمان
شوقين بعدد البعد يلتقيان
وها بثوب الوصل مشتملان
وحياة ربك ماها ضجران
إذ باعها غبناً بكل هوان
يبقى - وهذا وصفه - بالفاني

(١) (النسق : أول ظلمة الليل . والدجى : الظلمة .

(٢) جمع جمانة نسبةً لعمل من النصرة كالدرجة .

(٣) روح وريمان : في راحة وترحم (رحمة) .

الباب العشرون

في علامات المحبة وشواهدا

وقبل الخوض في ذلك لابد من ذكر أقسام النفوس ومحابها فنقول :
النفوس ثلاثة : نفس سماوية عُلوية ، فحبها منصرفة إلى المعارف
واكتساب الفضائل والكمالات الممكنة للإنسان واجتناب الرذائل ، وهي
مشغوفة بما يقرّبها من الرقيق الأعلى ، وذلك قوتها وغذاؤها ودواؤها ، فاشتغالها
بغيره هو دأؤها .

ونفس سَبعية غضبية ، فحبها منصرفة إلى القهر والبغى والعلو في الأرض
والتكبر والرئاسة على الناس بالباطل ، فلنتها في ذلك وشغفها به .

ونفس حيوانية شهوانية ، فحبها منصرفة إلى المأكل والمشرب والمنكح ،
وربما جمعت الأمرين فانصرفت محبتها إلى العلو في الأرض والفساد كما قال الله
تعالى : (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً
مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)^(١) .

وقال في آخر السورة : (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ
عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)^(٢) ، والحب في هذا العالم
دائر بين هذه النفوس الثلاثة ، فأى نفس منها صادفت ما يلائم طبعتها
استحسنته ومالت إليه ولم تصنع فيه لعاذل ولم تأخذها فيه لومة لائم . وكل قسم

من هذه الأقسام يرون أن ما هم فيه أولى بالإثارة ، وأن الاشتغال بشيئه والإقبال على شواه غيب وفوات حظ . فالنفس السماوية بينها وبين الملائكة والرفيق الأعلى مناسبة طبعية بها مالت إلى أوصافهم وأخلاقهم وأعمالهم .

فالملائكة أولياء هذا النوع في الدنيا والآخرة ، قال الله تعالى : (إِنْ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّكَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَكْفُرُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأُبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ)^(١) .

فالملاك يتولى من يناسبه بالنصح له والإرشاد والتثبیت والتعليم وإلقاء الصواب على لسانه ، ودفع عدوه عنه ، والاستغفار له إذا زلَّ ، وتذكيره إذا نسي ، وتسليته إذا حزن ، وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف ، وإيقاظه للصلاة إذا نام عنها ، وإبعاد صاحبه بالخير ، وحضه على التصديق بالوعد ، وتحذيره من الركون إلى الدنيا ، وتقصير أمله وترغيبه فيما عند الله . فهو أُنيسه في الوحدة ، ووليّه ومعلمه ومثبتّه ومسكن جأشه ، ومرغبه في الخير ، ومحذره من الشر ، يستغفر له إن أَسَاءَ ، ويدعوه بالثبات إن أحسن ، وإن بات طاهراً يذكر الله بات معه في شعاره^(٢) ، فإن قصده عدوه بسوء وهو نائم دفعه عنه .

(١) الآيات ٣٠ و ٣١ و ٣٢ سورة فصلت .

(٢) الشعار : ماتحت الدثار من اللباس وهو ما يلبس الجسد . وشعائر الحج مناسكه وعلاماته .

فصل

والشياطين أولياء النوع الثانى يخرجونهم من النور إلى الظلمات . قال الله تعالى : (تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ) (١) وقال تعالى : (كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ) (٢) وقال تعالى : (وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرًا مُّبِينًا . يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا . أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ جَنَّةٌ وَلَا يَمْدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا) (٣) ، وقال تعالى : (وَإِذَا قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ الظَّلَامِينَ بَدَلًا) (٤) .

فهذا النوع بين نفوسهم وبين الشياطين مناسبة طَبِيعِيَّةٌ ، بها مالت إلى أوصافهم وأخلاقهم وأعمالهم ، فالشياطين تتولاها بضد ما تتولى الملائكة لمن ناصبهم ، فتؤزّمهم إلى المعاصى أَرْأَ ، وترجمهم إليها ازعاجاً لا يستقرّون معه ويزينون لهم القبايح ويخففونها على قلوبهم ويُحَوِّنُهَا فِي نَفْسِهِمْ ، ويتقلّون عليها الطاعات وَيُثَبِّطُونَهُمْ (٥) عنها وبقبحونها في أعينهم ، ويلقون على ألسنتهم أنواع القبيح من الكلام وما لا يفيد ، ويزينونه في أسماع من يسمعه منهم ،

(١) الآية ٦٣ . سورة النحل .

(٢) الآية ٤ . سورة الحج .

(٣) الآيات ١١٨ و ١١٩ و ١٢٠ . سورة النساء .

(٤) الآية ٥٠ . سورة الكهف .

(٥) ثبطه عن الامر ببطاً وثبيطاً : عوقه وبطأ به عنه ؛ وفمره الجوهرى

بشغله عنه . ومنه قوله تعالى : (ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم) .

يَبْتَغُونَ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَيَقِيلُونَ^(١) مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَيُشارُ كُونَهُمْ فِي أُمُومِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَنَسَائِهِمْ ، يَأْكُلُونَ مَعَهُمْ ، وَيَشْرَبُونَ مَعَهُمْ ، وَيَجَامَعُونَ مَعَهُمْ ، وَيَنَامُونَ مَعَهُمْ ، قَالَ تَعَالَى : (وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا)^(٢) وَقَالَ تَعَالَى : (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَلَهُمْ لِيُصِدُّوهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ . حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ يَا لَيْتَ بَنِيَّ وَبَيْنَكَ بَعْدَ التَّسْرِيقِ فَيُبْسِ الْقَرِينُ)^(٣) .

فصل

وأما النوع الثالث فهم أشباه الحيوان ، ونفوسهم أرضية سفلية لا تبالى بغير شهواتها ولا تريد سواها . إذا عرفت هذه المقدمة فعلامات المحبة قائمة في كل نوع بحسب محبوبه ومراده ، فمن تلك العلامات تعرف من أى هذه الأقسام هو ، فنذكر فصولاً من علامات المحبة التي يُستدلُّ بها عليها :

فمنها : إدمانُ النظر إلى الشيء وإقبال العين عليه ، فإن العين بابُ القلب وهي المعبّرة عن ضمائره والكاشفة لأسراره . وهي أبلغ في ذلك من اللسان ، لأن دلالتها حالية بغير اختيار صاحبها ، ودلالة اللسان لفظية تابعة لقصده ، فترى ناظر المحب يدور مع محبوبه كيف ما دار ، ويجول معه في النواحي والأقطار كما قال :

أَذُودُ سَوَامِ الطَّرْفِ عَنْكَ وَمَالَهُ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَيْكَ طَرِيقٌ

(١) قال يقيّل قِيلاً وقِيلولة : نام واستراح وقت القيلولة وهي نصف النهار .

(٢) الآية ٣٧ . سورة النساء .

(٣) الآيات ٣٦ و ٣٧ و ٣٨ . سورة الزخرف .

بل الحب في عين الخبـرب تمثاله ، كما في قلبه شخصه ومثاله كما قيل :
ومن تجب أنى أحن إليهم وأسأل عنهم من آتيت وهم معي
وتطالبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي
فالمحب نظره وقف على محبوه كما قال :
إن يحببوها عن العيون فقد حجبت عيني لها عن البشر

فصل

ومنها : إغضاؤه عند نظر محبوه إليه ورميه بطرفه نحو الأرض ، وذلك من
مهابته له ، وحيائه منه وعظمته في صدره ، ولهذا يستهجن الملوك من يخاطبهم وهو
يُحمد^(١) النظر إليهم ، بل يكون خافض الطرف إلى الأرض . قال الله تعالى مخبراً
عن كمال أدب رسوله في ليلة الإسراء : (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)^(٢) وهذا
غاية الأدب ، فإن البصر لم يزغ يمينا ولا شمالاً ، ولا طمَحَ متجاوزاً إلى ما هو
رائيه ومقبلٌ عليه كالتشّارف^(٣) إلى ما وراء ذلك ، ولهذا اشتدّ نهى النبي صلى
الله عليه وسلم للمصلي أن يزغ بصره إلى السماء ، وتوعدهم على ذلك بخطف
أبصارهم ، إذ هذا من كمال الأدب مع من المصلي واقف بين يديه ، بل ينبغي له
أن يقف ناكس الرأس مطرقاً إلى الأرض ، ولولا أن عظمة رب العالمين
سبحانه فوق سماواته على عرشه ، لم يكن فرق بين النظر إلى فوق أو
إلى أسفل .

(١) أحد النظر إليه : نظر متأملاً .

(٢) الآية ١٧ . سورة النجم .

(٣) المتشّارف : المتطلع .

فصل

ومنها : كثرة ذكر المحبوب واللَّحَج^(١) بذكره وحديثه ، فمن أحب شيئا أكثر من ذكره بقلبه ولسانه . ولهذا أمر الله سبحانه عباده بذكره على جميع الأحوال ، وأمرهم بذكره أخوف ما يكونون فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)^(٢) والمحبون يفتخرون بذكرهم أحبابهم وقت الخاف ومُلاقاة الأعداء كما قال قائلهم :

ذَكَرْتُكَ وَالْخَطِيئَةُ يَخْطُرُ بَيْنَنَا وَقَدْ نَهَيْتُمُنَا الْمُنْفَقَةَ^(٣) السُّمُرُ

وقال آخر :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرَّمَاحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بَرٍّ فِي لَبَابِ الْأَدَمِ^(٤)
فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لِأَنَّهَا بَرَقَتْ كَبَارِقِ ثَغْرِكَ اللَّتَبَسَمِ
وفى بعض الآثار الإلهية : إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو مُلاقٍ قِرْنَه ، فعلامة المحبة الصادقة ذكرُ المحبوب عند الرغب والرهب . وقال بعض المحبين فى محبوبه :

يَذْكُرُنِيكَ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ وَالَّذِى أَخَافُ وَأَرْجُو وَالَّذِى أَتَوَقَّعُ

(١) اللّحج بالشئ : الولوج به . ولحج به : أغرى به فتأبر عليه .

(٢) الآية ٤٦ - سورة الأنفال .

(٣) الخطى : الرماح ، والثقاف : ما تسوى به الرماح .

(٤) فى رواية أخرى .

... والرماح نواهل منى وببيض الهند تنقطر من دى

والشطن : الحبل الطويل يستقى به من البئر أو تشد به الدابة . واللبان : ماجرى

عليه اللب من الصدر . وموضع القلادة .

ومن الذكر الدّالّ على صدق المحبة سبق ذكر المحبوب إلى قلب المحبّ
ولسانه عند أول يقظة من منامه ، وأن يكون ذكره آخر ما ينام عليه كما
قال قائلهم :

آخر شيء أنت في كل هَجَعَةٍ وأوّل شيء أنت وقت هُبُوبِي^(١)

وذكر المحبوب لا يكون عن نسيان مستحکم فإن ذكره بالقوّة في نفس
المحبّ ، ولكن لضيق الحل به يردّ عليه ما يُغيب ذكره ، فإذا زال الوارد عاد
الذكر كما كان ، وأعلى أنواع ذكر الحبيب أن يحبس المحبّ لسانه على ذكره ،
ثم يحبس قلبه على لسانه ، ثم يحبس قلبه ولسانه على شهود مذكوره . وكما أن
الذكر من نتائج الحبّ فالحبّ أيضاً من نتائج الذكر ، فكل منهما يثمر الآخر ،
وزرع المحبة إنما يُسقى بماء الذكر ، وأفضل الذكر ما صدر عن المحبة .

فصل

ومن علاماتها الانتقيادُ لأمر المحبوب وإيثاره على مراد المحبّ ، بل يتحدّ
مرادُ المحبّ والمحبوب . وهذا هو الاتحاد الصحيح لا الاتحاد الذي يقوله إخوان
النصارى من الملاحدة ، فلا اتحاد إلّا في المراد ، وهذا الاتحاد علامة المحبة الصادقة
بحيث يكون مراد الحبيب والمحبّ واحداً ، فليس بحبّ صادق من له إرادة
تخالف مراد محبوبه منه ، بل هذا مریدٌ من محبوبه لامریدٌ له ، وإن
كان مریداً له فليس مریداً لمراده . فالحبّون ثلاثة أقسام : منهم من يريد من
المحبوب ، ومنهم من يريد المحبوب ، ومنهم من يريد مراد المحبوب مع إرادته
للمحبوب . وهذا أعلى أقسام المحبّين . وزهدُ هذا أعلى أنواع الزهد ، فإنه قد

(١) الهجعة : نومة خفيفة من أول الليل . وهجع : نام ليلاً . والمحبوب :
الاستيقاظ والانتباه : وهب الرجل من نومه : أُنْتَبَه واستيقظ .

زهد في كل إرادة تخالف مراد محبوبه ، وبين هذا وبين الزهد في الدنيا أعظم مما بين السماء والأرض . فالزهد خمسة أقسام : زهد في الدنيا ، وزهد في النفس ، وزهد في الجاه والرئاسة ، وزهد فيما سوى المحبوب ، وزهد في كل إرادة تخالف مراد المحبوب . وهذا إنما يحصل بكمال المتابعة لرسول الحبيب .

قال الله تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)^(١) فجعل سبحانه متابعة رسوله سبباً لحبهم له ، وكون العبد محبوباً لله أعلى من كونه محباً لله ، فليس الشأن أن تحب الله ولكن الشأن أن يحبك الله . فالطاعة للمحبيب عنوان محبته كما قيل :

تعى الإله وأنت تزعم حبه هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن الحب لمن يحب مطيع

فصل

ومن علاماتها قلة صبر المحب عن المحبوب ، بل ينصرف صبره إلى الصبر على طاعته، والصبر عن معصيته، والصبر على أحكامه، فهذا صبر المحب ، وأما الصبر عنه فصبر الفارغ عن محبته، المشغول بغيره قال :

والصبر يُحمّد في المواطن كلها وعن الحبيب فإنه لا يُحمّد
فمن صبر عن محبوبه أدّى به صبره إلى فوات مطلوبه . وقال بعض
الحبيّين :

ما أحسن الصبر وأما على أن لا أرى وجهك يوماً فلا
لو أن يوماً منك أو ساعة تباع بالدنيا إذا ما غلا

(١) الآية ٣١ . سورة آل عمران .

فصل

ومنها : الإقبال عَلَى حديثه وإلقاء سمعه كله إليه ، بحيث يفرغ لحديثه سمعه وقلبه ، وإن ظهر منه إقبالٌ عَلَى غيره فهو إقبالٌ مستعارٌ يستبين فيه التكافؤ لمن يَرْمُقُهُ كما قال :

وأديم لَحْظٍ مَحْدَثٍ ليرى أن قد فهمت وعندكم عقلى
فإن أعوزه حديثه بنفسه فأحبُّ شىء إليه الحديثُ عنه ، ولا سيما إذا
حدث عنه بكلامه فإنه يقيمه مقامَ خطابه كما قال القائل : المحبون لاشىء أَلَدَّ لهم
ولقلوبهم من سماع كلام محبوبهم وفيه غاية مطلوبهم ، ولهذا لم يكن شىء أَلَدَّ
لأهل المحبة من سماع القرآن ، وقد ثبت فى الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه
قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرأْ عَلَىَّ ، قلت : أقرأُ عليك
وعليك أنزل ؟ قال : إني أحبُّ أن أَسْمَعُ مِنْ غَيْرِي ، فقرأت عليه من أول
سورة النساء حتى إذا بلغت قوله تعالى : (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً) ^(١) قال : حَسْبُكَ الآنَ ، فرفعت رأسى فإذا
عيناه تَذَرِفَانِ » ^(٢) . وكان أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا
أسروا قارئاً أن يقرأ وهم يستمعون ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا دخل عليه
أبو موسى يقول : يا أبا موسى ذكرنا ربنا ، فيقرأ أبو موسى وربما بكى عمر .

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى موسى رضى الله عنه وهو يصلى
من الليل فأعجبته قراءته فوقف واستمع لها ، فلما غدا على رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال : « لَقَدْ مَرَرْتُ بِكَ الْبَارِحَةَ وَأَنْتَ تَقْرَأُ فَوَقَفْتُ وَاسْتَمَعْتُ

(١) الآية ٤٠ . سورة النساء .

(٢) رواه البخارى ومسلم فى الصحيحين

لِقِرَاءَتِكَ ، فقال لو أعلم أنك كنت تسمع لحبّرتك لك تحبيراً^(١) والله سبحانه وهو الذى تسكلم بالقرآن يأذن ويستمع للقارىء الحسن الصوت من محبته لسماع كلامه منه كما قال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُ أَشَدُّ أَذْناً إِلَى التَّارِىءِ الْحَسَنِ الصَّوْتِ مِنْ صَاحِبِ الْقِيَمَةِ إِلَى قِيَمَتِهِ »^(٢) — والأذنُ بفتح الهمزة والذال مصدر أذِنَ يَأْذَنُ : إذا استمع . قال الشاعر :

أيها القلبُ تَعَلَّلْ بِدَعْنِ^(٣) إنَّ قلبي في سماعٍ وَأَذْنِ

وقال صلى الله عليه وسلم : « زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ »^(٤) وغلط من قال : إن هذا من المقلوب وإن المراد زينوا أصواتكم بالقرآن . فهذا وإن كان حقاً فالمراد تحسين الصوت بالقرآن . وصح عنه أنه قال : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ »^(٥) وهم من فسر به بالغنى الذى هو ضد الفقر من وجوه : أحدها : أن ذلك المعنى إنما يقال فيه استغنى لا تغنى . الثانى : أن تفسيره قد جاء فى نفس الحديث يحبر به هذا لفظه قال أحمد : نحن أعلم بهذا من سفيان وإنما هو تحسين الصوت به يحسنه ما استطاع . الثالث : أن هذا المعنى لا يتبادر إلى الفهم من إطلاق هذا اللفظ ولو احتمله ، فكيف وبنية اللفظ لا تحتمله كما تقدّم . وبعد هذا فإذا كان من التغنى بالصوت فقيه معنيين : أحدهما : يجعله له مكان الغناء

(١) أخرجه مسلم وأخرجه أبو يعلى بزيادة كما قال ابن حجر العسقلانى . وحبره : زينه وبنمته .

(٢) رواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم والبيهقى فى الشعب . كما قال السيوطى .

(٣) الددن : اللو واللعب .

(٤) أخرجه البخارى تعليقاً فى الصحيح وأخرجه فى خلق أفعال العباد وأخرجه أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه والدارمى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما والدارقطنى والبخارى وأحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم . كما قال السيوطى .

(٥) رواه البخارى وأحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم . كما قال السيوطى .

لأحبه من محبته له ولمحبه به كما يحب صاحب الغناء لغناؤه ، والثاني : أنه يزينه بصوته ويحسنه ما استطاع كما يزين المتغنى غناؤه بصوته ، وكثير من المحبين ماتوا عند سماع القرآن بالصوت الشجي ، فهو لاء قتلى القرآن ، لا قتلى عشاق المردان^(١) والنسوان .

فصل

ومنها: محبة دار المحبوب وبيته حتى محبة الموضع الذي حل به ، وهذا هو السر الذي لأجله علقت القلوب على محبة الكعبة البيت الحرام ، حتى استطاب المحبون في الوصول إليها هجر الأوطان والأحباب . ولذا لم فيها السفر الذي هو قطعة من العذاب . فركبوا الأخطار ، وجابوا المفاوز والفقر ، واحتملوا في الوصول غاية المشاق ، ولو أمكنهم لسعوا إليها على الجفون والأحداق .
نعم أسعى إليك على جفوني وإن بعدت لمسراك الطريق
وسر هذه المحبة هي إضافة الرب سبحانه له إلى نفسه بقوله : (وَظَهَرَ يُتَقَى
لِلطَّائِفِينَ)^(٢) .

قال الشاعر :

لما انتسبت إليك صرتُ معظماً وعلوتُ قدراً دون من لم يُنسب
وكلُّ ما نسب إلى المحبوب فهو محبوب (وأنه لما قام عبدُ الله يدعوه)^(٣)
(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)^(٤) (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ)^(٥)

(١) جمع أمرد: الغلام الذي طر شاربه وبلغ خروج لحيته ولم تبد .

(٢) الآية ٢٦ . سورة الحج .

(٣) الآية ١٩ سورة الجن .

(٤) أول سورة الإسراء .

(٥) أول سورة الفرقان .

(وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) ^(١) ومن فهم هذا فهم معنى قوله تعالى: (بيدك الخير) ^(٢) وقول عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم: «لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك» ^(٣) وإذا كان من يحبّ الله قوامه مثله يحبّ داره كما قال:

أُسرُّ على الديارِ ديارٍ ليلى أقبل ذا الجدارَ وذا الجدارا
وما حبُّ الأديارِ شغفَنَ قلبي ولكن حبُّ من سكن الأديارا
فكيف بمن ليس كمثله شيء ومن ليس كمثله محبته محبة؟

فصل

ومنها: الإسراع إليه في السير، وحثُّ الركاب نحوه، وطىُّ المنازل في الوصول إليه، والاجتهاد في القرب والدنو منه، وقطع كل قاطعٍ يقطع عنه، وإطراح الأشغال الشاغلة عنه، والزهد فيها، والرغبة عنها، والاستهانة بكل ما يكون سبباً لغضبه ومقته وإن جلّ، والرغبة في كل ما يدنى إليه وإن شقّ، قال الشاعر:

ولو قلتِ طأً في النار أعلم أنه رضاك أو مُدُنٍ لنا من وصالكِ
لقدّمت رجلي نحوها فوطئتها هدّى منك لي أوضلةً من ضلالكِ

فصل

ومنها: محبة أحباب المحبوب وجيرانه وخدّامه وما يتعلّق به، حتى حرفته . . . ماغته وآنيته وطعامه ولباسه قال:

(١) الآية ٢٢ - سورة البقرة .

(٢) الآية ٢٦ - سورة آل عمران .

(٣) رواه مسلم وغيره وإيس فيه والشر ليس إليك .

أحبّ بنى العوّام طراً لجهها ومن أجلمها أحببت أخوالها كلباً^(١)
وقال آخر :

يشتاق واديهها ولولا حبكم ما شاقه واد زهت أزهاره
وقال الآخر :

فيا ساكنى أكناف^(٢) طيّبة كلّكم إلى القلب من أجل الحبيب حبيب
وفى أخبار العشاق أن عاشقاً عشق السراويلات من أجل سراويل معشوقه
فوجد في تركته اثنا عشر حملاً وفردة من السراويلات (ذكره البصري) ،
وعشق آخر الهاوونات من أجل صوت هاوون محبوبته ، فوجد في تركته عدة
آلاف منها ، وعند الناس من هذا عجائب كثيرة . وكان أنس بن مالك رضى
الله عنه يحبّ الدباء^(٣) كثيراً لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم يتبعها من
جوانب القصعة .

فصل

ومنها : قصر الطريق حين يزوره ، ويوافي إليه كأنها تطوى له ، وطولها
إذا انصرف عنه وإن كانت قصيرة قال :
وكنّت إذا ماجئت ليلى أزورها أرى الأرض تطوى لى ويدنوبعيدها
من الخفّرات البيض ودّ جليسها إذا ما انقضت أحدىثة^(٤) لوتعيدها

(١) تقدم ذكر هذا البيت فى صفحة ٢٠٧

(٢) جمع كنف . الناحية ، والجانب ، والظل .

(٣) الدباء : القرع .

(٤) الاحدوثة : ما يتحدث به ، والجمع أحاديث .

وقال آخر :

والله ما جئتكم زائراً إلا وجدت الأرض تطوى لى
ولا استنى عزى عن بابكم إلا تمزّت بأذنى
وقال آخر :

وإذا قت عنك لم أمش إلا مشى عان^(١) يقاد نحو الفناء
وإذا جئت كنت أسرع فى السير من الطير نازلاً فى الهواء
وقال الآخر :

وتدنو الطريق إذا زرتكم وتبعد إذ أنشئ راجعا

فصل

ومنها : انجلاء همومه وغمومه إذا زار محبوبه أو زاره، وعودها إذا فارقة
كما قال :

بزور فتنجلى عنى همومى لأن جلاء حزنى فى يديه
ويمضى بانسرة حين يمضى لأن حوائتى فيها عليه
ومن المعلوم أنه ليس للمحب فرحة ولا سرور ولا نعيم إلا بمحبوبه ،
وبفارقة محبوبه عذابه الآجل والعاجل .

فصل

ومنها : البهت^(٢) والروعة التى تحصل عند مواجهة الحبيب أو عند سماع
ذكره، ولاسيا إذا رآه فجأة أو طلع عليه بغتة كما قال الشاعر :

(١) عان : أسير أو ذليل أو خاضع . وعنا له يعنوا عنوا : خضع وذلل .

(٢) البهت : الدهشة والحيرة .

فما هو إلا أن أراها فجأةً فأنهت حتى ما أكاد أجيب
فأرجع عن رأي الذي كان أولاً وأذكر ما أعددت حين تغيب
وقال آخر :

فما هو إلا أن يراها فجأةً فتصطك رجله ويسقط للجنب
وربما اضطرب عند سماع اسمه فجأةً كما قال :

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيف من مقي فهيج أشجان الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلى غيرِها فكأنما أطار بليلى طائراً كان في صدري

وقد اختلف في سبب هذه الرعدة والفرع والاضطراب فقليل : سببه أن
المحبوب سلطاناً على قلب محبه أعظم من سلطان الرعية ، فإذا رآه فجأةً راعه
ذلك كما يرتاع من يرى من يعظمه فجأةً ، فإن القلب معظم لمحبه خاضع له ،
والشخص إذا فتحه المعظم عنده راعه ذلك . وقيل : سببه انفراج القلب له ،
ومبادرته إلى تلقيه فيهرب الدم منه فيبرد ويرعد ويحدث الاصفرار
والرعدة ، وربما مات . وبالجملة فهذا أمر ذوق وجداني ، وإن لم
يفرّف سببه .

فصل

ومنها : غيرته لمحبه وعلى محبه ، فالغيرة له أن يكره ما يكره ، ويغار إذا
عصى محبه وانتهك حتمه وضيع أسرته . فهذه غيرة الحب حقاً ، والدين كله
نحت هذه الغيرة .

فأقوى الناس ديناً أعظمهم غيرةً ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في
الحديث الصحيح : « أتعجبون من غيرة سعد لأننا أغير منه والله أغير
(١٨ م — روضة المحبين)

مُنَى» (١) فحبُّ الله ورسوله يغار الله ورسوله على قدر محبته وإجلاله ، وإذا خلا قلبه من الغيرة لله ورسوله فهو من المحبّة أخلّ وإن زعم أنه من المحبّين ، فكذب من ادّعى محبة محبوبٍ من الناس وهو يرى غيره ينتهك حرمة محبوبه ويسعى في أذاه ومساخطه ويستهنّ بحقه ويستخفّ بأمره وهو لا يغار لذلك . بل قلبه بارد ، فكيف يصحّ لعبده أن يدّعى محبة الله وهو لا يغار لمحارمه إذا انتهكت ، ولا لحقوقه إذا ضيّعت . وأقلّ الأقسام أن يغار له من نفسه وهواه وشيطانه ، فيغار لمحبوبه من تقيطه في حقه وارتكابه لمعصيته .

وإذا ترحّلت هذه الغيرة من القلب ترحّلت منه المحبة ، بل ترحّل منه الدين وإن بقيت فيه آثاره وهذه الغيرة هي أصل الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي الحاملة على ذلك ، فإن خلت من القلب لم يجاهد ولم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر ، فإنه إنما يأتي بذلك غيرةً منه لربه ، ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى علامة محبته ومحبوبيته الجهاد فقال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (٢) .

فصل

وأما الغيرة على المحبوب فإنما تُحمَدُ حيث يُحمَدُ الاختصاص بالمحسوب ويُدَمَّ الاشتراك فيه شرعاً وعقلاً كغيرة الإنسان على زوجته وأُمّته والشئ

(١) رواه الشيخان وغيرهما .

(٢) الآية ٥٧ . سورة المائدة .

الذى يختصُّ هو به ، فيغار من تعرُّض غيره لذكره ومشاركته له فيه ، وهذه الغيرة تختصُّ بالخلق ولا تُنصَّوَر في حقِّ الخالق ، بل المحبُّ لربه يحبُّ أن الناس كلَّهم يحبُّونه ويذكرونه ويعبدونه ويحمِّدونه ، ولا شيء أقرَّ لعينه من ذلك ، بل هو يدعو إلى ذلك بقوله وعمله .

ولما لم يميِّز كثيرٌ من الصوفية بين هاتين الغيرتين وقع في كلامهم تخيُّطٌ قبيح . وأحسن أمره أن يكون من السعي المغفور لا الشكور . وكان بعض جهلَّتهم إذا رأى من يذكر الله أو يحبه يغار منه وربما سكَّته إن أمكنه ويقول : غيرة الحبِّ تحملنى على هذا ، وإنما ذلك حسدٌ وبغىٌ وعدوانٌ ونوعٌ معادٍ لله ، ومُرآئمةٌ لطريق رسله أخرجوها في قالب الغيرة ، وشبهوا محبة الله بمحبة الصُّور من الخلقين .

ولا ريب أن هذه الغيرة محمودة في محبة من لا تحسُن مشاركة الحبِّ فيه ، وسيأتى ذلك في باب الغيرة على المحبوب .

فصل

ومنها : بذلُ المحبِّ في رضا محبوبه ما يقدر عليه مما كان يتمتَّع به بدون المحبة ، وللمحبِّ في هذا ثلاثة أحوال : أحدها بذله ذلك تكلفاً ومشقةً وهذا في أوَّل الأمر ، فإذا قويت المحبة بذله رضا وطوعاً ، فإذا تمكَّنت من القلب غاية التمكن بذله سؤلاً وتضرعاً كأنه يأخذه من المحبوب ، حتى إنه ليبذل نفسه دون محبوبه كما كان الصحابة رضی الله عنهم يقيمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجرب بنفوسهم حتى يصروا حوله :

ولى فواذَّ إذا لج^(١) الغرامُ به هام اشتياقاً إلى لُفيا معذبه

(١) لج : تهادى .

يَفْدِيكَ بِالنَّفْسِ صَبًّا^(١) لَوْ يَكُونُ لَهُ أَغْزُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ فِدَاءً بِهِ
وَمَنْ آثَرَ مَحَبَّتَهُ بِنَفْسِهِ فَبَرَّاهُ بِهَا. سُئِلَ إِثْرَارًا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (النَّبِيُّ
أُولَى بِالنُّفُوسِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ)^(٢) وَلَا يَتَمُّ لَهُمْ مَقَامُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَكُونَ الرَّسُولُ
أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَضِلَّا عَنْ أَبْنَائِهِمْ وَأَبَائِهِمْ كَمَا صَحَّ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ
وَالذَّاسِ أَجْمَعِينَ »^(٣) وَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ
إِلَىَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي فَقَالَ : « لَا يَأْمُرُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ
مِنْ نَفْسِكَ » قَالَ : فَوَاللَّهِ لَأَنْتَ الْآنَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي فَقَالَ : « الْآنَ
يَأْمُرُ »^(٤)

فَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنُ مَحَبَّةِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ فَكَيْفَ بِمَحَبَّتِهِ سُبْحَانَهُ ؟ وَهَذَا النَّوعُ
مِنَ الْحُبِّ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ شَرْعًا وَلَا قَدْرًا ، وَإِنْ وُجِدَ فِي النَّاسِ
مَنْ يُوَثِّرُ مَحَبَّتَهُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُوَ لِمَحَبَّةِ غَرَضِهِ مِنْهُ ، فَمَحَبَّةُ
غَرَضِهِ عَلَى أَنْ يَذَلَ فِيهِ نَفْسَهُ وَمَالَهُ ، وَلا يَسْتَحِبُّهُ لِمَحَبَّتِهِ لِمَا لَمْ يَكُنْ لِمَحَبَّتِهِ لِمَا لَمْ يَكُنْ
لِغَرَضِهِ مِنْهُ ، وَهَذَا الْمَحْبُوبُ لَهُ مِثْلٌ وَلِمَحَبَّتِهِ مِثْلٌ ، وَأَمَّا مَحَبَّةُ اللَّهِ لَيْسَ لَهَا مِثْلٌ
وَلَا لِلْمَحْبُوبِ مِثْلٌ ، وَلِهَذَا حَكَّمَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فَقَالُوا^(٥) : هَذِهِ أَمْوَالُنَا بَيْنَ يَدَيْكَ فَاحْكُمْ فِيهَا بَمَا

(١) الصَّبُّ : الْعَاشِقُ الْمَشْتَقُ وَالصَّبَابَةُ : الشُّوقُ ، وَقِيلَ رَقْتَهُ ، وَقِيلَ حَرَارَتَهُ
وَقِيلَ رَقَّةُ الْهَوَى وَالْوَلَعُ الشَّدِيدُ بِالشَّيْءِ .

(٢) الْآيَةُ ٦ . سُورَةُ الْأَحْزَابِ ،

(٣) رَوَاهُ الثَّيْخَانُ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَأَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ . كَمَا فِي الْجَامِعِ
الصَّغِيرِ لِلْسَّيُوطِيِّ .

(٤) فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ بِبَعْضِ اخْتِلَافٍ .

(٥) الْقَائِلُ هُوَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ . رَوَاهُ أَصْحَابُ السَّيْرِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ مَطُولًا وَرَوَاهُ

مُسْلِمٌ مُخْتَصَرًا .

شئت ، وهذه نفوسنا بين يديك لو استعرضت بنا البحرَ الحُضْناءَ ، نقاتل
بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك . قال قيس بن صيرمة
الأنصاري :

نوى في قریشٍ بضعَ عشرةَ حِجَّةً يذكرُّ لو يَلْقَى حبيباً مؤاتياً
ويعرِّضُ في أهلِ المواسمِ نفسه فلم يرَ من يُؤوى ولم يرَ داعياً
فلما أتانا واستقرت به النوى وأصبح مسروراً بطبيعة راضياً^(١)
بذلنا له الأموال من حلِّ مالنا وأنفسنا عند الوغى والتأسيا^(٢)
نعادى الذى عادى من الناس كلهم جميعاً وإن كان الحبيب المصافياً
ونعلم أن الله لا ربَّ غيره وأن رسولَ الله أصبح هادياً
فالحب وصفه الإيثار، والمدعى طبعه الاستئثار .

فصل

ومنها : سروره بما يُسرُّ به محبوبه كائنًا ما كان ، وإن كرهته نفسه
فيمكن عنده بمنزلة الدواء الكريه ، يكرهه طبعاً ويحبه لما فيه من الشفاء .
وهكذا الحب مع محبوبه ، يُسرُّ ما يرضى به محبوبه وإن كان كريهاً لنفسه .
وأما من كان واقفاً مع ما تشبهه نفسه من مراضى محبوبه فليست محبته صادقة ،

(١) هذا البيت ملفق هنا من بيتين هما :

فلما أتانا أظهر الله دينه فأصبح مسروراً بطبيعة راضياً
والنبي صديقاً واطمأنت به النوى وكان له عوناً من الله بادياً
وقد وردت هذه الأبيات في سيرة ابن هشام بزيادة واختلاف
(٢) الوغى : الحرب والجلبة . وآسيته بنفسى : سويته بها .

بل هي محبة معلولة ، حتى يُسرَّ بما ساءه وسرَّه من مراضى محبوبه ، وإذا كان
هذا موجوداً في محبة الخلق بعضهم لبعض فالحييب لذاته أولى بذلك . قال
أبو الشيص :

وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي مُتَأَخَّرٌ عَنْهُ وَلَا مُتَقَدِّمٌ
وأهْنَيْتِ فَأَهَنْتُ نَفْسِي جَاهِداً مَا مَن يَهُونُ عَلَيْكَ مِمَّن يُكْرَمُ
أَشْبَهْتَ أَعْدَائِي فَصَرْتُ أَحَبَّهُمْ إِذْ كَانَ حَظِّي مِنْكَ حَظِّي مِنْهُمْ
أَجْدُ الْمَلَامَةِ فِي هَوَاكَ لِذِيذَةٍ حُبًّا لَذْكَرِكَ فَلَيْتَ لِمَنِي اللَّوْمُ
وقريبٌ من هذا البيت الأخير قولُ الآخر :

لئن ساءني أن نلتني بمساءةٍ لقد سرَّني أني خطرتُ بِبَالِكَ^(١)
وقال الآخر :

صدودك عني إن صددتِ يَسْرَتِي وَلَمْ أَرَ قَبْلِي عَاشِقًا سُرَّ بِالصَدِّ
سُرِّزْتُ بِهِ أَنِي تَيَقَّنْتُ أَنَّ مَا دَعَاكَ إِلَيْهِ رَغْبَةٌ مِنْكَ فِي وَدِي
ولو كنتِ فيه ترهدين لساءه^(٢) وَلَكِنَّمَا عَتَبُ الْحُبِّ مِنَ الْوَجْدِ
فيا فرحة لي إذ رأيتكِ تَعْتَبِي^(٣) عَلَى لَذْنِبٍ كَانَ مِنِّي عَلَى عَمْدٍ
وقال الآخر :

أهوى هواها وطولُ البُعدِ يَعْجِبُهَا فَالْبُعدُ قَدْ صَارَ لِي فِي حُبِّهَا أَرْبَا
فمن رأى والهّا قبلَ أخا كَلَفٍ يَنُأَى إِذَا حُبُّهُ مِنْ أَرْضِهِ قَرُبَا

(١) تقدم هذا البيت مع غيره في صفحة ٧٢ وفيه : وإن ساءني .

(٢) كذا.. ولعل الصواب : لساءني .

(٣) كذا.. ولا وجه لخبث النون

وقريب من هذا قول أحمد بن الحسين^(١) :

يا من يعزُّ علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عَدَم
إن كان سرُّكم ما قال حاسدنا فما لجرُّح إذا أرضاكم أَلَم

واهتدَم^(٢) بعضهم هذا فقال :

يا من يعزُّ علينا أن نُلمَّ بهم إذ بُعدنا عنهم قد صار قصَدَم
إن كان يرضيكم هذا البعاد فما فيه لصَبِّكم جَرَحٌ ولا أَلَم
ولعمْرُ الله أكثر هذه دعاوى لاحقية لها، والصادقُ منهم يخبر عن علمه
وإرادته ، لاعتن حاله وصفته . ولقد أحسن القائل^(٣) :

رَضُوا بالأمانى وأبتلوا بمحظوظهم وخاضوا بحار الحب دعوى وما ابتلوا
فهم في السرى لم يبرحوا من مكانهم
وما ظعنوا^(٤) في السير عنه وقد كلوا

وإن كان هذا هو وصف قائلها بعينه وحاله فإنه خاض بحار الحب وما ابتل
فيه له قدم ، وأخبر عن نفسه عند انكشاف غطاءه وطلب الرسل له لقدومه على
ربه فقال وصدق^(٥) :

إن كان منزلتي في الحب عندكم ما قد لقيتُ فقد ضيعت أياي
أمنيةٌ ظفرت نفسي بها زمناً فالיום أحسبها أضغاث أحلام^(٦)

(١) هو أبو الطيب المتلبي .

(٢) الاهتدَم : نوع من السرقات الشعرية .

(٣) هو ابن الفارض .

(٤) ظعنوا : ساروا وارتحلوا .

(٥) هو ابن الفارض .

(٦) أضغاث الأحلام : ما يدخل بعضها في بعض وليست كالصحيحة ولا

تأويل لها لعدم تبيينها . وفي سورة يوسف (قالوا أضغاث أحلام) .

وهذه حال كل من أحبَّ مع الله شيئاً سواه فإنه إلى هذه الغاية يصير ولا بدّ ، وشيّدوا له إذا انكشف الغطاء أنه إنما كان مغروراً بخدوعاً بأمنيةٍ ظفّرت نفسه بها مدّة حياته ثم انقطعت وأعقبت الحسرة والندامة . قال الله تعالى : (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَتَخَسَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَظِيمَةٍ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)^(١) فالأسباب التي تقطعت بهم هي الوصل والعلائق والمودات التي كانت لغير الله وفي غير ذات الله ، وهي التي يتقدّم إليها سبحانه فيجعلها هباء منثوراً ، فكل محبةٍ لغيره فهي عذابٌ على صاحبها وحسرةٌ عليه إلا محبته ومحبة ما يدعو إلى محبته ، ويعين على طاعته ومراضاته ، فهذه هي التي تبقى في القلب يوم تُبلى السرائر كما قال :

سبقى لكم في مضمّر القلب والحشا سريرةٌ حبٍّ يوم تُبلى السرائر
وقال آخر :

إذا تصدّع شملُ الوصل بينهم فلمحبّين شملٌ غيرُ منصدع
وإن تقطع جبلُ الوصل يومئذٍ فلمحبّين جبلٌ غيرُ منقطع

فصل

ومنها : حبّ الوحدة والأنس بالخلوة والتفرّد عن الناس وكأنّ المحبة قد ثبتت على ذلك ، فلا شيء أحلى للمحب الصادق من خلوته وتفرّده ، فإنه إن ظفر بمحبوبه أحبّ خلوته به ، وكره من يدخل بينهما غاية الكراهة ،

(١) الآيتان ١٦٦ و ١٦٧ سورة البقرة .

ولهذا السرّ - والله أعلم - أمر النبي صلى الله عليه وسلم برّد المارّ بين يدي المصلي حتى أمر بقتاله، وأخبر أنه لو يدرى ما عليه من الإثم لسكان وقوفه أربعين خيراً له من مروده بين يديه^(١) ولا يجد ألم المرور وشدته إلا قلب حاضر بين يدي محبوبه مقبل ، وقد ارتفعت الأغيار بينه وبينه ، فرور المارّ بينه وبين ربه بمنزلة دخول البغيض بين الحبّ ومحبوبه . وهذا أمر الحاكم فيه الذوق فلا ينسكركه إلا من لم يذق .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : مرور المارّ بين يدي المصلي يذهب نصف أجره . (ذكره الإمام أحمد) وأيضاً فإنّ المحبّ يستأنس بذكر محبوبه وكونه في قلبه لا يفارقه ، فهو أنيسه وجليسه لا يستأنس بسواه ، فهو مستوحش لمن يشغله عنه . وحدّثنى تقي الدّين بن شقير ، قال : خرج شيخ الإسلام ابن تيمية يوماً فخرجت خلفه ، فلما انتهى إلى الصحراء وانفرد عن الناس بحيث لا يراه أحد سمعته يتمنّى بقول الشاعر^(٢) :

وأخرج من بين البيوت لعاني أحدث عنك القلب بالسر خالياً
فخلة المحبّ محبوبه غايه أمتيته ، فإن ظفّر بها وإلا خلا به في سرّه
وأوحشه ذلك من الأغيار . وكلّ قيس من الملوّح إذا رأى إنساناً هرب منه ، فإذا أراد أن يدنو منه ويمادّه ذكر له ليلى وحديثها فيأنس به ويسكن إليه . وينبغي للمحب أن يكون كما قال يوسف لإخوته وقد طلب منهم أخاهم : (فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ)^(٣) .

إذا لم تكن فيكُنْ سَعْدَى فلا أرى لكنّ وجوهاً أو أعْيَبَ في الحدى
(١) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه . كما جاء في الجامع الصغير للسيوطي .

(٢) هو مجنون ليلى كما جاء في تزيين الاسواق للأنطاكي .

(٣) الآية ٦٠ . سورة يوسف .

فصل

ومنها: اشتكاهُ المحبُّ لمحبوبه وخضوعه وذله له ، والحُبُّ مَبْنِيٌّ عَلَى الذُّلِّ ،
ولا يَأْتِي العَزِيزُ الَّذِي لَا يَذِلُّ لشيءٍ من ذله لمحبوبه ، ولا يَعُدُّه نقصاً ولا عيباً ،
بل كثيرٌ منهم يَعُدُّ ذله عزّاً كما قال :

إذا كنتَ تهوى من تحبَّ ولم تكن ذليلاً له فاقراً للسلامِ عَلَى الوصلِ
تذلل لمن تهوى لتكسِبَ عِزَّةً فكم عِزَّةٌ قد نالها المرءُ بالذُّلِّ
وقال الآخر :

إخضع وَذِلْ لمن تحبَّ فليس في شرع الهوى أنْفُ يُشَالُ وَيُعَدُّ (١)
وقال الآخر :

ويعجبني ذلِّي لديك ولم يكن لِيُعْجِبْنِي لولا محبتك الذُّلَّ
وقال آخر :

يَذِلُّ له ذلُّ الهوى وخضوعه ولولا الهوى مَالِدٌ للعاقل الذُّلَّ
وقال الآخر :

مساكينُ أهلِ الحبِّ حتى قبورُهم عليها ترابُ الذُّلِّ دون المقابرِ (٢)
ومتى استحكَمَ الذُّلُّ والحبُّ صار عبوديةً ، فيصير قلبُ المحبِّ معبداً
لمحبوبه ، وهذه الرتبة لا يليق أن تتعلق بمخلوقٍ ، ولا تصلح إلا لله وحده .

(١) تقدم هذا البيت في صفحة ١٨٢

(٢) ١٨٢

فصل

ومنها : امتداد النفس وتردد الأنفاس وتصاعدها . وهذا نوعان :
أحدهما : ما يقارنه حزنٌ ولهفٌ^(١) كما قال القائل :
رُبَّ لَيْلٍ أَمَدَّ مِنْ نَفْسِ الْعَا شَقَّ طَوْلًا قَطْعُهُ بِاتِّحَابِ
وقال آخر :

تردد أنفاس المحب يدُنُّنا عَلَى كُنْهِ^(٢) مَا أَخْفَاهُ مِنْ أَلَمِ الْحُبِّ
إِذَا خَطَرَاتُ الْحُبِّ خَامَرْنَ قَلْبَهُ تَنْفَسُ حَتَّى ظَلَّ مُتَصَدِّعَ الْقَلْبِ
والثاني : ما يكون سببه طرباً ولذة . وسبب وجود النوعين انحصار القلب
وافتراجه بسبب الوارد الذي ورد عليه فأحدث للنفس الذي تروحه عليه الرِّبَّةُ
كيفية مؤذية وطلب إخراجها فهو تنفس الصُّعْدَاءِ ، وأما تنفس الراحة فإن
القلب ينبسط بعد انقباضه فيدفع الهواء المحيط به فيطلب الخروج .

فصل

ومنها : هجره كل سبب يُقْصِيهِ مِنْ مَحْبُوبِهِ وَيُبْغِضُهُ لِلْجُوبِ ، وإرتياعه
لكل سبب يُدْنِيهِ مِنْهُ وَيُسْتَحْمَدُ بِهِ عِنْدَهُ إِذَا بَلَغَهُ عَنْهُ . وفي الباب عجائب
للمحبين ، فكثير منهم هجر طعاماً أو لباساً أو أرضاً أو صناعةً أو حالةً من
الحالات كان محبوبه يَمْتَنُّهَا فَلَمْ يَعُدْ إِلَيْهَا أَبَدًا ، ولم تطاوعه نفسه بفعله البتة .
وكثير منهم حمله الحب على اكتساب المعالي والفضائل وغيرها مما يعلم أن
المحبوب يُعْظِمُهُ وَيُحِبُّهُ . وهذا نوعان أيضاً :

(١) اللف : التحسر .

(٢) السكته : جوهر الشيء وحقيقته وغايته وقدره .

أحدهما : أن يكون المحبوب مؤثراً لذلك محباً له ، فالمحب يبذل جهده فيه لينال منه أعلاه إن أمكنه ، فإن كان المحبوب مشغوقاً بجمع المال أثر ذلك في محبة شغفاً أشد من شغفه ، وإن كان مشغوقاً بالعلم اجتهد المحب في طلبه أشد من من اجتهداه ، وإن كان مشغوقاً بحرفة أو صناعة حرص المحب على تعلمها إن وجد إلى ذلك سبيلاً ، وإن كان مشغوقاً بالنوادر والحكايات الحسان والأخبار المستحسنة بالغ المحب في تحفظها ، فالمحبة النافعة أن تقع على عشق كامل يحملك عشقه على طلب السكال ، والبلية كل البلية أن تُبتلى بمحبة فارغ بطل صغره من كل خير فيحملك حبه على البشبه به .

والثاني : أن يكون المحبوب فارغاً من محبة ذلك وإيثاره ، واسكن المحبة تستخرج من قلب المحب عزماً وإرادة وحرصاً على ما يعظم به في عين المحبوب وقلبه ، فتجده من أحرص الناس على ذلك بحسب استعداده كما قيل :

ويوتاح للمعروف في طلب العلى لتحمّد يوماً عند ليلى شمائله^(١)
: وهذا قد يكون له سبب آخر وهو معاداة الناس له وتنقصهم إياه وإزدرائهم به ، فيحمله الانتحاء لنفسه والغيرة لها ومحبتها على المنافسة في المعالي واكتساب الحمد ، وهذا من شرف النفس وعزّتها كما قيل :

من كان يشكر للصديق فإننى أحمو بصالح شكرى الأعداء
هم صيروا طلب المعالى ديدنى حتى وطئت بنعلى الجوزاء^(٢)
ولربما انتفع الفتى بعدوه والسّم أحياناً يكون شفاء
وقال الآخر :

عداى لهم فضل على ومنّة فلا أعدم الرحمن عنى الأعداى

(١) جمع شمال : أخلاقه وطباعه .

(٢) الديدن : العادة لدأب . والجوزاء : برج من أبراج السماء .

هُمْ بِمَحْوَا عَنْ زَلَّتِي فَاجْتَنِبَهَا وَهُمْ نَافِسُونِي فَأَكْتَسَبْتُ الْمَعَالِيَا

فصل

ومنها : الاتفاق الواقع بين المحبِّ والمحبوب ، ولا سيما إذا كانت المحبةُ
محبةً مشاكَّلةً ومناسِبةً ، فكثيراً ما يمرض المحبُّ بمرض محبوبه ويتحرك
بحركته ولا يشعر أحدهما بالآخر ، ويتكلم المحبوب بكلامٍ فيتكلم المحبُّ به
بعينه اتفاقاً ، فانظر إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمَرَ بن الخطَّاب رضي الله
عنه يوم أُلْحِدَ يَدِيَّةُ لِمَا قَالَ لَهُ : « أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدَوْنَا عَلَى الْبَاطِلِ ؟ » قَالَ :
بَلَى ، قَالَ : « قَعْلَامَ نُعْطَى الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا ؟ » فَقَالَ : « إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ
نَاصِرِي وَآلَسْتُ أَعْصِيهِ » فَقَالَ : أَلَمْ تَكُنْ تَحَدِّثُنَا أَنَا نَأْتِي الْبَيْتَ فَنُطَوِّفُ بِهِ ؟
فَقَالَ : « قُمَاتُكَ إِنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ ؟ » قَالَ : لَا ، قَالَ : « فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ
بِهِ . » ثُمَّ جَاءَ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه فقال له : « يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ
وَعَدَوْنَا عَلَى الْبَاطِلِ ؟ » قَالَ : بَلَى ، قَالَ : (قَعْلَامَ نُعْطَى الدِّينِيَّةُ ^(١)) فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ
وَلَا يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا ؟) فَقَالَ لَهُ : إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ نَاصِرُهُ وَلَيْسَ يَعْصِيهِ ، قَالَ :
أَلَمْ يَكُنْ يَحَدِّثُنَا أَنَا نَأْتِي الْبَيْتَ فَنُطَوِّفُ بِهِ ؟ قَالَ : أَفَأَلَا لَكَ إِنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ ؟ قَالَ :
لَا ، قَالَ : فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُعْطَوٌّ بِهِ . فَأَجَابَ عَلَى جَوَابِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه
وسلم حرفاً بحرف من غير تواطؤٍ ولا تشاعر ، بل موافقةً محبِّةً لمحبوب . وهكذا
وقع في صحيح البخاري ، ووقع في بعض المغازي أنه أتى أَبَا بَكْرٍ أَوَّلًا فَقَالَ لَهُ
ذَلِكَ ، ثُمَّ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بعده فقال له مثل ما قال أبو بكر .
قال السَّهْمِيُّ : وهذا هو الأولُ ويشبه أن يكون المحفوظ ، فإنه لَا يُطْنُ
بِعَمَرِ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له قولاً فلا يرضى به

(١) الدنية والدني : الحقيق ، الضعيف ، الساقط .

حتى يأتي أبا بكر رضى الله عنه بعد ذلك والشبهة عنده لم تزل فيعيدها عليه ، ولا يُظنُّ ذلك بعمر رضى الله عنه . ولعمري لقد نزع أبو القاسم بذنوبٍ صحيح ، ولكن المحفوظ هو الذى وقع فى البخارى ، وعليه عامة أهل السير والمسانيد والسنن . وأما ما نسب إليه عمر رضى الله عنه فقد أُجيب عنه بأنه كان يرجو النسخ وموافقة ربه له فى ذلك كما تقدم له أمثالها ، فإنه كان يقول القول فينزل به الوحي ، والثانى أن المقام كان مقامَ محنةٍ وابتلاءٍ عَجَزَ عنه صبرُهُ أكثر الصحابة ولم يتسع له بطنهم ، وداخلهم من الهم والقلق والتحرُّق على أعدائهم أمرٌ عظيم . ولهذا لما أمرهم أن يخلقوا رؤوسهم وينحروا بُدْنَهُمْ لم يقم منهم رجلٌ واحدٌ حتى دخل صلى الله عليه وسلم على أمِّ سَلَمَةَ مُغَضِّبًا فقالت له : من أغضبك أغضبه الله ، فقال : « وَمَا لِي لَا أَغْضِبُ وَأَنَا أَمْرٌ بِالْأَمْرِ فَلَا أُتَّبَعُ ^(١) ؟ » وهذا يردُّ تأويلَ من تأوَّلَه على أن القومَ كانوا محسنين فى ذلك التثبُّت ، وأنهم كانوا ينتظرون النسخ فلا لوم عليهم . وهذا خطأ قبيحٌ من هذا المعتذر ، بل كانت المبادرة إلى امتثال أوامره صلى الله عليه وسلم أولى بهم ، ولو كانوا محسنين فى التأخير لما اشتدَّ غضبه عليهم ولكان أولى منهم بانتظار النسخ ، بل هذا من سعيهم المغفور الذى غفره الله لهم بكال إيمانهم ونصحهم لله ورسوله ، وعذَرهم الله سبحانه لقوَّة الوارد وضعفهم عن حمله حتى لم يحمله عمر رضى الله عنه فى قوَّته وشدة ، واحتمله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وكان جوابهما من مشكاة ^(٢) واحدة .

ولما احتمل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحكمَ السَّكُونِيَّ الأَمْرِيَّ

(١) رواه بشجوه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده .

(٢) المشكاة : الكوة غير النافذة . وقيل الأنبوبة فى وسط القنديل . قال تعالى

(مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) .

الذى حكم الله له به ورضى به وأقر به ودخل تحته طوعاً وانقياداً - وهو الفتح الذى فتح الله له - أثابه الله عليه بأربعة أشياء : مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وإتمام نعمته عليه ، وهدايته صراطاً مستقيماً ، ونصر الله له نصراً عزيزاً . وبهذا يقع جواب السؤال الذى أوردته بعضهم ها هنا فقال : كيف يكون حكم الله له بذلك علة لهذه الأمور الأربعة إذ يقول الله تعالى : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)^(١) الآية ، وجوابه ما ذكرنا أن تسليمه لهذا الحكم والرضا به والانقياد له والدخول تحته أوجب له أن آتاه الله ذلك ، والمقصود إنما هو ذكر الاتفاق بين المحب والمحبوب ، وهذا الذى جرى للصديق رضى الله عنه من أحسن الموافقة ، ومن هذا موافقة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه لربه تعالى فى عدة أمور قلها فنزل بها الوحي كما قال . وتقوى هذه الموافقة حتى يعلم المحب بكثير من أحوال محبوبه وهو غائب عنه ، وهذا بحسب تعلق المهمة به وتوجه القلب إليه واتحاد مراده بمراده ، وربما اقتضى ذلك اتفاقهما فى المرض والصحة والفرح والحزن والتخلق ، فإن كان مع ذلك بينهما تشابه فى الخلق الظاهر فهو الغاية فى الاتفاق . ولنفقصر من العلامات على هذا القدر وبالله التوفيق .

الباب الحادي والعشرون

في اقتضاء المحبة أفراد الحبيب بالحب وعزم التمسك بيمينه وبين غيره فيه

هذا من موجبات المحبة الصادقة وأحكامها ، فإن قوى المحبة متى انصرفت إلى جهة لم يبق فيها منسج لغيرها . ومن أمثال الناس : « ليس في القلب حبان ، ولا في السماء ربان » ومتى تقسمت قوى الحب بين عدّة محالّ ضعفت لاجالة وتأمل قوله سبحانه وتعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا . وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ^(١)) كيف أمره بتقواه للتضمنة لإفراده بامتثال أمره ونهيه محبة له وخشية ورجاء ، فإن التقوى لا تتم إلا بذلك ، واتباع ما أوحى إليه المتضمن لتركه ما سوى ذلك واتباع المنزلة خاصة ، وبالتوكل عليه وهو يتضمن اعتماد القلب عليه وحده وثقته به وسكوته إليه دون غيره . ثم أتبع ذلك بقوله : « مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ » ^(٢) فأنت تجد تحت هذا اللفظ أن القلب ليس له إلا وجه واحد إذا مال بها إلى جهة لم يميل إلى غيرها ، وليس للعبد قلبان يطيع الله ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما والآخر لغيره ، بل ليس إلا قلب واحد ، فإن لم يفرّد بالتوكل والمحبة والتقوى ربه وإلا ^(٣) انصرف ذلك إلى غيره ، ثم استطراد من ذلك إلى أنه سبحانه لم يجعل زوجة الرجل أمه ، واستطراد منه إلى

(١) أوائل سورة الأحزاب .

(٢) الآية ٤ . سورة الأحزاب .

(٣) كذا . . والظاهر أنها زائدة .

أنه لم يجعل دَعِيَّه ابنه ، فانظر ما أحسنَ هذا التَّأْصِيلَ وهذا الاستطراد الذي تسجد له العقول والألباب ، وله نظائر في القرآن عديدة ، فمنها قوله : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيًّا فَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) ^(١) فالنفسُ الواحدةُ وزوجها آدمٌ وحواءُ ، واللذان جعلاهما شركاءَ فيما آتاهاما المشركون من أولادهما ، ولا يَلْتَمِزُ إلى غير ذلك مما قيل إن آدم وحواء كانا لا يعيش لهما ولدٌ فأتاها إبليس فقال : إن أحببنا أن يعيش لكما ولدٌ فسمِّياه عبد الحارث فعلا ، فإن الله سبحانه اجتباه وهده فلم يكن ليشرك به بعد ذلك . ونظيرُ هذا الاستطراد قوله : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ يَمِى مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) ^(٢) ثم قال : «وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا» ^(٣) فإنهم كانوا يفعلون ذلك في الإحرام ، فلما ذكر لهم وقت الإحرام الذي هو من فوائد الأَهْلِ استطرد منه إلى ذكر ما يفعلونه فيه ، وهو كثيرٌ جداً .

والمقصودُ أن المحبة تستلزم توحيد المحبوب فيها ، وقد بالغ أبو محمد بن حزم في إنكاره على من يزعم أنه يعشق أكثرَ من واحدٍ وقال في ذلك شعراً ، ونحن نذكر كلامه وشعره ، قال بعد كلامٍ طويل : ومن هذا دخل الغلط على من يزعم أنه يحب اثنين ويعشق شخصين متغايرين ، وإنما هذا من جهة الشهوة التي ذكرنا آنفاً ، وهى على المجاز تسمى محبة لا على التحقيق : وأما نفس المحب

(١) الآيتان ١٨٨ و ١٨٩ . سورة الأعراف .

(٢) الآية ١٨٩ . سورة البقرة .

فما في الليل به فضلٌ يُصرفه من أسباب دينه ودنياه ، فكيف بالاشتغال بحب
ثاني، وفي ذلك أقول :

كُذِّبَ المدعى هوى اثنين حتماً مثلَ ماني الأصول أ كُذِّبَ ماني^(١)
ليس في القلب موضعٌ لحبيبين ولا أحدث الأمور اثنين
فكما العقلُ واحدٌ ليس يدرى خالقاً غير واحدٍ رحمان
فكذا القلب واحدٌ ليس يقوى^(٢) غير فردٍ مُباعدٍ أو مُدَان
هر في شِرْعَةِ المودَّةِ ذو شكٍّ بعيدٌ من صحة الإيمان
وكذا الدِّينُ واحدٌ مستقيمٌ وكفورٌ سنٌ عنده دينان
وقد اختلف الناسُ في هذه المسألة فقالت طائفة : ليس للقلب إلا وجهٌ
واحدةٌ إذا توجَّهَ إليها لم يمكنه التوجُّهُ إلى غيرها ، قالوا : وكما أنه لا يجمع فيه
إرادتان معاً فلا يكون فيه حُبَّان ، وكان الشيخ إبراهيم الرقي رحمه الله يميل إلى
هذا . وقالت طائفةٌ : بل يمكن أن يكون له وجهتان فأكثر باعتبارين ، فيتوجَّه
إلى أحدهما^(٣) ولا يشغله عن توجُّهه إلى الآخر ، قالوا : والقلبُ حَمَلٌ فما حماته
تحمِّل ، فإذا حمَّته الأثقال حملها ، وإن استعجزته عجز عن حمل غير ما هو فيه ،
فالقلب الواسع يجتمع فيه التوجُّهُ إلى الله سبحانه وإلى أمره وإلى مصالح عبادته ،

(١) ماني : صاحب مذهب المانوية ، ولد في بابل عام ٢١٥ وهو من القائلين
بالتناسخ وبقدم الظلمة والنور وأزليتهما . ويزعم أن الليل يخلق الشر والنهار
يخلق الخير . وفي دينه من الضلالات والخزعبلات ما يفوق الأساطير . ومن
أغرب ما يدعو إليه تحریم الزواج وإباحة اللواط كما يحرم ذبح الحيوانات ويحل
أكلها ميتة ١١

(٢) كذا .. ولعل الصواب يهوى كما يدل عليه البيت الأول .

(٣) كذا .. بالتذكير بعد قوله وجهتان . ولعل الصواب هو التائيت ،

ولا يَشْغُلُهُ واحدٌ من ذلك عن الآخر ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلبه متوجهٌ في الصلاة إلى ربه وإلى مراعاة أحوال مَنْ يصلي خلفه ، وكان يسمع بكاء الصبي فيخفف الصلاة خشية أن يَشُقَّ عَلَى أمه^(١) أفلا ترى قلبه الواسع الكريم كيف اتسع للأميرين؟ ولا يُظَنُّ أن هذا من خصائص النبوة ، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يجهز جيشه وهو في الصلاة ، فيتسع قلبه للصلاة والجهاد في آنٍ واحد ، وهذا بحسب سعة القلب وضيقه وقوته وضعفه . قالوا : وكال عبودية أن يتسع قلب العبد لشهود معبوده ومراعاة آداب عبوديته ، فلا يَشْغُلُهُ أحد الأمرين عن الآخر ، وهذا موجود في الشاهد ، فإن الرجل إذا عمل عملاً للسلطان مثلاً بين يديه وهو ناظر إليه يشاهده ، فإن قلبه يتسع لمراعاته عمله وإتقانه ، وشهود إقبال السلطان عليه ورؤيته له ، بل هذا شأن كل محبٍّ يعمل لمحبوبه عملاً بين يديه أو في غيبته ، قالوا : وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى يوم موت ابنه إبراهيم فكان بكاءً مرحماً له ، فاتسع قلبه لرحمة الولد وللرضا بقضاء الله ، ولم يَشْغُلْهُ أحدهما عن الآخر ، لكن الفضيل لم يتسع قلبه يوم موت ابنه لذلك فجعل يضطك ، قليل له : أتضحك وقد مات ابنك ؟ فقال إن الله سبحانه قضى بقضاء فأحببت أن أَرْضَى بقضائه . ومعلوم أن بين هذه الحال وحال رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذٍ تفاوتٌ لا يعلمه إلا الله ، ولكن لم يتسع قلبه لما اتسع له قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونظيرُ هذا اتساع قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم لغناء الجوزيتين اللتين كانتا تغنيان عند عائشة رضي الله عنها فلم يَشْغُلْهُ ذلك عن ربه ، ورأى فيه من مصلحة إرضاء النفوس الضعيفة بما يستخرج منها من محبة الله ورسوله ودينه ، فإن النفوس متى نالت شيئاً من حظها طوَّعت ببذل ما عليها من الحق ، ولم يتسع

(١) هو في البخاري ومسلم والترمذي والنسائي . كما جاء في تيسير الوصول .

قلب عمر لذلك لما دخل فأنكره ، وكـم بين من ترد عليه الواردات فكل منها
يشيرهمته ويحرك قلبه إلى الله كما قال القائل :

يَذْكُرُ نَيْكَ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ وَالَّذِي أَخَانُ وَأَرْجُو وَالَّذِي أَتَوَقَّعُ^(١)
ومن يرد عليه من الواردات فيشذله عن الله ويقطعه عن سير قلبه إليه . فالقلب
الواسع يسير بالخلق إلى الله ما أمكنه ، فلا يهرب منهم ولا يلحق بالفقار^(٢)
والجبال والخلوات ، بل لو نزل به من نزل سار به إلى الله ، فإن لم يسر معه سار
هو وتركه ، ولا ينكر هذا فالمحبة الصحيحة تقتضيه ، وخذ هذا في المغنى إذا
طرب ، فلو نزل به من نزل أطربهم كلهم ، فإن لم يطربوا معه لم يدع طربه لغلظ
أكبادهم وكثافة طبعهم . وكان شيخنا يميل إلى هذا القول وهو كما ترى قوته
وحجته .

والتحقيق أن المحبوب لذاته لا يمكن أن يكون إلا واحداً ، ومستحيل أن
يوجد في القلب محبوبان لذاتهما ، كما يستحيل أن يكون في الخارج ذاتان قائمتان
بأنفسهما كل ذاتٍ منها مستغنية عن الأخرى من جميع الوجوه ، وكما يستحيل
أن يكون للعالم ربان متكافئان مستقلان ، فليس الذي يحب لذاته إلا الإله
الحق الغنى بذاته عن كل ماسواه وكل ماسواه فقير بذاته إليه . وأما ما يحب
لأجله سبحانه فيتعبد . ولا تكون محبة العبد له شاغلة له عن محبة ربه ولا يشركه
معه في الحب ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب زوجاته وأحبهن
إليه عائشة رضي الله عنها ، وكان يحب أباهما ويحب عمر رضي الله عنهم ، وكان
يحب أصحابه وهم مراتب في حبه لهم ، ومنع هذا حبه كله لله وقوى حبه جميعها
منصرفاً إليه سبحانه .

(١) تقدم هذا البيت في الصفحة ٢٦٤ .

(٢) جمع قفرة : مفازة لامبات فيها ولا ماء . وأقفر الدار : خلت ،

فإن المحبة ثلاثة أقسام : محبة الله ، والمحبة له وفيه ، والمحبة معه . فالمحبة له وفيه من تمام محبته وموجباتها لا من قواطعها ، فإن محبة الحبيب تقتضى محبة ما يحبُّ ومحبة ما يعين على حبه ويوصل إلى رضاه وقربه ، وكيف لا يحبُّ المؤمن ما يستعين به على مرضاة ربه، ويتوصل به إلى حبه وقربه؟ وأما المحبة مع الله فهي المحبة الشريكية ، وهي كحبة أهل الأنداد لأناداهم كما قال تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ)^(١) وأصل الشرك الذى لا يغفره الله هو الشرك في هذه المحبة ، فإن المشركين لم يزعموا أن آلهتهم وأوثانهم شاركت الرب سبحانه في خلق السموات والأرض وإنما كان شركهم بها من جهة محبتها مع الله فوالوا عليها وعادوا عليها وتألهوها وقالوا : هذه آلهة صغار تقرر بنا إلى الإله الأعظم . ففرق بين محبة الله أصلاً والمحبة له تبعاً والمحبة معه شركاً . وعليك بتحقيق هذا الموضع فإنه مفرق الطرق بين أهل التوحيد وأهل الشرك .

ويحكى أن الفضيل دخل على ابنته في مرضها فقالت له : يا أبت هل تحبني ؟ قال : نعم ، قالت : لا إله إلا الله ، والله ما كنت أظن فيك هذا ، ولم أكن أظنك تحب مع الله أحداً ، ولكن أفرد الله بالمحبة واجعل لى منك الرحمة أى يكون حبك لى حب رحمة جعلها الله فى قلب الوالد لولده لا محبة مع الله . فله حق من المحبة لا يشركه فيه غيره ، وأظلم الظلم وضع تلك المحبة فى غير موضعها ، والتشريك بين الله وغيره فيها . فليتدبر اللبيب هذا الباب فإنه من أنفع أبواب الكتاب إن شاء الله تعالى .

الباب الثاني والعشرون

في غيرة المحبين على أمهائهم

لما كان هذا الباب متصلاً بإفراد المحبوب بالمحبة ومن موجباته فإن الغيرة بحسب قوة المحبة، وقوتها بحسب إفراد المحبوب حسن ذكره بعده .

وأصل الغيرة الحمية والألفة^(١)، والغيرة نوعان : غيرة للمحبيب ، وغيرة عليه . فأما الغيرة له فهي الحمية له والغضب له إذا استهين بحقه وانتقصت حرمة وناله مكروه من عدوه ، فيغضب له المحب ويحمي وتأخذه الغيرة له بالمبادرة إلى التغير ومحاربة من آذاه ، فهذه غيرة المحبين حقاً ، وهي من غيرة الرسل وأتباعهم لله ممن أشرك به واستحل محارمه وعصى أمره .

وهذه الغيرة هي التي تحمل على بذل نفس المحب وماله وعرضه لمحجوبه حتى يزول ما يكرهه ، فهو يغار لمحجوبه أن تكون فيه صفة يكرهها محجوبه ويمقتها عليها أو يفعل ما يغيضه عليه ، ثم يغار له بعد ذلك أن يكون في غيره صفة يكرهها ويغضها ، والدين كله في هذه الغيرة بل هي الدين ، وما جاهد مؤمن نفسه وعدوه ولا أمر بمعروف ولا نهى عن منكر إلا بهذه الغيرة ، ومتى خلت من القلب خلا من الدين ، فالؤمن يغار لربه من نفسه ومن غيره إذا لم يكن له كما يحب ، والغيرة تصفي القلب وتخرج خبثه كما يخرج السكر^(٢) خبث الحديد .

(١) الألفة : الاستنكاف .

(٢) السكر : منفخ الحديد يكون من جلد غليظ وله حاقات . وخبث الحديد

نفايته أو مانفاه السكر .

فصل

وأما الغيرة على المحبوب فهي أنفة المحب وحقيقته أن يشاركه في محبوبه غيره وهذه أيضاً نوعان : غيرة المحب أن يشاركه غيره في محبوبه ، وغيرة المحبوب على محبه أن يحب معه غيره ، والغيرة من صفات الرب جلّ جلاله ، والأصل فيها قوله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ)^(١) .

ومن غيرة تعالى لعبده وعليه يحميه مما يضُرُّه في آخرته كما في الترمذى وغيره مرفوعاً : « إِنَّ اللَّهَ يَنْحِمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا يَنْحِمِي أَحَدُكُمْ مَرِيضَهُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ » وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبة الكسوف : « وَاللَّهِ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرْتَبِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَرْتَبِيَ أُمَّتُهُ » . وفي ذكر هذا الذنب بخصوصه في خطبة الكسوف ، سرُّ بدیع قد نهنا عليه في باب غَضُّ البصر وأنه يورث نوراً في القلب . ولهذا جمع الله سبحانه وتعالى بين الأمر به وبين ذكر آية النور ، فجمع الله سبحانه بين نور القلب بغض البصر وبين نوره الذي مثله بالمشكاة لتعلق أحدهما بالآخر . فجمع النبي صلى الله عليه وسلم بين ظلمة القلب بالزُّنا وبين ظلمة الوجود بكسوف الشمس ، وذكر أحدهما مع الآخر ، وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ شَيْءٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَذْحُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَتْنَى عَلَى نَفْسِهِ ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ » .

وروى الثوري عن حماد بن إبراهيم عن عبد الله قال : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَغَارُ لِلْمُسْلِمِ فَلْيَغَرَ » ^(١) . وروى أيضاً عن عبد الأعلى ، عن ابن عيينة ^(٢) ، عن أمه ، عن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَغَارُ فَلْيَغَرَ أَحَدُكُمْ » ، وفي الصحيح عنه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ يُغَارُ وَالْمُؤْمِنُ يَغَارُ وَغَيْرُهُ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ » ^(٣) ، وروى القعنبي عن الدراوردي ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْمُؤْمِنُ يَغَارُ وَاللَّهُ أَشَدُّ غَيْرَةً » ^(٤) .

فصل

وغيرة العبد على محبوبه نوعان : غيرة ممدوحة يحبها الله ، وغيرة مذمومة يكرها الله ، فالتي يحبها الله أن يغار عند قيام الرئية ، والتي يكرها أن يغار من غير رئية بل من مجرد سوء الظن . وهذه الغيرة تُفسدُ المحبة وتوقع العداوة بين الحبِّ ومحبوبه . وفي المسند وغيره عنه صلى الله عليه وسلم قال : (الغيرة غيرتان : فغيرةٌ يحبها الله وأخرى يكرها الله ، قلنا : يا رسول الله ما الغيرة التي يحب الله ؟ قال : أن تؤتَى معاصيه أو تُنتهك محارمُه ، قلنا : فما الغيرة التي يكره الله ؟

(١) ذكره السيوطي في الجامع الصغير عن ابن مسعود مرفوعاً وقال : رواه الطبراني في الأوسط .

(٢) هكذا . . وفي شرح الجامع الصغير للبتاوى : قال الهيثمي : فيه عبد الأعلى بن عامر الثعلبي وهو ضعيف . . . قال ابن القطان : والحديث لا يصح فإن فيه إبا عبدة عن أمه زوج عبد الله بن مسعود ولا يعرف لها حال . وإذن فإن عينة هنا مصحفة عن « أنى عبدة » .

(٣) رواه الشيخان وأحمد والترمذي كما قال السيوطي .

(٤) رواية مسلم : « والله أشد غيراً » .

قال: غَيْرَةُ أَحَدِكُمْ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ «، وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم: «إِنْ مِنْ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّ اللَّهُ وَمِنْهَا مَا يَكْرَهُ اللَّهُ فَالْغَيْرَةُ الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ الْغَيْرَةُ فِي الرِّيَّةِ، وَالْغَيْرَةُ الَّتِي يَكْرَهُهَا اللَّهُ الْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ رِيَّةٍ»^(١). وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ لَأَنَا أَغَيْرُ مِنْهُ وَاللَّهُ أَغَيْرُ مِنِّي»^(٢). وقال عبد الله بن شداد: الْغَيْرَةُ غَيْرَتَانِ: غَيْرَةُ يَصْلَحُ بِهَا الرَّجُلُ أَهْلَهُ، وَغَيْرَةُ تَدْخُلُهُ النَّارُ. وروى عبد الله بن كُثَيْبَةَ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ التَّمِيمِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَى مَارِيَةَ الْقُبْطِيَّةِ وَهِيَ حَامِلٌ بِإِبْرَاهِيمَ وَعِنْدَهَا نَسِيبٌ لَهَا قَدِمَ مَعَهَا مِنْ مِصْرَ فَأَسْلَمَ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَدْخُلُ عَلَى أُمِّ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَّهُ جَبَّ نَفْسَهُ فَقَطَعَ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا عَلَيْهَا فَوَجَدَ عِنْدَهَا قَرِيبَهَا فَوَجَدَ فِي نَفْسِهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا كَمَا يَقَعُ فِي أَنْفُسِ النَّاسِ، فَخَرَجَ مُتَغَيِّرَ اللَّوْنِ، فَلَقِيَهُ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَعَرَفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْكَ مُتَغَيِّرَ اللَّوْنِ، فَأَخْبَرَهُ مَا وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مِنْ قَرِيبِ مَارِيَةَ، فَضَى بِسَيْفِهِ فَأَقْبَلَ يَسْعَى حَتَّى دَخَلَ عَلَى مَارِيَةَ فَوَجَدَ عِنْدَهَا قَرِيبَهَا ذَلِكَ، فَأَهْوَى بِالسَّيْفِ لِيَقْتُلَهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مِنْهُ كَشَفَ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَمَّا رَأَى عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: إِنْ جِبْرِيلُ أَتَانِي فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ بَرَّأَهَا وَقَرِيبَهَا مِمَّا وَقَعَ فِي نَفْسِي، وَبَشَّرَنِي أَنَّ فِي بَطْنِهَا غَلَامًا وَأَنَّهُ أَشْبَهُ الْخَلْقَ بِي وَأَمَرَنِي أَنْ أُسَمِّيَهُ إِبْرَاهِيمَ^(٣).

(١) رواه ابن ماجه بنحوه . (٢) رواه الشيخان وغيرهما .

(٣) أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر والطبراني في المعجم الكبير وغيرهما . كما قاله ابن حجر في الإصابة .

وقال الواقدي عن محمد بن صالح ، عن سعد بن إبراهيم ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه قال : كانت سارة عند إبراهيم صلى الله عليه وسلم فنكثت معه دهرًا لا تَزْنِي منه ولدًا ، فلما رأت ذلك وهبت له هاجر أمتها ، فولدت لإبراهيم ، فنارت من ذلك سارة ووجدت في نفسها وعتبت على هاجر ، فخلعت أن تقطع منها ثلاثة أعضاء ، فقال لها إبراهيم : هل لك أن تَبْرِي يَمِيْنُكَ ؟ قالت : كيف أصنع ؟ قال : اثقي أذنيها واخفضيها ، وانلغض هو الختان ، ففعلت ذلك بها فوضعت هاجر في أذنيها قرطين فازدادت بهما حسنا ، فقالت سارة : إنما زنتها جالًا ، فلم تُقَارَهِ^(١) على كونها معه ، ووجد بها إبراهيم وجدًا شديدًا فقلها إلى مكة ، فسكان يزورها كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها وقلة صبره عنها .

وفي الصحيح من حديث حميد ، عن أنس رضي الله عنه قال : أهدى بعض نساء النبي صلى الله عليه وسلم له قصعة فيها ثريد وهو في بيت بعض نسائه ، فضربت يد الخادم فانكسرت القصعة ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ الثريد ويردّه في القصعة ويقول : رَكُّوْا غَارَتِ أُمُّكُمْ ، ثم انتظر حتى جاءت قصعة صحبة فأعطاها التي كسرت قصعتها^(٢) وقالت عائشة رضي الله عنها : ما غرت على امرأة قط ما غرت على خديجة من كثرة ذكر النبي صلى الله عليه وسلم إياها ، ولقد ذكرها يومًا فقلت : ما تصنع بعجوز حراء الشّدَقين قد أبدلك الله خيرا منها ؟ فقال : « وَاللّٰهِ مَا أَبْدَلَنِيَّ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا »^(٣) . فانظر هذه الغيرة

(١) لم تقارّه : لم توافقه على بقائها معه . وقارّه مقارنة أي قر معه وسكن .

(٢) رواه البخاري والترمذي وأحمد ، ولأبي داود والنسائي نحوه . كما جاء

في فتح الباري .

(٣) رواه البخاري مختصرًا وأحمد والطبراني كما أشار إليه ابن حجر في الفتح

الشديدة على امرأة بعد ما ماتت . وذلك انظر محبتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تغار عليه أن يذكر غيرها ، وكذلك غيرها من صفية رضى الله عنهما ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم بها المدينة وقد اتخذها لنفسه زوجةً وعرساً^(١) بها في الطريق ، قالت عائشة رضى الله عنها : تنكرتُ وخرجت أنظر فعرفتني فأقبل إلي فاناقلبت وأسرع المشى فأدركني فاحتضني وقال « كيف رأيته ؟ » قلت : يهودية بين يهوديات - تعني السَّجِيَّة -^(٢) .

وفي المسند من حديث الأشعث بن قيس قال : تضيفت بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقام إلى امرأته فضربها ، قال : فنجرت بينهما فرجع إلى فراشه فقال : يا أشعث احفظ عني شيئاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تَسْأَلَنَّ رَجُلًا فِيمَ يَضْرِبُ امْرَأَتَهُ » . وذكر حماد بن زيد عن أيوب ، عن ابن أبي مُلَيْكَةَ أن ابن عمر رضى الله عنهما سمع امرأته تكلم رجلاً من وراء جدار ، بينها وبينه قرابة لا يعلمها ابن عمر ، فجمع لها جرائد^(٣) ثم ضربها حتى أضربت حسيماً^(٤) . وذكر الخرائطي عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه كان يأكل كل تفاحاً ومعه امرأته فدخل غلام له فناوته تفاحته قد أكلت منها فأوجعها معاذ ضرباً . ودخل يوماً على امرأته وهي تطالع في خباء أدِيم فضربها . وذكر الثوري عن أشعث عن الحسن أن امرأة جاءت تشكو زوجها إلى النبي صلى الله

-
- (١) يقال عرس : إذا نزل المسافر ليستريح ثم يرتحل . أما عرس بامرأته على معنى الدخول بها فقالوا هو خطأ . والصحيح : أعرس بامرأته : دخل بها .
 (٢) ذكره بنحوه الحب الطبري في مناقب أمهات المؤمنين وقال : أخرجه ابن ماجه والحافظ الدمشقي في الموافقات .
 (٣) الجرائد جمع جريدة : قضبان التخل يجردها الخوص . والحسيس :- الصوت الخفي ومنه قوله تعالى (لا يسمعون حميسها) .
 (٤) أضرب الشيء : أخفاه .

عليه وسلم لطمها ، فدعا الرجل ليأخذ حَقَّها فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل : (الرَّجُلُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)^(١) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أَرَدْنَا أَمْرًا وَأَرَادَ اللهُ أَمْرًا»^(٢) وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه شديد الغيرة وكانت امرأته تخرج فتشهد الصلاة فيكره ذلك فتقول : إن نهيتني انتهيت ، فيسكت امتثالاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ »^(٣) وهو الذى أشار على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يَتَحَجَّبَ نِسَاءه ، وكان عادة العرب أن المرأة لا تحتجب لنزاهتهم ونزاهة نساءهم ، ثم قام الإسلام على ذلك ، فقال عمر : يا رسول الله ، لو حجبَت نساءك فإنه يدخل عليهن البر والفاجر ، فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل آية الحجاب^(٤) ورفع إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجل قد قتل امرأته ومعه رجل آخر ، فقال أولياء المرأة : هذا قتل صاحبتنا ، وقال أولياء الرجل : إنه قد قتل صاحبنا ، فقال عمر رضى الله عنه : ما يقول هؤلاء ؟ قال : ضرب الآخر فَخَذَى امرأته بالسيف فإن كان بينهما أحدٌ فقد قتلته ، فقال لهم عمر : ما يقول ؟ فقالوا : ضرب بسيفه ققطع فَخَذَى المرأة فأصاب وسط الرجل فقطعه بأثنتين ، فقال عمر رضى الله عنه : إن عادوا فَعَدُّ . ذكره سعيد بن منصور فى سننه . وأخذ بهذا جماعة من الفقهاء منهم الإمام أحمد وأصحابه رحمهم الله تعالى ، قالوا لو وجد رجلا يزنى بامرأته

(١) الآية ٣٤ . سورة النساء .

(٢) فى الإصابة لابن حجر : ذكر القصة مقاتل وعبد بن حميد والطبرى وغيرهم . وقال الشهاب الخفاجى فى حاشيته على البيضاوى : رواها أبو داود .

(٣) رواه الشيخان وأحمد فى مسنده .

(٤) رواه الشيخان ، وزاد فى الرياض النضرة أباحاتم . كما جاء فى تيسير

الوصول .

فقتلها فلا قصاص عليه ولا ضمان ، إلا أن تكون المرأة مُكْرَهَةً فعليه القصاص بقتلها ، ولكن لا يُقبل قولُ الزوج إلا بتصديق الوليِّ أو بَيِّنَةٍ ، واختلفت الرواية عن الإمام أحمد في عدد البينة فُرُوِيَّ عنه أنها رجلان ، ويروى عنه لا بد من أربعة ، ووجه هذه الرواية ظاهر حديث سعد بن عُبَاة رضى الله عنه أنه قال : يا رسول الله ، أَرَأَيْتَ إِنْ وَجَدْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي أُمِّهِلَ حَتَّى آتَى بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « نَعَمْ » فقال : والذي بعثك بالحق إن كنتُ لأضربه بالسيف غيرَ مُصَفَّحٍ ^(١) فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَلَا تَعْبَهُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ لَأَنَا أَعْيَرُ مِنْهُ وَاللَّهُ أَعْيَرُ مِنِّي » ^(٢) .

وذكر سعيد بن منصور عن عليِّ بن أبي طالب رضى الله عنه أنه سئل عن رجل دخل يَدِّه فإذا مع امرأته رجلٌ فقتلها وقتله ، فقال عليٌّ رضى الله عنه : إن جاء بأربعة شُهَدَاءَ وإِلَّا دُفِعَ بِرُؤْمَتِهِ ^(٣) . ووجهُ رواية الاكتفاء باثنين أن البينة ليست على إقامة الحدِّ ، ولكن على وجوب ^(٤) السبب المانع من القصاص ، فإن الزوج كان له أن يقتل المتعدِّيَ على أهله ، ولكن لما أنكر أولياء القتل طَوْلِبَ القاتلُ بالبينة فاكتفى برجلين . ورفُعَ إلى عمر رضى الله عنه رجلٌ قد قتل يهوديًا فسأله عن قصته فقال : إن فلانًا خرج غازيًا وأوصاني بامرأته ، فبلغني أن يهوديًا يختلف إليها فكنت له حتى جاء ، فجعل ينشد ويقول :

(١) يقال . صَفَّحَ فلانًا بالسيف : ضربه بمرضه لاجتماعه .

(٢) تقدم ذكر هذا الحديث في صفحتي ٢٧٤ ، ٢٩٧ .

(٣) في لسان العرب لابن منظور : الرمة : قطعة جبل يشد بها الأسير أو الغافل إذا قيد إلى القتل ، وقول علي يدل على هذا .

(٤) كذا . ولعل الصواب : وجود .

وأبيض غرة الإسلام مَنِيَّ خَلَوْتُ بِعِرْسِهِ لَيْلَ النَّعَامِ^(١)
أُبَيْتُ عَلَى تَرَانِبِهَا وَيَمْسَى عَلَى جَرْدَاءٍ لَاحِقَةِ الْحَزَامِ
كَأَنَّ مَوَاضِعَ الرِّبَلَاتِ مِنْهَا فِثَامٌ يَنْهَضُونَ إِلَى فِثَامِ^(٢)

فَقُتِمَتْ إِلَيْهِ فَقَتَلَتْهُ ، فَأَهْدَرَ دَمَهُ^(٣) وَلَيْسَ فِي هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ مَطَالِبَةٌ عُمَرَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْقَاتِلَ بِالْيَبِيسَةِ إِذْ لَعَلَّه تَيَقَّنَ ذَلِكَ أَوْ أَقْرَبَ بِهِ الْوَلِيَّ ، وَالصَّوَابُ أَنَّهُ
مَتَى قَامَ عَلَى ذَلِكَ دَلَالَةٌ ظَاهِرَةٌ لَا تَحْتَمِلُ السَّكْذِبَ أَغْنَتْ عَنِ الْيَبِيسَةِ . وَذَكَرَ
سَفِيَّانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنِ الزُّهْرِيِّ ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ مُعْمِرٍ أَنَّ رَجُلًا
أَضَافَ لِنِسَاءً مِنْ هُذَيْلٍ فَذَهَبَتْ جَارِيَةٌ لَهُمْ تَحْتَطِبُ فَأَرَادَهَا عَنْ نَفْسِهَا ، فَرَمَتْهُ
بِفَرْجِهِ^(٤) فَقَتَلَتْهُ ، فَرَفَعَ ذَلِكَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ : ذَاكَ قَتِيلٌ
اللَّهُ لَا يُودِي^(٥) أَبَدًا . وَذَكَرَ سَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ أَنَّ أَبَا السَّيَّارَةَ
أَوَّلَعَ بِأَمْرَاءِ أَيْ جُنْدَبٍ يَرَاوِدُهَا عَنْ نَفْسِهَا ، فَقَالَتْ : لَا تَفْعَلْ فَإِنَّ أَبَا جُنْدَبٍ إِنْ
يَعْلَمُ بِهَذَا يَقْتُلُكَ ، فَأَبَى أَنْ يَنْزِعَ^(٦) فَكَلَّمَتْ أَخَا أَبَا جُنْدَبٍ فَكَأَمَّهُ فَأَبَى أَنْ
يَنْزِعَ ، فَأَخْبَرَتْ بِذَلِكَ أَبَا جُنْدَبٍ ، فَقَالَ أَبُو جُنْدَبٍ : إِنِّي خُبِرَ الْقَوْمُ أَنِّي أَذْهَبُ
إِلَى الْإِبِلِ ، فَإِذَا أَظْلَمْتُ جِئْتُ فَدَخَلْتُ الْبَيْتَ فَإِنْ جَاءَكَ فَأَدْخِلْنِي عَلَى ، فَوَدَّعَ
أَبُو جُنْدَبٍ الْقَوْمَ وَأَخْبَرَهُمْ : أَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى الْإِبِلِ ، فَلَمَّا أَظْلَمَ اللَّيْلُ جَاءَ فَسَكَنَ فِي

(١) العرس امرأة الرجل . والجمع أعراس ، وربما سُمِيَ الرَّجُلُ وَالْأُنْثَى عَرَسَيْنِ
وَلَيْلُ النَّعَامِ : أَطُولُ لَيْلَةً فِي السَّنَةِ .
(٢) الرِّبَلَاتُ : جَمْعُ رِبْلَةٍ وَهِيَ بَاطِنُ الْفَخْذِ . وَالْفِثَامُ : وَطَاءُ يَفْرُسُ فِي الْمَوْجِ
وَيَنْجُوهُ .

(٣) أَهْدَرَ دَمَهُ : أَبَاحَ قَتْلَهُ .

(٤) الْفَرْجُ : الْحَجَرُ مَلَى السَّكْفِ ، وَقِيلَ : الْحَجَرُ عَامَةً .

(٥) لَا يُودِي : أَيْ لَا يَسِي لِهَدْيَةٍ .

(٦) نَزَعَ عَنِ الْأَمْرِ : تَرَكَ وَانْتَهَى .

البيت . وجاء أبو السَّيَّارة وهي تطحن في ظلها ، مراودها عن نفسها فقالت :
وَيْحَكَ ! أَرَأَيْتَ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي تَدْعُونِي إِلَيْهِ هَلْ دَعَوْتُكَ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُ قَطْ ؟
قال : لا ولكن لا أصبر عنك ، قالت : أدخل البيت حتى أتهمياً لك ، فلما دخل
البيت أغلق أبو جُنْدُب الباب ثم أخذهُ فَدَقَّهُ مِنْ عُنُقِهِ إِلَى كَبْجِبِ^(١) ذَنْبِهِ ،
فذهبت المرأة إلى أخي أبي جُنْدُب فقالت : أدرك الرجل فإن أبا جُنْدُب قَاتَلَهُ ،
فجعل أخوه يناشده فتركه ، وحمله أبو جُنْدُب إلى مدرَّجَةِ الْإِبِلِ فَأَلْقَاهُ . فسكان
إِذْ مَرَّ بِهِ إِنْسَانٌ قَالَ لَهُ : مَا شَأْنُكَ ؟ فيقول : وقعت من بَكْرٍ^(٢) فخطئني ،
وبلغ الخُبْرُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَرْسَلَ إِلَى أَبِي جُنْدُبٍ فَأَخْبَرَهُ بِالْأَمْرِ عَلَى
وَجْهِهِ ، فَأَرْسَلَ إِلَى أَهْلِ الْمَرْأَةِ فَمَدَّقُوهُ ، فجلد عمر أبا السَّيَّارة مائة جلدة
وَأَبْلَلَ دِيْنَتَهُ .

وذكر العباس بن هشام الكلبي عن أبيه أن عمرو بن حُمَمة الدَّوْسِيَّ أُنِيَ
مكة حاجاً ، وكان من أجل العرب ، فنظرت إليه امرأةٌ فقالت : لا أدري وجهه
أحسن أم فرسه ، وكانت له جُمَّةٌ^(٣) تسمى الزينة ، فكان إذا جلس مع أصحابه
نشرها ، وإذا قام عَقَصَهَا^(٤) ، فقالت له المرأة : أين منزلك ؟ قال : نجد ، قالت :
ما أنت بنجدى ولا تهاجى فاصدقنى ، فقال : رجلٌ من أهل السَّراة فيما بين مكة
واليمن ، ثم أشار إليها ارتد في خلفي ففعلت ، فضى بها إلى السَّراة وتبعها زوجها
فلم يلحقها فرجع ، فلما استقرت عنده قطع عروقها وقال : والله لا تتبعين بعدى رجلاً
أبدأ ، ثم ردها إلى زوجها على تلك الحال .

(١) العجب : مؤخر كل شيء . وأصل الذنب ، وعجب الذنب جزء في أصل
الذنب عند رأس العنصر .

(٢) البكر : الفقى من الإبل ، والآثى بكرة ، والبيع أبكر . وبكران .

(٣) الجملة : مجتمع شعر الرأس .

(٤) عقص الشسر : ضفره وليته على الرأس .

فصل

والله سبحانه وتعالى ينفار على قلب عبده أن يكون مُعْطَلًا من حبه وخوفه
ورجائه وأن يكون فيه غيره . فالله سبحانه وتعالى خلقه لنفسه واختاره من بين
خلقه ، كما في الأثر الإلهي : ابن آدم خلقتك لنفسي وخلقت كل شيء لك ،
فبحقّي عليك لا تشتغل بما خلقتك لك عن ما خلقتك له . وفي أثر آخر : خلقتك
لنفسى فلا تلعب ، وتكفّلت لك برزقك فلا تتعب . يا ابن آدم اطلبنى تجدنى ،
فإن وجدتنى وجدت كل شيء ، وإن فُتّك فاتك كل شيء ، وأنا خير لك من
كل شيء ، وينار على لسانه أن يتعطل من ذكره ويشتغل بذكر غيره ، وينار
على جوارحه أن تتعطل من طاعته وتشتغل بمعصيته ، فيقبح بالعبد أن ينفار مولاه
الحق على قلبه ولسانه وجوارحه وهو لا ينفار عليها .

وإذا أراد الله بعبده خيراً سلط على قلبه إذا أعرض عنه واشتغل بحب غيره
أنواع العذاب حتى يرجع قلبه إليه ، وإذا اشتغلت جوارحه بغير طاعته ابتلاها
بأنواع البلاء . وهذا من غيرته سبحانه وتعالى على عبده ، وكما أنه سبحانه وتعالى ينفار
على عبده المؤمن فهو ينفار له ولحرمة ، فلا يسكن الفساد أن يتوصل إلى حرمة
غيره منه لعبده ، فإنه سبحانه وتعالى يدفع عن الذين آمنوا ، فيدفع عن قلوبهم ،
وجوارحهم ، وأهلهم ، وحريمهم ، وأموالهم ، يتولى سبحانه الدفع عن ذلك كله
غيره منه لهم كما غاروا لمحارمه من نفوسهم ومن غيرهم . والله تعالى ينفار على إيمانه
وعبيده من المفسدين شرعاً وقدرًا ، ومن أجل ذلك حرم الفواحش وشرع عليها
أعظم العقوبات وأشنع القتل لشدّة غيرته على إيمانه وعبيده ، فإن عطلت هذه
العقوبات شرعاً أجراها سبحانه قدرًا .

فصل

ومن غَيْرَتِهِ سبحانه وتعالى غَيْرَتُهُ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَدِينِهِ وَكَلَامِهِ أَنْ يَحْطَى بِهِ
 مِنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ ، بَلْ حَالُ بَيْنِهِمْ وَبَيْنَهُ غَيْرَةٌ عَلَيْهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَجَعَلْنَا
 عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا)^(١) وَلِذَلِكَ ثَبَّطَ سُبْحَانَهُ
 أَعْدَاءَهُ عَنْ مَتَابَعَةِ رَسُولِهِ وَاللَّحَاقِ بِهِ غَيْرَةً كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَلَسَكِنْ كَرِهَ
 اللَّهُ آئِنِيَهُمْ فَنَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْفَاعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ
 مَا زَادُواكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُوا نَفْسَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُؤُونَ
 لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)^(٢) فَغَارَ سُبْحَانَهُ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ
 أَنْ يَخْرُجَ بَيْنَهُمُ الْمُنَافِقُونَ فَيَسْعُوا بَيْنَهُمْ بِالْفِتْنَةِ فَنَبَّطَهُمْ وَأَقْعَدَهُمْ عَنْهُمْ . وَسَمِعَ الشَّيْطَانُ
 رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَارِئًا يَقْرَأُ : (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا)^(٣) فَقَالَ : أَنْدَرُونَ مَا هَذَا الْحِجَابُ ؟ هَذَا
 حِجَابُ الْغَيْرَةِ وَلَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ ، يَعْنِي أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَجْعَلِ السَّكْفَارَ
 أَهْلًا لِمَعْرِفَتِهِ . وَهَاهُنَا نَوْعٌ مِنْ غَيْرَةِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَطِيفٌ لَا تَهْتَدِي إِلَيْهِ
 الْعُقُولُ ، وَهُوَ أَنَّ الْعَبْدَ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ الصَّفَاءِ وَالْأَنْسِ وَالْوُجُودِ ، فَيَسَاكُنُهُ
 وَيَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ وَتَلْتَذُّ بِهِ نَفْسُهُ فَيَسْتَهْلِكُ بِهِ عَنِ الْقَصُودِ ، فَيَغَارُ عَلَيْهِ مَوْلَاهُ الْحَقُّ

(١) الْآيَةُ ٢٥ . سُورَةُ الْأَنْعَامِ ٤٦ . سُورَةُ الْإِسْرَاءِ . وَالْآيَةُ ٤٥ . وَالْوَقْرُ : الصَّمَمُ .

(٢) الْآيَتَانِ ٤٦ وَ ٤٧ سُورَةُ التَّوْبَةِ . وَالْخَبَالُ : الْفَسَادُ . وَأَوْضَعُوا حِلَالَكُمْ
 سَعَوْا بَيْنَكُمْ بِالْفِتْنَةِ ، وَافْسَادَ ذَاتَ بَيْنِكُمْ .
 (٣) الْآيَةُ ٤٥ . سُورَةُ الْإِسْرَاءِ .

فيخليه منه ويرُدّه حينئذ إليه بالفقر والذلة والمسكنة ، ويشهده غاية فقره وإعدامه^(١) وأنه ليس معه من نفسه شيء البتة ، فتعود عزّة ذلك الأنس والصفاء والوجود ذلةً ومسكنة وفقرًا وفاقة ، وذرةً من هذا أحب إليه سبحانه وتعالى وأنفع للعبد من الجبال الرواسي من ذلك الصفاء والأنس المجرد عن شهود الفقر والذلة والمسكنة . وهذا باب لا يتسع له قلب كل أحد .

فصل

ومن النيرة الغيرة على دقيق العلم ومالا يدركه فهم السامع أن يُذكر له . ولهذا النيرة قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : حدّثوا الناس بما يعرفون ، أتحبّون أن يُكذّب الله ورسوله ؟ وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ما أنت بمحدّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلاّ كان لبعضهم فتنة . فالعالم يثار على علمه أن يُبدّل لغير أهله ، أو يضعه في غير محله كما قال عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم : يا بني إسرائيل لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم ، ولا تبدّلوها لغير أهلها فتظلموها .

وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن تفسير قوله تعالى : (الله الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ)^(٢) . فقال لسائل : وما يؤمّنك أنى إن أخبرتك بتفسيرها كفرت ؟ فإنك تكذّب به^(٣) وتكذّبك بها كفرتك بها . فالسألة الدقيقة اللطيفة التي تُبدّل لغير أهلها كالمرأة لحسناء التي تُهدى إلى ضرير مُقعّد كما قيل :

(١) الإعدام والعدم : الفقدان والفقر ، وأعدم الرجل : افتقر .

(٢) آخر سورة الطلاق .

(٣) كذا . . . ولعل الصواب بها .

* خَوْدٌ^(١) تَزْفَ إلى ضرير مُقْعَد *

وكان أبو عليّ إذا وقع شيء في خلال مجلسه من تشويش الوقت يقول :
هذا من غير الحق ، يريد أن لا يجري ما يجري من صفاء الوقت ، قال الشاعر :

كُهِتْ بِإِتْيَانِنَا حَتَّى إِذَا نَظَرْتُ إِلَى الْمِرَاقِ نَهَاهَا وَجْهَهَا الْحَسَنُ
مَا كَانَ هَذَا جَزَائِي مِنْ مَحَاسِنِهَا عُدَّتْ بِالْمَجْرِ حَتَّى شَفَنِي الْخَزَنُ

قال القشيري : وقيل لبعضهم : أتعجب أن ترام ؟ قال : لا ، فيل : ولم ؟
قال : أنزه ذلك الجمال عن نظر مثلي ، وفي معناه أنشدوا :

إِنِّي لِأَحْسُدُ نَاطِرِي عَايِكَا حَتَّى أَغْضَ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَا
وَأُرَاكَ تَخْطُرُ فِي شِمَائِكَا الَّتِي هِيَ فَتْنَتِي فَأَغَارَ مِنْكَ عَلَيَّكَا

قلت : وهذه غير فاسدة وغاية صاحبها أن يُعْفَى عنه وأن يعد ذلك في
شَطَاحَاتِهِ لِلذُّمِّ ، وأما أن تُعَدَّ في مناقبه وفضائله أن يقال أتعجب أن ترى الله
فيقول : لا ورؤيته أعلى نعم أهل الجنة ، وهو سبحانه وتعالى يحب من عبده أن
يسأله النظر إليه ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان من دعائه :
(اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْفَ إِلَى لَتَائِكَ)^(٢) وقول
هذا القائل : أنزه ذلك الجمال عن نظر مثلي من خدع الشيطان والنفس ، وهو
يشبه ما يُنْحَكِي عن بعضهم أنه قيل له : ألا تذكره ؟ فقال : أنزهه أن يرى
ذكره على لساني ، وطرد هذا التنزيه الفاسد أن ينزهه أن يرى كلامه على
على لسانه أو يخطر هو أيضاً على قلبه ، وقد وقع بعضهم في شيء من هذا
فلاموه فأنشد :

(١) الخود : الشهادة الجميلة الناعمة الحسنة الخلق ، جميعها خود وخودات .

(٢) تقدم مطولا في الصفحة ٣٠

يَقُولُونَ ذُرْنَا وَقَضِّ واجِبُ حَقِّنَا وَقَدْ أَشَقَّطْتَ حَالِي حَقَّقَهُمْ عَنِّي
إِذَا هُمْ رَأَوْا حَالِي وَلَمْ يَأْتُوا لَهَا وَلَمْ يَأْتُوا مَنِّي أُنْفِتْ لَهُمْ مَنِّي
وَطَرَدُ هَذِهِ الْغِيْرَةَ أَنْ لَا يَزُورَ بَيْتَهُ غِيْرَةً عَلَى بَيْتِهِ أَنْ يَزُورَهُ مِثْلُهُ . وَلَقَدْ
لُمْتُ شَخْصًا مَرَّةً عَلَى تَرْكِ الصَّلَاةِ فَقَالَ لِي : إِنِّي لَا أَرَى نَفْسِي أَهْلًا أَنْ أَدْخُلَ
بَيْتَهُ ، فَاَنْظُرْ إِلَى تَلَاعِبِ الشَّيْطَانِ بِهِؤْلَاءِ . وَمِنْ هَذَا مَا ذَكَرَهُ الْقُشَيْرِيُّ قَالَ :
سَأَلَ السَّبْئِيَّ مَتَى تَسْتَرِيحُ ؟ فَقَالَ : إِذَا لَمْ أَرَ لَهُ ذَاكَ كَرًّا . وَمَاتَ ابْنُ لَهُ فَقَطَعْتَ
أُمَّهُ شَعْرَهَا فَدَخَلَ هُوَ الْحَمَامُ وَنَوَّرَ لِحْيَتَهُ ^(١) حَتَّى ذَهَبَ شَعْرُهَا . فَقِيلَ لَهُ : لِمَ
فَعَلْتَ هَذَا ؟ فَقَالَ : إِنَّهُمْ يَعِزُّونَنِي عَلَى الْغَفْلَةِ ^(٢) . وَيَقُولُونَ : آجَرَكَ اللَّهُ ، فَقَدِيتَ
ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْغَفْلَةِ بِلَحِيَّتِي وَمُوَافَقَةِ أَهْلِي . وَنَظِيرُ هَذَا مَا يُحْكِي عَنْ
النُّوْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يُؤْذَنُ فَقَالَ : طَعْنَةُ وَسَمِّ الْمَوْتِ ، وَسَمِعَ كَلْبًا
يَنْبُحُ فَقَالَ : أَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ ، فَسَأَلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : أَمَا ذَاكَ فَكَانَ يَذْكُرُهُ
عَلَى رَأْسِ الْغَفْلَةِ ، وَأَمَا الْكَلْبُ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ
بِحَمْدِهِ) ^(٣) . وَسَمِعَ السَّبْئِيَّ مَرَّةً رَجُلًا يَقُولُ : جَلَّ اللَّهُ ، فَقَالَ : أَحَبُّ أَنْ يُجِلَّهُ
هَذَا ، وَيَا عَجَبًا مَنْ يَمُدُّ هَذَا فِي مَنَاقِبِ رَجُلٍ وَيَجْعَلُهُ قُدُوةً وَيَزِينُ بِهِ كِتَابَهُ .
وَهَلْ شَيْءٌ أَشَدُّ عَلَى قَلْبِ الْمُؤْمِنِ وَأَمْرٌ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ لَا يَرَى لِرَبِّهِ ذَاكَ كَرًّا ؟ وَهَلْ
شَيْءٌ أَقْرَبَ لَعَيْنِهِ مِنْ أَنْ يَرَى ذَاكَ كَرِينَ اللَّهُ بِكُلِّ مَكَانٍ ، وَعَذْرُهُ هَذَا الْقَائِلُ أَنَّهُ
لَا يَرَى ذَاكَ كَرًّا لِلَّهِ بِحَقِّ الذِّكْرِ ، بَلَى لَا يَرَى ذَاكَ كَرًّا إِلَّا الْغَفْلَةُ وَالسَّهْوَةُ مُسْتَوَلِيَةٌ
عَلَى قَلْبِهِ ، فَيَذْكُرُ رَبَّهُ بِلِسَانٍ فَارِغٍ مِنَ الْقَلْبِ وَحَضُورِهِ فِي الذِّكْرِ ، وَذَلِكَ
ذِكْرٌ لَا يَلِيْقُ بِهِ ، فَيَغَارُ مَحَبَّتُهُ أَنْ يُذْكَرَ بِهَذَا الذِّكْرِ فَيُحِبُّ أَنْ لَا يَسْمَعَ أَحَدًا

(١) نَوَّرَ لِحْيَتَهُ : دَهَنَهَا بِالنُّوْرِ . وَالتُّوْرَةُ : أَخْلَاطُ تَسْتَعْمَلُ لِإِزَالَةِ الشَّعْرِ .

(٢) أَى عَلَى غَفْلَتِهِمْ عَنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ .

(٣) الْآيَةُ ٤٤ . سُورَةُ الْإِسْرَاءِ .

يذكره هذا الذكر . ولما اشترك الناس في هذا الذكر أخبر أن راحته أن لا يرى له ذا كراً . هذا أحسن ما يُحمَل عليه كلامه ، وإلا فظاهره إلى العداوة أقرب منه إلى المحبة . وليس هذا حال السبلي رحمه الله تعالى فإن المحبة كانت تغلب عليه ، ومع ذلك فهو من شطحاته التي يرجي أن تُعْفَر له بصدقه ومحبه وتوحيده ، لا أنها مما يُحمَدُ عليه ويقتدى به فيه .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يذكره على جميع أحوالهم وإن كان ذكرهم إياه مراتب ، فأعلاها ذكر القلب واللسان مع شهود القلب المذكور وجمعيته بكليته بأحب الأذكار إليه ، ثم دونه ذكر القلب واللسان أيضاً وإن لم يشاهد المذكور ، ثم ذكر القلب وحده ، ثم ذكر اللسان وحده ، فهذه مراتب الذكر وبعضها أحب إلى الله من بعض .

وكان طرْدُ قول السبلي أن راحته أن لا يرى الله مصلياً ، ولا لكلامه تالياً ، ولا يرى أحداً ينطق بالشهادتين ، فإن هذا كلمة من ذكره بل هو أعلى أنواع ذكره ، فكيف يستريح قلب المحب إذا لم ير من يفعل ذلك ؟ والله سبحانه وتعالى يحب أن يُذكر ولو كان من كافر .

وقال بعض السلف : إن الله يحب أن يُذكر كلَّ جميع الأحوال إلا في حال الجماع وقضاء الحاجة . وأوحى الله عزَّ وجلَّ إلى موسى صلى الله عليه وسلم أن اذكرني على جميع أحوالك ، والله تعالى لا يُضِيع أجر ذكر اللسان المجرد ، بل يثيب الذاكِر وإن كان قلبه غافلاً ، ولكن ثواب دون ثواب .

قال القشيري : وسمعت الأستاذ أبا علي يقول في قول النبي صلى الله عليه وسلم في مبايعته فرساً من أعرابي وأنه استقاله^(١) فأقاله ، فقال له الأعرابي : عَمَرَكَ اللهُ فمن أنت ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « امْرُؤٌ من قُرَيْشٍ » فقال له بعض

(١) استقاله البيع : طلب إليه أن يقيه ، أي يفسخ البيع .

الماضرين : كفاك جفاء أن لا تعرف نبيك . قال أبو علي : فإنما قال امرؤ من غريش غيره ، وإلا كان واجباً عليه التعرف إلى كل أحد أنه من هو ، ثم إن الله أجرى على لسان ذلك الصحابي التعريف للأعرابي ، فيقال : من العجب أن يقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم غار أن يذكر أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعرابي الذي لا يعرفه ، وهو كان دائماً يذكر ذلك لأعدائه من الكفار سرّاً وجهرّاً ليلاً ونهاراً ولا يغار من ذلك ، فكيف يُظنُّ به أنه غار أن يُعرف ذلك المسكين أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ هذا من خيالات القوم وتوهماتهم^(١) وإنما ستر عنه ذلك الوقت معرفته له لحكمة لطيفة فهمها الصحابي فصرّح بها للأعرابي ، وهي أن هذا الأعرابي كان جافياً جلفاً^(٢) فأحبّ النبي صلى الله عليه وسلم أن يعرفه جفاءه وجلافته بطريق لا يبيته بها ويعرف من نفسه أنه أهلٌ لذلك ، فكانه يقول بلسان الحال : كفاك جفاء أن تجهلني فتسألني من أنا ، فلما فهم الصحابي ذلك بلطف إدراكه ودقّة فهمه فبادر به وقال : كفاك جفاء أن لا تعرف نبيك .

ثم ذكر القشيري كلام الشبلي أنه قال : غيرة الإلهية على الأنفس أن تضعف فيما سوى الله ، وهذا كلام حسن .

قال القشيري : والواجب أن يقال : الغيرة غيـرتان : غيرة الحق على العبد ، وهو أن لا يجعله للخلق فيضنّ به عليهم ، وغيرة العبد للحق ، وهو أن لا يجعل شيئاً من أحواله وأنفسه لغير الحق سبحانه ، فلا يقال : أنا أغار على الله ولكن يقال : أنا أغار الله ، قال : فإذا الغيرة على الله جهل ، وربما تؤدي إلى ترك الدين . والغيرة لله توجب تعظيم حقوقه وتصفية الأعمال له ، فمن سنّة الحق مع

(١) جمع ترمه : الباطل .

(٢) الجلف : الرجل الجاف .

أولياته أنهم إذا ما كنوا غيراً أو لاحظوا شيئاً أو صالحوا بقلوبهم شيئاً يشوش عليهم ذلك ، فيغار على قلوبهم بأن يعيدها خالصةً لنفسه فارغةً ، كآدم عليه السلام لما وطّن نفسه على الخلود في الجنة أخرجه من الجنة ، وإبراهيم الخليل عليه السلام لما أعجبه إسماعيل أمره بذبحه حتى أخرجه من قلبه ، فلما أسلموا وتلّاه للجبين وصنّف سرّه منه أمره بالفداء عنه . وقال بعضهم : احذروه فإنه غيور لا يحب أن يرى في قلب عبده سواه . وقيل : الحقّ تعالى غيورٌ ومن غيّره أنه لم يجعل إليه طريقاً سواه .

وقال السريّ لرجل عارف : بنى علّة باطنة فداؤها ؟ قال : ياسريّ الله غيورٌ لا يراك تساكن غيره فتسقط من عينه . فهذه غيرةٌ صحيحة .

فصل

وهاهنا أقسامٌ أخرٌ من الغيرة مذمومة منها : غيرةٌ يحمل عليها سوء الظنّ فيؤذى بها الحبُّ محبوبه ويُغرى عليه قلبه بالغضب ، وهذه الغيرةُ يكرها الله إذا كانت في غير ربيّةٍ ، ومنها غيرةٌ تحمله على عقوبة المحبوب بأكثر مما يستحقه كما ذكر عن جماعة أنهم قتلوا محبوبهم . وكان ذلك الجنّ الشاعرُ له غلامٌ وجاريةٌ في غاية الجمال وكان يهواهما جميعاً ، فدخل المنزل يوماً فوجد الجارية معانقةً للغلام تقبله فشدّ عليهما فقتلها ، ثم جلس عند رأس الجارية فبكأها طويلاً ثم قال :

ياطلعةً طلع الحام^(١) عليها وجنى لها ثمرَ اردى بيديها
رويتُ من دمها الثرى وأطالما روى الهوى شقّي من شفتيها

(١) الحام : قضاء الموت وقدره .

وأجلت سيفي في بحال خناقها ومدامعي تجري على خديها
فَوَحَقَّ نعلها فما وطىء الثرى شيء أعزُّ عليَّ من نعلها
ما كان قتلها لأنني لم أكن أبكي إذا سقط الغبارُ عليها
لكن بخلتُ على شواي بحسنها وأنفت من نزار الغلام إليها
ثم جلس عند رأس الغلام فبكي وأنشأ يقول :

أشفقتُ أن يَرِدَ الزمانُ بغيره أو أبتلى بعد الوفاء بهجره
قرُّ أنا استخرجته من دَجَنِهِ^(١) بمودتي وجنيته من خِدره
فقتلته وله على كرامةٍ مِلاء الحشا وله الفؤاد بأسره
عهدي به مَيتًا كأحسن نائمٍ والدَّمعُ ينحر مُقلتي في نحره
لو كان يدرى التَّيْتُ ماذا بعده بالجى منه بكى له في قبره
غُصَصُ^(٢) تكاد تفيض منها نفسه ويكاد يخرج قلبه من صدره

فصل

وقد يغار الحبُّ على محبوبه من نفسه ، وهذا من أعجب الغيرة وله أسباب :
منها : خشيةُ أن يكون مقتاحاً لغيره كما ذكر أن الحسن بن هانيء وعلى بن
عبدالله الجعفرى اجتماعاً فتناشدا فأنشد الحسن^(٣) :

ولما بدا لي أنها لا تودُّني وأنت هواها ليس عني بمنجلى

-
- (١) الدجنة والدجنة : الغيم المطبق والظلمة .
(٢) جمع غصة : وهى الشجرا والحزن وما غص به الإنسان من طعام أو غيظ .
(٣) هو أبو نواس ، وفى كتاب الأغانى للأصبهاني أن هذين البيتين والذين بعدهما كتبهما لعل بن عبد الله الجعفرى .

تَمَنَيْتُ أَنْ تُبَلِّغَنِي بَغِيرِي لَعَلَّهَا تَذُوقُ حَرَارَاتِ الْهَوَى فَيُفَرِّقَ لِي
فَأَنْشُدْهُ عَلَى :

رَبِّمَا سَرَّ نِي صَدُودُوكَ عَنِّي فِي طِلَإِيكَ وَامْتِنَاعِكَ مِنِّي
حَذَرًا أَنْ أَكُونَ مِفْتَاحَ غَيْرِي فَإِذَا مَا خَلُوتُ كُنْتُ التَّمَنَّى
وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَمْتَنِعُ مِنْ وَصْفِ مَحْبُوبِهِ وَذَكَرَ مُحَاسِنَهُ خَشْيَةً تَعْرِضُهُ لِحُبِّ
غَيْرِهِ لَهُ كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى الرَّافِقِيُّ :

وَلَسْتُ بِوَاصِفٍ أَبَدًا خَلِيلًا أَعْرَضَ لِأَهْوَاءِ الرِّجَالِ
وَمَا بَالِي أَشَوْقَ قَلْبٍ غَيْرِي وَدُونَ وَصَالِهِ سَتَرُ الْجِبَالِ
وَكَثِيرٌ مِنَ الْجِبَالِ وَصَفَ امْرَأَتَهُ وَحَاسِنَهَا لَغَيْرِهِ ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا
فِرَاقِهَا لَهُ وَاتِّصَالِهَا بِهِ . .

فصل

ومنها : أَنْ يَجْعَلَهُ فِرْطُ الْغَيْرَةِ عَلَى أَنْ يَنْزِلَ نَفْسَهُ مِنْزَلَةَ الْأَجْنَبِيِّ فَيُغَارِ عَلَى
المَحْبُوبِ مِنْ نَفْسِهِ ، وَلَا يُنْكَرُ هَذَا فَإِنْ فِي الْمَحَبَّةِ عَجَائِبٌ ، وَقَدْ قَالَ أَبُو تَمَّامٍ
الطَّائِيُّ (١) .

بِنَفْسِي مِنْ أَغَارَ عَلَيْهِ مِنِّي وَأَحْسَدَ أَهْلَهُ نَظَرِي إِلَيْهِ
وَلَوْ أَنِّي قَدَرْتُ طَمَسْتُ عَنْهُ عَيُونََ النَّاسِ مِنْ حَذَرِي عَلَيْهِ
حَبِيبٌ بَثَّ فِي جَسَمِي هَوَاهُ وَأَمْسَكَ مَهْجَتِي رَهْنًا لَدَيْهِ
فُرُوحِي عِنْدَهُ وَالْجَسْمُ خَالٍ بِلا رُوحٍ وَقَلْبِي فِي يَدَيْهِ

(١) هذه الأبيات ليست في ديوان أبي تمام المطبوع .

وقال آخر :

يا من إذا ذُكِرَ اسمُهُ في مجلسٍ لذَّ الحديثُ به وطاب المجلسُ
إني كَينَ نظري أغار وإني بك عن سواي من الأنام لأنفسِ
نفسى فداؤُك ولورأيت تلدى (١) خَضِلَ المدامع مطرقاً أنفَسِ
لعلمتَ أنى في هواك مُعَذِّبٌ ومن الحياة ورَوْحها مَسْتَيْسِ

وقال على بن نصر :

أَفَاتِكَ أَنْتِ فَاتِكَةُ بَقْلِي وحسُنُ الوجهِ يَفْتِكُ بالقلوبِ
أَصونكِ عن جميعِ الناسِ يا من بُليتَ بها فأضحت من نصبي
وعن نفسى أصونك ليت نفسى تقيك من الموائد والخطوبِ
وما حقُّ الحِسانِ علىَّ إلاَّ صيانتهم من دَنَسِ (٢) الذنوبِ

فصل

ومنها : شدةُ الموافقة للحبيب ، والحبيبُ يكره أن ينسب محبته إليه وأن يذكر ذلك ، فهو لموافقته لمحبوبه يغار عليه من نفسه كما يسره هجرُ محبوبه إذا علم أن فيه مراده ، قال الشاعر :

مُررتُ بهجرِكِ لما علمتُ أن لقلبك فيه سرورا .
ولولا سروركِ ما سرتنى ولا كنتُ يوماً عليه صبوراً

فصل

وملاك الغيرة وأعلامها ثلاثة أنواع : غيرةُ العبد له أن تُلمَّتْه محارمُهُ وتُضَيَّعَ حدودُهُ . وغيرةُ عَلى قلبه أن يسكن إلى غيره وأن يأنس بسواه ،

(١) التلدد : التحير والتردد .

(٢) الدنس : القبح والوسخ وفعل ما يشين .

وغيرته على حرمة أن يتطالع إليها غيره . فالغيرة التي يحبها الله ورسوله دارت على هذه الأنواع الثلاثة ، وما عداها فيما من خدع الشيطان ، وإما بلوى من الله كغيرة المرأة على زوجها أن يتزوج عليها . فإن قيل : فمن أي الأنواع تعدون غيره . فاطمة رضي الله عنها ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب رضي الله عنه لما عزم على نكاح ابنة أبي جهل ، وغيره رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ؟ قيل : من الغيرة التي يحبها الله ورسوله ، وقد أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم بأنها بضعة^(١) منه وأنه يؤذيه ما آذاها ، ويريبه ما أرابها^(٢) ، ولم يكن يحسن ذلك الاجتماع البتة ، فإن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحسن أن تجتمع مع بنت عدوه عند رجل ، فإن هذا في غاية المنافرة مع أن ذكر النبي صلى الله عليه وسلم صهره الذي حدثه فصدقه ووعداه فوفى له دليل على أن علياً رضي الله عنه كان مشروطاً عليه في العقد إما لفظاً وإما عرفاً وحالاً أن لا يريب فاطمة ولا يؤذيها بل يمسكها بالمعروف ، وليس من المعروف أن يضم إليها بنت عدو الله ورسوله ويغنيها بها ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : «إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي ويتزوج ابنة أبي جهل»^(٣) والشرط العرفي الحالى كالشرط اللفظي عند كثير من الفقهاء كفقهاء المدينة وأحمد بن حنبل وأصحابه رحمهم الله تعالى ، على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خاف عليها الفتنة في دينها باجتماعها وبنت عدو الله عنده ، فلم تكن غيرته صلى الله عليه وسلم لمجرد كراهية الطبع للمشاركة ، بل الحامل عليها حرمة الدين . وقد أشار إلى هذا بقوله : «إني أخاف أن تفتن في ديني»^(٤) والله أعلم بالصواب .

(١) البضعة منه : جزء منه والبضعة : القطعة من اللحم .

(٢) أرابها : أغاظها وأقلقها .

(٣) روى هذه القصة البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم .

(٤) تسكلم الحديث السابق في بعض الروايات .

الباب الثالث والعشرون

في عفاف المؤمنين مع أمهاتهم

قال الله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ،
وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ
لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ
مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) ^(١) ولما أنزلت هذه
الآيات على النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قَدْ أَنْزِلَتْ عَلَى عَشْرٍ آيَاتٍ مِنْ
أَقَامَهُنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ » ^(٢) . ثم قرأ هذه الآيات .

وقال الله تعالى : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا) . إلى قوله : (وَالَّذِينَ هُمْ
لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ
مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) ^(٣) وقال تعالى : (قُلْ
لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ
خَيْرًا يَغْضُوبَ مَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ
فُرُوجَهُنَّ) ^(٤) الآية . وقال تعالى : (وَلَيْسَتُ تَعْفَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى

(١) أوائل سورة المؤمنين .

(٢) رواه الترمذي كما جاء في تفسير الخازن . وقال الخفاجي في حاشيته على
البيضاوي : الحديث وارد في السنن لكنهم اختلفوا في صحته وضعفه .

(٣) الآيات ١٩ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١ . سورة المعارج .

(٤) الآيتان ٣٠ و ٣١ . سورة النور .

يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) ^(١) وقال تعالى : (وَأَنْ يَسْتَغْفِرَ خَيْرَ لِمَنْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) ^(٢) وقال تعالى : (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا) ^(٣) فَإِنْ قِيلَ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) ^(٤) وقال في الآية الأخرى : (وَلَيْسَتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) فأمرهم بالاستغفار إلى وقت الغنى ، وأمر بتزويج أولئك مع الفقر ، وأخبر أنه تعالى يغنيهم ، فما يحمل كلٌّ من الآيتين ؟ فالجواب أن قوله : (وَلَيْسَتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) في حقّ الأحرار ، أمرهم الله تعالى أن يستغفروا حتى يغنيهم الله من فضله ، فإنهم إن تزوجوا مع الفقر اتزموا حقوقاً لم يقدرُوا عليها وليس لهم من يقوم بها عنهم ، وأما قوله : (وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ) فإنه سبحانه أمرهم فيها أن ينكحوا الأيامى وهنَّ النساء اللواتى لا أزواج لهنَّ ، هذا هو المشهور من لفظ الأيتم عند الإطلاق وإن استعمل في حقّ الرجل بالتحديد ، كما أن العزب عند الإطلاق للرجل وإن استعمل في حقّ المرأة . ثم أمرهم سبحانه أن يزوجوا عبيدهم وإماءهم إذا صلبوا للنكاح ، فالآية الأولى في حكم تزويجهم لأنفسهم ، والثانية في حكم تزويجهم لغيرهم . وقوله في هذا القسم : (إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ) يَعْنِي الْأَنْوَاعَ الثَّلَاثَةَ الَّتِي ذُكِرَتْ فِيهِ ، فَإِنَّ الْأَيْتِمَ تَسْتَعْنَى بِنَفَقَةِ زَوْجِهَا وَكَذَلِكَ الْأَمَةُ ، وَأَمَّا الْعَبْدُ فَإِنَّهُ لِمَا كَانَ لَا مَالَ لَهُ وَكَانَ مَالُهُ أَسِيدِهِ

(٢١) (الْآيَتَانِ ٣٣ وَ ٦٠ . سُورَةُ النُّور .

(٣) (آخِرُ سُورَةِ التَّحْرِيمِ .

(٤) (الْآيَةُ ٢٢ . سُورَةُ النُّور .

فهو فقيرٌ مادام رقيقاً فلا يمكن أن يُجعل لنكاحه غايةً وهي غناه ما دام عبداً ، بل غناه إنما يكون إذا عتق واستغنى بهذا العتق ، والحاجة تدعوه إلى النكاح في الرقي ، فأمر سبحانه بإنكاحه وأخبر أنه يغنيه من فضله ، إما بكسبه وإما بإتفاق سيده عليه وعلى امرأته ، فلم يمكن أن ينتظر بنكاحه الغنى الذي ينتظر بنكاح الحر والله أعلم .

وفي المسند وغيره مرفوعاً : ثَلَاثَةٌ حَقَّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ : الْمُتَزَوِّجُ يُرِيدُ الْعَقَافَ ، وَالْمُكَاتَبُ يُرِيدُ الْآدَاءَ ، وَذَكَرَ الثَّالِثُ ^(١) .

فصل

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عن يوسف الصديق صلى الله عليه وسلم من العفاف أعظم ما يكون ، فإن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق غيره فإنه صلى الله عليه وسلم كان شاباً والشبابُ مركب الشهوة ، وكان عززاً ليس عنده ما يعرضه ، وكان غريباً عن أهله ووطنه . والمقيم بين أهله وأصحابه يستحي منهم أن يعلموا به فيسقط من عيونهم ، فإذا تغرب زال هذا المانع ، وكان في صورة الملوك والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر ، وكانت المرأة ذات تمصيص وجمال والداعي مع ذلك أقوى من داعي من ليس كذلك ، وكانت هي للمطالبة فيزول بذلك كلفة تعرض الرجل وطلبه وخوفه من عدم الإجابة ، وزادت مع الطلب الرغبة التامة والمرادة التي يزول بمعها ظن الامتحان والاختبار لتعلم عفافه من فجوره ، وكانت في محل سلطانها وبيتها بحيث تعرف وقت الإمكان

(١) هو المجاهد في سبيل الله . والمكاتب : العبد الذي كاتبه سيده على نفسه بثمنه فإذا سعى وأداه عتق .

ومكانه الذى لا تناله العيون ، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب لتأمن هجوم الداخل على بنته ، وأتته بالرغبة والرغبة ، ومع هذا كله ففعل الله ولم يطعها ، وقدم حق الله وحق سيدها على ذلك كله ، وهذا أمر لو ابتغى به سواه لم يعلم كيف كانت تكون حاله ، فإن قيل : فقد هم بها ، قيل عنه جوابان ، أحدهما : أنه لم يهتم بها بل لولا أن رأى برهان ربه لهم ، هذا قول بعضهم فى تقدير الآية . والثانى : وهو الصواب أن همه كان هم خطرات فتركه الله فأثابه الله عليه وهمها كان هم إصرار بذلت معه جهدها فلم تصل إليه فلم يستوهمان .

قال الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : لهم هتان : هم خطرات وهم إصرار ، فهم الخطرات لا يؤاخذ به ، وهم الإصرار يؤاخذ به . فإن قيل : فكيف قال وقت ظهور براءته : (وَمَا أُبْرئِي نَفْسِي) قيل : هذا قد قاله جماعة من المفسرين وخالفهم فى ذلك آخرون أجل منهم وقالوا : إن هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف عليه السلام ، والصواب معهم لوجود أحدها : أنه متصل بكلام المرأة وهو قولها : (الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوْدُتُهُ عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لَعِنَ الصَّادِقِينَ . ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ . وَمَا أُبْرئِي نَفْسِي)^(١) ومن جعله من قوله فإنه يحتاج إلى إضمار قول لا دليل عليه فى اللفظ بوجه ، والقول فى مثل هذا لا يحذف للثلا يوقع فى اللبس^(٢) فإن غايته أن يحتمل الأمرين ، فالسكلام الأول أولى به قطعاً .

(١) الآيات ٥١ و ٥٢ و ٥٣ . سورة يوسف . وحصل الحق : وضع وتبين بعد خفائه .

(٢) اللبس : الشبهة تخفى معها حقيقة الأمر . ولبس الشيء : خلطه وعماه ولبس عليه الأمر جعله مشكلاً ومدعاة إلى الشك والحيرة .

الثانى : أن يوسف عليه السلام لم يكن حاضراً وقت مقاتلتها هذه ، بل كان فى السجن لما تكلمت بقولها : (الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ) ، والسياق صريح فى ذلك فإنه لما أرسل الملك إليه يدعوه قال للرسول : (أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ)^(١) فأرسل إليهن الملك وأحضرهن وسألهن وفيهن امرأته ، فشهدن براءته ونزاهته فى غيبته ، ولم يُمكنهن إلا قول الحق فقال النسوة : (حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ)^(٢) وقالت امرأة العزيز : (أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)^(٣) فإن قيل : لكن قوله : (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)^(٤) الأحسن أن يكون من كلام يوسف عليه السلام ، أى إنما كان تأخيرى عن الخضور مع رسوله ليعلم الملك أنى لم أخنهُ فى امرأته فى حال غيبته وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم قال : (وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)^(٥) وهذا من تمام معرفته صلى الله عليه وسلم بربه ونفسه ، فإنه لما أظهر براءته ونزاهته مما قُذف به أخبر عن حال نفسه وأنه لا يزكّيها ولا يبرئها ، فإنها أمارة بالسوء لكن رحمة ربه وفضله هو الذى عصمه ، فردّ الأمر إلى الله بعد أن أظهر براءته ، قيل : هذا وإن كان قد قاله طائفة فالصواب أنه من تمام كلامها ، فإن الضمائر كلها فى نسق واحد يدل عليه وهو قول النسوة : (مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ) وقول امرأة العزيز : (أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) فهذه خمسة ضمائر بين بارزٍ ومستترٍ ثم اتصل بها قوله : (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) فهذا هو

المذكور أولاً بعينه فلا شيء يَفْصِلُ الكلام عن نظامه وَيَضْمُرُ فيه قول لا دليل عليه ، فإن قيل فما معنى قولها : (لَيْتَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهُ بِالْقَيْبِ) قيل : هذا من تمام الاعتذار ، قرنت الاعتذار بالاعتراف فقالت : ذلك أى قولى هذا وإقرارى ببراءته ليعلم أنى لم أخنه بالكذب عليه فى غيبته وإن خنته فى وجهه فى أول الأمر ، فالآن يعلم أنى لم أخنه فى غيبته ، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها : (وما أبرئى نفسى) ثم ذكرت السبب الذى لأجله لم تبرئى نفسها ، وهى أن النفس أمارة بالسوء ، فتأمل ما أعجب أمر هذه المرأة ! أقربت بالمق و اعتذرت عن محبوبها ، ثم اعتذرت عن نفسها ، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت ، ثم ختمت ذلك بالطمع فى مغفرة الله ورحمته وأنه إن لم يرحم عبده وإلا فهو عرضة للشر ، فوازن بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلام يوسف عليه السلام لفظاً ومعنى ، وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت ، ولا يستبعد أن تقول المرأة هذا وهى على دين الشرك فإن القوم كانوا يُقرّون بالرب سبحانه وتعالى وبحقه وإن أشركوا معه غميره ، ولا تنس قول سيدّها لها فى أول الحال : (وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ)^(١) .

فصل

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فى ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَاكِبٌ نَشَأَ فى عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَاقٌ بِالْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلَانِ

(١) الآية ٢٩ : سورة يوسف .

تَحَابُّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَالَ فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ » (١) .

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بَيْنَمَا ثَلَاثَةٌ يَمْشُونَ إِذْ أَخَذَتْهُمْ السَّمَاءُ فَأَوَّأُوا إِلَى غَارٍ فِي الْجَبَلِ فَانْحَطَّتْ عَلَيْهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَأُطْبِقَتْ عَلَيْهِمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَنْظِرُوا أَعْمَالًا صَالِحَةً عَمِلْتُمُوهَا فَادْعُوا اللَّهَ بِهَا ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَبُوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَامْرَأَةٌ وَصِيبَانِ وَكُنْتُ أَرْغَى عَلَيْهِمْ فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ أَسْقِيهِمَا قَبْلَ بَنِيَّ وَأَنَّهُ نَأَى بِي الشَّجَرُ فَلَمْ أَتْ حَتَّى أُمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أُحَلِبُ فَقُمْتُ عِنْدَ رُؤُوسِهِمَا أَسْكُرُهُ أَنْ أَوْقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا وَأَنْ أَبْدَأَ بِالصَّبِيَّةِ قَبْلَهُمَا وَالصَّبِيَّةُ يَتَضَاغَوْنَ (٢) عِنْدَ قَدَمَيَّ فَلَمْ أَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ فَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي قَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهِكَ فَأَفْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً تَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ فَفَرَجَ اللَّهُ لَهُمْ فُرْجَةً . وَقَالَ الْآخَرُ : اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةٌ عَمٌّ فَأَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرَّجُلُ الْمَسَاءَ فَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا فَأَبَتْ حَتَّى آتَيْتَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ فَسَعَيْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ فَحِثْنْتُهَا بِهَا فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ : يَا عَبْدَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَفْضُ الْخُلَاطِمَ إِلَّا بِحَقِّهِ ، فَقُمْتُ عَنْهَا وَتَرَكْتُ الْمِائَةَ دِينَارٍ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهِكَ فَأَفْرُجْ لَنَا مِنْ

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأحمد . كما قال السيوطي .

(٢) يتضاغون : يتضورون ويصيحون من الجوع .

هَذِهِ الصَّخْرَةُ فَفَرَجَ اللَّهُ لَهُمْ فُرْجَةً . فَقَالَ الْآخَرُ : اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ
أَجِيرًا يَفْرِقُ^(١) مِنْ أَرْضٍ فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ : أَعْطِنِي حَقِّي فَأَعْطَيْتُهُ فَأَبَى أَنْ
يَأْخُذَهُ فَوَزَعْتُهُ وَنَمَيْتُهُ حَتَّى اشْتَرَيْتُ لَهُ بَقْرًا وَرِعَاءَهَا^(٢) فَبَجَّاءَنِي بَعْدَ حِينٍ
فَقَالَ : يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَظْلِمْنِي وَأَعْطِنِي حَقِّي ، فَقُلْتُ : أَذْهَبُ إِلَى تِلْكَ الْبَقْرِ
وَرِعَائِهَا فَهَوِّ لَكَ ، فَقَالَ : اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَهْزَأْ بِي ، فَقُلْتُ : لَا أُسْتَهْزِئُ بِكَ
فَيُخَذُ ذَلِكَ ، فَأَخَذَهَا وَذَهَبَ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ أَبْنَاءً وَجِهَكَ
فَأَفْرِجْ عَنَّا مَا بَقِيَ مِنَ الصَّخْرَةِ فَفَرَجَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَخَرَجُوا يَمْشُونَ^(٣) .

وقال عبيد الله بن موسى : حدثنا شيبان بن عبد الرحمن ، عن الأعشى ،
عن عبد الله بن عبد الله الرازي ، عن سعد بن مولى طلحة ، عن ابن عمر رضي الله
عنهما قال : لقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً لو لم أسمعهُ إلا
مرة أو مرتين حتى عدَّ سبع مرَّات ما حدثت به ، ولكن سمعته أكثر من
ذلك قال : « كَانَ ذُو الْكَيْلِ^(٤) مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ
فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَأَعْدَاَهَا سِتِينَ دِينَاراً عَلَى أَنْ يَطَّأَهَا فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَعْدَ الرَّجُلِ
مِنَ الْمَرْأَةِ أُرْعِدَتْ وَبَكَتْ فَقَالَ : مَا يُبْكِيكِ أَكْرَهْتِكِ ؟ قَالَتْ : لَا وَلَسَكُنْ
هَذَا عَمَلٌ لَمْ أَعْمَلْهُ قَطُّ ! قَالَ : فَتَفْعَلِينَ هَذَا وَلَمْ تَفْعَلِيهِ قَطُّ ؟ قَالَتْ :
حَمَلْتَنِي عَلَيْهِ اتَّخَذَهُ فَتَرَكَهُ ثُمَّ قَالَ : أَذْهَبِي وَانْزِيرِي لَكَ ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ

(١) الفرق : مكيال معروف بالمدينة يسع ثلاثة آصع أو ستة عشر رطلاً أو
أربعة أرباع .

(٢) رعاء : جمع رعية وهي الكلاء أو جمع راع .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) في الجامع الصحيح : الكفل وكذلك هو في تهذيب التهذيب في ترجمة

سعد مولى طلحة راوى القصة عن ابن عمر رضي الله عنهما .

لَا يَعْصِي اللَّهُ ذُو الْكَفْلِ أَبَدًا فَمَاتَ مَنْ كَيْلَتْهُ فَأَصْبَحَ مَكْتُوبًا عَلَى بَابِهِ : غَفَرَ اللَّهُ لَذِي الْكَفْلِ » (١) . وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله من حديث عُبَيْدَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « عَجِبَ رَبُّكَ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبَوَةٌ » .

وذكر البرد عن أبي كامل ، عن إسحاق بن إبراهيم ، عن رجاء بن عمرو النخعي ، قال : كان بالكوفة فتى جميل الوجه شديد التعبُّد والاجتهاد فنزل في جوار قوم من النخع ، فنظر إلى جاريةٍ منهم جميلةٍ فهُويها وهام بها عقله ، ونزل بالجارية ما نزل به فأرسل يخطبها من أبيها ، فأخبره أبوها أنها مسمَّاة لابن عمِّ لها (٢) ، فلما اشتدَّ عليهما ما يقاسياناه من ألم الهوى أرسلت إليه الجارية : قد بلغني شدة محبتك لي وقد اشتدَّ بلائي بك ، فإن شئت زرتك ، وإن شئت سهلت لك أن تأتيني إلى منزلي ، فقال للرسول : ولا واحدة من هاتين أنخلتني ، (إني أخافُ إن عصيتُ ربِّي عذابَ يومٍ عظيمٍ) (٣) أخاف ناراً لا يخبو سعيها ، ولا يحمدها لها ، فلما أبلغها الرسولُ قوله قالت : وأراه مع هذا يخاف الله ؟ والله ما أحدٌ أحقُّ بهذا من أحدٍ ، وإن العباد فيه لمشركون ، ثم أنخلت من الدنيا وألقت علاقتها (٤) خلف ظهرها وجعلت تتعبَّد ، وهي مع ذلك تذبذب وتنحلُّ حبًّا للفتى وشوقاً إليه حتى ماتت من ذلك ، فكان الفتى يأتي قبرها فيسكى عنده ويدعو لها ، فغلبته عينه ذات يوم على قبرها فرآها في منامه في أحسن منظر فقال : كيف أنت وما لقيت بعدى ؟ قالت :

(١) أورده المؤلف في الباب السابع والعشرين معزواً إلى جامع الترمذى وهو أيضاً في المسند .

(٢) مسماة له وعليه : مخطوبة له .

(٣) الآية ١٥ سورة الانعام ، الآية ١٥ سورة يونس ، الآية ١٣ سورة

الزمر . (٤) جمع علاقة : وهي ما تعلق بها من مال وزوج وولد .

نعمَ المحبّة يَسْأَلُ^(١) محبتكم حبّ يقود إلى خير وإحسان

فقال : على ذلك إلى مَ صرتِ ؟ فقالت :

إلى نعيمٍ وعيشٍ لا زوال له في جَنَّةِ الخلد ملك ليس بالقانى
فقال لها : اذكرينى هناك فإنى لست أنساك ، فقالت : ولا أنا والله أنساك ،
ولقد سألت مولاي ومولاك أن يجمع بيننا فأعنى على ذلك بالاجتهاد ، فقال لها :
متى أراك ؟ فقالت : ستأتينا عن قريبٍ فترانا ، فلم يعشِ القى بعد الرؤيا إلا سبع
ليالٍ حتى مات رحمه الله تعالى .

وذكر الزُّبَيْرُ بن بكار أن عبد الرحمن بن أبي عمار نزل مكة وكان من
عِبَادِ أهلها فسَمِعَ القسَّ من عبادته ، فرمى يوماً بجارية تغنى فوق فسمع غناءها
فراها مولاهما فأمره أن يدخل عليها فأبى ، فقال : فاقعد في مكانٍ تسمع غناءها
ولا تراها ، ففعل فأعجبته ، فقال له مولاهما : هل لك أن أحوّلها إليك ؟ فامتنع
بعض الامتناع ثم أجابه إلى ذلك ، فنظر إليها فأعجبته فشغف بها وشغفت به ،
وعلم بذلك أهل مكة ، فقالت له ذات يومٍ : أنا والله أحبك ، فقال : وأنا والله
أحبك ، قالت : فإنى والله أحب أن أضع فى على فك ، قال : وأنا والله أحب
ذلك ، قالت : فما يمنعك ؟ فأبى الموضع خال ، قال لها : ويحك إني سمعت الله
يقول : (الأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ)^(٢) فأنا والله أكره أن
يكون صلة ما بينى وبينك فى الدنيا عداوةً فى القيامة ، ثم نهض وعيناه تذرفان
بالدموع من حبّها .

وقال عبد الملك بن قُرَيْبٍ^(٣) : قلت لأعرابي : حدثني عن ليلتك مع فلاة

(١) السؤل : مأسأله . والحاجة .

(٢) الآية : ٦٧ سورة الزخرف .

(٣) هو الأصمى .

قال : نعم خلوت بها والقمر يُرينيها فلما غاب أرتذيه ، قلت : فما كان بينكما ؟
قال : أقرب ما أحلَّ الله مما حرَّم الله : الإشارة بغير ما باس ، والدُّنُو بغير
إمساس ، ولعمري لئن كانت الأيام طالت بعدها لقد كانت قصيرة معها
وحسبك بالحب :

ما إن دعاني الهوى لفاحشة إلا نهاني الحياء والكرم
فلا إلى فاحشٍ مددتُ يدي ولا تمشتُ بي لريسة قدم
وقال آخر :

وصفوها فلم أزل علم الله كئيهاً مستولماً مستهماً^(١)
هل عليها في نظارة من جناح من فتى لا يزور إلا لماماً^(٢)
حال فيها الإسلام دون هواه فهو يهوى ويحفظ الإسلاماً
ويميل الهوى به ثم يخشى أن يطيع الهوى فيلقى أثاماً
وقال الحسين بن مطير :

أحبك يا سقنى على غير ريبة ولا بأس في حب تعف سرأته
أحبك حباً لا أعنف بعده محباً ولكنى إذا ليم عاذره
وقد مات قلبي أول الحب مرة ولومت أنهى الحب قدمات آخره
وقال محمد بن أبي زُرعة الدمشقي

إن حظي ممن أحب كفاف^(٣) لا صدودٌ مقصٍ ولا إنصافُ
كلما قلت قد أنابت إلى الوصل لئلا ثناها عما أريد العفافُ

(١) مستولماً : مضطرب العقل . ومستهماً : هائماً .

(٢) لا يزور إلا لماماً : في الأحايين .

(٣) كفاف : قليل والكفاف من الرزق ما كف عن الناس أى أغنى . وفي الحديث : اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً .

فكأنى بين الصدود وبين الـ وصل ممن مقامه الأعراف^(١)
 فى محل بين الجنان وبين النـ ر أرجو طَوْراً وطَوْراً أخاف
 وقال عثمان بن الضحاك الحزامى : خرجت أريد الحج فزلت بالأبواء ،
 فإذا امرأة جالسة على باب خيمة فأعجبني حسنها فتمثلت بقول نصيب :
 بزئبب أليم^(٢) قبل أن يرحل الركب وقل إن تمليتنا فما ملك القلب
 فقالت : يا هذا أتعرف قائل هذا الشعر ؟ قالت : نعم نصيب ، قالت : فتعرف
 زئببه ؟ قلت : لا ، قالت : فأنا زئببه ، قلت : حياك الله ، قالت : أما إن اليوم
 موعده من عند أمير المؤمنين ، خرج إليه عام أول فوعدنى هذا اليوم ، لعلك
 لاتبرح حتى تراه ، قال : فبينما أنا كذلك إذا أنا براكب ، قالت : ترى ذلك
 الراكب ؟ إني لأحسبه إياه ، قال : فأقبل فإذا هو نصيب ، فنزل قريباً من الخيمة
 ثم أقبل فسلم حتى جلس قريباً منها يسألها وتساؤلها أن ينشدها ما أحدث
 فأشدها ، فقلت فى نفسى : محبان طال التناى بينهما لابد أن يكون لأحدهما
 إلى صاحبه حاجة ، فقممت إلى بعيرى لأشد عليه ، فقال : على رسلك إني معك ،
 فجلست حتى نهض معى فنسايرنا ثم التفت إلى فقال : أقلت فى نفسك محبان
 التقيا بعد طول التناى فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة ؟ قلت :
 نعم قد كان ذلك ، قال : ورب هذه التنية ما جلست منها مجلساً هو أقرب
 من هذا .

وقال عمر بن شبة : حدثنا أبو غسان قال : سمعت بعض المدنيين يقول :
 كان الرجل يحب الفتاة فيطوف بدارها حولاً فيفرح أن يرى من يراها ، فإن

(١) الأعراف : قيل هو سور بين الجنة والنار .

(٢) أليم : أنزل . والإمام الترمذ .

ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار . واليوم يشير إليها وتشير إليه قبيدُها
وتعده فإذا التقيا لم يشك حبا ولم ينشد شعرا ، وقام إليها كأنه قد أشهد على
نكاحها أبا هريرة رضى الله عنه . وقال محمد بن سيرين : كانوا يعشقون في غير
ريية ، وكان الرجل يأتي إلى القوم فيتحدث عندهم لا يستنكر له ذلك . وقال
هشام بن حسان : لكن اليوم لا يرَضونَ إلا بالمواقعة . وقيل لأعرابي :
ما تعدُّون العشق فيكم ؟ قال : القُبلة والضمة والعزّة ، وإذا نكح الحب فسد .
وقال المبرّد : كان العتيّ يحبّ جارية تسمى ملك ، فكتب إليها :

يا مَلَكٌ قد صرت إلى خُطّةٍ	رضيتُ منها فيك بالضمّ ^(١)
ما اشتعلت عيني على رَقْدَةٍ	مذ غبت عن عيني إلى اليوم
فبت مفتوقَ تجارى البكا	معطلَ العين عن النوم
ووجدبى الدهر بكم غُلّةً	فالموت من نفسى على سَومٍ ^(٢)
يلومنى الناس على حبّكم	والناس أولى فيك باللوم

قال : فكتبت إليه :

إن تكن الغُلّةُ هاجت بكم فمالج الغُلّةُ بالصوم
ليس بك الحبُّ ولكنّا تدور من هذا على كَومٍ

يقال : كام الفحل يكوم كَومًا إذا نزا على الحجرة^(٣) وأرادت هذه المشوقة
قول النبي صلى الله عليه وسلم : « يامعشرَ الشّبابِ من استطاعَ مِنْكُمْ الباءةَ
فليتزوّج فإنّه أغضُّ للبصرِ وأحصنُ للفرجِ » ومن لم يستطع فعليه بالصوم

(١) الضيم : الظلم .

(٢) على سوم : أى يطلبها ويحوم حولها .

(٣) هى الانثى من الخيل ، وأكثر اللغويين يقولون بغيرها .

فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاهٌ» (١).

وقال أبو الحسن المدائني : هَوَىَّ يَعْصِيُ الْمُسْلِمِينَ جَارِيَةً بِمَكَّةَ فَأَرَادَهَا فَامْتَنَعَتْ عَلَيْهِ ، فَقَالَ عَلَى لِسَانِ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ :

سَأَلْتُ التَّقِيَّ (٢) الْمَكِّيَّ هَلْ فِي تَعَانُقٍ وَقَبْلَةٍ مُشْتَقٍ الْفَرَادِ جُنَاحُ .
فَقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَذْهَبَ التَّقِيُّ تَلَاصُقُ أَكْبَادٍ بَيْنَ جِرَاحٍ .
فَقَالَتْ : اللَّهُ سَأَلْتُ عَطَاءَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ لَكَ هَذَا ؟ فَقَالَ : اللَّهُمَّ نَعَمْ ، فَرَارَتِهِ وَجَعَلْتَ تَقُولُ : إِيَّاكَ أَنْ تَتَعَدَّى مَا أَفْتَاكَ بِهِ عَطَاءُ .

وقال الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَاجِشُونِ قَالَ : أُنْشَدْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الْمُنْكَدِرِ قَوْلَ وَضَّاحِ الْيَمَنِ :

فَمَا نَوَلْتُ حَتَّى تَضَرَّرْتَ حَوْلَهَا وَأَقْرَأْتُهَا مَا رَخَّصَ اللَّهُ فِي اللَّئِمِّ (٣)
فَضَحِكَ مُحَمَّدٌ وَقَالَ : إِنْ كَانَ وَضَّاحٌ لَمُفْتِيًا فِي نَفْسِهِ .

وقال الأصمعي : قِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : مَا كُنْتَ صَانِعًا لَوْ ظَفَرْتَ بِمَنْ تَهْوَى ؟
قَالَ : كُنْتُ أُمَتِّعُ عَيْنِي مِنْ وَجْهِهَا ، وَقَلْبِي مِنْ حَدِيثِهَا ، وَأَسْتَرُ مِنْهَا مَا لَا يَحِبُّهُ اللَّهُ ، وَلَا يَرْضَى كَشْفَهُ إِلَّا عِنْدَ حِلِّهِ ، قِيلَ : فَإِنْ خِفْتَ أَنْ لَا تَجْتَمِعَا بَعْدَ ذَلِكَ ؟
قَالَ : أَكُلُّ قَلْبِي إِلَى حُبِّهَا ، وَلَا أَصْبِرُ بِقَبِيحِ ذَلِكَ الْفِعْلِ إِلَى نَقْضِ عَهْدِهَا . قَالَ :
وَقِيلَ لِأَخْرٍ وَقَدْ زُوِّجَتْ عَشِيقَتُهُ مِنْ ابْنِ عَمِّهَا وَأَهْلُهَا عَلَى إِهْدَائِهَا إِلَيْهِ : أَيَسْرُكُ أَنْ تَظْفَرَ بِهَا اللَّيْلَةَ ؟ قَالَ : نَعَمْ وَالَّذِي أُمْتَعِنِي بِهَا وَأَشْقَانِي بِطَلِبِهَا ، قِيلَ : فَمَا كُنْتَ صَانِعًا ؟ قَالَ : كُنْتُ أَطِيعُ الْحُبَّ فِي لُثْمِهَا ، وَأَعْصِي الشَّيْطَانَ فِي لُثْمِهَا ، وَلَا أَفْسِدُ

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

(٢) البيتان تقدما في صفحة ١١٣ و ١٢٤ باختلاف في اللفظ .

(٣) اللئيم : الصغير من الذنوب نحو القبلة والنظرة وما أشبهها .

عشق عشر سنين بما يبق عاره ، وتُنشَر بالقبيح أخباره ، في ساعة تَنفَدُ لَدَتْهَا ،
وتبقى تَبِعَتْهَا لاني إذاً للئيم ، لم يَغْذُنِي أَصْلٌ كَرِيم .
وقال عباس الدّوري : كان بعضُ أصحابنا يقول : كان سفيان الثوريُّ كثيراً
ما يتمثل بهذين البيتين :

تَنفَى اللَّذَاذَةُ مِنْ نَالِ صَفْوَتِهَا مِنْ الْحَرَامِ وَيَبْقَى الْوِزْرُ وَالْعَارُ
تَبْقَى عَوَاقِبُ سُوءٍ فِي مَبْغَبَتِهَا^(١) لِأَخِيرٍ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ
وقال الحسين بن مطير :

وَنَفْسَكَ أَكْرَمَ عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ فَمَا لَكَ نَفْسٌ بَعْدَهَا تَسْتَعِيرُهَا
وَلَا تَقْرَبِ الْمَرْغَى الْحَرَامَ فَإِنَّمَا حَلَاوَتُهُ تَفْنَى وَيَبْقَى سَرِيرُهَا
وقال الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : الفتوة ترك ما تهوى لما تخشى
وقال الخرائطي : حدثنا إبراهيم بن الجنيّد ، حدثنا عبد الله بن أبي بكر
المقدّمى ، حدثنا جعفر بن سليمان الضُّبَعِي قال : سمعت مالك بن دينار يقول : بينا
أنا أطوف إذ أنا بجارية متعبدة متعلّمة بأستار الكعبة وهى تقول : يارب كم
من شهوة ذهبت لَدَتْهَا ، وبقيت تَبِعَتْهَا ، أيارب أما لك أدبٌ إلّا النار ؟ فما زال
مقامها حتى طلع الفجر ، فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسى خارجاً أقول :
تُكَلِّتُ مَالَكَا أُمَّهُ ، جَوَيرِيَّةٌ مِنْذُ اللَّيْلَةِ قَدْ بَطَلَتْهُ^(٢) .

وطائفةً بالبيت والليلُ مظلمُ تقول ومنها دُمعها يتسجَمُ^(٣)
أيارب كم من شهوةٍ قد رزنتُها ولذّة عيشٍ حبلها متصرَّمُ^(٤)

(١) المغبة : عاقبة الشيء .

(٢) بطلته : عطلته . وأبطل : فسد وذهب ضياعاً وخسراً . وأبطل : جاء
بالباطل . وتبطل : تمطل . وفى الأساس : البطل المتعطل (وشر الفتيان المتبطل المتعطل)

(٣) يتسجم : يسيل .

(٤) تصرم : تقطع وتقضى .

أما كان يكفي للعباد عقوبةً ولا أدباً إلاّ الجحيم المضرّم
فما زال ذلك القول منها تضرّعاً إلى أن بدا فجر الصباح المقدّم
فشبكت منى الكف أهتف خارجاً

على الرأس أبدى بعض ما كنت أكتب
وقلت لنفسى إذ تطاول ما بها وأعياء عليها وزدّها للتغنم
ألا ثكالك اليوم أمك مالكا جويرة أهلك منها التكلم
فما زلت بطلاً بها طول ليلة تنال بها حظاً جسيماً وتغنم

وقال مخرمة بن عثمان : نُبئت أن فتى من العباد هوى جارية من أهل
البصرة فبعث إليها يخطبها فامتنعت وقالت : إن أردت غير ذلك فعلت ، فأرسل
إليها : سبحان الله ! أدعوك إلى مالا إثم فيه وتدعينى إلى مالا يصالح ؟ فقالت :
قد أخبرتك بالذى عندى فإن شئت فتقدم ، وإن شئت فتأخر ، فأنشأ يقول :

وأساءلها الحلال وتدع^(١) قلبى إلى مالا أريد من الحرام
كداعى آل فرعون إليه وهم يدعونونه نحو الأثام
فقال " منعماً فى الخلد يبعى وظلوا فى الجحيم وفى السقام

فما علمت أنه قد امتنع من الفاحشة أرسالت إليه : أنا بين يديك على الذى
تحب ، فأرسل إليها : لا حاجة لنا فيمن دعونه إلى الطاعة ودعانا إلى المعصية ،
ثم أنشد :

لا خير فيمن لا يراقب ربه عند الهوى ويخافه إيماناً
حبّب التقي سبل الهوى فأخوالتقى بخشى إذا وافى المَعَد هواناً

(١) كذا.. بحذف حرف العلة ولا مسوغ له إلا الضرورة .

وقال عبد الملك بن مروان لليلى الأخيلية : بالله هل كان بينك وبين توبة
سوءاً قط ؟ قالت : والذي ذهب بنفسه وهو قادرٌ على ذهاب نفسه ما كان بيني
وبينه سوءاً قط ، إلا أنه قدم من سفر فصالحته فغمزَ يدي فظننت أنه يَخْنَعُ^(١)
لبعض الأمر فذلك معنى قولي :

وَدَى حَاجَةً لِقُلَّالِهِ لَا تَبْجُ بِهَا فليس إليها مَاحِيَتِ سَبِيلُ
لَنَا صَاحِبٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ نَخُونَهُ وَأَنْتِ لِأُخْرَى صَاحِبٌ وَخَلِيلُ
قالت : لا والذي ذهب بنفسه ما كلمني بسوء قط حتى فرقت بيني
وبينه الموت .

وقال ابن أحرر : بينا أنا أطوف بالبيت إذ بصرتُ بامرأةٍ متبرعةٍ تطوف
بالبيت وهي تقول :

لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ مَعْشُوقَةٍ عَمَلًا يَوْمًا وَعَاشِقُهَا غَضْبَانٌ مَهْجُورٌ^(٢)
ليست بمأجورةٍ في قتل عاشقها لكن عاشقها في ذاك مأجورٌ

قلت لها : في هذا الموضع ؟ فقالت : إليك عني لا يعلِّقُك الحب ، قلت :
وما الحب ؟ قالت : جلّ والله عن أن يخني ، وخفيّ عن أن يُرَى ، فهو كالنار
في أحجارها ، إن حرّ كته أوزى^(٣) ، وإن تركته توارى ، ثم أنشدت تقول :

غَيْدٌ أَوْ أَوْانِسٌ مَا هَمَّ نَ بَرِييَّةٍ كظباء مكة صيدُهُنَّ حَرَامُ
يُحْسِبَنَّ مِنْ لَيْنِ الْحَدِيثِ أَوْانِسًا^(٤) وَيَصُدُّهُنَّ عَنْ اتِّخَاكِ الْإِسْلَامِ

(١) يخضع : يدعو إلى الفجور . والخنعة : الزينة والفجور .

(٢) تقدم البيتان في الصفحة ١٧٣ .

(٣) أوزى : اشتعل .

(٤) تقدم البيتان في الصفحة ٢٤٣ وفيهما : د يحسبن من لين الحديث زوانياً ،

والخنثى : الفحش .

وقد روى محمد بن عبد الله الأنصارى ، حدثنا عبد الوارث ، عن محمد بن جُحادة ، عن الوليد ، عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا وَصَامَتْ شَهْرَهَا وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا دَخَلَتْ الْجَنَّةَ » ^(١) . وقال هشام بن عمار : حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا أبي ، حدثنا ابن هُبَيْمَةَ ، عن موسى بن وردان ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَيُّمَا امْرَأَةٍ اتَّقَتْ رَبَّهَا وَأَخْصَنَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ادْخُلِي مِنْ أَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ » ^(٢) .

وقال الزبير بن بكار : أخبرني شعيب بن يحيى بن سعيد الأموى ، حدثني أبي أن امرأةً لقيت كُثَيْبَ عَزَّةَ فقالت : تسمع بالمُعَيْدِىَّ خيرٌ من أن تراه ، قال : مه رحلك الله ! فأنا الذى أقول :

فَإِنَّكَ مَعْرُوقَ الْعِظَامِ فَإِنِّى إِذَا مَا وَزَنْتِ الْقَوْمَ بِالْقَوْمِ أُوزِنَ
قالت : وكيف تُوزَنُ بالقوم وأنت لا تعرف إلا بعزَّة ٢ قال : والله لئن قلت ذلك لقد رفع الله بها قدرى ، وزين بها شعرى ، وإنها لَسَكَمًا قلت :
وما روضةٌ بالخزن طاهرة الثرى يَمِجُّ النَّدى جُثْجُثُهَا وَعَرَارُهَا ^(٣)
بأطيب من أردانٍ عزَّةٌ مَوْهِنَا وقد أوقدت بالمندل الرطب نارُها
من الخُفَرَاتِ البَيْضِ لم تلق شِقْوَةً وبالحسب المسكون صافٍ نِجَارُها
فإن برزت كانت لعينيك قُرَّةً وإن غبت عنها لم يعمك عَارُها

(١) رواه أحمد والبخاري والطبراني . كما جاء في الجامع الصغير للسيوطى .

(٢) في مسند أحمد عن عبد الرحمن بن عوف باختلاف في اللفظ .

(٣) تقدمت هذه الأبيات في صفحة ٢٢٩

قالت : أرايت حين تذكر طيبها فلو أن زنجيةً تخرجت بالمدل الرطب
لطاب ريحها ، ألا قلت كما قال امرؤ القيس .

خليلى مرأى على أم جندب نقضى لبانات^(١) الفؤاد المذنب
ألم ترائى كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب ؟
فقال : والله الحق خير ما قيل ، هو والله أنعت لصاحبه منى .

ودخلت عزة على عبد الملك بن مروان وهو لا يعرفها ترفع مظامة لها ، فلما
سمع كلامها تعجب منه ، فقال له بعض جلسائه : هذه عزة كثير ، فقال لها
عبد الملك إن أردت أن أرد عليك مظامتك فأنشدنى ما قال فيك كثير ،
فاستحييت وقالت والله ما أعرف كثيراً ولكن سمعتهم يحكون عنه أنه
قال فى :

قفى كل ذى دين فوق غريمه وعزة ممتول معنى غريمها
فقال عبد الملك ليس عن هذا أسألك ، ولكن أنشدنى من قوله :

وقد زعمت أنى تغيرت بعدها ومن ذا الذى يا عز لا يتغير
تغير جسمى والخلق كالذى عديت ولم يخبر بسرك مخبر
قالت : ما سمعت هذا ولكن سمعت الناس يحكون عنه أنه قال فى :

كأنى أنادى صخرة حين أغرست من الصم لو تمشى بها العصم زلت
صفوح^(٢) فى تلقاك إلا بخيلة فمن مل منها ذلك الوصل ملك
فقضى حاجتها ورد مظامتها وقال : أدخلوها على الجوارى يأخذن من أدها .
وذكرت عنه أنه قال فيها أيضاً :

(١) جمع لبانة : الحاجة والنهمة .
(٢) المرأة الصفوح : المرحلة الهاجرة .

ومأملت منها محرماً غير أنى أقبل بساماً من الثغر أفلجا
والثم فاهما تارة ثم تارة وأترك حاجات النفوس تخرجاً

وقال الزبير بن بكار، عن عباس بن سهل الساعدي قال: بينا أنا بالشام إذ
لقيني رجل من أصحابي فقال هل لكم في جميل نعوذه؟ فدخلنا عليه وهو يهود
بنفسه وما يُخَيَّلُ إلى إلا أن الموت يكرهه^(١)، فنظر إلى ثم قال: يا ابن سهل،
ما تقول في رجل لم يشرب الخمر قط، ولم يزن، ولم يقتل نفساً؟ يشهد أن لا إله إلا
الله؟ قلت: أظنه قد نجا وأرجو له الجنة، فمن هذا الرجل؟ قال: أنا، قلت:
والله ما أحسبك سلمت وأنت تشبب^(٢) منذ عشرين سنة في بُئينة، فقال:
لانا لئن شفاعته محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة — فإني في أول يوم من
أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا — إن كنت وضعت يدي عليها لريية.
فأبرحنا حتى مات.

وقال عوانة بن الحكم: كان عبد المطلب لا يسافر إلا ومعه ابنه الحارث،
وكان أكبر ولده، وكان شبيهاً به جمالاً وحُسنًا، فأُتِيَ اليمَن وكان يجالس
عظيماً من عظمائهم فقال له: لو أمرت ابنك هذا يجالسني وينادمني، ففعل،
فعمشت امرأته الحارث، فراسلته فأبى عليها، فأأجحت عليه، فأخبر بذلك أباه،
فلما يئست منه سقته سم شهر، فارتحل به عبد المطلب حتى إذا قدم مكة مات
الحارث. وذكرها هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه، وذكر رثاء أبيه
له بقصيدته التي فيها:

(١) يكرهه: يشتد عليه ويبلغ منه المشقة.
(٢) شبب بفلانة: تغزل بها ووصف حسناتها.

والحارث القياض أكرم ماجد أيام نازعه الهمام الكاسا
ولما احتضِرَ أبو سفيان بن الحارث هذا وهو ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم
قال لأهله : لا تبكوا عليَّ فإنِّي لم أتنط (١) بخطيئة منذ اسلمت .

ولما قدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبد الملك خرجت برجله الآكلة (٢)
فاجتمع رأى الأطباء على نشرها وأنه إن لم يفعل سرت إلى جسمه فهلك ، فلما
عزم على ذلك قالوا له : نسقيك مرقة ؟ قال : ولم ؟ قالوا : لثلاث تحسُّ بما يُصنع ،
قال : لا بل شأنكم ، فنشروا ساقه بالنشار ، فما أزال عضواً عن عضوه حتى
فرغوا منها ثم حسموها (٣) ، فلما نظر إليها في أيديهم تناولها وقال : الحمد لله ،
أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني مامشيت بك إلى حرام قط .

ولما حضرت عمر بن أبي ريعة الوفاة بكى عليه أخوه الحارث ، فقال له
عمر : يا أخي إن كان أسفك لما سمعت من قولي : قلت لها وقالت لي ، فكل
مملوك لي حرٌّ إن كنت كشفت حراماً قط . فقال الحارث : الحمد لله تعالى
طابت نفسي .

وقال سفيان بن محمد دخلت يوماً عزة على أم البنين أخت عمر بن
عبد العزيز فقالت يا عزة ما قول كثير ؟

قضى كل ذي دين فوق غريمه وعزة مطول معنى غريمها ؟ (٤)

(١) تنطف : تلتطخ .

(٢) الآكلة : الحسكة والجرب .

(٣) حسموها : كورها لكيلا يسيل الدم .

(٤) تقدم هذا البيت في الصفحة ٥٠ ومطل فلانما بدينه : سوفه بوعده الوفاء
مرة بعد الأخرى ، ومعنى : معذب حزين ، مكلف بما يشق عليه .

ما كان هذا الدين ؟ فقالت : كنت وعدته بقُبْلَةٍ فتحرّج منها ، فقالت
أم البنين : أنجزها وعلى إيمها ، قالت : فأعتقت أم البنين بكلمتها هذه أربعين
رقبةً ، وكانت إذا ذكرتها بكّت وقالت : ليتني خَرَسْتُ ولم أتكلّم بها .
ولما احتضر ذو الرُّمّة قال : لقد هممت بمئ عشرين سنة في غير رِيبةٍ
ولا فساد .

وكان الحارث بن خالد بن هشام الخزوميّ عاشقاً لعائشة بنت طلحة وله فيها
أشعارٌ أفرد لها ابن الرزبان كتاباً ، فلما قُتل عنها مُصعَّب بن الزبير قيل للحارث :
ما يمنعك الآن منها ؟ قال : والله لا يتحدث رجال قريش أن تشيبي بها كان
لرِيبةٍ ولشيء من الباطل .

وقال ابن عُلّانة : دخلت على رجلٍ من الأعراب خيمته وهو يُن قُلت :
ما شأنك ؟ قال : عاشق ، قُلت له : ممن الرجل ؟ قال : من قومٍ إذا عشقوا ماتوا
عَفّةً ، فجعلت أعذله (١) وأزهدّه فيما هو فيه ، فتنفّس الصُّعداء ثم قال :
ليس لي مسعدٌ فأشكرو إليه إنما يسعدُ الحزين الحزينُ
وقال سعيد بن عُبَيْة لأعرابي : ممن الرجل ؟ قال : من قومٍ إذا عشقوا ماتوا
قال : عذري وربّ السكبية ، قُلت له : وممّ ذلك ؟ قال : في نساننا صِباحة ،
وفي رجالنا عفة .

وقال سفيان بن زياد : قلت لامرأة من عُذرةٍ ورأيت بها هوىً غالباً خفت
عليها الموت منه : ما بال العشق يقتلكم معاشرَ عُذرةٍ من بين أحياء العرب ؟
فقال : فينا جبالٌ وتعفُّفٌ والجمال يحملنا على العفاف ، والعفاف يورثنا رقة
القلوب ، والعشق يفنى آجالنا ، وإنا برى عيوناً لا ترونها .

وقال أبو عبيدة مَعْمَرُ بن المُنْتَنِي : قال رجلٌ من بني فزارة لرجلٍ من

(١) أعذله : ألومه

بنى عذرة : ما بعد موتكم من الحب مزية ، وإنما ذلك من ضعف البنية ووهن العقل وضيق الرئة ، فقال له العذري : أما لو رأيتم الحاجر البلج ، ترشق بالأعين الدعج ، من فوقها الخواجب الزج ، والشفاه الشجر ، تفتقر عن الشنايا الفر ، كأنها لغلم الدر ، بلطتموها اللات والعزني ونبذتم الإسلام وراء ظهوركم^(١) .

وقال بئر بن الويد : سمعت أبا يوسف يقول في مرضه الذي مات فيه : اللهم إنك تعلم أني لم أظأ فرجاً حراماً قط وأنا أعلم ، ولم آكل درهماً حراماً قط وأنا أعلم .

وقال إسماعيل بن إسحاق القاضي : دخلت على المعتضد وعلى رأسه غلمان صبايح الوجوه أحداث ، فنظرت إليهم فرآني المعتضد وأنا أتأملهم ، فلما أردت القيام أشار إلي ، فكشفت ساعة فلما خلا قال لي : أيها القاضي والله ما حلت سراويلي على حرام قط .

وقال اليزيدي : جلس محمد بن منصور بن بسام وعلى رأسه عدة خديم لم يرق قط أحسن منهم ، ما منهم من ثمنه ألف دينار بل أكثر ، لجعل الناس ينظرون إليهم فقال محمد : هم أحرار لوجه الله إن كان الله كتب على ذنبا مع واحد منهم ، فمن عرف خلاف ذلك منهم فليعض فإنه قد عتق وهو في حل مما يأخذ من مالى .

وقال إبراهيم بن أبي بكر بن عياش : شهدت أبي عند الموت فبكت فقال : ما يبكيك ؟ فما أنى أبوك فاحشة قط .

(١) البلج جمع أبلج : الذى بعد ما بين عينيه فهو أبلج وهى بلجاء . الدعج : جمع دعجا . والدعج : شدة سواد العين مع سعتها . والزج جمع زجا . والزجج : دقة فى الحاجبين وطول . الشنايا جمع شنية : وهى أربع أسنان فى مقدم الفم ، ثنتان من فرق وثلثان من أسفل الفر : البيضاء .

وقال عمر بن حفص بن غياث : لما حضرت أبي الوفاة أغشى عليه فبكيت عند رأسه ، فقال لي حين أفاق : ما يبكيك ؟ قلت : أبكى لفراقك ولما دخلت فيه من هذا الأمر يعنى القضاء قال : لا تبك فإنى ما حلت سراويلي على حرام قط ، ولا جالس بين يدي خصمان فباليت على من توجه الحكم منهما .

وقال سفيان بن أحمد المصيصي : شهدت الهيثم بن جميل وهو يموت وقد سبجى^(١) نحو القبلة ، فقامت جاريته تغمز رجله فقال : اغمزيهما فإن الله يعلم أنهما ما مشتا إلى حرام قط .

وقال محمد بن إسحاق : نزل السرى بن دينار في درب بمصر وكانت فيه امرأة جميلة فتنت الناس بمجالها ، فعلت به المرأة فقات : لأتقننه فلما دخلت من باب الدار تكشفت وأظهرت نفسها ، فقال : مالك ؟ فقالت : هل لك في فرائس وطى وعيش رخى ؟ فأقبل عليها وهو يقول :

وكم ذى معاصٍ نال منهن لذةً ومات فحلاً لها وذاق الدواميا
أصرم لذات المعاصى وتنقضى وتبقى تباعات المعاصى كما هيا^(٢)
فيا سوءاً والله راء وسامعٌ لعبدٍ بعين الله يغشى المعاصيا

وقال عمر بن بكير : قال أعرابي : علقت امرأة كنت آتيها فأحدثها سنين وما جرت بيننا ريبة قط ، إلا أنى رأيت بياض كفها في ليلة ظلماء فوضعت يدي على يدها ، فقالت : مه^(٣) لا تفسد ما بيني وبينك ، فإنه ما نكح حب

(١) سبجى الميت : مد عليه ثوباً وغطاه .

(٢) أصرم : تنقضى وتذهب . وتباعات جمع تباعة : ظلامه أو ما يترتب على الفعل من الخير والشر إلا أن استعمله في الشر .

(٣) مه : اسم فعل مبنى على السكون بمعنى انكفف ، ولا تقل بمعنى اكفف لأن اكفف يتعدى ولا يتعدى . وحكمها في التنكير والوصل حكم صه . وجاء في القاموس المحيط للفيروز آبادي : مهممه قال له مه مه أى اكفف .

قطاً إلا فسد . قال : فممت وقد تصببت عرقاً حياً منها ولم أجد إلى شيء من ذلك .

وذكر أبو الفرج وغيره أن امرأة جميلة كانت بمكة ، وكان لها زوج ، فلظرت يوماً إلى وجهها في المرأة فقالت لزوجها : أترى أحداً يرى هذا الوجه لولا يفتن به ؟ قال : نعم ، قالت : من ؟ قال : عبيد بن عمير ، قالت : فائذن لي فيه فلأفتننه ، قال : قد أذنت لك ، قال : فأتته كالمستغنية ، فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام فأسفرت عن وجهه مثل فلقة القمر ، فقال لها : يا أمة الله استتري ، فقالت : إني قد فتنت بك قال : إني سائلك عن شيء فإن أنت صدقتني نظرت في أمرك قالت : لا تسألني عن شيء إلا صدقتك قال : أخبريني لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك أكان يسرك أن أفضى لك هذه الحاجة ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت قال : فلو دخلت قبرك وأجلست للمساءلة أكان يسرك أني قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت قال : فلو أن الناس أعطوا كتبهم ولا تدرين أناخذين كتابك يمينك أم بشمالك أكان يسرك أني قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت ، قال : فلو أردت الممر على الصراط ولا تدرين هل تنجين أو لا تنجين أكان يسرك أني قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت ، قال : فلو جىء بالميزان وجىء بك فلا تدرين أيخف ميزانك أم ينقل أكان يسرك أني قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا ، قال : فلو وقفت بين يدي الله للمساءلة أكان يسرك أني قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت قال : أتسقى الله فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك ، قال : فرجعت إلى زوجها فقال : ما صنعت ؟ قالت : أنت بطال ونحن بطالون ، فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة ، فكان زوجها يقول : مالي ولعبيد بن عمير أفسد على امرأتى ، كانت في كل ليلة عروساً فصيرها راهبة .

وقال سعيد بن عبد الله بن راشد : علقت فتاةً من العرب فتىً من قومها
وكان عاقلاً فجعلت تكثر التردد إليه ، فلما طال عليها ذلك مرضت وتغيّرت
واحتالت في أن خلاها وجُهِه ، فتعرضت إليه ببعض الأمر فصرفها ودفعا عنه
فتزايد المرض حتى سقطت على الفراش ، فقالت له أمُّه : إن فلانة قد مرضت وها
علينا حتى ، قال : فعوديتها وقولي لها : يقول لك ما خبرك ؟ فسارت إليها أمه وسألها
مابك ؟ فقالت : وجعٌ في فؤادي هو أصل علتي ، قالت : فإن ابني يسألك عن
علتك ، فتتفست الصعداء ثم قالت :

يسألني عن علتي وهو علتي عجيبٌ من الأنبياء جاء به الخبر
فانصرفت إليه أمه وأخبرته وقالت له : تريد أن تصير إليك ؟ فقال : نعم ،
فذكرت أمه لها ذلك فبكت وقالت :

ويبعدني عن قربته ولقائه فلما أذاب الجسم مني تعظما
فلست بأت موضعاً فيه قاتلي كفاني سقاماً أن أموت تلهفا
وتزايدت بها العلة حتى ماتت .

وأحب رجلٌ من أهل الكوفة يسمى أبا الشعناء امرأةً جميلةً ، فلما علمت
به كتبت إليه وقالت :

لأبي الشعناء حبٌ دائمٌ ليس فيه تهمةٌ لمتهم
يا فؤادي فازدجر^(١) عنه ويا عبثَ الحبِّ به فاقصد وقم
جاءني منه كلامٌ صائدٌ ورسالاتُ المحبين الكلم

(١) ازدجر وانزجر بمعنى زجره : منعه ونهاه قال تعالى : (ولقد جاءهم من
الأنبياء ما فيه مزدجر) أي منع من ارتكاب المآثم .

صائد يأمنه غزلانه مثل ما يأمن غزلان الحرم
صل إن أحببت أن تعطى المنى يا أبا الشعثاء الله وصم
ثم ميعادك بعد الموت في جنة الخلد إن الله رجم
حيث ألقاك غلاماً ناشئاً ناعماً قد كملت فيه النعم

وقال الأصمعي عن أبي سفيان بن العلاء قال : بصرت الثريا بعمر بن أبي
ربيعه وهو يطوف حول البيت ، فتسكرت وفي كفها خلوق^(١) فزخمته فأثر
الخلوق في ثوبه : فجعل الناس يقولون : يا أبا الخطاب ما هذا زىء الحرم
فأنشأ يقول :

أدخل الله رب موسى وعيسى جنة الخلد من ملائ خلوقا
مسحت كفها بحبيب قميصي حين طأفنا بالبيت مسجداً رفيقا

فقال له عبد الله بن عمر : مثل هذا القول في هذا الموضع ؟ فقال له :
يا أبا عبد الرحمن قد سمعت مني ما قد سمعت قورب هذه البذية ما حلت إزارى
هلي حرام قط .

وقيل لليلي الأخيلية : هل كان بينك وبين توبة ما يكرهه الله ؟ قالت : إذا
أكون منسلخة من ديني إن كنت ارتكبت عظيماً ثم أتبعه بالكذب .
وقال العتبي : خرجت إلى المربد فإذا بأعرابي غزل فيلت إليه فذكرت
النساء فتنفس ثم قال : يا ابن أخي إن من كلامهن لما يقوم مقام الماء فيشفي
من الظما . فقلت : صف لي نساءكم ، فقال : نساء الحى تريد ؟ قلت : نعم
فأنشأ يقول :

(١) الخلق : ضرب من الطيب أكثر أجزائه من الزعفران .

رُجِحَ^(١) وَلَسَنَ مِنَ اللّوَاتِي بِالضَّحَى لَذِيولُنَّ عَلَى الطَّرِيقِ غُبارَ
يَأْنَسَنَ عِنْدَ بَعولُنَ إِذَا مَخَّـلَوْا وَإِذَا هُمُ خَرَجُوا فَهِنَ خِفْصَارُ^(٢)
قال العتيبي: فأخبرت به أبي قال: تدري من أين أخذ قوله: وإن من كلامهن
ما يقوم مقام الماء فيشفي من الظما؟ قلت: لا، قال: من قول القمامي:

يَتَمُتُّنَا بِحَدِيثٍ لَيْسَ يَعلَمُهُ مِنْ يَتَقِينَ وَلَا مَكْنُونُهُ بَادِي
فَهْنٌ يُبْسِدِينَ مِنْ قَوْلِ يُصِيبُ بِهِ مَوَاقِعَ المَاءِ مِنْ ذِي الغُلَّةِ الصَّادِي^(٣)

وهذه الطائفة لعفتهم أسباب أقواها إجلال الجبار، ثم الرغبة في الحور
الحسان في دار القرار، فإن من صرف استمتاعه في هذه الدار إلى ما حرم الله عليه
منعه من الاستمتاع بالحور الحسان هناك، قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يَلْبِسِ
الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ^(٤)»، وَمَنْ شَرِبَ الخمرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ
يَشْرَبْ بِهَا فِي الآخِرَةِ^(٥). فلا يجمع الله للعبد لذة شرب الخمر ولبس الحرير والتمتع
بما حرم الله عليه من النساء والصبيان ولذة التمتع بذلك في الآخرة، فليستخير
العبد نفسه إحدى اللذتين، وليطب نفساً عن إحداها بالأخرى؛ فلن يعمل
الله من أذهب طبيباته في حياته الدنيا واستمتع بها كمن صام عنها ليوم فطره
من الدنيا إذا لقي الله. ودون ذلك مرتبة أن يتركها خوف النار فقط، فإن
تركها رغبة ومحبة أفضل من تركها لجرّد خوف العقوبة.

(١) امرأة رجاح: عجزاء وأيضاً: رزان

(٢) خفّار: شديداً الحياء، ذوات وفاء.

(٣) في الأغاني وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة: فهن يلبسن.. الخ وذو الغلة

الصادي: الشديد المطش.

(٤) رواه الشيخان والنسائي وابن ماجه وأحمد والطبراني. كما قال السيوطي

(٥) رواه ابن ماجه. ورواه بنحوه البخاري ومسلم.

ثم أدنى من ذلك أن يحمله عليها خوفُ العار والشنار^(١)، ومنهم من يحمله على العفة الإبقاء على محبته خشية ذهابها بالوصال، ومنهم من يحمله عليها عفة محبوبه ونزاهته، ومنهم من يحمله عليها الحياء منه والاحتشام له وعظمتُهُ في صدره . ومنهم من يحمله عليها الرغبة في جميل الذكر وحسن الأجدوثة، ومنهم من يحمله عليها الإبقاء على جاهه ومروءته وقدره عند محبوبه وعند الناس، ومنهم من يحمله عليها كرم طبعة وشرف نفسه وعلو همته، ومنهم من يحمله عليها لذّة الظفر بالعفة فإن للعفة لذّة أعظم من لذّة قضاء الوطر، لكنها لذّة يتقدمها ألم حبس النفس ثم تعقبها اللذّة، وأما قضاء الوطر فبالعند من ذلك، ومنهم من يحمله عليها علمه بما تعقبه اللذّة الحرمة من المضارّة والمفاسد، وجمع الفجور خلال الشر كلها، كما ستقف عليه في الباب الذي يلي هذا إن شاء الله تعالى .

فصل

ولم يزل الناسُ يفتخرون بالعفة قديماً وحديثاً، قال إبراهيم بن هرمة :
ولربّ لذّةٍ لیسلةٍ قد نلتها وحرامها بحلالها مدفوعٌ
وقال غيره :

إذا ما همنا صدّنا وازعجتني فولى على أعقابهِ الهمُّ خاسئاً
وقال آخر :

أتأذنون لصبٍّ في زيارتكم فعندكم شهواتُ السمع والبصر
لا يُضمرُ سوءٌ إن طالَت إقامة عفتُ الضميرِ والسكن فاسقُ النظر

(١) الشنار: أقبح العيب والعار والامر المشهور بالشنعة .

وقال مسلم بن الوليد :

الأرب يوم صادق العيش ناته بها وندامى العفافة والنهى^(١)
وقال آخر :

إف ترّينى زانى العيين فالفرج عفيف
ليس إلا النظر الف الف والشعر الطريف
وقال الموسوى^(٢) :

بتناضجيمين فى ثوبى هوى وتقى يلفنا الشوق من قرنى إلى قدم
يشى بنا الطيب أحساناً وآونة يضيئنا البرق مجتازاً على إضم^(٣)
ثم اثنيينا وقد رابت^(٤) ظواهرنا وفى بواطننا بسد عن التهم
وقال نفطويه :

كم قد خلوت بمن أهوى فيمنعني منه الحياء وخوف الله والحدرد
وكم ظفرت بمن أهوى فيقنعني منه الفكاهة والتجيش^(٥) والنظر
أهوى الحسان وأهوى أن أجالسهم وليس لى فى حرام منهم وطرد
كذلك الحب لا إتيان معصية لا خير فى لذّة من بعدها سقر
وقال الشهاب محمود بن سليمان صاحب ديوان الإنشاء (الجلبي) :

-
- (١) العفافة : العفة وهى الكف عما لا يحل ولا يحمل قولاً أو فعلاً .
والنهى جمع نهية : العقل ، سمي به لأنه ينهى عن التبيح وعن كل ما ينافيه .
(٢) هو الشريف الرضى .
(٣) إضم كمنب : جبل ، والوادي الذى فى المدينة المنورة .
(٤) رابت : دعت إلى الشك .
(٥) التجيش : المغازلة بالقرص والملاعبة .

لله وقفة عاشقين تلاقيا من بعد سلول نوحى وبعدي مزار
يتعاطيان من الغرام مُدَامَةً زادتُهما بهسداً من الأوزار
صدقا الغرام فلم يَمِيلْ طَرَفٌ إِلَى فُحْشٍ وَلَا كَفٍّ لِمَلٍّ إِذَا زَار
فتلاقيا وتفرقا وكلاهما لم يَخْشَ مَطْعَنَ عَائِبٍ أَوْ زَار^(١)

وقيل لبُئِنَّة : هذا جميل لما به فهل عندك من حيلة تُنَفِّسُ بها وجده؟
فقلت ما عندي أكثر من البكاء إلى أن ألقاه في الدار الأخرى ، أو زيارته
وهو ميت تحت الثرى . وقيل لعتبة بعد موت عاشقها : ما كان يفرك لو أمتعتيه
بوجهك؟ قالت : منعني من ذلك خوفُ العار ، وشماتةُ الجار ، ومخافةُ الجبار .
وإن بقلبي أضعاف ما بقلبه غير أني أجده ستره أبقي للمودة ، وأحده للعاقبة ،
وأطوع للرب ، وأخف للدين .

وهوى فتى امرأة وهوينته وشاع خبرهما فاجتمعا يوماً خاليتين فقال لها :
هلمى نمتق ما يقال فينا فقلت : لا والله لا كان هذا أبداً وأنا أقرأ : (الْأَخِلَاءُ
يَوْمَ ثَلِيَّةٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ)^(٢) . وقيل لبعضهم وقد هوى
جارية فطال عشقه بها : ما أنت صانع لو ظفرت بها ولا يراكا إلا لله؟
قال : والله لأجعلته أهون الناظرين إلى ، لأفعل بها خالياً إلا ما أفعله
بمحضرة أهلها ، حنينٌ طويل ، ولحظٌ من بعيد ، وأترك ما يستخط الرب ،
ويفسد الحب .

إذا كان حفظُ المرء ممن يحبه حراماً فخطي ما يَحِلُّ وَيَجْمَلُ
حديثُ كماء المُرْن بين فصوله عتابٌ به حسنُ الحديث يُفَصِّلُ

(١) زرى عليه فعله : عابه .

(٢) الآية ٦٧ : سورة الزخرف .

وَلَثَمُ فَمَ عَذَبِ اللَّاتِ كَأَنَّمَا جَنَاهُنْ شَهْدُ فُتِّ فِيهِ الْقَرْنُفَلِ
وَمَا الْعَشْقُ إِلَّا عَفَّةٌ وَزَاهَةٌ وَأُنْسُ قُلُوبِ أَنْسَهْنُ التَّغْزُلِ
وإِنِّي لَأَسْتَحْيِي الْحَبِيبَ مِنَ التِّي تَرُيبُ وَأُدْعِي لِلْجَبِيلِ فَأُجْمِلِ
وقال آخر :

وإِنِّي لَمُشْتَاقٌ إِلَى كُلِّ غَايَةٍ مِنْ الْمَجْدِ يَكْبُو دُونَهَا التَّطَاوُلِ
بِذُولٍ لِمَالِي حِينَ يَبْخُلُ ذُو النُّهْيِ عَفِيفٌ عَنِ الْفَحْشَاءِ قَرْمٌ حُلَّاحِلٌ^(١)
وما أَلْطَفَ قَوْلُهُ : حِينَ يَبْخُلُ ذُو النُّهْيِ فَإِنَّ ذَا النُّهْيِ لَا يَبْخُلُ إِلَّا فِي مَوْضِعِ
الْبَخْلِ ، فَأَخْبَرَ هَذَا أَنَّهُ يَبْذُلُ مَالَهُ حِينَ يَبْخُلُ بِهِ رَبُّهُ فِي مَوْضِعِ الْبَخْلِ .

وقال عامر بن حذافة : رَأَيْتُ بِصُحَّارَ^(٢) جَارِيَةً قَدْ أَهْمَمَتْ خَدَّيْهَا بِقَبْرِ
وَهِيَ تَبْكِي وَتَقُولُ :

خَسِدِي يَقِيمُكَ خَشُونَةَ اللَّحْدِ وَأَقْلُ مَا لَكَ سَيِّدِي خَسِدِي
يَا مَسَاكِنَ التُّرْبِ الَّذِي بُوْفَاتِهِ عَمِيَتْ عَلَى مَسَالِكِ الرُّشْدِ
إِسْمَاعِ فَدَيْتُكَ قَصَصِي فَلَعَانِي أَشْنَى بِذَلِكَ غُلَّةَ الْوَجْدِ
قال : فَسَأَلْتُهَا عَنْ صَاحِبِ الْقَبْرِ فَقَالَتْ : فَتَى رَافَقْتُهُ فِي الصَّبَا ، ثُمَّ أَنْشَأَتْ تَقُولُ :
كُنَّا كَزَوْجِ حَامِئٍ فِي أَيْكَةٍ^(٣) مَتْنَعِمِينَ بِصِحَّةٍ وَشَبَابِ
فَعَدَا الزَّمَانُ مَشْتَتَاً بِفِرَاقِهِ إِنْ الزَّمَانُ مَفْرَقُ الْأَحْبَابِ

(١) القرم : السيد المعظم ، والحلاحل : السيد في عشيرته ، والشجاع الركين
في مجامع

(٢) صحار بالضم : قصبة عمان مما يلي الجبل . كما جاء في الصحاح للجوهري .

(٣) الأيكة وجمعها أيك : الشجر السكثيف الملتف وقيل الغيضة تنبت السدر
والأراك ونحوهما من ناعم الشجر .

قال : فبكيت لركة شعرها فأنشأت تقول :

تبكى عليه ولست تعرف أمره فلا علمك حاله ببيان
ما كان للعافين^(١) غير نواله فإذا اشتجير ففارس الفرسان
لا يتبع الجيران رفة طرفه ويتابع الإحسان للجيران
عف السريرة والجيرة مثلها فإذا استضم^(٢) أراك فتق طعان

فقلت : أعلمني من هو ؟ قالت : سنان بن وبرة الذى يقول فيه الشاعر :

يا رائداً غيباً لنجعة قومه يكفيك من غيب نوال سنان
ثم قالت : يا هذا والله لولا أنك غريب مامتك من حديثي . قلت : فكيف
كان حبه لك ؟ قالت : ما كان يوسدني إذا نمت إلا يده ، فكنت معه أربعة
أحوال^(٣) ما توسدت غيرها إلا في حال يمنع مانع .

وقال سعيد بن يحيى الأموى : حدثني عمى محمد بن سعيد ، حدثنا عبد الملك
ابن عمير قال : كان أخوان من ثقيف من بنى كنة بينهما من التحاب شيء .
لا يملعه إلا الله ، وكل واحد منهما أخوه عنده عدل^(٤) نفسه ، فخرج الأكبر
منهما إلى سفر له وله امرأة فأوصى أخاه بحاجة أهله ، فبينما المقيم في دار الظاعن
إذ مرت امرأة أخيه في رجع تجوز من بيت إلى بيت ، وكانت من أجل البشر ،
فراى شيئاً حيره ، فلما رآته ولت ووضع يدها على رأسها ودخلت بيتاً ، ووقع
حبها في قلبه ، فجعل يذوب وينحل جسمه ويتغير لونه . وقدم أخوه فقال :
مالك يا أخى متغيراً ، ما وجعك ؟ قال : ما بى من وجع ، فدعاه الأطباء فلم يقف

(١) العافين : طلاب المعروف . والنوال : العطاء .

(٢) استضم : انتقص حقه ، وضامه حقه واستضمه : ظلمه .

(٣) جمع حول : السنة .

(٤) العدل : ما عدل الشيء . والمثل والنظير .

أُحْدُ عَلَى دَائِهِ غَيْرِ الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ وَكَانَ طَبِيبًا فَقَالَ : أَرَى عَيْنَيْنِ مَحِيحَتَيْنِ
وَمَا أُدْرَى مَا هَذَا الْوَجَعُ وَمَا أَظُنُّهُ إِلَّا عَاشِقًا ، فَقَالَ لَهُ أَخُوهُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، أَسْأَلُكَ
عَنْ وَجَعِ أَخِي وَأَنْتَ تَسْتَهْزِئُ بِهِ ، فَقَالَ : مَا فَعَلَ ، وَسَأَسْقِيهِ شَرَابًا عِنْدِي
فَإِنْ كَانَ عَاشِقًا فَسَيَتَبَيَّنُ لَكُمْ ، فَأَتَاهُ بِشَرَابٍ فَعَمِلَ يَسْقِيهِ قَلِيلًا قَلِيلًا ، فَلَمَّا أَخَذَهُ
الشَّرَابَ هَاجَ وَقَالَ :

أَلِمَّا بِي عَلَى الْأَيَّامِ تَ مِنْ خَيْفٍ تَرُورُهُنَّ
غَزَالٌ مَا رَأَيْتُ الْيَوْمَ مَ فِي دُورِ بَنِي كُنَّةِ
أَسِيلُ الْخَلْدِ مَرْبُوبٌ^(١) وَفِي مَنْطِقِهِ غُذُفَةٌ

فَقَالَ : أَنْتَ طَبِيبُ الْعَرَبِ فَمَنْ ؟ قَالَ : سَأُعِيدُ لَهُ الشَّرَابَ وَلَعَلَّهُ يَسْمَى ،
فَأَعَادَ لَهُ الشَّرَابَ فَسَمِيَ الْمَرْأَةُ ، فَطَلَّقَهَا أُخْرَاهُ لِيَتَزَوَّجَهَا فَقَالَ الْمَرِيضُ : عَلَى كَذَا
وَكَذَا إِنْ تَزَوَّجْتَهَا ، فَقَضَى وَلَمْ يَتَزَوَّجَهَا .

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمُبَارَكِ السَّرَاجُ : حَدَّثَنَا أَبُو مَسْهَرٍ ، عَنْ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ :
عَرَضَ الْحِجَابُ بْنُ يَوْسُفَ سَجْنَهُ يَوْمًا فَأَتَى بِرَجُلٍ فَقَالَ : مَا كَانَ جُرْمُكَ ؟ قَالَ :
أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ أَخَذَنِي الْعَسَسُ^(٢) وَأَنَا نَخْبِرُكَ بِخَبْرِي ، فَإِنْ كَانَ الْكَذِبُ يَنْجِي
فَالصَّدَقُ أَوْلَى بِالنَّجَاةِ ، قَالَ : وَمَا قِصَّتُكَ ؟ قَالَ : كُنْتُ أَخًا لِفُلَانٍ فَضَرَبَ الْأَمِيرُ
عَلَيْهِ الْبَعْثَ إِلَى خِرَاسَانَ ، فَكَانَتْ امْرَأَتُهُ تَهْوَانِي وَأَنَا لَا أَشْعُرُ ، فَبَعَثَتْ إِلَيَّ
ذَاتَ يَوْمٍ رَسُولًا أَنْ قَدْ جَاءَ كِتَابُ صَاحِبِكَ فَهَلُمَّ لِنَقْرَأْهُ ، فَضَيَّعْتُ إِلَيْهَا
فَجَعَلَتْ تَشْغَلُنِي بِالْحَدِيثِ حَتَّى صَالَيْنَا الْمَغْرِبَ ، ثُمَّ أَظْهَرَتْ لِي مَا فِي نَفْسِهَا مِنِّي
وَدَعَتْنِي إِلَى السُّوءِ ، فَأَيَّيْتُ ذَلِكَ فَقَالَتْ : وَاللَّهِ لَنْ لَمْ تَفْعَلْ لِأَصِيحْنِ وَلَا قَوْلُنَّ

(١) مَرْبُوبٌ : جَمِيلُ الْجِسْمِ . وَرَبُّ الْوَلَدِ : تَهْدِيهِ بِمَا يَفْضِلُهُ وَيَتِمُّهُ . أَسِيلُ الْخَلْدِ :
لَيْنُ الْخَلْدِ طَوِيلُهُ .

(٢) الْعَسَسُ : حَرَسَ اللَّيْلَ . وَعَسَ : طَافَ بِاللَّيْلِ .

إليك لص ، خفتها والله أيها الأمير على نفسى فقلت : أبهلينى حتى الليل ، فلما صابت العتمة^(١) وفتت بشدة حرّس الأمير فخرجت من عندها هارباً ، وكان القتلُ أيسرَ على من خيانة أخى . فلقينى عسّسُ الأمير فأخذونى ، وقد قلت فى ذلك شعراً ، قال : وما قلت ؟ فقال :

ربّ بيضاء آنس^(٢) ذاتِ دَلٍّ قد دعتنى لوصلها فأيتُ
لم يكن شأنى العفاف ولكن كنت خلاًّ لزوجها فاستحيْتُ
فأمر بإطلاقه .

وقال الربيع بن زياد : رأيت جاريةً عند قبرٍ وهى تقول :

بنفسى فتى أوفى البرية كلهم وأقوامُ فى الموت صبراً على الحب
فقلت لها : بهم صار أوفاهم وأقوام ؟ قالت : هو ينى ، فسكان أهلى إن جاهر
بحبى لاموه ، وإن كتمه عنفوه ، فلما أخذه الأمر قال :

يقولون إن جاهرتُ قد عضك الهوى وإن لم أبُحْ بالحبّ قالوا تصبرا
وليس لمن يهوى ويكتمُ حبه من الأمر إلا أن يموتَ فيمذرا
ولم يزل يردد هذين البيتين حتى مات ، فوالله ياهذا لا أبرح أو يتصل
فبرانا ، ثم شهقت شهقة فصاح النساء وقلن : قصت ، والذى اختار لها الوفاة
فما رأيت أسرعَ ولا أوحى من أمرها . قال ابن الدُمَيْنَةِ :

وبنا فوَيْقَ الحىّ لانحن منهمُ ولا نحن بالأعداء مختلطان
وبات بقينا ساقطَ الدال والندى من الليل بُرداً يُمنِّه^(٣) عطران

(١) العتمة : وقت صلاة العشاء .

(٢) آنس : الفتاة الطيبة النفس المحبوب قريها . وحديثها يؤنس به .

(٣) يردها يمنة : ضرب من يرود العين .

نُدود بذكر الله عنا غوى الصبا إذا كان قلبنا له يردان
ونصدر^(١) عن رى المغاف وربما نفعنا غليل الحب بالرفشان

قال أبو الفرج : وشت جارية بُثينة بها إلى أبيها وأخيها وقالت لها : إن
جھيلاً عندها ، فأتيا مشتملين على سفيهما فرأياه خالياً حَجَرَةً منها يحدثها
ويشكو إليها بته^(٢) ثم قال لها : يا بُثينة أرايت مابى من الشغف والعشق
ألا تجزى ينيه ؟ قالت له : بياذا ؟ قال : بما يسكور من المتحابين ، فقالت له :
يا جميل أهدأ تبغى ؟ والله لقد كنت عندى بعيداً منه ، فإذا عاودت تعريضاً
برية لا رأيت وجهى أبداً ، فضحك وقال : والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم
ماعندك ، ولو علمت أنك تجيدينى إليه لعلت أنك تجيدين غيري ، ولو رأيت منك
مساعدة لضربتك بسيفي هذا ما استمسك فى يدي إن طاوعتنى نفسى ، وأهجرتك
أبداً ، أما سمعت قولى :

وإني لأرضى من بُثينة بالهذى لو أبصره الواشى لقرت بلابله^(٣)
بلا وبأن لا أستطيع وبأبلى وبالأمل الرجوة قد خاب آمله
وبالنفرة العجلى وبالحول تنقضى وأخره لا نلتقى وأوائله ؟
فقال أبوها لأخيها : قم بنا فما ينبغى لنا بعد هذا اليوم أن نمنع هذا
الرجل من إتيانها .

(١) صدر عن الماء : رجيع عنه والصرف . قال تعالى : (لانسق حتى يصدر
الراء) أى يرجع الرعاء من سقيهم أو يرجعون لهم .
(٢) البث : الحال وأشد الحزن الذى لا يصبر عنه صاحبه فيبثه . والمرضى
الشديد .

(٣) بلابله : أو هامه ووساوسه .

الباب الرابع والعشرون

في ارتطاب سبيلى الحرام وما يغضى إليه من الفاسد والآلام

حقيقٌ بكل عاقلٍ أن لا يسلك سبيلاً حتى يعلم سلامتها وآفاتهما وما توصل إليه تلك الطريق من سلامةٍ أو عطب ، وهذان السيلان هلاك الأولين والآخرين بهما ، وفيهما من المعاطب والمهلك ما فيهما ، ويفضيان بصاحبهما إلى أقبح الغايات وشرّ موارد المهلكات ، ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى سبيل الزنى شرّاً سبيل فقال تعالى : (وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا)^(١) فإذا كانت هذه سبيل الزنى فكيف بسبيل اللواط التي تعدل القملة منه في الإثم والعقوبة أضعافاً وأضعافاً من الزنى ؟ كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى ، فأما سبيل الزنى فأسوأ سبيل ، ومَقِيلٌ^(٢) أهلها في الجحيم شرٌّ مَقِيل ، ومستقرُّ أرواحهم في البرزخ في تنوُّرٍ من نارٍ يأتينهم لهبها من تحتهم ، فإذا أتاهاهم اللَّهَبُ ضَجَبُوا وارتفعوا ، ثم يعودون إلى موضعهم ، فهم هكذا إلى يوم القيامة كما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم في منامه ، ورؤيا الأنبياء وحى لا شك فيها .

فروى البخارى في صحيحه من حديث سَمُرَةَ بن جُنْدُب رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ممّا يُكثَرُ أن يقول لأصحابه : « هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا ؟ فَيُفَصِّصُ عَلَيْهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُفَصِّصَ » ، وإنه قال لنا ذات

(١) الآية ٣٢ . سورة الإسراء .

(٢) المَقِيل . المثنوى والثوم في الظهيرة .

عَدَاةً : إنه أتاني الآية آتِيَانِ وإِيهَا ابْتَعَثَانِي وإِيهَا قَالَايَ : انطلق ، وإِنِّي انطلقت معهما ، وإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَنْدَغُ^(١) رَأْسُهُ فَيَتَدَّ هَذِهِ الْحَبْرُ هَاهُنَا ، فَيَتَمِيعُ الْحَبْرُ فَيَأْخُذُهُ فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى : قَالَ : قُلْتُ لَهَا : سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَا ؟ قَالَ : قَالَايَ : انطلق انطلق ، فانطلقنا فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَاهُ ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكُلُوبٍ مِنْ حَدِيدٍ ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقِّي وَجْهِهُ فَيُشْرِفُهُ شِدْقُهُ إِلَى قِفَاهُ ، وَمَنْخِرُهُ إِلَى قِفَاهُ ، وَعَيْنُهُ إِلَى قِفَاهُ ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الْأَوَّلِ ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الْجَانِبُ كَمَا كَانَ ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى : قُلْتُ : سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَا ؟ قَالَ : قَالَايَ : انطلق انطلق ، فانطلقنا فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنْقُورِ ، فَإِذَا فِيهِ لَفْظٌ وَأَصْوَاتٌ ، قَالَ : فَاطْلَعْنَا فِيهِ فَإِذَا فِيهِ رَجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا قَالَ : قُلْتُ لَهَا : مَا هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : قَالَايَ : انطلق انطلق . فانطلقنا فَأَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ ، وَإِذَا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبِغُ ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةٌ كَثِيرَةٌ ، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبِغُ مَا يَسْبِغُ ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الْحِجَارَةَ فَيَقْرَأُ لَهُ فَاهُ فَيُلْقِيهِ حَجَرًا فَيَنْطَلِقُ يَسْبِغُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ كَمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَقَرَأَ لَهُ فَاهُ فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا ، قَالَ : قُلْتُ لَهَا : مَا هَذَا ؟ قَالَ :

(١) ثلغ رأسه : شده . ويتدهده : يتدحرج والكلوب : المنماز ، وحديدة معطوفة الرأس والجمع كلاليب . وضوضو : صاح وصرخ .

قالا لى : انطلق انطلق ، فانطلقنا فأتينا على رجل كربه المرآة^(١) كما كره
ما أنت راء رجلاً مرآة ، وإذا عنده نارٌ يحشها ويسعى حولها ، قال : قلت
لها : ما هذا ؟ قال : قال لى : انطلق انطلق ، فانطلقنا فأتينا على روضةٍ معتممة^(٢)
فيها من كل نور الربيع ، وإذا بين ظهري الروضة رجلٌ طويلٌ لأكاد أرى
رأسه طولاً في السماء ، وإذا حول الرجل من أكثر ولدانٍ رأيتهم قطّ قال :
قلت لها : ما هؤلاء ؟ قال : قال لى : انطلق انطلق ، فانطلقنا فأتينا^(٣) على دوحةٍ
لم أر دوحةً قطّ أعظم منها ولا أحسن ، قال : قال لى : ارتقى فيها ، فارتقينا
فيها إلى مدينةٍ مبنيةٍ بدينٍ ذهبٍ وكين فضةٍ ، قال : فأتينا باب المدينة فاستفتحنها
ففتّح لنا فدخلناها فقلقنا فيها رجالٌ شطرو من خلقهم كأحسن ما أنت راء ،
وشطرو كأقبح ما أنت راء قال : قال لهم : اذهبوا فتعوا في ذلك النهر قال : وإذا
نهرٌ مُعترضٌ يمرى كأن ماءه المَحْضُ في البياض ، فذهبوا فوقعوا فيه ، ثم
رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورةٍ قال : قال لى :
هذه جنة عدن ، وهذاك منزلُك قال : فسمّا بصرى صُعداً فإذا قصرٌ مثل الرّبابة
البيضاء قال : قال لى : هذاك منزلُك قال : قلت لها : بارك الله فيكما ذراني
فأدخله قال : أما الآن فلا ، وأنت داخله . قال : قلت لها : فإني قد رأيت

(١) المرآة : المنظر .

(٢) اعتم التبت . ثم طوله وظهر نوره .

(٣) رواية البخارى : فاتتينا إلى روضة عظيمة لم أر روضة قط الب . قال
التسطلاني : وعند الإمام أحمد والنسائي : إلى دوحة بدل روضة . والدوحة : الشجرة
العظيمة من أى شجر كان . وابن : جمع لبنة : التى يبنى بها . وهو فى الاصل المضروب
من الطين يبنى به دون أن يطبخ . والمحض : الخالص وكل شئ خالص لا يشوبه
شئ يحالطه . والرّبابة : السحابة البيضاء .

مُنْذُ اللَّيْلَةِ حَجَبًا فَأَهَذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟ قَالَ : قَالَا لِي : أَمَّا إِنْ مَسَخَرْنَاكَ ، أَمَّا الرَّجُلُ
الْأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ
وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ ، وَأَمَّا الرَّجُلُ . الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ بِشَرِّ فَرْسٍ شِدْقُهُ إِلَى
قَفَاهُ وَمَنْخَرُهُ إِلَى قَفَاهُ وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يُغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ
الْكُذْبَةَ تَبْلُغُ الْآفَافَ ، وَأَمَّا الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاةُ الَّذِينَ هُمْ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُورِ
فَانْهَمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبِغُ فِي النَّهْرِ وَيُلْتَمِسُ
الْحَجَرَ فَإِنَّهُ آكَلُ الرُّبَا ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الْكِرِيهُ الْمَرَّةُ الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحْشُشُهَا
وَيَسْعَى حَوْلَهَا فَإِنَّهُ مَالِكُ خَازِنِ جَهَنَّمَ ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرُّوْضَةِ
فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ ، وَأَمَّا الْوَلَدَانِ حَوْلَهُ فَسَكْلُ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ ؛ قَالَ : فَقَالَ
بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ : يَارَسُولَ اللَّهِ وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ ؟ قَالَ : وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَمَّا
الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطَرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ وَشَطَرٌ مِنْهُمْ قَبِيحٌ فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلًا
صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ .

وقال أبو مسلم الكجبي : حَدَّثَنَا صَدَقَةُ بْنُ جَابِرٍ ، عَنْ سُكَيْمِ بْنِ عَامِرٍ ،
قَالَ : حَدَّثَنِي أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :
« بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ أَتَانِي رَجُلَانِ فَأَخَذَا بَضْبِيغِي ^(١) فَأَخْرَجَانِي فَأَتَيْتَانِي جِبِلًّا وَغُرًّا
وَقَالَا لِي : اصْبُدْ فَقُلْتُ : إِنِّي لَا أَطِيقُهُ فَقَالَا : سَنَسَهِّلُهُ لَكَ قَالَ : فَصَعِدْتُ حَتَّى
إِذَا كُنْتُ فِي سَوَاءِ الْجَبَلِ ^(٢) إِذَا أَنَا بِأَصْوَاتٍ مَدِيدَةٍ فَقُلْتُ : مَا هَذِهِ الْأَصْوَاتُ ؟
فَقَالَا : هَذَا عَوَاءُ أَهْلِ النَّارِ ، نَحْمُ انْطَلِقْ بِي فَإِذَا أَنَا بِفَوْجٍ أَشَدُّ شَيْءَ
انْتِفَاحًا ، وَأَنْتَنِي رِيحًا ، وَأَسْوَأُ مِنْظَرًا ، فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ فَقَالَا : هَؤُلَاءِ
قَتْلَى الْكُفَّارِ ، نَحْمُ انْطَلِقْ بِي فَإِذَا بِفَوْجٍ أَشَدُّ شَيْءَ انْتِفَاحًا ، وَأَنْتَنِي رِيحًا ، كَأَنَّ

(١) الضبع : ما بين الإبط إلى نصف العضد ، والجمع اضْبَاع .

(٢) سواء الجبل : وسطه .

ربهم المرائض قلت : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الزانون والزواني^(١) .
وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا نوح بن قيس قال : حدثني أبو هارون
العبدى ، عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « ليلة أُسرى بى أنطلق بى إلى خلق من خلق الله كثير ، نساء مُعلَّقات
بُنْدِيهِنَّ ومنهنَّ بأرجلهنَّ منكسات ، ولهنَّ صراخٌ وخوارٌ فقلت : يا جبريلُ من
هؤلاء ؟ قال : هؤلاء اللواتي يزْنينَ وَيَقْتُلْنَ أولادَهُنَّ ويَعْلَنَ لأزواجهنَّ
وَرِثَةً من غيرهنَّ » .

وقال أبو نعيم الفضل بن دكين : حدثنا عبد السلام بن شداد ، عن
غزوان بن جرير ، عن أبيه أنهم تذاكروا عند على بن أبي طالب رضى الله عنه
الفواحش فقال لهم : هل تدرُونَ أُمى الزنى أعظمُ ؟ قالوا : يأمر المؤمنين كراه
عظيم قال : ولكن سأخبركم بأعظم الزنى عند الله ، هو أن يرثى الرجلُ زوجته
الرجل المسلم فيصير زانياً وقد أفسد على الرجل زوجته . ثم قال عند ذلك : إن
الناس يُرسل عليهم يومَ القيامة ريحٌ منتنة حتى يتأذى منها كلُّ برٍّ وفاجرٍ ،
حتى إذا بلغت منهم كلَّ مبلغٍ وألَمَّتْ^(٢) أن تمسك بأنفاس الأمم كلهم ناداهم
منادٍ بِسْمِهم الصوتَ ويقول لهم : هل تدرُونَ ما هذه الريح التي قد آذتكم ؟
فيقولون : لا ندرى والله إلا أنها قد بلغت منا كلَّ مبلغٍ ، فيقال : ألا إنها ريح

(١) بعض هذا الحديث ورد في الفتح لابن حجر عقب الحديث السابق
وذكره المنذرى في الترغيب والترهيب بأطول مما هنا ثم قال : رواه ابن خزيمة
وابن حبان في صحيحيهما واللفظ لابن خزيمة ولا علة له .
(٢) ألم : قرب ، وبالناس : نزل بهم .

فروج الزناة الذين لَقُوا الله بزناهم ولم يتوبوا منه ، ثم يصرف بهم ، فلم يذكروا عند العرف بهم جنة ولا ناراً .

وقال الخرائطي : حدثنا علي بن داود القنطري ، حدثنا سعيد بن عفير ، حدثني مسلم بن علي الخشني ، عن أبي عبد الرحمن ، عن الأعشى ، عن شقيق ، عن حذيفة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ إِنِّي أَتَاكُمْ وَالزَّيْنِ فَإِنَّ فِيهِ سِتَّ خِصَالٍ : ثَلَاثٌ فِي الدُّنْيَا وَثَلَاثٌ فِي الْآخِرَةِ ، فَأَمَّا الْأَوَّلَاتُ فِي الدُّنْيَا فَذَهَابُ الْبَهَاءِ ، وَدَوَامُ الْفَقْرِ ، وَقِصَرُ الْعُمُرِ . وَأَمَّا الْآخِرَاتُ فِي الْآخِرَةِ فَسَخَطُ اللَّهِ ، وَسُوءُ الْحِسَابِ ، وَدُخُولُ النَّارِ ^(١) » .

ويذكر عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : الْمُقِيمُ عَلَى الزَّيْنِ كَعَابِدِ وَثْنٍ ، ورفعهم بعضهم ، وهذا أولى أن يُشَبَّهَ بعباد الوثن من مُدْمِنِ الخمر ، وفي المسند وغيره مرفوعاً : مُدْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ وَثْنٍ . فإن الزَّيْنِ أعظم من شرب الخمر . قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : ليس بعد قتل النفس أعظم من الزَّيْنِ .

وفي الصحيحين من حديث أبي وائل عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أى الذنوب أعظم عند الله ؟ قال : أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ ، قال : قلت : ثم أى ؟ قال : أَنْ تَمُتِلَ وَلَدَكَ خَافَةً أَنْ يَطْعَمَ مَمْلَكَ ،

(١) ذكره السيوطي بنحوه في الجامع الكبير وقال : رواه الخرائطي في مساوىء الأخلاق وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب وضعفه ، وأبو الفتح الراشد في جزئه والرافعي .

قال : قلت : نعم أى ؟ قال : أن تزني بحليلة جارك ، فأنزله الله تصديق ذلك في كتابه : (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا)^(١) .

وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا ابن لميعة ، عن ابن أنعم ، عن رجل ، عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الزاني بحليلة جاره لا ينظر الله إليه يوم القيامة ولا يزكّيه ويقول له : أدخل النار مع الداخلين »^(٢) وذكر سفیان بن عيينة ، عن جامع بن شداد ، عن أبي وائل ، عن عبد الله قال : إذا بُخس للمكيال حبس القطر ، وإذا ظهر الزاني وقع الطاعون ، وإذا كثر الكذب كثر الهرج .

وفي الصحيحين^(٣) من حديث الأعمش ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، ومالك كذاب ، وعائِل مُستَكبر » .

وذكر سفیان الثوري ، عن منصور ، عن ربعي بن حراش ، عن أبي ذر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يبعث ثلاثة :

(١) الآية ٦٨ . سورة الفرقان .

(٢) رواه الخرائطي في مساوىء الأخلاق والديلمى في مسند الفردوس ، كما قال السيوطى .

(٣) هذا الحديث لم يرد في صحيح البخارى وهو في الجامع الصغير والترغيب والترهيب دون أن يتبيرا فيه إلى رواية البخارى بل قالوا : رواه مسلم والنسائي ، وزاد في الزواجر أحمد .

الشيخ الزّاني ، والمثلُ المختال ، والبخيل المذئاب» (١) .

وذكر الأعمش ، عن خيثمة ، عن أبي عبد الرحمن ، عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مثلُ الذي ينجسُ على فراشِ المغيبةِ مثلُ الذي ينهشهُ الأسودُ يومَ القيامةِ » (٢) . المغيبةُ هي التي قد سافر زوجها في جهادٍ أو حجٍّ أو غيره ، وفي النساءِ وغيره من حديث بُريدة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « حرمةُ نساءِ المُجاهدين على القاعدین كاهلهم ، وما من رجلٍ من القاعدین يخلفُ رجلاً من المُجاهدين في أهله إلا صيبَ له يومَ القيامةِ فيقالُ : يا فلانُ هذا فلانٌ فخذُ من حسناتِهِ ما شئتَ . ثم التفتَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه فقال : « ما ترونَ يدعُ له من حسناتِهِ شيئاً ؟ » وفي لفظٍ : « وإذا خلفه في أهله فخانهُ قيلَ يومَ القيامةِ هذا خانك في أهلك فخذُ من حسناتِهِ ما شئتَ فما ظنكم ؟ »

ويكنى في قُبْح الزّاني أن الله سبحانه وتعالى مع كل رحمة شرع فيه ألحقَ القتلَ وأصعبها وأفضحها ، وأمر أن يشهدَ عباده المؤمنون تعذيبَ فاعله ، ومن قبحه أن الله سبحانه فطرَ عليه بعضَ الحيواناتِ البهيم الذي لا عقلَ له كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال : رأيتُ في الجاهلية قرداً زنى بقردةٍ فاجتمع عليهما القردود فرجوها حتى ماتا وكنتُ فيمن رجهما .

(١) رواه أحمد وابن حبان والبيهقي المقدسي . كما قال السيوطي . والمثل : الفقير .

(٢) رواه الطبراني في الكبير والخراطي في مساويء الاخلاق . كما قال السيوطي . والاسود جمع أسود : العظيم من الحيات وفيه سواد .

فصل

والزنى يجمع خلال الشر كلها من قلة الدين وذهاب الورع وفساد المروءة وقلة النيرة ، فلا تجد زانياً معه ورعاً ، ولا وفاءً بعهد ، ولا صدقاً في حديث ، ولا محافظةً على صديق ، ولا غيره تامة على أهله . فالقدر والكذب والخيانة وقلة الحياء وعدم المراقبة وعدم الأنفة للحرم وذهاب النيرة من القلب من شعبه وموجباته .

ومن موجباته غضب الرب بإفساد حرمة وعياله ، ولو تعرض رجل إلى ملك من الملوك بذلك لقابله أسوأ مقابلة . ومنها سواد الوجه وظلمته وما يعلوه من الكآبة والمقت الذي يبدو عليه للناظرين ، ومنها ظلمة القلب وطمس نوره^(١) وهو الذي أوجب طمس نور الوجه وغشيان الظلمة له . ومنها الفقر اللازم . وفي أثر يقول الله تعالى : (أَنَا اللَّهُ مُهْلِكُ الطُّغَاةِ ، وَمُفْقِرُ الزُّنَاةِ) . ومنها أنه يذهب حرمة فاعله ، ويُسقطه من عين ربه ومن أعين عباده . ومنها أنه يسلبه أحسن الأسماء وهو اسم العفة والبر والعدالة ، ويعطيه أضدادها كاسم الفاجر والفاسق والزاني والخائن . ومنها أنه يسلبه اسم المؤمن كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » . فسلبه اسم الإيمان المطلق وإن لم يسلب عنه مطلق الإيمان . وسئل جعفر بن محمد عن هذا الحديث فخط دائرة في الأرض وقال : هذه دائرة الإيمان ، ثم خط دائرة أخرى خارجة عنها وقال : هذه دائرة الإسلام ، فإذا زنى العبد خرج من هذه ، ولم يخرج من هذه . ولا يلزم من ثبوت جزء ما من الإيمان له

(١) طمس نوره : ذهابه وطمس الشيء طمساً وطموساً : درس وانمحى .

أن يسمّى مومنًا ، كما أن الرجل يكون معه جزء من العلم والفقه ولا يسمّى به عالمًا فقيهاً ، ومعه جزء من الشجاعة والجرود ولا يسمّى بذلك شجاعاً ولا جواداً ، وكذلك يكون معه شيء من التقوى ولا يسمّى متّقياً . ونظائره . فالصواب إجراء الحديث على ظاهره ولا يُتَأَوَّل بما يخالف ظاهره والله أعلم . ومنها أن يعرض نفسه لسُكْنَى التَّنُور الذى رأى النّبي صلى الله عليه وسلم فيه الرّزّة والزّوانى . ومنها أنه يفارقه الطيب الذى وصف الله به أهل العفاف ويستبدل به الخبيث الذى وصف الله به الرّثاة كما قال الله تعالى : (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)^(١) .

وقد حرّم الله الجنّة على كل خبيث ، بل جعلها مأوى الطيّبين ، ولا يدخلها إلا طيّب . قال الله تعالى : (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)^(٢) . وقال تعالى : (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَيِّبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)^(٣) . فإنما استحقوا سلامَ الملائكة ودخولَ الجنّة بطيبهم ، والرّثاة من أخبث الخلق ، وقد جعل الله سبحانه جهنّم دار الخبيث وأهله ، فإذا كان يوم القيامة ميز الخبيث من الطيّب وجعل الخبيث بعضه على بعض ثم ألقاه وألقى أهله فى جهنّم فلا يدخل النار طيّب ، ولا يدخل الجنّة خبيث .

ومنها الوحشة التى يضعها الله سبحانه وتعالى فى قلب الزانى ، وهى نظير الوحشة التى تعلو وجهه ، فالعفيف على وجهه حلاوة وفى قلبه أنس ، ومن جالسه

(١) الآية ٢٦ . سورة النور .

(٢) الآية ٣٢ . سورة النحل .

(٣) الآية ٧٣ . سورة الزمر .

استأنس به ، والزاني تعلق وجهه الوحشة ومن جالس استوحش به ، ومنها قلة
المهينة التي تنزع من صدور أهله وأصحابه وغيرهم له ، وهو أحقر شيء في نفوسهم
وعيونهم ، بخلاف العفيف فإنه يُرْزَق المهابة والحلاوة . ومنها أن الناس ينظرونه
بعين الخيانة ولا يأمنه أحدٌ على حرْمته ولا على ولده . ومنها الرائحة التي
تفوح عليه يشمها كل ذي قلبٍ سليم ، تفوح من فيه وجسده ، ولولا
اشترائك الناس في هذه الرائحة لفاحت من صاحبها ونادت عليه ولكن
كما قيل :

كلُّ به مثلُ ما به غيرُهم من غيرِ بعضهم للبعض عُدَّال
ومنها ضيقة الصدر وحرَجُه فإنَّ الزُّناة يعاملون بضدِّ قصودهم ، فإن من
طلب لذة العيش وطيبه بما حرَّمه الله عليه عاقبه بنقيض قصده ، فإن ما عند الله
لا يُنال إلا بطاعته ، ولم يجعل الله معصيته سبباً إلى خيرٍ قط . ولو علم الفاجر
ما في العفاف من اللذة والسُرور وانشرح الصدر وطيب العيش لرأى أن الذي
فاته من اللذة أضاعفُ أضعافٍ ما حصل له ، دَعِ رِبحَ العاقبة والفوز بثواب الله
وكرامته . ومنها أنه يُعرِّض نفسه لقوات الاستمتاع بالخمر العين في المساكن
الطيبة في جنات عدن ، وقد تقدَّم أن الله سبحانه وتعالى إذا كان قد عاقب
لابس الحرير في الدنيا بحرمانه لبسه يوم القيامة ، وشارب الخمر في الدنيا بحرمانه
إياها يوم القيامة ، فكذلك من تمتع بالصُّور المحرَّمة في الدنيا ، بل كل ما ناله العبد
في الدنيا فإن توسَّع في حلاله ضيق من حظه يوم القيامة بقدر ما توسَّع فيه ، وإن
ناله من حرام فاته نظيره يوم القيامة .

ومنها أن الزَّنى يُجرِّئه على قطيعة الرَّحم وعقوقِ الوالدين وكسبِ الحرام
وظلم الخلق وإضاعه أهله وعباله ، وربما قاده قسراً إلى سفك الدِّم الحرام ، وربما
استعان عليه بالسحر والشرك وهو يدرى أو لا يدرى ، فهذه المعصية لا تَتِمُّ

إِلَّا بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْمَعَاصِي قَبْلَهَا وَمَعَهَا ، وَيَتَوَلَّدُ عَنْهَا أَنْوَاعٌ أُخَرُ مِنَ الْمَعَاصِي
بَعْدَهَا ، فَهِيَ مَحْنُوفَةٌ بِخَنَسٍ مِنَ الْمَعَاصِي قَبْلَهَا وَجَنْدٍ بَعْدَهَا ، وَفِي أَجَابِ شَيْءٍ
لِشَرِّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأَمْنٌ شَيْءٍ لِحَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِذَا عَلِقَتْ بِالْعَبْدِ فَوْقَ
فِي حَبَائِلِهَا وَأَشْرَاكِهَا عَزَّ عَلَى النَّاصِحِينَ اسْتِنْقَاذُهُ ، وَأَعْيَى الْأَطْبَاءِ دَوَاؤُهُ ، فَاسِيرُهَا
لَا يُقْدَى ، وَقَتِيلُهَا لَا يُودَى ^(١) ، وَقَدْ وَكَلَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِزَوَالِ النِّعَمِ ، فَإِذَا
اِثْتَلَى بِهَا عَبْدٌ فَلْيُودِّعْ نِعَمَ اللَّهِ فَإِنَّهَا ضَيْفٌ سَرِيعُ الْإِنْتِقَالِ ، وَشَيْكُ الزَّوَالِ .
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى
يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) ^(٢) وَقَالَ تَعَالَى : (وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ
بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ) ^(٣) .

فصل

فهذا بعض ما في هذه السبيل من الضرر ، وأما سبيلُ الأمةِ الأوطى فتلك
سبيلُ الهالكين الْمُفْضِيَّةُ بِسَالِكِهَا إِلَى مَنَازِلِ الْمَذَبِّينَ الَّذِينَ جَمَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ
أَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ مَا لَمْ يَجْمَعْهُ عَلَى أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ ، لَا مِنْ تَأَخَّرَ عَنْهُمْ وَلَا مِنْ تَقَدَّمَ ،
وَجَمِلَ دِيَارِهِمْ وَأَثَارِهِمْ عِبْرَةً لِمُعْتَبِرِينَ ، وَمَوْعِظَةً لِمُتَّقِينَ .

وَكُتِبَ خَالِدُ بْنُ الْوَالِيدِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ وَجَدَ فِي
بَعْضِ ضَوَاحِي الْعَرَبِ رَجُلًا يُنْكَحُ كَمَا تَنْكَحُ الْمَرْأَةُ ، فَجَمَعَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ لَذَلِكَ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِيهِمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَاسْتَشَارَهُمْ ، فَكَانَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَشَدَّهُمْ قَوْلًا فِيهِ فَقَالَ : إِنْ

(١) لَا يُودَى : لَيْسَ لَهُ دِيَّةٌ . وَوَدَى الْقَاتِلُ الْقَتِيلَ وَدِيًّا وَدِيَّةٌ : أُعْطِيَ
وَلِيَّهُ دِيَّتَهُ .

(٢) آيَةُ ٥٢ . سُورَةُ الْأَنْفَالِ .

(٣) آيَةُ ١١ ، سُورَةُ الرِّعْدِ .

هذا لم يعمل به أمة من الأمم إلا أمة واحدة فصنع الله بهم ما قد علمتم ، أرى أن تمحرقوه بالنار ، فأحرقوه بالنار^(١) .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه وجماعة من الصحابة والتابعين : يُرْجَمُ بالحجارة حتى يموت أحصين أو لم يُحصن ، ووافقه على ذلك الإمام أحمد وإسحاق ومالك ، وقال الزهري : يُرْجَمُ أحصين أو لم يُحصن ، منه ماضية ، وقال جابر ابن زيد في رجل عشي رجلاً في دبره قال : الدبر أعظم حرمة من الفرج ، يُرْجَمُ أحصين أو لم يُحصن ، وقال الشعبي : يُقْتَلُ أحصين أو لم يُحصن .

وسئل ابن عباس عن اللوطي ما حده ؟ قال يُنْظَرُ أعلى بناء في المدينة فيرمى منه منسكساً ثم يُتْبَعُ بالحجارة . ورجم على لوطياً وأفتى بتحريقه . وكأنه وأى جواز هذا وهذا .

وقال إبراهيم النخعي : لو كان أحد ينبغي له أن يُرْجَمَ مرتين لكان ينبغي للوطي أن يُرْجَمَ مرتين . وذهبت طائفة إلى أنه يُرْجَمُ إن أحصن ويجلد إن لم يُحصن . وهذا قول الشافعي وأحمد في رواية عنه ، وسعيد بن المسيب في رواية عنه ، وعطاء بن أبي رباح .

قال عطاء : شهدت ابن الزبير أتى بسبعة أخذوا في الأوط : أربعة منهم قد أحصنوا ، وثلاثة لم يُحصنوا ، فأمر بالأربعة فأخرجوا من المسجد الحرام فرموا بالحجارة ، وأمر بالثلاثة فضرَبوا الحد في المسجد ابن عمر وابن عباس . فالصحاباء اتفقوا على قتل اللوطي وإنما اختلفوا في كيفية قتله ، فظن بعض الناس أنهم متنازعون في قتله ولا نزاع بينهم فيه إلا في إلحاقه بالزاني أو قتله مطلقاً . وقد اختلف الناس في عقوبته على ثلاثة أقوال : أحدها أنها أعظم من

(١) رواه ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي . كما قال الهيثمي في الزواجر .

عقوبة الزاني كما أن عقوبته في الآخرة أشدّ ، الثاني أنها مثلها ، الثالث أنها دونها ، وذهب بعض الشافعية إلى أن عقوبة الفاعل كعقوبة الزاني ، وعقوبة المفعول به الجسد مطلقاً بـ **كراً** كان أو **ثيباً** قال : لأنه لا يأنذ بالثعلب به بخلاف الفاعل .

وذهب بعض الفقهاء إلى أنه لا حدّ على واحد منهما قال : لأن الوازع عن ذلك مافي الطباع من النفرة عنه واستقباحه ، وما كان ذلك لم يحتاج إلى أن يزجر الشارع عنه بالحدّ كأكل العذيرة^(١) والميتة والدم وشرب البول ، ثم قال هؤلاء : إذا أكثر منه الأوطى فللإمام قتله تعزيراً^(٢) ، صرح بذلك أصحاب أبي حنيفة . والصحيح أن عقوبته أغلظ من عقوبة الزاني لإجماع الصحابة على ذلك ولغلظ حرمة وانتشار فساد ، ولأن الله سبحانه وتعالى لم يعاقب أمة ما عاقب الأوطى .

قال ابن أبي مبيح في تفسيره عن عمرو بن دينار في قوله تعالى : (**إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الزَّانِحَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ**)^(٣) قال : **مَانَزَا**^(٤) ذكرّ على ذكر حتى كان قوم لوط . وقال محمد بن مخلد : سمعت عبداً الدؤري يقول بلغني أن الأرض تعج^(٥) إذا ركب الذكّر على الذكر . وذكر ابن أبي الدنيا بإسناده عن كعب قال : كان إبراهيم يُشرف على سدوم^(٦) فيقول :

(١) المذرة : الغائط .

(٢) تعزيراً : ردعاً ، والتعزير شرعاً تأديب دون الحد .

(٣) الآية ٢٨ . سورة العنكبوت .

(٤) نزا الفحل : وثب .

(٥) تعج : تصيح وتصرخ .

(٦) سدوم : قرية قوم لوط .

ويل لك سدوم يوماً مالك ، فجاءت إبراهيم الرسل وكلمهم إبراهيم في أمر قوم لوط قالوا (يَا إِبْرَاهِيمُ اُعْرِضْ عَنْ هَذَا) قال : (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا)^(١) فذهب بهم إلى منزله فذهبت امرأته فجاءه قومه يهْرَعُونَ إليه فقال : (يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ)^(٢) أزوجكم بهنَّ (أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ)^(٣) ؟ وجعل لوط الأضياف في بيته وقعد على باب البيت وقال : (لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)^(٤) قال : أي عشيرة تمنعني قال : ولم يبعث نبي بعد لوط إلا في عز من قومه ، فلما رأت الرسل ما قد لقي لوط في سبيهم (قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا تَكُ إِنَّهُ مُصِيدُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)^(٥) فخرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه ضربة طمست أعينهم قال : والطمس أن تذهب حتى تستوى ، واحتمل مدائنهم حتى سمع أهل السماء نبيح كلابهم وأصوات ديوكهم ، ثم قلبها وأمطر الله عليهم حجارة من سجيل^(٦) قال : على أهل بواديهم وعلى رعاتهم وعلى مسافريهم ، فلم ينفات منهم إنسان . وقال مجاهد : نزل جبريل عليه السلام فأدخل جَنَاحَهُ تحت مدائن قوم لوط فرفعها حتى سمع أهل السماء نبيح الكلاب وأصوات الدجاج والديكة ، ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلها ثم أتبعوا بالحجارة .

(١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥) الآيات ٧٧ و ٧٨ و ٨٠ و ٨١ سورة هود .

(٦) سجيل : طين مطبوخ .

وفي تفسير أبي صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أغلق لوط على ضيفه الباب فخاصعوا الباب ودخلوا ، فقام جبريل أعينهم فذهبت أبصارهم فقالوا : يالوط جئتنا بالسرعة ؟ وتوعدده ، فأوجس في نفسه خيفةً قال : يذهب هؤلاء ونؤذى ، فقالوا : لا تخف إنا رسل ربك إن موعدكم الصبح قال لوط : الساعة ، قال جبريل : أليس الصبح يقرب ؟ قال فرمعت المدينة حتى سمع أهل السماء نبح الكلاب ثم أقبلت ورُموا بالحجارة . وقال حذيفة بن اليمان : لما أرسلت الرسل إلى قوم لوط لتهلكهم قيل لهم : لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث مرات ، وطريقهم على إبراهيم قال : فأتوا إبراهيم فبشروه بما بشروه فامأذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشرى بمجادلنا في قوم لوط^(١) ور : كان مجادلته إياهم أن قال لهم : إن كان فيهم خمسون أنهلكونهم ؟ قالوا : لا ، قال : أفأنتم إن كان فيهم أربعون ؟ قالوا : لا ، قال : فإلاون ؟ قالوا : لا ، حتى انتهى إلى عشرة وأخسة ، فأتوا لوطاً وهو في أرض يعمل فيها غسبهم ضيفاً ، فأقبل بهم حين أمسى إلى أهله فأتوا معه فالتفت إليهم فقال : أما ترون ما يصنع هؤلاء ؟ قالوا : وما يصنعون ؟ قال : ما من الناس أحد شر منهم ، قال : فأنتهى بهم إلى أهله فانطلقت العجوز السوداء امرأته فأتت قومه فقالت : لقد تصيف لوطاً الليلة قوم ما رأيت قط أحسن وجوهاً ولا أطيب ريحاً منهم ، فأقبلوا يهرعون إليه حتى دفعوا الباب ثم كادوا أن يقبلوه عليهم ، فقام ملك بيناحه فصفاه دونهم ثم أغلق الباب ثم علوا الأجاجير^(٢) فجعل يخاطبهم فقال : (هؤلاء بناتي هن أطهر لكم)^(٣) حتى بلغ (أو آوى إلى ركن

(١) الآية ٧٤ : سورة هود . والروح ما ألقي في القلب من الفزع .

(٢) الأجاجير . جمع إجار وهو السطح .

(٣) الآية ٧٨ . سورة هود .

شَدِيدٍ. قَالُوا يَا لَوُطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ^(١) فطمس جبريل أعينهم فما بقي أحدٌ منهم تلك الليلة حتى عمى قال: فباتوا بشر ليلةٍ غمياً ينتظرون العذاب . قال : وسار بأهله واستأذن جبريل عليه السلام في هلاكهم فأذن له ، فارتفع بالأرض التي كانوا عليها فالوى ^(٢) بها حتى سمع أهل السماء الدنيا ضجاءً ^(٣) كلابهم ، وأوقد تحتها ناراً ثم قلبها بهم قال : فسمت امرأته الوجبة ^(٤) وهي معه فالتفتت فأصابها العذاب .

وفى تفسير العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهم : جادل إبراهيم الملائكة في قوم لوط أن يتركوا فقال : أرايتم إن كان فيهم عشرة أبياتٍ من المسلمين أتركوهم ؟ فقالت الملائكة : ليس فيها عشرة أبيات ولا خمسة ولا أربعة ولا ثلاثة ولا اثنان ، فغزن إبراهيم على لوط وأهل بيته و (قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجيَنَّهُ وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) ^(٥) فذلك قوله : (فلما ذهب عن إبراهيم الرُّوعُ وجاءتهُ البشرى بمجادِلُنَا في قومٍ لوطٍ . إن إبراهيم لحليمٌ أواهٌ مُنيبٌ) ^(٦) فقالت الملائكة : (يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمرُ ربك وإِنَّهم آتيتهم عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ) ^(٧) فبعث الله إليهم جبريل فانتسف المدينة ومن فيها بأحد جناحيه فجعل عاليها سافلها وتعتهم الحجارة بكل أرضٍ . فاهلك الله سبحانه الفاعل

(١) الآيتان ٨٠ و ٨١ . سورة هود .

(٢) ألوى بها : ذهب بها مصعداً .

(٣) الضجاء : السباح من الألم .

(٤) الوجبة : صوت الساقط .

(٥) الآية ٣٢ . سورة العنكبوت . والنابرين : الباقيين المالكين وقد فسر

غير بمعنى هلك ، فالنابرون : الهالكون .

(٦ و ٧) الآيات ٧٤ و ٧٥ و ٧٦ سورة هود .

والنحول به ، والساکت الرّاضى ، والدّالّ المحصّن منهم وغير المحصّن ،
العاشق والمعشوق ، وأخذهم وهم فى سكرة عشقهم يغمّون .

وذكر ابن أبى داود فى تفسيره عن وهب بن منبه قال : إن الملائكة حين
دخلوا على لوط ظنّ أنهم أضيافٌ ضافوه فاحتفل لهم وحرّص على كريمتهم ،
وخافته امرأته إلى فداق قومه فأخبرتهم أنه ضاف لوطاً أحسنّ الناس وجهاً
وأنصرهم جلالاً وأطيبهم ريحاً ، فكانت هذه خيانتها التى ذكر الله عزّ وجلّ
فى كتابه . وفيه عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : (فَخَافَتَاهُمَا) ^(١) قال :
والله تَمازَنتَا ولا بنت امرأة نبيّ قطّ فقيل له : فما كانت خيانة امرأة نوح
وامرأة لوط ؟ فقال ، أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما امرأة
لوط فإنها كانت تدلّ على الضيف .

وقال أبو مسلم الليثى فى مسنده ، حدّثنا سليمان بن داود ، حدّثنا عبد الوارث
حدّثنا القاسم بن عبد الرحمن ، حدّثنا عبد الله بن محمد بن عقيل قال : سمعت
جابر بن عبد الله رضى الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن
أخوف ما أخاف على أمّتى من بعدى عمّل قوم لوط » ^(٢) وقال هشام بن
عمرّار : حدّثنا عبد العزيز الدّراوردي عن عمرو بن أبى عمرو ، عن عكرمة ،
عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله
مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمَلَ عَمَلَ قَوْمِ لوط » (رواه الإمام
أحمد) وقال القمنيّ : حدّثنا عبد العزيز هو الدّراوردي ، عن عمرو بن أبى
عمرو مولى المطلب بن عبد الله بن حنطب الخزومى ، عن عكرمة ، عن

(١) الآية ١٠ سورة التحريم .

(٢) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم . كما قال السيوطى ،

(٢٤ م — روضة المحبين)

ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لَعَنَ اللَّهُ مَنْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ تُخُومَ الْأَرْضِ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ كَمَّهُ أَعْمَى عَلَى السَّبِيلِ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ وَقَعَ عَلَى بَيْهَيْمَةٍ » (١) . هذا الإسناد على شرط البخارى .

وقال أبو داود الطيالسى : حَدَّثَنَا بَشْرُ بْنُ الْفَضْلِ ، عَنْ خَالِدِ الْحَذَّاءِ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِذَا بَلَشَرَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فَهُمَا زَانِيَانِ » . وَفِي لَفْظٍ : « إِذَا أَتَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ » (٢)

وفى المسند والسنن من حديث عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ » . وَفِي لَفْظٍ : « مَنْ وَجَدْتُ مَوْتَهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَأَقْتُلُوا الْفَاعِلَ الْمَفْعُولَ بِهِ » (٣) وإسناده على شرط البخارى .

وروى مهيل بن أبي صالح عن أبيه ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال :

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه والبيهقى كما جاء فى الترغيب والترهيب وفى الزواجر . وتحرم جمع تخم : الحد الفاصل بين أرضين ، والمعالم يهتدى بها فى الطريق . وكه الأعمى : أضله .

(٢) رواه البيهقى فى السنن . كما قال السيوطى .

(٣) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه والبيهقى . كما قال الهيثمى فى الزواجر .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ وَجَدَتْهُمُوهُ يَعْمَلْ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ فَارْجُمُوهُ أَوْ قَالَ : فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ » .

وحرق اللوطيَّة بالنار أربعة من الخلفاء : أبو بكر الصديق ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن الزبير ، وهشام بن عبد الملك .

وقال حماد بن سلمة عن قتادة ، عن خِلاس ، عن عبيد الله بن معمر قال : يُقْتَلُ اللُّوطِيُّ . وقال سعيد بن المسيب : عندنا على اللوطيَّ الرجم أحسن أو لم يُحْصَن سَنَةٌ ماضية ، وهذا يدل على أن ذلك سَنَةٌ مضى عليها العمل .

وقال الشعبي : يُقْتَلُ أَحْصَنُ أَوْ لَمْ يُحْصَن . وقال الزهري وربيعة وابن هرمز ومالك بن أنس : عليه الرجم أحسن أو لم يُحْصَن .

وقال بعض العلماء : وإنما قال سعيد بن المسيب : إن ذلك سَنَةٌ ماضية تقول النبي صلى الله عليه وسلم : « اقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ » ، ولم يقل محصناً أو غير مُحْصَن .

وحرقهم أبو بكر رضي الله عنه بالنار بعد مشاورة الصحابة ، وأشار عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بذلك ، وحرقهم علي بن الزبير كما ذكره الأجرى وغيره عن محمد بن المنكدر أن خالد بن الوليد كتب إلى أبي بكر أنه وجيد رجلاً في بعض ضواحي العرب يُنْكَحُ كما تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ ، فجمع أبو بكر لذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم فقال علي : إن هذا ذنب لم يعمل به إلا أمة واحدة ففعل الله بهم ما قد علمت ، أرى أن تحرقوه بالنار ، فاجتمع رأي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُحْرَقَ بالنار ، فأمر به أبو بكر أن يحرق .

— ٢٧٢ —

قَالَ : وَقَدْ حَرَقَهُمُ ابْنُ الزَّيْبِرِ وَهَشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : يُرْجَمُ الْاَلَوَطِيُّ بِكَرٍّ أَوْ ثِيْبًا .

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوهُ ، وَلَمْ يَفَرِّقْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَيْنَ الْمُحْصَنِ وَغَيْرِهِ ، وَصَرَّحَ بَعْضُهُمْ بِعُمُومِ الْحَكْمِ لِلْمُحْصَنِ وَغَيْرِ الْمُحْصَنِ ، فَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ : إِنَّ هَذَا سَنَةٌ مَاضِيَةٌ .

وَفِي مَسَائِلِ إِسْحَاقَ بْنِ مَنْصُورِ الْكُوسَجِ قُلْتُ لِأَحْمَدَ : يُرْجَمُ الْاَلَوَطِيُّ أَحْمَصِينَ أَوْ لَمْ يُحْصَنَ ؟ فَقَالَ : يُرْجَمُ أَحْمَصِينَ أَوْ لَمْ يُحْصَنَ . قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْه : هُوَ كَمَا قَالَ .

وَالسَّنَّةُ فِي الَّذِي يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ أَنْ يُرْجَمَ مُحْصَنًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُحْصَنٍ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوهُ » رَوَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَذَلِكَ ، ثُمَّ أَفْتَى ابْنُ عَبَّاسٍ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَنْ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ أَنَّهُ يُرْجَمُ وَإِنْ كَانَ بِكَرٍّ ، فَحُكْمٌ فِي ذَلِكَ بِمَا رَوَاهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَكَذَلِكَ رَوَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مِثْلُ هَذَا الْقَوْلِ ابْنُ الْاَلَوَطِيِّ يُرْجَمُ وَلَمْ يَذْكُرْ مُحْصَنًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُحْصَنٍ ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْمِ لُوطٍ ، وَكَذَا يُرَوَى عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ حَرَقَهُمُ بِالنَّارِ . هَذَا كَلَامُ إِسْحَاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ .

وَذَكَرَ الْآجُرِّي فِي كِتَابِ تَحْرِيمِ الْاَلَوَاطِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا : « سَبْعَةٌ لَا يَنْظَرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَيَقُولُ : ادْخُلُوا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ : الْفَاعِلُ وَالْمَفْعُولُ بِهِ ، وَالنَّاكِحُ يَدُهُ ، وَالنَّاكِحُ

الْبَهِيمَةِ ، وَنَاكِحُ التَّرَائِدِ فِي دُبُرِهَا ، وَالْجَامِيعُ بَيْنَ التَّرَائِدِ وَابْنَتِهَا ،
وَالزَّانِي بِحِمْلِيلَةِ جَارِهِ ، وَالْمُؤْذِي لِجَارِهِ حَتَّى يَلْمَنَهُ .

وذكر عن أنس مرفوعاً نحوه وقال : « أَدْخُلُوا النَّارَ أَوَّلَ الدَّاخِلِينَ
إِلَّا أَنْ يَتُوبُوا ، إِلَّا أَنْ يَتُوبُوا ، إِلَّا أَنْ يَتُوبُوا ، فَمَنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ :
النَّاكِحُ يَدَهُ ، وَالْفَاعِلُ ، وَالْمَفْعُولُ بِهِ ، وَمُذْمِنُ الْخُمْرِ ، وَالضَّارِبُ
أَبَوَيْهِ حَتَّى يَسْتَفِينَا ، وَالْمُؤْذِي جِيرَانَهُ حَتَّى يَلْمَعْنُوهُ ، وَالزَّانِي بِحِمْلِيلَةِ
جَارِهِ » (١) .

وقال مجاهد : لو أن الذي يعمل ذلك العمل يعنى عمل قوم لوط اغتسل بكل
قطرة في السماء وكل قطرة في الأرض لم يزل نجساً ، وقد ذكر الله سبحانه
عقوبة اللوطية وما حل بهم من البلاء في عشر سور من القرآن وهي :
سورة الأعراف ، وهود ، والحجر ، والأنبياء ، والفرقان ، والشعراء ، والنمل ،
والعنكبوت ، والصافات ، واقتربت الساعة ، وجمع على القوم بين عى الأبصار
وخسف الديار ، والقذف بالأحجار ، ودخول النار . وقال محذراً لمن عمل
عمائم ما حل بهم من العذاب الشديد : (وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ
بِبَعِيدٍ) (٢) .

وقال بعض العلماء : إذا علا الذكركم الذكر هربت الملائكة ، وعجت (٣)
الأرض إلى ربها ، ونزل سخط الجبار جل جلاله عليهم ، وغشيتهم اللعنة ،

(١) رواه الحسن بن عرفة في جزئه والبيهقي في الشعب . كما قال السيوطي .

(٢) الآية ٨٩ : سورة هود .

(٣) عجت : صاحت ورفعت صوتها .

وَحَسَّتْ بِهِمُ الشَّيَاطِينُ ، وَاسْتَأْذَنْتِ الْأَرْضُ رَبَّهَا أَنْ تُخَفِّفَ بِهِمْ ، وَقُتِلَ
الْعَرْشُ عَلَى سَمَكَتِهِ ، وَكَبُرَتْ الْمَلَائِكَةُ ، وَاسْتَمَرَّتْ ^(١) الْجَحِيمُ ، فَإِذَا جَاءَتْهُ
رُسُلُ اللَّهِ لِقَبْضِ رُوحِهِ نَقَلُوهَا إِلَى دِيَارِ إِخْوَانِهِمْ ، وَمَوْضِعِ عَذَابِهِمْ ، فَكَانَتْ
رُوحُهُ بَيْنَ أَرْوَاحِهِمْ . وَذَلِكَ أَضْيَقُ مَكَانًا وَأَعْظَمُ عَذَابًا مِنْ تَنْوُرِ الزُّنَاةِ .
فَلَا كَانَتْ لَذَّةٌ تَوْجِبُ هَذَا الْعَذَابِ الْأَلِيمَ ، وَتَسُوقُ صَاحِبَهَا إِلَى مِرَافَقَةِ أَصْحَابِ
الْجَحِيمِ . تَذْهَبُ اللَّذَّاتُ ، وَتُعْقَبُ الْحَسَرَاتُ ، وَتَنْفَى الشَّهْوَةُ ، وَتَبْقَى الشَّقْوَةُ .
وَكَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يُنْشِدُ :

تَنْفَى اللَّذَاذَةُ مَنْ نَالَ صَفْوَتَهَا مِنْ الْجِرَامِ وَتَبْقَى الْخِزْيُ وَالْعَارُ
تَبْقَى هَوَائِبُ ضَوْءٍ فِي مَفْهِمَتِهَا لَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ

فصل

وَأَمَّا إِنْ كَانَتْ الْفَاحِشَةُ مَعَ ذِي رَجَمٍ نَحْوَمِ فَذَلِكَ الْمَلِكُ كُلُّ الْمَلِكِ ،
وَيُجِبُ قَتْلُ الْفَاعِلِ بِكُلِّ حَالٍ عِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ .

وَاحْتَجَّ أَحْمَدُ بِحَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : لَقِيتُ
خَالِي وَمَعَهُ الرَّايَةُ فَقُلْتُ : أَيْنَ تَرِيدُ ؟ قَالَ : بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
إِلَى رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً أُيَيْسَهُ أَضْرَبَ عَنْقَهُ ، وَأَخَذَ مَالَهُ (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ)
وَاحْتَجَّ بِهِ .

وَقَالَ شُعْبَةُ : حَدَّثَنَا الرَّكَّاسِيُّ بْنُ الرَّبِيعِ عَنْ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ عَنْ النَّبِيِّ .

(١) اسْتَمَرَّتِ النَّارُ : تَوَقَّدَتْ .

(٢) الْمَغْنَبَةُ : الْعَاقِبَةُ .

قال : رأيت أنا ما ينطلقون فقلت : أين تذهبون ؟ قالوا : بهشتا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل يأتي امرأة أبيه أن تقتله .

وذكر عبد الله بن صالح : حدثنا يحيى بن أيوب ، عن ابن جرير ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اقْتُلُوا الْمُعَاوِلَ وَالْمُعَوِلَ بِهِ وَالَّذِي يَأْتِي الْبَيْمَةَ وَالَّذِي يَأْتِي كُلَّ ذَاتِ مَحْرَمٍ »^(١) وقال هشام بن عمار : حدثنا رِفْدَةُ بْنُ قُضَاعَةَ ، حدثنا صالح بن راشد قال : أتى الحُجَّاجُ بِرَجُلٍ قَدْ اغْتَصَبَ أُخْتَهُ عَلَى نَفْسِهَا فَقَالَ : احْبِسُوهُ وَسَلُّوهُ مِنْ هَاهُنَا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَسَأَلُوا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ مَطْرٍ^(٢) فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « مَنْ تَخَطَّى الْحُرْمَتَيْنِ فَخَطَا وَسَطَهُ بِالسَّيْفِ » . وَأَفْتَى ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِمِثْلِ ذَلِكَ . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ شَيْبَةَ : حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ هِشَامٍ ، حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : أَتَى الْحُجَّاجُ بِرَجُلٍ زَنَى بِأُخْتِهِ ، فَسَأَلَ عَنْهَا عَبْدُ اللَّهِ فَقَالَ : يُضْرَبُ بِالسَّيْفِ ، فَأَمَرَ بِهِ الْحُجَّاجُ فُضِرَ بَعْقُهُ بِالسَّيْفِ .

وذكر جماعة عن حماد بن سامة ، عن بكر بن عبد الله المزني أن رجلاً تزوج خالته فرُفِعَ إلى عبد الملك بن مروان فقال : إِنِّي ظَنَنْتُ أَنَّهَا تَحِلُّ لِي

(١) ذكره الهيثمي في الزواجر من دون الفقرة الأخيرة وقال : رواه البيهقي وغيره .

(٢) رواه أحمد والحاكم عن عبد الله بن أبي مطر ، كما قال السيوطي .
وراجع هذه القصة أيضاً في الإصابة لابن حجر العسقلاني ، وما قبل في تفريجها .

فقال: لا جهالة في الإسلام وأظن أنه أمر به فقتل. وفي مسائل صالح بن أحمد قال: سألت أبي عن الرجل الذي تزوج ذات مخرم منه فقال: إن كان عمداً يقتل ويؤخذ ماله، وإن كان لا يعلم يفرق بينهما، وأستحب أن يكون لها ما أخذت منه ولا يرجع عليها بشيء. وفي صحيفة عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يدخل الجنة من أتى ذات مخرم»^(١).

(١) رواه الخرائطي عن ابن عمرو والطبراني في المعجم الكبير وأبو ليم في الحلية كلاهما عن ابن عباس. كما قال السيوطي.

الباب الخامس والعشرون

في رزمة المحبين والشفاعة لهم الى اهل بيته في الوصال الذي يليه الدين

قال الله تعالى : (مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)^(١) وكلُّ من أعان غيره على أمرٍ بقوله أو فعله فقد صار شفيعاً له ، والشفاعةُ للشفوع له هذا أصلها ، فإن الشافع يشفع صاحب الحاجة فيصير له شفعاً في قضائها لعجزه عن الاستقلال بها ، فدخل في حكم هذه الآية كلُّ متعاونين على خيرٍ أو شرٍّ بقولٍ أو عمل . ونظيرها قوله تعالى : (وَاعْمَلُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعْمَلُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)^(٢) . وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا جاءه طالب حاجة يقول : « اسْتَعْمُوا تَوَجُّرُوا وَيَقْضِ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مَا أَحَبَّ »^(٣) ، وفي صحيح البخاري أن بريرة لما عتقت اختارت نفسها فكان زوجها يمشي خلفها ودموعه تسيل على لحيتيه ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : « لَوْ رَاجَعْتَنِي فَقَانَهُ أَبُو وَلَدِكَ » فقالت : أتأمرني ؟ قال : « لَا إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ » قالت : فلا حاجة لي فيه^(٤) . فهذه شفاعة من سيدِّ الشفعاء لمحِبٍّ إلى محبوبه ، وهي من أفضل الشفاعات وأعظمها أجراً عند الله ، فإنها تتضمن اجتماع محبوبين على ما يحبه الله ورسوله ، ولهذا كان أحبَّ ما لإبليس وجنوده التفريق بين هذين المحبوبين .

(١) الآية ٨٥ . سورة النساء . (٢) الآية ٢ . سورة المائدة ؟

(٣) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي ، كما قال السيوطي .

(٤) أنظر صفحة ١٤٣ .

وتأمل قوله تعالى في الشفاعة الحسنة (يَسْكُنُ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا) وفي السيئة (يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا). فإن لفظ الكِفْل يُشْعِرُ بالحمل والثقل، ولفظ النصيب يُشْعِرُ بالحظ الذي يَنْصَبُ طالبه في تحصيله، وإن كان كلٌّ منهما يُستعمل في الأمرين عند الانفراد، ولكن لما قرن بينهما حَسَنَ اختصاصٍ حفظ الخير بالنصيب وحفظ الشر بالكِفْل.

وفي صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم زوّج ابنته له وكان خطبها قبل ذلك عمّ بتها، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم أنها كارهة هذا الذي زوّجها أبوها، وأنه كان يعجبها أن يزوّجها عمّ بتها، فأهدر النبي صلى الله عليه وسلم نكاح أيها وزوّجها عمّ بتها^(١). وقد تقدّم حديث عمرو بن دينار، عن طاووس، عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلاً قال: يا رسول الله، في حِجْرِي يَتِيمَةٌ قد خطبها رجلٌ مُوسِرٌ ورجُلٌ مُعْدِمٌ، فنحن نحبّ الموسِرَ وهي تحبّ المُعْدِمَ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ لِلْمُعْتَابَيْنِ مِثْلُ النِّكَاحِ» رواه سليمان بن موسى عنه^(٢).

وقال بخالد بن الحسين: حدثنا هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين قال: كان عمر بن الخطاب يَعْصُ بالليل فسمع صوت امرأة تغنى وتقول:

هل من سبيلٍ إلى خري فأشربها أم هل سبيلٌ إلى نصر بن حجاج

(١) رويت هذه القصة في صحيح البخارى وسنن النسائى وابن ماجه بالفاظ أخرى عن خلفاء بنات خدام الالصارية. ورويت من طرق أخرى في كتابي الإصابة وأسد الغابة.

(٢) أنظر تخريجہ فی صفحة ٢١٢.

فقال : أمّا وعمر حتى فلا . فلما أصبح بعث إلى نصر بن حجاج فإذا رجلٌ جليلٌ فقال : اخرج فلا تسأكني بالمدينة ، فخرج حتى أتى البصرة وكان يدخل على مُجاشع بن مسعود ، وكانت له امرأةٌ جميلةٌ فأعجبها نصر ، فأحبها وأحبته فكان يقعد هو ومُجاشعٌ يتحدّثان والمرأةُ معهما ، فكتب لها نصر في الأرض كتاباً فقالت : وأنا ، فعلم مُجاشعٌ أنها جواب كلام . وكان مجاشعٌ لا يكتب والمرأةُ تكتب ، فدعا ياناء فأكفاه على المكتوب ودعا كاتباً فقرأه فإذا هو :
إِنِّي لَأَحِبُّكَ حُبًّا لَوْ كَانَ فَوْقَكَ لَأَظَلَّكَ وَلَوْ كَانَ تَحْتَكَ لَأَقَلَّكَ^(١) ، وبلغ نصرأ ما صنع مُجاشعٌ فاستحيا ولزِمَ بيته وضمي جسمه حتى كان كالفرخ^(٢) ، فقال مجاشع لامرأته : اذهبي إليه فأسنديه إلى صدرك ، وأطعميه الطعام بيدك ، فأبت ، فعزم عليها فأثنته فأسندته إلى صدرها وأطعمته الطعام بيدها ، فلما تحامل خرج من البصرة .

لَمَنَ الَّذِينَ بَخِيرَ كُنْتَ تَذَكَّرُمْ هُمُ أَهْلُ كَوْكُ وَعَنْهُمْ كُنْتُ أَنَّهَُا كَا
لَا تَطْبَنُ شَفَاءَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ فَلَيْسَ يُخَيِّيكَ إِلَّا مِنْ تَوْفَاقَا
فإن قيل : فهل تبيح الشريعة مثل ذلك ؟ قيل : إذا تعيّن طريقاً للدواء ونجاة العبد من الهلكة لم يكن بأعظم من مداواة المرأة للرجل الأجنبي ، ومداواته لها ، ونظر الطبيب إلى بدن المريض ومسّه بيده للحاجة . وأما التداوى بالجماع فلا يبيحه الشرع بوجه ما ، وأما التداوى بالضمّ والقُبلة فإن تحقق الشفاء به كان نظير التداوى بالخر عند من يبيحه ، بل هذا أسهل من التداوى

(١) أقل الشيء : حله ورفع .

(٢) الفرخ : ولد الطائر ، وكل صغير من الحيوان والنبات . والفرخ أيضاً الرجل الضعيف الدليل المطرود .

بالحر فإن شُرْبَهُ من السكائر . وهذا الفعل من الصغار^(١) . والمقصود أن الشفاعة للعشائى ، فيما يجوز من الوصال والتلاق ، سنة ماضية وسعى مشكور .
وقد جاء عن غير واحد من الخلفاء الراشدين ومن بعدهم أنهم شفّعوا هذه الشفاعة .

فقال الخرائطى : حدثنا على بن الأعرابي ، حدثنا أبو غسان النهدي قال : مرّ أبو بكر الصديق رضى الله عنه في خلافتيه بطريق من طرق المدينة فإذا جارية تطحن برحها وهي تقول :

وهويته من قبل قطع تمنى متمايساً^(٢) مثل القضيبي الناعم
وكان نور البدر سنة وجهه ينمى ويصعد في ذؤابة هاشم^(٣)

فدق عليها الباب فخرجت إليه فقال : ويلك أحرّة أنت أم مملوكة ؟
فقلت : بل مملوكة يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فحق هويت ؟
فبكت ثم قالت : بحق الله إلا انصرفت عني ، قال : لأريهم أو تعلميني
فقلت :

وأنا التي لعب الغرام بقلبيها فبكت لحب محمد بن القاسم

فصار إلى المسجد وبعث إلى مولاه فاشتراها منه ، وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب وقال : هؤلاء فتن الرجال ، وكم قد مات بهن من كريم ، وعطب عليهم من ساييم .

(١) خالف المؤلف نفسه بهذا الرأي انظر صفحة ١٣٢ وما بعدها .

(٢) متمايساً : متبخترأ .

(٣) ينمى : يزيد ويكثر . والذؤابة : الناصية ، وقيل منبتها من الرأس .

وذؤابة القوم : أشرفهم والمقدم فيهم .

ويذكر عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه جاءته جارية تستعدي على رجل من الأنصار فقال لها عثمان : ما قصتك ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين كيفت ببن أخيه ، فما أنفك أراعيه ، فقال له عثمان : إما أن تهبها لابن أخيك أو أعطيك ثمنها من مالى ، فقال : أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له .

وأبي على بن أبي طالب بن لامر من العرب وجد في دار قوم بالليل فقال له : ما قصتك ؟ فقال : لست بسارق ولكني أصدقك .

تعلقت في دار الرباحي خودةً يذل لها من حسنها الشمس والبدر
لها في بنات الروم حسنٌ ومنصبٌ إذا انتخرت بالحسن صدقها الفخر
فلما طرقت الدار من حرٍّ مهبجة أتيت وفيها من توقد لها جسر
تبادر أهل الدار لي ثم صيحوا هو المصنوع محتوماً له القتل والأسر
فلما سمع على شره رقى له وقال لله مآب بن رباح : اسمع له بها ونعوضك
منها ، فقال : يا أمير المؤمنين سله من هو لعرف نسبه ؟ فقال : الناس بن
عبيدة العجلي ، فقال : خذها فهي لك .

وذكر التميمي في كتابه المسمى «بامتزاج النفوس» أن معاوية بن أبي سفيان اشترى جارية من البحرين فأعجب بها إعجاباً شديداً فسمعها يوماً تنشد أبياتاً منها :

وفارقت كائن من يهتز في الثرى طيريراً وسيماً بعد ما طر شاربه^(١)

فلما قالت : هو ابن عمي ، فردّها إليه وفي قلبه منها .

وقال سالم بن عبد الله : كانت عاتكة ابنة زيد تحت عبد الله بن أبي بكر

(١) الطير : ذو المنظر والهيئة الحسننة . وطر شاربه : نبت .

الصدِّيق رضى الله عنه ، وكانت قد غلبته على رأيه وشغلته عن سوقه ، فأمره أبو بكر بطلاقها واحدةً ففعل ، فوجدَ عليها فقعد لأبيه على طريقه وهو يريد الصلاة ، فلما بصرَ بأبى بكر بكى وأنشأ يقول :

ولم أرَ مثلى طلقَ اليومَ مثلها ولا مثلاً في غير جُرمٍ يطلق
لها خلقٌ جَزَلٌ وحِلْمٌ ومنصِبٌ وخلقٌ سَوِيٌّ في الحَيَاةِ ^(١) ومصدق
فرَّق له أبو بكر رضى الله عنه وأمره بمراجعتها ، فلما مات قالت ترثيه :

آليت ^(٢) لا تنفكُ عيني سخيئةً عليك ولا ينفكُ جلدى أغبراً
فلله عينا من رأى مثله فتى أعفَّ وأمضى في الهياجِ وأصبراً
إذا شرعت ^(٣) فيه الأسنةُ خاضها إلى الموت حتى يترك الرمحَ أحمرأ
فلما حلت تزوجها عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأولم عليها ، فقال له على
ابن أبى طالب رضى الله عنه : أتأذن لى يا أمير المؤمنين أدخل رأسى إلى عاتكة
أكلّمها ؟ قال : نعم ، فأدخل على رأسه إليها وقال : يا عديّة نفسها .

آليت لا تنفكُ عيني قريرةً عليك ولا ينفكُ جلدى أصفراً
قبكت ، فقال له عمر : ما دعاك إلى هذا يا أبا الحسن ؟ كل النساء يفعلن هذا .
فلما قتل عمر قالت ترثيه :

عين جودى بـ عبرة ونحيب لا تملى على الجواد النحيب

(١) رواية الأغانى والإصابة : ، فى الحياء ، ، وجزل : كريم . ومصدق : صادق الخلال .

(٢) رواية الأغانى : ، فأقسمت ، ،

(٣) شرعت : تسددت .

فجعتني المنون بالفارس المعلن يوم الهياج والثوب^(١)
 قل لأهل الضراء والبؤس موتوا قد سقته المنون كأس شعوب^(٢)
 فلما حلت تزوجها الزبير بن العوام ، فاستأذنت ليلة أن تخرج إلى المسجد
 فشق ذلك عاينه وكره أن يمنعها لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله »^(٣) فأذن لها ثم انكس^(٤) في موضع مظلم
 من الطريق ، فلما مرت وضع يده عليها ، فكررت راجعة تسبح ، فسبقها
 الزبير إلى المنزل ، فلما رجعت قال لها : ما ردك عن وجهك ؟ قالت : كنت أخرج
 والناس ناس ، وأما اليوم فلا . وتركت المسجد ، فلما قُتل الزبير قالت ترثيه :
 غدر ابن جرموز بفارس بهيمة يوم اللقاء وكان غير معرّد^(٥)
 ياعمرو لو نبهتته لوجدته لاطاشاً رعش السنان ولا اليد
 فكلتكم أمك إن ظفرت بمثله فيما مضى حتى تروح وتفتدى
 كم غمرة قد خاضها لم يأنه عنها طرادك يا ابن أم الفرقد^(٦)
 إن الزبير لذو بلاء صادق سمح سجيته كريم المشهد
 فلما حلت خطبها على بن أبي طالب رضي الله عنه فقالت : إني لأضين بك
 على القتل .

(١) رواية الأغانى : « والتليب » . المعلم : الفارس جعل لنفسه علامة
 الاجتماع في الحرب . والثوب في أذان الفجر أن يقول المؤذن : الصلاة خير من
 النوم .

(٢) المنون : الدهر . والمنون أيضاً : المنية . وشعوب : المنية والفراق .
 (٣) تقدم تحريجه في صفحة ٣٠٠ (٤) انكس : اختفى واستتر .
 (٥) البهمة : الاجتماع يستقيم على قرنه وجه غلبته . ومعرّد : هارب . وعرد
 عن قرنه : أحجم ونكل .
 (٦) الغمرة : الشدة . والفرقد : نجم قريب من القطب الشمال ، وولد البقرة

وذكر الخرائطي أن المهدي خرج إلى الحج حتى إذا كان بزبالة^(١) جلس يتغدى فأتى بدوى فناداه : يا أمير المؤمنين إني عاشقٌ ، ورفع صوته ، فقال للحاجب : ويحك ما هذا ؟ قال : إنسان يصيح إني عاشق ، قال : أدخلوه ، فأدخلوه عليه فقال : مَنْ عشيقتك ؟ قال : ابنة عني ، قال : أولها أب ؟ قال : نعم ، قال : فما له لا يزوجه إياها ؟ قال : ها هنا شيء ، يا أمير المؤمنين ، قال : ما هو ؟ قال : إني هجينٌ — والمهجين : الذي أمه أمة ليست عربية — قال له المهدي : فما يكون ؟ قال : إنه عندنا عيبٌ ، فأرسل في طلب أبيها فأتي به ، فقال : هذا ابن أخيك ؟ قال : نعم ، قال : فلم لا تزوجه كريمتك ؟ فقال له مثل مقالة ابن أخيه ، وكان من ولد العباس عنده جماعة ، فقال : هؤلاء كلهم بنو العباس ومهجن ما الذي يضرهم من ذلك ؟ قال : هو عندنا عيبٌ ، فقال له المهدي : زوجه إياها على عشرين ألف درهم ، عشرة آلاف للعيب ، وعشرة آلاف مهرها ، قال : نعم ، فحمد الله وأثنى عليه وزوجه إياها ، فأتى ببدرتين فدفعهما إليه فأنشأ الشاب يقول :

إِبْتَمْتُ ظَنِيَّةً بِالْفَلَاءِ وَإِنَّمَا يُعْطَى الْفَلَاءُ بِمِثْلِهَا أَمْثَالِي
وَتَرَكْتُ أَسْوَاقَ الْقَبَاحِ لِأَهْلِهَا إِنْ الْقَبَاحِ وَإِنْ رَخِصَنَ غَوَالِي

وذكر الخرائطي من حديث الهيثم بن عدي عن عوانة بن الحكم أن عمر ابن أبي ربيعة كان قد ترك الشعر ورغب عنه ونذر على نفسه بكل بيت يقول هدي بدنة^(٢) ، فسكت كذلك حيناً ثم خرج ليلة يريد الطواف بالبيت إذ نغار

(١) زبالة (بضم أوله) : منزل بطريق مكة من الكوفة ، كما في ياقوت .
(٢) الهدي : ما يهدي إلى الحرم من النعم . والبدنة ناقة أو بقرة تنحر بمكة سميت بذلك لأنهم كانوا يسمونها ، والجمع بدن بالضم .

إلى امرأة ذات جمال تطوف ، وإذا رجل يتلوها ، كلما رفعت رجلها وضع رجله موضع رجلها ، فجعل ينظر إلى ذلك من أسرها ، فلما فرغت المرأة من طوافها تبعها الرجل هنيئة ثم رجع ، فلما رآه عمر وثب إليه وقال : لَتُخْبِرَنِي عن أمرك ، قال : نعم ، هذه المرأة التي رأيت ابنة عمي وأنا لها عاشقٌ وليس لي مال ، فخطبتها إلى عمي فرغب عني ^(١) وسألني المهرَ مالا أقدر عليه ، والذي رأيت هو حظي منها ، ومالي من الدنيا أمنيةٌ غيرها ، وإنما ألقاها عند الطواف وحظي ما رأيت من فعلي . فقال له عمر : ومن عمك ؟ قال : فلان بن فلان ، قال : انطلق معي إليه ، فانطلقا ، فاستخرجه عمر فخرج مبادراً فقال : ما حاجتُك يا أبا الخطاب ؟ قال : تزوج ابنتك فلانة من ابن أخيك فلان ، وهذا المهر الذي تسأله يسأني إليك من مالي ، قال : فإني قد فعلت . قال عمر : إني أحبُّ أن لا أبرح حتى يمتما ، قال : وذلك أينما ، قال : فلم يبرح حتى جمعها جميعاً ، وأتى منزله فاستلقى على فراشه فجعل النوم لا يأخذه ، وجعل جوفه يبيض ^(٢) بالشر ، فأنسكرت جاريته ذلك ، فجعلت تسأله عن أمره وتقول : ويحك ما الذي قد دهالك ؟ فلما أكثر عليه جلس وأنشد :

تقول ولیدی لما رأتی	طربتُ وكنت قد أقصرتُ حيناً
أراك اليوم قد أحدثت شوقاً	وهاج لك البكا داء دفيناً
بربك هل أذاك لما رسولٌ	فشاقك أم رأيت لها خدينا ^(٣)
فقلت شكا إلى أخٍ محبٍ	كبعض زماننا إذ تعلينا
فعدّ علي ما ينلني بهندٍ	فوافق بعض ما كذا لقينا

(١) رغب عني : لم يردني .

(٢) يبيض : يزهر ، يفيض .

(٣) الخن والخنين : الصاحب ، الحبيب ، الصديق ، والجمع : أختان .

(٢٥ م - روضة المحبين)

وذو القلب المصاب وإن تمرّأى يهيجُ حين يلقى العاشقين
وكم من خلّة أعرضت عنها لغير قلى وكنتُ بها ضيّناً^(١)
رأيتُ صدودها فصددت عنها ولو هام الفؤادُ بها جنونا

وعرض خالد بن عبد الله القسريّ سجنه يوماً وكان فيه يزيد بن فلان البجلي^(٢) ، فقال له خالد : فى أىّ شيء حبست يا يزيد ؟ قال : فى تهمة — أصلح الله الأمير — قال : أفتعود إن أطلقتك ؟ قال : نعم ، وكره أن يعرض بقصته لئلا يفضح معشوقته ، فقال خالد : أحضروا رجال الحى حتى تقطع يده بمحضرتهم ، وكان ليزيد أنْ فكتب شعراً ووجه به إلى خالد :

أخالدُ قد أعطيتَ فى الخلق رتبةً وما العاشقُ المسكينُ فينا بسارق
أقرُّ بما لم يأتِهِ المهرُ إنه رأى القطع خيراً من فضيحة عاشق
ولولا الذى قد خِفْتُ من قطع كفه لأُفِيتُ فى شأن الهوى غيرَ ناطق
إذا بدت الرايات للسبق فى العلى فأنت ابن عبد الله أوّلُ سابق

فلما قرأ خالد الأبيات علم صدق قوله ، فأحضر أولياء الجارية فقال : تزوجوا يزيد فتأنّكم ، فقالوا : أمّا وقد ظهر عليه ما ظهر فلا ، فقال : لأن لم تزوجوه طامنين كترّوجنّه كارهين ، فزوّجوه ونقد خالد المهرَ من عنده .

وذكر أبو العباس المبرد قال : كان رجلٌ بالكوفة يدعى ليث بن زياد قد ربى جاريةً وأدبها فخرجت بارعةً فى كل فنٍّ مع جمالٍ وافرٍ ، فلم يزل معها مدّةً حتى تبيّنت منه الحاجة فقالت : يا مولاي لو بعتنى كان أصلح لك مما أراك به وإن كنت لأظن أنى لا أصبر عنك ، فقصد رجلاً من الأغنياء يعرفها

(١) الخلّة : الخليل يستوى فيه المذكور والمؤنث . والقلى : الهجر والبنض .

(٢) فى ديوان للصباية : « المجلى » .

وبعرف فضّلها فباعها بمائة ألف درهم ، فلما قبض المال وجه بها إلى مولاهما وجرع عليها جزءاً شديداً ، فلما صارت الجارية إلى سيدها نزل بها من الوحشة للأول ما لم تستطع دفعه ولا كتمه ، فباحته به وقالت :

أَتَانِي الْبَسَاحَتَا فَمَا أَنَا صَانِعُ أَصْطَبِرُ لِلْبَيْنِ أَمْ أَنَا جَاذِعُ
كُنْفِي حَزَنًا أَنِي عَلَى مِثْلِ جَرَّةٍ أَقَاسِي نَجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَلْبُ نَازِعٌ^(١)
فَإِن يَمْنَعُونِي أَنْ أَبُوحَ بِحَبِيهِ فَإِنِّي قَتِيلٌ وَالْعَيَّسُونَ دَوَاعِي

فبلغ سيدها شعرها فدعا بها وأرادها فامتنعت عليه وقالت له : يا سيدي إنك لا تتنعم بي ، قال : ولم ذاك ؟ قالت : إني لما بي ، قال : وما بك ؟ صفيه لي قالت : أجد في أحشائي نيراناً تتوقّد ، لا يقدر على إطفائها أحد ، ولا تسأل عما وراء ذلك ، فرجّحها ورقّ لها وبعث إلى مولاهما فسأل عن خبره ، فوجد عنده مثل الذي عندها ، فأحضره فردّ الجارية عايه ، ووهب له من ثمنها خمسين ألفاً ، فلم تزل عنده مدة طويلة . وبلغ عبد الله بن طاهر خبرهما وهو بخراسان ، فكتب إلى خليفته بالكوفة يأمره أن ينظر فإن كان هذا الشعر الذي ذكر له من قبل الجارية أن يشتريها له بما ملكت يمينه ، فركب إلى مولى الجارية فخبره بما كتب إليه عبد الله بن طاهر ، فلم يجد سيدها بدءاً من عرضها عليه وهو كاره فأراد الأمير أن يعلم ما عند الجارية فأنشأ يقول :

بَدِيعُ حَسَنِ رَشِيقٍ قَدْ جَعَلَتْ مَنِيَّ لَهُ مَلَاذًا
فَأَجَابَتْهُ الْجَارِيَةُ :

فَعَاتَبُوهُ فَزَادَ عَشْتًا فَاتَ شَوْقًا فَكَانَ مَاذَا
فَعَلِمَ أَنَّهَا تَصْلُحُ لَهُ ، فَاشْتَرَاهَا بِمِائَةِ أَلْفِ دَرَاهِمٍ ، فَجَهَّزَهَا وَحَمَلَهَا إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

(١) نازع : اشتد به الحنين والشوق

ظاهر إلى خراسان ، فلما صارت إليه اختبرها فوجدها على ما أراد ، فغابته على عقله ، ويقال : إنها أم محمد بن عبد الله بن طاهر ، ولم تزل ألطافها^(١) وجوائزها تأتي مولاهم الأول حتى ماتت .

وقال عمر بن شبة ، حدثنا أيوب بن عمر الغفاري قال : طلق عبد الله بن عامر امرأته ابنة سهل بن عمرو ، فقدمت المدينة معها ابنة لها ، ومعها وديعة جوهر استودعها إياه ، فتزوجها الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ثم أراد ابن عامر الحج فأتى المدينة فلقى الحسن فقال : يا أبا محمد إن لي ابنة سهل حاجة فأحب أن تأذن لي عليها ، فقال الحسن : البسي ثيابك فهذا ابن عامر يستأذن عليك ، فدخل عليها فسألها وديعته فجاءته بها عليها خاتمه . فقل لها : خذي ثلثها فقالت : ما كنت لأخذ على أمانة انتمعت عليها شيئاً أبداً ، ثم أقبل عليها ابن عامر فقال : إن ابنتي قد بلغت فأحب أن تحلّي يدي وبينها ، فبكت وبكت ابنتها ، فرق ابن عامر فقال الحسن : فهل لسكنا ؟ فوالله ما من محلّ خير مني قال : فوالله لا أخرجها من عندك أبداً ، فكفلها حتى مات .

وذكر الزمخشري في « ربيع الأبرار » أن زُبَيْدَةَ بنت أبي جعفر^(٢) قرأت في طريق مكة على حائط :

أما في عباد الله أو في إمانه كريمٌ يُحْيِي^(٣) أَلَمْ عَنْ ذَاهِبِ الْعَقْلِ
له مقلّةٌ أما الماتى فقرحةٌ وأما الحشا فالنارُ منه على رجلٍ^(٤)

(١) ألطاف جمع لطف : الهدايا .

(٢) كذا . . . وهى بنت جعفر بن أبي جعفر .

(٣) يحلّي : يكشف .

(٤) الماتى جمع مائة : طرف العين مما يلي الأنف وهى مجرى الدمع ، وعلى رجل : يعنى على أشدها .

فذررت أن تحتال لقائلها حتى تجمع بينه وبين من يحبه ، قالت : فإن
أبمرز دلفة إذ سمعت من ينشدها ، فاستدعيت به فزعم أنه قالها في بنت عم له
وقد حلف أهلها أن لا يزوجه منها ، فوجهت إلى الحى وما زالت تبذل
لهم المال حتى زوجه . وإذا المرأة أعشق من الرجل ، فكانت زبيدة
تعدّه في أعظم حسناتها وتقول : ما أنا بشيء أسرت منى بمعنى بين ذلك
الفتى والفتاة .

قال الزمخشري : وهوى أحمد بن أبي عثمان الكاتب جارية لزبيدة
اسمها « نعم » حتى مرض وقال فيها أبياتاً منها :
وإني لأرضى الممر بياها وأقنع منها بالشتيمة والزجر
فوهبتها له .

وذكر الخرائطي أنه كان لبعض الخلفاء غلام وجارية من غلمان وجواريه
متحابين ، فكتب الغلام إليها يوماً يقول :

ولقد رأيتك في المنام كأنما عايطتني من ريق فيك البارد
وكان كفك في يدي وكأننا بنذا جميعاً في فراش واحد
فطفقت يومى كله مستراقداً لأراك في نومي واست براقد
ثم انتهت ومعهما كلاًهما بيدي اليمين وفي يمينك ساعدي
فأجابته الجارية :

خيراً رأيت وكل ما أبصرته سنأله متى برغم الحاسد
إني لأرجو أن تكون معانتي فتيبت منى فوق ثدي ناهد
وأراك بين خلخال ودمالجى وأراك بين تراثي ونجاسدى^(١)

(١) خلخال جمع خلخال : الخلخال ، وثوب خلخال : رقيق . ودمالجى جمع =

— ٣٩٠ —

وَنَبَيْتَ الْطَلْفَ عاشقينِ تماطينا طرف الحديث بلا مخافة راصد
فبلغ الخليفة خبرهما فأنكحهما وأحسن إليهما على شدة غيرته .
وقال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله تعالى : سمع المهلب فتي يتغنى بشعر
في جارية له فقال المهلب :

لعمري إني المحبين راحمٌ وإني بسائر العاشقين حقيق
سأجمع منكم شمل وُدٍّ مبدد . وإني بما قد ترجوان خليك
ثم وهبها له ومعه خمسة آلاف دينار .

وقال الخرائطي : كان رجلٌ فحّاسٌ عنده جاريةٌ لم يكن له مالٌ غيرها ،
وكان يقرضها في المواسم فتعالي الناسُ فيها حتى بلغت مبلغاً كثيراً من المال وهو
يطلب الزيادة ، فعلقها^(١) رجلٌ فقيرٌ فكاد عقله أن يذهب ، فلما بلغه ذلك
وهبها له ، فعوتب في ذلك فقال : إني سمعت الله تعالى يقول : (وَمَنْ أَحْيَاهَا
فَكَأَنَّمَا أَخْيَى النَّاسَ جَمِيعًا)^(٢) أفلا أحيي الناس جميعاً ؟
وقال علي بن قريش الجرجاني :

شكوت بلاء لا أطيق احتماله وقلبي مطيعٌ للهوى غيرُ دافع
فأقسم متركى عتابك عن قلبي ولكن لعلني أنه غيرُ نافع
وإني متى لم ألزم الصبر طائعاً فلا بدُّ منه مكرهاً غيرَ طائع

== دملج . ودملوج : حلية تحيط بالمضد . والترائب جمع تربية : عظام الصدر مما
على الترقوتين وموضع الفلادة . وجحاسد جمع مجسد : الثوب الملامس للجسد .
وجسد به : لصق .

(١) علقها : أحبها .

(٢) الآية ٣٢ . سورة المائدة .

إذا أنت لم يعطفك إلا شفاعةً فلا خير في ودِّ يَكُوسِبَ شافع
 وكان أبو السائب الخزومي أحد القراء والفقهاء ، فروى متعلِّقاً بأستار
 الكعبة وهو يقول : اللهم ارحم العاشقين ، واعطف عليهم قلوبَ المشوقين .
 ف قيل له في ذلك فقال : الدعاء لهم أفضلُ من عُمرَةٍ من الجعرانة^(١) .
 وذكر أحمد بن الفضل الكاتب أن غلاماً^(٢) وجاريةً كانا في كُتَّاب
 قرويهما الغلامُ ، فلما كان في بعض أيامه في غفلةٍ من العلمان كتب في لوح
 الجارية :

ماذا تقولين فيمن شَفَّهَ سَقَمٌ من طول حبِّك حتى صار حيراناً
 فلما قرأته الجارية أغرورقت عيناها بالدموع رحمةً له وكتبت تحته :
 إذا رأيتنا محبباً قد أضرَّ به طولُ الصبابة أوليتناه إحساناً
 وذكر الهيثم بن هدي ، عن محمد بن زياد أن الحارث بن السليل الأزدي
 خرج زائراً لعلمة بن حزم^(٣) الطائي وكان حليفاً له ، فنظر إلى ابنة له تدعى
 الرباب وكانت من أجل النساء ، فأعجب بها وعشقا عشقاً حال بينهما وبين الانصراف
 إلى أهله ، فقال لعلمة : إني أتيتك خاطباً وقد يُنكحُ الخاطب ، ويدرك
 الطالب ، ويُمنَحُ الراغب قال : كفوا كريم فأقم ننظر في أمرك ، ثم انكفأ^(٤)
 إلى أم لجارية فقال لها : إن الحارث سيّد قومه حسباً ومنصباً ويتأفلا ينصرفن
 من عندنا إلا بحاجته ، فشاوري ابنتك وأدير بها عما في نفسها ، فقالت لها : أي

(١) أنظر الصفحة ١٤٤ .

(٢) هو علي بن الجهم .

(٣) اسمه علقمة بن خصفة واسم ابنته الزباء . كما ذكره المسداني في أمثاله .

(٤) انكفأ : رجع .

بُذِيَّة ، أى الرجال أعجب إليك ؟ السكهل الجحجاح ^(١) ، الفضل الميامح ^(٢) ، أم
الفتى الوضاح ^(٣) ، السلون العاماح ؟ قالت : الفتى الوضاح . فقالت : إن الفتى
يُغيرك ^(٤) ، وإن الشيخ يُميرك ^(٥) ، وليس السكهلُ الفاضل ، الكثير النائل ^(٦) ،
كالحديث السن ، الكثير المَن . فقالت : يا أمّاه أحب الفتى ، كعب الرعاء أنيق
الكتلا . قالت : يا بُذِيَّة ، إن الفتى شديد الحجاب ، كثير العتاب . قالت : يا أمّاه
أخشى من الشيخ أن يدنس ثيابى ، ويُبلى شَبَابى ، ويشمت بى أترابى . فلم تزل
بها الأم حتى غلبتها على رأيها فتزوجها الحارث على خمسين ومائة من الإبل وخادم
وألف درهم ، فبنى بها وكانت عنده أحب شىء إليه ، فارتحل بها إلى أهله ، فإنه
الجالس يوماً بفناء مظلمته وهى إلى جانبه إذ أقبل فتيةٌ يعتلجون ^(٧) الصراع
فتنقست الصعداء ، ثم أرسلت عينيها بالبكاء فقال ما ييكيك ؟ فقالت : مالى
وللشيوخ ، الناهضين كالفروخ ^(٨) ، فقال : ثكلتك أمك قد تجوع الحرّة ولا
تأكل بنديها ، فسارت مثلاً ، أى لا تكون ظئراً ^(٩) ، وكان أول من نطق
بها ، ثم قال : أما وأبيك لرب غارة شهدت ، وسببة أردقتها ، وخرة شربتها ،

-
- (١) الجحجاح : السيد السمع الكريم .
(٢) ماح فى مشيته : مال وتبخر ، وماح فلاناً : أعطاه .
(٣) الوضاح صيغة مبالغة : الحسن الوجه البسام . ورجل وضاح الحسب :
ظاهره ونقيه ومبيضه .
(٤) يغيرها : يجعلها تغار بالزواج وغيره .
(٥) يميرك : يهوى لك طيب العيش ، والميرة : الطعام يجمع للسفر ونحوه .
(٦) النائل : الكثير العطاء .
(٧) اعتلج القوم : اقتتلوا واصطرعوا .
(٨) الفرخ : ولد الطائر وكل صغير من الحيوان والنبات والشجر ومن
الرجال الذليل الضعيف .
(٩) الظئر : المرضعة لغير ولدها .

— ٣٩٣ —

الحق بأهلك فلا حاجة لي فيك ، ثم أنشأ يقول :

وعيرت أن رأيتي لابساً كبراً وغاية النفس بين الموت والكبر
فإن بقيت رأيت الشيب راحةً وفي التفرق ما يقضى من العبر
وإن يكن قد علا رأسي وغيره صرف الزمان^(١) وتغير من الشعر
قد أروح للذات التي جذلاً وهمي لم تشب فاستخبري أثرى^(٢)

(١) صرف الزمان : حدثاته ونوائبه .

(٢) جذلاً : فرحاً ونشيطاً . لم تشب : لم يصبها الوهن .

الباب السادس والعشرون

في ترك المحبين أدنى المجهولين رغبة في أهدؤهما

هذا بابٌ لا يدخل فيه إلاّ النفوسُ الفاضلة الشريفة الأبيسة التي لا تقنع بالدُّون ، ولا تبسّج الأعلى بالأدنى بيعَ العاجز المغبون ، ولا يملكها لعلّخُ جمال مُمّش^(١) على أنواع من القبايح ، كما قال بعض الأعراب وقد نظر إلى امرأةٍ مبرّقة :

إذا بارك الله في ملبّسٍ فلا بارك الله في البرقع
يريك عيونَ المَهْمَا مُسْتَبَلًّا ويكشفُ عن منظرٍ في أشنع

وقال الآخر :

لا يفرّئك ماترى من نقابٍ إن تحت النقاب داءٌ دويّا
فالنفس الأبية لا ترضى بالدُّون . وقد عاب الله سبحانه أقواماً استبدلوا طعاماً بطعامٍ أدنى منه ، فعنى ذلك عليهم وقال : (أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ)^(٢) ، وذلك دليلٌ على وضاعة النفس وقلة قيمتها .

وقال الأصمعي : خلا رجلٌ من الأعراب بامرأةٍ فهم بالريبة ، فلما تمكّن منها تنحى سلياً وجعل يقول : إن امرءاً باع جنةً عرضها السمواتُ والأرضُ بفقر^(٣) ما بين رجلَيْك لقليلٍ البصر بالمساحة .

(١) ممّش : يخفى ما فيه من عيوب .

(٢) الآية ٦١ : سورة البقرة .

(٣) الفقر : ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة إذا فتحتها .

وقال أبو أسماء : دخل رجلٌ غَيَّصَةً^(١) فقال : لو خلوتُ هاهنا بمحبةٍ
مَنْ كان يرانى ؟ فسمع صوتاً ملاً ما بين لاتبى^(٢) الغيضة (أَلَا يَمْلَمُ مَنْ خَلَقَ
وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)^(٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هيثم - هو ابن خارجة - حدثنا إسماعيل ابن
عياش ، عن عبد الرحمن بن عدي البهراني ، عن يزيد بن ميسرة قال : إن الله
تعالى يقول : أيها الشاب التاركُ شهوته لى ، للتبذل^(٤) شبابُه من أجلى ، أنت
عندى كبعض ملائكتى .

وذكر إبراهيم بن الجُنَيْد أن رجلاً راود امرأة عن نفسها فقالت له : أنت
قد سمعت القرآن والحديث فانت أعلم قال : فأغلقى الأبواب فأغلقها ، فلما دنا
منها قالت : بقى بابٌ لم أغلقه قال : أى باب ؟ قالت : الباب الذى بينك وبين الله ،
فلم يتعرض لها .

وذكر أيضاً عن أعرابي قال : خرجتُ فى بعض ليالى الظلم فإذا أنا بجارية
كانها علم^(٥) فأردتها عن نفسها فقالت : ويلك أما كان لك زاجرٌ من عقل ،
إذ لم يكن لك ناهٍ من دين ؟ فقلت : إنه والله ما يرانا إلا الكواكب ، قالت :
فأين مُكَّو كِبُها ؟

وجلس زياد مولى ابن عياش رضى الله عنهما إلى بعض إخوانه فقال له :

(١) الغيضة : الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف .

(٢) اللابة : الحرة والموضع ، ولايتا المدينة : حرتان تكتنفانها . وفى
الحديث أنه صلى الله عليه وسلم حرم ما بين لاتبى المدينة .

(٣) الآية ١٤ : سورة الملك .

(٤) المتبذل شبابُه : الذى حرم نفسه من ملذاته .

(٥) العلم : الجبل : رضى منسوب يهتدى به فى الطريق .

يا عبد الله ، فقال له : قل ما تشاء ، قال : ما هي إلا الجنة أو النار ؟ قلت : نعم
قال : وما بينهما منزل ينزله العباد ؟ قلت : لا والله فقال : والله إن نفسي ، لنفس
أضنُّ بها على النار ، والصبرُ اليومَ عن معاصي الله خيرٌ من الصبرِ على الأغلال ،
وقال وهب بن مُنبه : قالت امرأة العزيز ليوسف عليه السلام : ادخل معي
القيطون — تعني السر — قال : إن القيطون لا يسترني من ربِّي .

وقال الهزلي : دخلت على هارون الرشيد فوجدته مُكباً على ورقة ينظر
فيها مكتوبة بالذهب ، فلما رآني تبسم فقلت : فائدة أصالح الله أمير المؤمنين ؟
قال : نعم وجدت هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية فاستحسنتهما ، فأضفت
إليهما ثالثاً ، فقال : ثم أنشدني :

إذا سدَّ بابُ عنك من دون حاجة قدَّعه لأخرى يفتتح لك بابها
فإن قرابَ البطن يكفيك ملاءه ويكفيك سوءات الأمور اجتنابها
فلا تكُ مبذالاً لدينك فاجتنب ركوبَ المعاصي يجتنبك عقابها
وقال أبو العباس الناشي :

إذا المرء يحصى نفسه حلَّ شهوة لصحة أيام تبيد وتنفد
فما باله لا يحتسى من حرامه لصحة ما يبقى له ويُخلد
وقيل : إن علي بن أبي طالب رضى الله عنه كان ينشد هذين البيتين :
إقْدع^(١) النفس بالكفائف وإلا طلبت منك فو ما يكفيها
إنما أنت طولَ عمرِكَ ما عُمِرْتَ في الساعة التي أنت فيها
ومن أحسن شعر العرب وكان عمرو بن العاص يتمثل بهما :

(١) اقدع النفس : ائتمنها وكفها . وقْدع فلاناً عن الشيء : كفه ومنعه .

إذا المرء لم يترك طعاماً أحبَّه . ولم ينفقه قلباً غاوياً حيث يمما^(١)
 قضى وطراً منه وغادر سُنْبَةً إذا ذكرت أمثالها تملأ الفها
 وقال شُعْبَةُ : عن منصور ، عن إبراهيم ، كَلَّمَ رجلٌ من العُبَّاد امرأة فلم يزل
 بها حتى وضع يده على فخذها فانطلق فوضع يده على النار حتى نشت^(٢) .
 وقال زيد بن أسلم عن أبيه : كان عابداً في صومعة يتعبد فأشرف ذات يوم
 فرأى امرأة فتمتن بها ، فأخرج إحدى رجليه من الصومعة يريد النزول إليها ،
 ثم فكروا ذكر فأناب ، فأراد أن يعيد رجله إلى الصومعة فقال : والله لا أدخلُ
 رجلاً خرجت تريد أن تعصى الله في صومعتي أبداً ، فتركها خارجة من الصومعة
 فأصابها الثلج والبرد والرياح حتى تقطعت .
 وقال بعض السلف : من كان له واعظٌ من قلبه زاده الله عز وجل عزاءً ،
 والذلُّ في طاعة الله أقربُ من الغزاة في معصيته .
 وقال أبو العتاهية : لَقِيتُ أبا نُؤَاسٍ في المسجد الجامع فبذلته^(٣) وقلت له :
 أما آن لك أن ترعوى^(٤) وتنزجر ؟ فرفع رأسه إلى وقال :
 أترانى ياعتماهى^(٥) تاركاً تلك السلاهي
 أترانى مفسداً بالنفسك عند القوم جاهي
 فلما ألححت عليه في المذل أنشأ يقول :
 لا ترجع الأنفسُ عن غيِّها مالم يكن منها لها زاجرُ

(١) يم : قصد .

(٢) لشت : جفت واحترقت .

(٣) عدله : لاهمه .

(٤) ترعوى : تسكف وترتدع .

(٥) العتاهي : ناقص العقل واللاحق . والمتاهية : ضلال الناس .

فوددت أني قلت هذا البيت بكل شيء فلتته .

وقال ابن السكك عن اسرافه كانت تسكن البادية : لو ملأ قلب المؤمنين بفكرها ما دُخِر لها في خُجُب النيوب بن خير الآخرة ، لم يَصِفْ لهم في الدنيا عيشٌ ، ولم تَقَرَّ لهم عين . وقال ضيفهم لرجل : إن حُبَّه عز وجل شغل قلوب محبيه عن التلذذ بمحبة غيره ، فليس لهم في الدنيا مع محبته عز وجل لذة تداني محبته ، ولا يأملون في الآخرة من كرامة الذواب أكبر عندهم من النظر إلى وجه محبوبهم ، فسقط الرجل متغيثاً عليه .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث عبد الرحمن بن جُبَيْر بن نَفِير ، عن أبيه عن الثوراس بن سيمان رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَيْهِ الصَّرَاطِ سُورَانِ فِي الدُّورَيْنِ أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سَتُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَى رَأْسِ الصَّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصَّرَاطَ وَلَا تُؤْمَرْجُوا ، وَدَاعٍ يَدْعُو أَوَّلَ الصَّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ أَحَدٌ فَتَحَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ الْأَبْوَابِ قَالَ : وَيَحْكُمُ لَا تَفْتَحُهُ فَبَايَكَ إِنْ فَتَحْتَهُ تَابِعَهُ ، فَالصَّرَاطُ الْإِسْلَامُ ، وَالسُّتُورُ الْمُرْخَاةُ حُدُودُ اللَّهِ ، وَالْأَبْوَابُ الْمُنْتَحَةُ بِحَارَمِ اللَّهِ ، وَالْدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصَّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ عز وجل ، وَالْدَّاعِي مِنْ أَوَّلِ الصَّرَاطِ دَاعِيَةُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ » ^(١) .

وقال حنبل بن سعيد بن مَعْدَان : ما من عبد إلا وله عيان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا ، وعيان في قامه يبصر بهما أمر الآخرة ، فإذا أراد الله ببصيرته ففتح عينيه اللتين في قامه فابصر بهما ما عده الله بالغيب ، وإذا أراد الله به غير ذلك تركه على ما هو به ، ثم قرأ : (أَمْ عَلَى نَسَمٍ آتَيْنَاهُمَا) ^(٢) .

(١) الحنبية : الساجية والهمة . ولا تخرجوا : لا تملوا عنه أو تتركوه وتلاحه : تدخله . (٢) الآية ٢٤ . سورة محمد .

وفي الترمذى عنه صلى الله عليه وسلم « الْكَفَّيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَتَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي » :
وفي المسند من حديث فضالة بن عبيد عن النبي صلى الله عليه وسلم :
« الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَتَّى عَلَى اللَّهِ » .

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا عبد العزيز بن مسلم ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب رضى الله عنه قال : « من أصبح وأكثر^(١) هم غير الله فليس من الله » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عطاء بن يسار قال : قال موسى صلى الله عليه وسلم : يا رب مَنْ أَهْلَكَ الَّذِينَ تَظْلِمُهُمْ فِي ظِلِّ عَرْشِكَ؟ قال : هم البريئة أيديهم ، الطاهرة قلوبهم الذين يتحابون بجلالي ، الذين إذا ذُكِرْتُ ذُكِرُوا بِي ، وإذا ذُكِرُوا بِي ذُكِرْتُ بِذِكْرِهِمْ ، الذين يُسَبِّحُونَ الوضوء في المسكاره ، ويُتَبَّعُونَ إلى ذكرى كما تُتَبَّعُ النُّسُورُ إلى وكورها ، وَيَكْلَفُونَ بِمَجْئِي كَمَا يَكْلَفُ الصَّبِيُّ بِحَبِّ النَّاسِ ، وَيَغْضِبُونَ لِحَارِمِي إِذَا اسْتَحِلَّتْ كَمَا يَغْضِبُ النَّعِيرُ إِذَا حَرَبَ^(٢) » .

وقال أحمد : حدثنا إبراهيم بن خالد ، حدثني عبد الله بن يحيى قال : سمعت وهب بن منبه يقول : قال موسى عليه السلام : « أَيُّ رَبِّ أَيُّ عِبَادِكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قال : من أَذْكَرُ بَرُؤِيَّتِهِ » .

(١) أورده السيوطى فى الجامع الصغير مرفوعاً عن ابن مسعود وقال : رواه الحاكم .

(٢) حرب : هيج أو طعن أو سلب . والحرب بالفتح : الويل والهلاك . وفى القاموس المحيط للفيروزابادى : حرب كفرح : كلب واشتد غصبه فهو حرب .

وقال أحمد : حدثنا سيّار ، حدثنا جعفر ، حدثنا هشام الدستواي قال : بلغني أن في حكمة عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم : « تعملون للدنيا وأنتم تُرزقون فيها بغير عمل ، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل ، ويحكم علماء السوء ، الأجر تأخذون والعمل تُضيّعون ، توشكون أن تخرجوا من الدنيا إلى ظلمة القبر وضيقه ، والله عزّ وجلّ نهاكم عن المعاصي كما أمركم بالصوم والصلاة ، كيف يكون من أهل العلم من دنياه آثرُ عنده من آخرته وهو في الدنيا أعظمُ رغبة ؟ كيف يكون من أهل العلم من مسيرته إلى آخرته وهو مقبلٌ على دنياه ، وما يضره أشهى إليه مما لا يضره ؟ كيف يكون من أهل العلم من اتهم الله عزّ وجلّ في قضائه فليس يرضى بشيء أصابه ؟ كيف يكون من أهل العلم من طلب العلم ليتحدث به ولم يطلبه ليعمل به ؟ » .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن معمر ، قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، قال : أو لأعب خُلقتنا ؟

وقال أحمد : حدثنا أبو بكر الحنفي ، حدثنا عبد الحميد بن جعفر ، حدثني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أن أمة فاطمة حدثته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إِنِّ مِنْ شِرَارِ أُمَّتِي الَّذِينَ غَضُوا بِالنَّعِيمِ ، الَّذِينَ يَطْلُبُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ ، وَأَلْوَانَ الثِّيَابِ ، وَيَتَشَدَّقُونَ بِالْكَلَامِ) .

وقال أحمد : حدثنا أبو قطن ، حدثنا شعبة ، عن أبي مسleme^(١) ، عن

(١) الذي يروى عن أبي لخرّة ويروى عنه شعبة ، هو أبو مسleme سعيد بن يزيد . كما جاء في تهذيب التهذيب .

أبي نصره قال: قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأبي موسى: يا أبا موسى شو قنما إلى ربنا ، قال : فقرأ . فقالوا : الصلاة : فقال عمر : أولسنا فى الصلاة ؟ .

فصل

وملاكُ الأمر كله الرغبةُ فى الله وإرادة وجهه والتقربُ إليه بأنواع الوسائل ، والشوقُ إلى الوصول إليه وإلى لقائه ، فإن لم يكن للعبد همةٌ إلى ذلك فالرغبة فى الجنة ونعيمها وما أعدَّ الله فيها لأوليائه ، فإن لم تكن له همةٌ عاليةٌ تطالبه بذلك فخشية النار وما أعدَّ الله فيها لمن عصاه ، فإن لم تطاوعه نفسه بشيء من ذلك فليعلم أنه خُلِقَ للجحيم لا للنعيم ، ولا يقدر على ذلك بعد قدر الله وتوفيقه إلا بمخالفة هواه ، فهذه فصول أربعة هن : ربيعُ المؤمن وصيفه وخريفه وشتاؤه ، وهن منازلُه فى سيره إلى الله عزَّ وجلَّ ، وليس له منزلةٌ غيرها ، فأما مخالفةُ الهوى فلم يجعل الله للجنة طريقاً غيرَ مخالفتِهِ ، ولم يجعل للنار طريقاً غيرَ متابعتِهِ ، قال الله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ طَغَى . وَآسَرَ الْهَوَا الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْآوَاى . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَاى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْآوَاى)^(١) وقال تعالى : (وَلَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَمَّتَانِ)^(٢) . قيل هو العبد يهوى المعصية فيذكر مقامَ رَبِّه عليه فى الدنيا ، ومقامه بين يديه فى الآخرة فيتركها لله .

وقد أخبر سبحانه أن اتباع الهوى يُضل عن سبيله ، فقال الله تعالى : -

(١) الآيات ٣٧ - ٤١ سورة النازعات .

(٢) الآية ٤٦ . سورة الرحمن .

(يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) ^(١) ثم ذكر مآل الضالين عن سبيله ومصيرهم فقال: (إِنَّ الَّذِينَ يُضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ نَسُوءِ يَوْمَ الْحِسَابِ) ^(٢) وأخبر سبحانه أن باتباع الهوى يطبع على قلب العبد فقال: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) ^(٣) وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن العاجز هو الذي اتبع هواه وثنى على الله. وذكر الإمام أحمد من حديث راشد بن سعد، عن أبي أمامة الباهلي رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَا تَحْتَ ظِلِّ السَّمَاءِ إِلَّا يُعْبَدُ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ هَوَىٰ مُتَّبِعٍ) .

وذكر من حديث جعفر بن حيان، عن أبي الحكم، عن أبي رَزَّة الأسلمي رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ شَهَوَاتُ النَّفْسِ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمَضَلَاتُ الْهَوَىٰ) . وفي نسخة كثير ابن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، عن أبيه، عن جده رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي حُكْمُ جَائِرٍ، وَزَلَّةُ عَالِمٍ، وَهَوَىٰ مُتَّبِعٍ) ^(٤)

(١) الآية ٢٦ . سورة ص .

(٢) الآية ٢٦ . سورة ص .

(٣) الآية ١٦ سورة محمد .

(٤) ورد في الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى بلفظ: «إني أخاف على أمتي من ثلاث: من زلة عالم، ومن هوى متبع، ومن خكم جائر»، وقال: رواه البزار والطبراني من طريق كثير بن عبد الله وهو واه، وقد حسنها الترمذي في موضع ومصحفها في موضع فأنسكرك عليه، واحتج بها ابن خزيمة في صحيحه .

وقيل لبعض الحكماء : أى الأصحاب أبر ؟ قال : العمل الصالح ، قيل :
فأى شئ أضر ؟ قال : النفس والهوى . وقال بعض الحكماء : إذا اشتبه عليك
أمران فانظر أقر بهما من هواك فاجتنبه . وأتى بعض الملوك بأسير عظيم الجرم
فقال : لو كان هواى فى العفو عنك لخالفت الهوى إلى قتلك ، ولكن لما كان
هواى فى قتلك خالفته إلى العفو عنك . وقال الميتم بن مالك الطائى : سمعت
النعمان بن بشير يقول على المنبر : إن للشيطان فخوراً ومصالي^(١) وإن من مصالى
الشيطان وفخوه البطر بأنعم الله ، والفخر بإعطاء الله ، والكبرياء على عباد الله ،
واتباع الهوى فى غير ذات الله .

وفى المسند وغيره من حديث قتادة ، عن أنس رضى الله عنه قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات ، وثلاث منجيات ،
فالمهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه ،
والمنجيات : تقوى الله تعالى فى السر والعانية ، والعدل فى القضب والرضى ،
والقصد فى الفقر والغنى » ،

وفى جامع الترمذى من حديث أسماء بنت عميس رضى الله عنها قالت :
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بئس العبد عبد تجبر
واعتمدى ، ونسي الجبار الأعلى . بئس العبد عبد تخيل واختال ، ونسي
الكبير المتعال . بئس العبد عبد سها ولها ، ونسي المقابر والبلى . بئس العبد
عبد بنى وعتا ، ونسي المبدأ والمنتهى . [بئس العبد عبد يختل الدنيا
بالدين] . بئس العبد عبد يختل الدين بالشبهات ، بئس العبد عبد طمع

(١) جمع مصلاة : وهى الشرك .

يقودُهُ . بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدُ هَوَى يُضِلُّهُ . [بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدُ رَغَبٍ يُذِلُّهُ] ^(١)
وقد أقسم النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يؤمنُ العبدُ حتى يكونَ هواه تبعاً
لما جاء به ، فيكون هواه تابعاً لا متبوعاً ، فمن اتبعَ هواه فهو متبوعٌ له ،
ومن خالف هواه لما جاء به الرسولُ صلى الله عليه وسلم فهو تابعٌ له ، فالمتوهم
هو تابعٌ له ، والمناقض القاجر هو متبوعٌ له .

وقد حكم الله تعالى لتابعِ هواه بغير هُدًى من الله أنه أظلم الظالمين ، فقال الله
هزَّ وجلَّ : (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ
مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) ^(٢)
وأنت تجد تحت هذا الخطاب أن الله لا يهدي من اتبع هواه ، وجعل سبحانه
وعالى للمتبعَ قسمين لا ثالث لهما : إما ما جاء به الرسولُ صلى الله عليه وسلم .
وإما الهوى . فمن اتبع أحدهما لم يمكنه اتباعُ الآخر ، والشیطانُ يُطِيفُ بالعبد
من أين يدخل عليه فلا يجد عليه مدخلا ولا إليه طريقاً إلا من هواه . فذلك
كان الذى يخالف هواه يفرقُ ^(٣) الشيطان من ظله ، وإنما نطاق مخالفة الهوى
بالرغبة فى الله وثوابه ، والخشية من حجابهِ وعذابه . ووجد حلاوة الشفاء فى
مخالفة الهوى ، فإن متابعتَه الداءُ الأكبر ، ومخالفتَه الشفاءُ الأعظم . وقيل لأبى
القاسم الجنيد : متى تنال النفوسُ منهاها ؟ فقال : إذا صار دأؤها دواها ، فقيل
له : ومتى يصير دأؤها دواها ؟ فقال : إذا خالفت هواها ، ومعنى قوله : يصير

(١) الزيادة من الترمذى ، وفيه قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من
هذا الوجه وليس إسناده بالقوى .

(٢) الآية ٥٠ . سورة القصص .

(٣) يفرق : يفرع ويخاف .

داؤها دواها أن داءها هو الهوى ، فإذا خالفتها تداوت منه بمخالفتها . وقيل :
إنما سُمِّيَ هَوًى لأنه يهوى بصاحبه إلى أسفل السافلين . والهوى ثلاثة أرباع
الهوان ، وهو شارع النار الأكبر كما أن مخالفتها شارع الجنة الأعظم . وقال
أبو دَافَ العِجَلِي :

واسـوأنا لَقِيتُ له . أدبٌ يُضحي مـواه قاهراً أدبٌ
يأتى الدنيّة وهو يعرفها فيشِينُ عِرْضاً صائناً أربّة
فإذا أرعوى عادت بصيرته فبكى عَلَى الحين^(١) الذى سَلِمَته
وقال ابن المرتفق الهذلي :

أين لى ما ترى والمرء يأتى عزيمته ويفليه هواه
فيعى ما يرى فيه عليه ويحسب من يراه لا يراه

فصل

وأما الرغبة في الله وإرادة وجهه ، والشوق إلى لقائه فهى رأس مال العبد
وملاك أمره وقوام حياته الطيبة ، وأصل سعادته وفلاحه ونعيمه وقرّة عينه ،
ولذلك خلق ، وبه أمر ، وبذلك أرسلت الرسل ، وأنزلت الكتب ،
ولا صلاح للقلب ولا نعيم إلا بأن تكون رغبته إلى الله عز وجل وحده ،
فيكون هو وحده مرغوبة ومطلوبة ومراده كما قال الله تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ
فَانصَبْ . وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)^(٢) وقال تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ

(١) الحين : الوقت طال أو قصر .

(٢) آخر سورة الانشراح .

اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ^(١).

والراغبون ثلاثة أقسام : راغب في الله ، وراغب فيما عند الله ، وراغب عن الله . فالحُبُّ راغب فيه ، والمُاعِلُّ راغب فيما عنده ، والراضى بالله نيامن الآخرة راغب عنه . ومن كانت رغبته في الله كفاها الله كلَّ مهمٍّ ، وتولاه في جميع أموره ، ودفع عنه ما لا يستطيع دفعه عن نفسه ، ووقاه وقاية الوليد ، وصانه من جميع الآفات . ومن آثر الله على غيره آثره الله على غيره . ومن كان لله كافٍ كان الله له حيث لا يكون لنفسه ، ومن عرف الله لم يكن شيء أحبَّ إليه منه ، ولم تبقَ له رغبة فيما سواه ، إلا فيما يقربه إليه ويعينه على سفره إليه .

ومن علامات المعرفة الهيبة ، فنكلما ازدادت معرفة العبد بربه ازدادت هيئته وخشيته إياه كما قال الله تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)^(٢) أى العلماء به . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَنَا أَعْرِفُكُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً »^(٣) ومن عرف الله صفا له العيش ، وطابت له الحياة ، وهابه كل شيء ، وذهب عنه خوف المخلوقين ، وأنس بالله ، واستوحش من الناس ، وأورثته المعرفة الحياء من الله ، والتعظيم له ، والإجلال والمراقبة والمحبة والتوكل عليه ، والإنابة إليه والرضا به والتسليم لأمره . وقيل للجنيد رحمه الله تعالى :

(١) الآية ٥٩ . سورة النوبة .

(٢) الآية ٢٨ . سورة فاطر .

(٣) من حديث رواد البخارى بلفظ : « إِنِّي لَأَعْلَمُهُم بِاللَّهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً ، وَفِيَّ مُسْلِمٌ بِلَفْظٍ : « لَأَنَا أَعْلَمُهُم ، إلخ ،

إن ها هنا أقواماً يقولون : إنهم يصلون إلى البرِّ بتركِ الحركات ، فقال : هؤلاء تسكّموا بإسقاط الأعمال وهو عندي عظيم ، والذي يزني ويسرق أحسن حالاً من الذي يقول هذا ، فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله ، وإلى الله رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البرِّ شيئاً .

وقال : لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤه البرّ والفاجر ، وكالمطر يسقي ما يحب وما لا يحب .

وقال يحيى بن معاذ : يخرج العارف من الدنيا ولا يقضى وطره من شيتين : بكأذه على نفسه ، وشوقه إلى ربه . وقال بعضهم : لا يكون العارف عارفاً حتى لو أعطى ملك سليمان لم يشمله عن الله طرفة عين . وقيل : العارف أنس بالله فاستوحش من غيره ، وافتقر إلى الله فأغناه عن خلقه ، وذلك لله فأعزّه في خلقه .

وقال أبو سليمان الداراني : يفتح للعارف على فراشه ما لا يفتح له وهو قائم يصلي .

وقال ذو النون : لكل شيء عتوبة ، وعتوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله .

وبالجملة فحياة القلب مع الله لا حياة له بدون ذلك أبداً ، ومتى واطأ^(١) اللسان القلب في ذكره ، وواطأ القلب مراد حبيبه منه ، واستقل له الكبير من قوله وعمله ، واستكثر له القليل من برّه واطقه ، وعانق الطاعة وفارق الخالفة ، وخرج عن كلفة لمحبوبه فلم يبق منه شيء ، وامتلاً قلبه بتعظيمه وإجلاله وإيثار رضاه ، وعزّ عليه الصبر عنه ، وعُدم التّرار دون ذكره والرغبة إليه

(١) واطأ : وافق وطابق .

والاشتياق إلى لقائه ، ولم يجد الأُنس إلا بذكره ، وحفظ حدوده ، وآثره على غيره فهو المحب حقاً .

وقال الجنيد : سمعت الحارث المحاسبى يقول : المحبةُ ميلُك إلى الشيء بكليةتك . ثم إشارُك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتُك له سرّاً وجهرّاً ، ثم علمُك بتقصيرك في حبه . وقيل : المحبةُ نارٌ في القلب تحرق ماسوى مرادٍ الحبيب من محبه . وقيل : بل هى بذلُ المجهود فى رضا الحبيب ، ولا تصيحُ إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب . وفى بعض الآثار الإلهية : عبدى أنا وحقك لك محبٌ فبحقّ عليك كن لى محباً . وقال عبد الله بن المبارك : من أعطى شيئاً من المحبة ولم يُعطَ مثله من الخشية فهو مغدوع .

وقال يحيى بن معاذ : من قال خردلة من الحب أحبُّ إلى من عبادة سبعين سنة بلا حب .

وقال أبو بكر الكتّانى : جرت مسألة فى المحبة بمكة أيام الموسم ، فتكلّم الشيوخ فيها ، وكان الجنيد أصغرهم سنّاً فقالوا : هاتِ ما عندك يا عراقى ، فأطرق رأسه ودَمَعَت عيناهُ ثم قال : عبدٌ ذاهبٌ عن نفسه ، متضلٌّ بذكر ربه ، قائمٌ بأداء حقوقه ، ناظرٌ إليه بقلبه ، أحرق قلبه أنوار هويّته ، وصفا شربهُ من كأس وده ، فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فبن الله ، وإن تحرّك فبأمر الله ، ولمن سكت فع الله ، فهو بالله والله ومع الله ، فبكى الشيوخ وقالوا : ما على هذا مزيد ، جبرك الله يانا ج العارفين . وقيل : أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود إني حرمتُ على القلوب أن يدخلها حبي وحبٌ غيرى ، فأجمع العارفون كلُّهم أن المحبة لا تصيحُ إلا بالموافقة حتى قال بعضهم : حقيقة الحب موافقة المحبوب فى مراضيه ومساخطه ، واتفق القوم أن المحبة لا تصيحُ إلا بتوحيد المحبوب .

وَيُحْكِي أَنَّ رَجُلًا ادَّعَى الْإِسْتِهْلَاكَ^(١) فِي مَحَبَّةِ شَخْصٍ فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ وَهَذَا أَخِي أَحْسَنَ مِنِّي وَجَهًا وَأَتَمُّ جَمَالًا ؟ فَالْتَفَتَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ فَدَفَعَهُ الشَّابُّ وَقَالَ : مَنْ يَدَّعَى هَوَانًا يَنْظُرُ إِلَى سَوَانَا ؟ وَذَكَرْتُ الْحَبِيبَةَ عِنْدَ ذِي النُّونِ فَقَالَ : كُفُّوا عَنِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لَا تَسْمَعُهَا النُّفُوسُ فَتَدَّعِيهَا ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

الْخُوفُ أَوَّلَى بِالْمُسَىءِ إِذَا تَأَلَّهَ وَالْحَزَنُ
وَالْحُبُّ يَجْمَلُ بِالتَّقْوَى وَبِالنَّقَى مِنَ الدَّرَنِ

وَقَالَ سَمْنُونُ : ذَهَبَ الْمَحْبُوبُونَ لِلَّهِ بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . إِنْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « التَّوَكُّلُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ »^(٢) فَهُمْ مَعَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ : لَيْسَ بِصَادِقٍ مَنْ ادَّعَى مَحَبَّتَهُ ثُمَّ لَمْ يَحْفَظْ حُدُودَهُ .

فصل

فَالْحَبِيبَةُ شَجَرَةٌ فِي الْقَلْبِ عُرْوَتُهَا الذِّلُّ لِلْمَحْبُوبِ ، وَسَاقِهَا مَعْرِفَتُهُ ، وَأَغْصَانُهَا خَشْيَتُهُ ، وَوَرَقُهَا الْحَيَاءُ مِنْهُ ، وَثَمَرُهَا طَاعَتُهُ ، وَمَادَّتُهَا الَّتِي تَسْقِيهَا ذِكْرُهُ ، فَتَى خَلَا الْحُبُّ عَنْ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ كَانَ نَاقِصًا .

وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ يُحِبُّ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيُحِبُّونَهُ ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ أَشَدَّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ الْوَدُودُ وَهُوَ الْحَبِيبُ قَالَهُ الْبُخَارِيُّ . وَالْوَدُ خَالِصُ الْحُبِّ ، فَهُوَ يُوَدُّ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ وَيُودُونَهُ .

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرَوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ

(١) اسْتِهْلَاكَ فِي كَذَا : جَهْدَ نَفْسِهِ فِيهِ .

(٢) تَقْدِمُ هَذَا الْحَدِيثُ فِي صَفْحَةِ ٢٣ .

مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْكَ ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبُّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، فَبِمَا يَسْمَعُ وَبِمَا يُبْصِرُ وَبِمَا يَبْطِشُ وَبِمَا يَمْشِي ، وَلَئِنْ سَأَلْتَنِي لَأُعْطِيَنَّكَ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَ بِي لَأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ » . وفي لفظ في غير البخاري : « فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا وَيَدًا وَمُؤَيِّدًا » فتأمل كمال الموافقة في الكراهة كيف اقتضى كراهة الرب تعالى لمساءة عبده بالموت لما كره العبد مساخط ربه ، وكال الموافقة في الإرادة كيف اقتضى موافقته في قضاء حوائجه وإجابة طلباته وإعاداته مما استعاذ به ، كما قالت عائشة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم : ما أرى ربك إلا يارع في هوائك^(١) ، وقال له عمه أبو طالب : يا ابن أخي ما أرى ربك إلا يطيعك ، فقال له : وأنت ياعم لو أطعته أطاعك^(٢) . وفي تفسير ابن أبي نجيع عن مجاهد في قوله عز وجل : (وَأَتَّخِذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا)^(٣) قال : حبيباً قريباً إذا سأله أعطاه ، وإذا دعاه أجابه . وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام : يا موسى كن لي كما أريد أكن لك كما تريد . وتأمل هذه الباء في قوله : فبم يسمع وبم يبصر وبم يبطش وبم يمشي كيف تجدها مبنية لمعنى قوله : كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به إلى آخره ، فإن سمع سمع بالله ، وإن أبصر أبصر به ، وإن بطش بطش به ، وإن مشى مشى به . وهذا تحقيق قوله تعالى : (إِنْ أَلَّفَ اللَّهُ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) ذكره ابن حجر في الإصابة في ترجمة أبي طالب .

(٣) الآية ١٢٥ سورة النساء .

عُحْسِنُونَ^(١) ، وقوله : (وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)^(٢) وقوله : (وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)^(٣) ، وقوله فيما رواه عنه رسوله من قوله : « أنا مع عبدي ما ذكرني وتحرَّكت بي شفتاه » . وهذا ضدُّ قوله : (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنْهَا يُصْحَبُونَ)^(٤) فالصحبة التي نقاها هنا هي التي أثبتنا لأحبابه وأوليائه ، فتأمل كيف جعل محبته لعبده متعلقةً بأداء فرائضه ، وبالتقرب إليه بالنوافل بعدها لا غير ، وفي هذا تعزيةٌ لمدعى محبته بدون ذلك أنه ليس من أهلها ، وإنما معه الأمانى الباطلة والدعاوى الكاذبة .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحبَّ الله العبدَ نادى جبريلُ إنَّ اللهَ يُحِبُّ فلاناً فأحْبُوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوَضَّعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ » وفي لفظٍ لمسلم : « إنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبداً دعا جبريلَ فقالَ : إني أحبُّ فلاناً فأحْبُهُ قالَ فَيُحِبُّهُ جبريلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ : إنَّ اللهَ يُحِبُّ فلاناً فأحْبُوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، قالَ ثُمَّ يُوَضَّعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ ، وإذا أَبْغَضَ عبداً دعا جبريلَ فيقولُ : إني أَبْغَضُ فلاناً فَأَبْغِضْهُ قالَ فَيَبْغِضُهُ جبريلُ ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ إنَّ اللهَ يَبْغِضُ فلاناً فَأَبْغِضُوهُ ، ثُمَّ يُوَضَّعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ » وفي لفظٍ آخر لمسلم عن سهيل بن أبي صالح قال : كننا بعرفة فرأى عمر بن عبد العزيز وهو

(١) آخر سورة النحل .

(٢) آخر سورة العنكبوت .

(٣) الآية ١٩ . سورة الانفال .

(٤) الآية ٤٣ . سورة الانبياء .

حَتَّى الْمَوْسِمِ يَتَقَامُ النَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَقُلْتُ لِأَبِي : يَا أَبَتِ إِنِّي أَرَى اللَّهَ يَحِبُّ
عمر بن عبد العزيز، قال : وما ذلك ؟ قلت : لما له من الحبِّ في قلوب الناس ،
فقال : إِنِّي سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ثُمَّ ذَكَرَ الْحَدِيثَ . وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ ثُمَّ زَادَ فِي آخِرِهِ فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ
تَعَالَى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا وَدًّا) (١)
انتهى . وقال بعضُ السلف في تفسيرها : يحبُّهم ويحبُّهم إلى عباده .

وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي صلى
الله عليه وسلم عن الساعة فقال : « وما أعددت لها ؟ » قال لا شيء إلا أني أحبُّ
الله ورسوله ؟ فقال : « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحَبَبْتَ » قال أنس رضي الله عنه : بما
فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحْنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحَبَبْتَ »
قال أنس : فَأَنَا أَحَبُّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ
مَعَهُمْ بِحَبِي إِيَّامٍ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ أَعْمَالَهُمْ .

وفي الترمذی عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ
أَحَبَّ وَلَهُ مَا اكْتَسَبَ » . وفي سنن أبي داود عنه قال : رأيت أصحاب النبي صلى
الله عليه وسلم فرحوا بشيء لم أرهم فرحوا بشيء أشد منه ، قال رجل : يا رسول
الله الرجل يحبُّ الرجل على العمل من الخير يعملُ به ولا يعمل بمثلِهِ . فقال
رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » . وهذه المحبة لله
توجب المحبة في الله قطعاً ، فإن من محبة الحبيب المحبة فيه والبغض فيه .

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال
رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ

بِجَلَالِي؟ أَلَيْسَ أَظَاهُهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي ». وفي جامع أبي عيسى الترمذى من حديث مُعَاذِ بْنِ جَبَل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي أَمَّهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يُغِيظُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ ». وفي لفظٍ لغيره « الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِ اللَّهِ يَكُونُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ يُغِيظُهُمْ أَهْلُ الْجَمْعِ ». وفي الموطأ من حديث أبي إدريس الخولاني قال : دخلت مسجد دمشق فإذا قتي بن رافع الثنائيا والناس حوله فإذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه وصدروا^(١) عن رأيه، فسألت عنه فقالوا : هذا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ، فلما كان الغد هَجَرْتُ^(٢) إليه فوجدته قد سبقني بالتهجير^(٣) ، ووجدته يصلي ، فانتظرتُه حتى قضى صلاته ، ثم جثته من قِبَلِ وجهه فسلمت عليه ثم قلت : وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّكَ فِي اللَّهِ ، فقال : اللَّهُ ؟ قلت : اللَّهُ ، فقال : آله ؟ فقلت : اللَّهُ ، فأخذَ مَحَبَّةً^(٤) ردائي فبذني^(٥) إليه وقال : أبشر فإنني سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَلَعَالَى : وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ ، وَالْمُزَاوِرِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ » .

وفي سنن أبي داود من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ » .

(١) صدروا برأيه : أخذوا برأيه وعملوا به .

(٢) التهجير : التبكير إلى كل شيء والمبادرة إليه . والتهجر والتهجير : السير في الهاجرة .

(٣) حبة الرداء : ما اشتعل عليه .

(٤) جِذْمٌ : جذبه .

وفيه أيضاً عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من عباد الله لأتاساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله » قالوا : يا رسول الله ، تخبرنا من هم ؟ قال : « هم قوم تمحبوا بربهم وحب الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور ولأسمهم تعلق نور ولا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس » وقرأ هذه الآية : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)^(١) .

وفي لفظٍ غيره : « إن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء بمكانهم من الله » قالوا : يا رسول الله صفهم لنا ، حاتم لنا لعلنا نحبهم ، قال : « هم قوم تمحبوا بربهم وحب الله على غير أموال تبذلونها ولا أرحام توأصلوها هم نور ووجوههم نور وعلى كرامى من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس » ثم قرأ هذه الآية : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وفي صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن رجلاً زار أخاه في قرية أخرى فأرصد الله على مخرجيه^(٢) ملكاً فدلّاه أنى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لي في هذه القرية قال : لك عليه من نعمة تربها^(٣) ؟ قال : لا غيراً لى أحببته في الله تعالى ، قال : فإني رسول الله إليك أن الله قد أحبك كما أحببته فيه » .

(١) الآية ٦٢ . سورة يونس .

(٢) المراجعة : الطريق .

(٣) تربها : تنعمها أو تدم بها . ورب على فلان . أنعم عليه .

وقال رجل لمعاذ بن جبل : إني أحبك في الله ، قال : أحببك الذي أحببتني له .

وفي سنن أبي داود أن رجلاً كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى رجلاً فقال : يا رسول الله إني لأحب هذا، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعلمته ؟ » قال : لا ، قال : « أعلمته » فليحقه فقال : إني أحبك في الله، قال : أحببك الذي أحببتني له .

وفيها أيضاً عن المقدام بن معدى كَرِب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحبَّ الرجلُ أخاهُ فليُخبره أنه يُحِبُّهُ » .

وفي الترمذى من حديث يزيد بن نَعَامَةَ الضَّبِّي رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أتى الرجلُ الرجلَ فليَسْأَلْهُ عَنِ اسْمِهِ واسمِ أبيه وبنيهِ هُوَ فَإِنَّهُ أَوْصَلُ الْمَوَدَّةِ » .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تَتُومِنُوا وَلَا تَتُومِنُوا حَتَّى تَتَحَابُّوا . أَوْ لَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج بن محمد الترمذى ، حدثنا شريك ، عن أبي سنان، عن عبد الله بن أبي الهذيل عن عمار بن ياسر أن أصحابه كانوا ينتظرونه ، فلما خرج قالوا : ما أبطأك عنا أيها الأمير ؟ قال : أما إني مسوف . أحدتكم أن أخا لكم من كان قبلكم وهو موسى صلى الله عليه عليه وسلم قال : يارب حدثني بأحب الناس إليك، قال : ولم ؟ قال : لأحبب بك إياه ، قال : عبد في أقصى الأرض أو طرف الأرض سمع به عبد آخر في أقصى أو طرف الأرض

لا يعرفه ، فإن أصابته مصيبةٌ فكأنما أصابته ، وإن شاكته شوكةٌ فكأنما شاكته ، لا يحبه إلّالى ، فذلك أحبُّ خلقى إلى . قال : ياربّ خلقتَ خلْقًا تدخلهم النار أو تعذبهم ، فأوحى الله إليهم كلهم خلقي ، ثم قال : ازرع زرعاً فزرعه ، فقال : اسقيه فسقاه ، ثم قال : قم عليه ، فقام عليه ماشاء الله من ذلك ، فخصده ورفعته فقال : ما فعل زرعك يا موسى ؟ قال : فرغت منه ورفعته ، قال : ما تركت منه شيئاً ؟ قال : مالا خيراً فيه أو مالا حاجةً لى فيه ، قال : فكذلك أنا لا أعذب إلّا من لاخير فيه .

فصل

ولو لم يكن فى محبة الله إلّا أنها تنجى محبّه من عذابه لكان ينبغى للعبد أن لا يمتعض عنها بشيء أبداً . وسئل بعض العلماء أين تجد فى القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه ؟ فقال : فى قوله تعالى : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ) ^(١) الآية .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن يونس عن الحسن رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « وَاللّهِ لَا يُعَذِّبُ اللَّهُ حَبِيبَهُ وَلَكِنْ قَدْ يَبْتَلِيهِ فِي الدُّنْيَا » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سيّار ، حدثنا جعفر ، حدثنا أبو غالب قال : بلغنا أن هذا الكلام فى وصية عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم : « يامعشرَ الحوارين تحبّوا إلى الله ينفذ أهل المعاصى ، وتقرّبوا إليه بالمتّق لهم ، والتمسوا رضاه بسخطهم » قالوا . يابى الله فن نجاس ؟ قال : « جاسوا من يزيد فى أعمالكم منطلقه ، ومن تذكركم بالله رؤيته ، ويزهدكم فى دنياكم علمه » .

(١) الآية ١٨ . سورة المائدة .

ويكفي في الإقبال على الله تعالى ثواباً عاجلاً أن الله سبحانه وتعالى يُقبل بقلوب عباده إلى من أقبل عليه ، كما أنه يُعرض بقلوبهم عن عرض عنه ، فقلوب العباد بيد الله لا بأيديهم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن في تفسير شيبان عن قتادة قال : ذكر لنا أن هَرَمَ بن حيان كان يقول : ما أقبل عبدٌ على الله بقلبه إلا أقبل الله عز وجل بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم .

وقد روى هذا مرفوعاً ولفظه : « وَمَا أَقْبَلَ عَبْدٌ عَلَى اللَّهِ بِقَلْبِهِ إِلَّا أَقْبَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ بِقُلُوبِ عِبَادِهِ وَجَمَلَ قُلُوبَهُمْ تَفِدُ إِلَيْهِ بِالْوُدِّ وَالرَّحْمَةِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ خَيْرٍ إِلَيْهِ أَسْرَعَ » وإذا كانت القلوب مجسولة على حب من أحسن إليها وكل إحسان وصل إلى العبد فن الله عز وجل كما قال الله تعالى : (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ)^(١) فلا الأَم من شغل قلبه بحب غيره دونه .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية قال حدثني الأعمش ، عن المنهال ، عن عبد الله بن الحارث قال : أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود أحييني وحبب عبادي إليّ وحيبني إلى عبادي ، قال : يارب هذا أنا أحب وأحب عبادك إليك فكيف أحببك إلى عبادك ؟ قال : تذكرني عندهم ، فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن .

ومن أفضل ما سئل الله عز وجل حُبُّه وحب من يحبه وحب عمل يقرب إلى حبه ، ومن أجمع ذلك أن يقول : « اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك ، اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي

(١) الآية ٥٣ . سورة البخل .

فما تحب ، وما زويت^(١) عني مما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب ، اللهم اجعل حبك أحب إلي من أهلي ومالي ومن الماء البارد على الظمأ ، اللهم حبيبي إليك وإلى ملائكتك وأنبيائك ورسلك وعبادك الصالحين ، واجعلني ممن يحبك ويحب ملائكتك وأنبياءك ورسلك وعبادك الصالحين ، اللهم أحى قلبي بحبك واجعاني لك كما تحب ، اللهم اجعاني أحببك بقلبي كله ، وأرضيك بمجدي كله ، اللهم اجعل حبي كله لك ، وسعي كله في مرضاتك^(٢) ، وهذا الدعاء هو فسطاط خيمة الإسلام الذي قيامها به ، وهو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والقائمون بحقيقة ذلك هم الذين هم بشهادتهم قائمون . والله سبحانه تعرف إلى عبادته من أسمائه وصفاته وأفعاله بما يوجب محبتهم له ، فإن القلوب مفطورة على محبة الكمال ومن قام به ، والله سبحانه وتعالى له الكمال المطلق من كل وجه الذي لا نقص فيه بوجه ما ، وهو سبحانه الجميل الذي لا أجل منه بل لو كان جلال الخلق كلهم على رجل واحد منهم وكانوا جميعهم بذلك الجلال لما كان لجلالهم قطبة نسبة إلى جلال الله ، بل كانت النسبة أقل من نسبة سراج ضعيف إلى جذاء جرم الشمس (والله التمثل الأعلى)^(٣) .

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « إن الله جميل يحب الجمال » عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأبو سعيد الخدري ، وعبد الله بن معبود ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وثابت بن قيس ، وأبو الدرداء ، وأبو هريرة ، وأبو ريحانة رضي الله عنهم .

(١) زواه عن الشيء : صرفه ونحوه .

(٢) في الجامع الصحيح للترمذي قال : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : وكان من دعاء داود : اللهم . . . وذكر نحواً من هذا الدعاء .

(٣) الآية ٦٠ . سورة النحل .

ومن أسمائه الحسنى : الجليل ، ومن أحقُّ بالجمال من كلُّ جمالٍ في الوجود فهو من آثار صنعه ، فله جمالُ الذات ، وجمال الأوصاف ، وجمالُ الأفعال ، وجمالُ الأسماء ، فأسماءه كلها حسنى ، وصفاته كلها كمال ، وأفعاله كلها جميلة ، فلا يستطيع بشرٌ النظر إلى جلاله وجماله في هذه الدار ، فإذا رأى وسبحانه في جنات عدن أنستهم رؤيته ما هم فيه من النعيم ، فلا يلتفتون حينئذٍ إلى شيء غيره ، ولولا حجابُ النور على وجهه لأحرقت سُبحاتُ^(١) وجهه سبحانه وتعالى ما انتهى إليه بصره من خلقه ، كما في صحيح البخارى^(٢) من حديث أبي موسى رضى الله عنه قال : قام فينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ^(٣) وَيَرْفَعُهُ ، يَرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ الْآئِلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأُحْرِقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : ليس عند ربكم ليلٌ ولا نهار نورُ السموات من نور وجهه ، وإن مقدار كلِّ يوم من أيامكم عند الله اثنتا عشرة ساعة ، فتعرض عليه أعمالكم بالأمس [فتعرض عليه] أولَ النهار أو اليوم فينظر فيها ثلاث ساعات ، فيطلع منها على بعض ما يكره فينفضبه ذلك ، فأولُ من يعلم بنفضبه الدين يحملون العرش يحدونه يثقل عليهم فيسبحه الذين يحملون العرش وسُرادات العرش والملائكة المقرَّبون وسائر الملائكة ، وينفخ جبريلُ في القرن فلا يبقى شيء إلا الثقلين الجنَّ والإنس ، فيسبحونه ثلاث ساعات حتى يعطي الرحمن رحمةً ، فتلك ستُّ ساعاتٍ ، ثم يؤتى بما في الأرحام فينظر فيها

(١) سبحات الله : أنواره وجلالته وعظمته .

(٢) هو في صحيح مسلم .

(٣) القسط : الميزان ، وهو أيضاً العدل والخصيب .

ثلاث ساعات فيصور ركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم، فتلك تسع ساعات، ثم ينظر في أرزاق الخلق كلهم ثلاث ساعات، فيسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم، ثم قرأ: (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)^(١)، ثم قال عبد الله: هذا من شأنكم وشأن ربكم تبارك وتعالى (رواه عثمان بن سعيد الدارمي) حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، عن الزبير بن عبد السلام، عن أيوب بن عبد الله الفهري^(٢)، عن ابن مسعود رضي الله عنه. رواه الحسن ابن إدريس، عن خالد بن الحياج، عن أبيه، عن عباد بن كثير، عن جعفر بن الحارث، عن مهران، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن ربكم ليس عنده نهار ولا ليل، وإن السموات مملوءات نورا من نور الكرسي، وإن يوما عند ربك اثنتا عشرة ساعة، فترفع فيها أعمال الخلائق في ثلاث ساعات، فيرى فيها ما يكره فيغضبه ذلك، وإن أول من يعلم بغضبه حاملة العرش يرويه يثقل عليهم فيسبحون له ويسبح له سرادقات العرش في ثلاث ساعات. من النهار، حتى يمضي ربنا رضا فتلك ست ساعات من النهار، ثم يأمر بأرزاق الخلائق فيعطى من يشاء في ثلاث ساعات من النهار، فتلك تسع ساعات. ثم يرفع إليه أرحام كل دابة فيخلق فيها ما يشاء، ويجعل المسددة لمن يشاء في ثلاث ساعات من النهار، فتلك اثنتا عشرة ساعة، ثم تلا ابن مسعود رضي الله عنه هذه الآية (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) هذا من شأن ربنا تبارك وتعالى. وفي دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي دعا به يوم الطائف: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ أَوْ يَنْزِلَ عَلَيَّ سَخَطُكَ

(١) الآية ٢٩. سورة الرحمن.

(٢) في تهذيب التهذيب (ج ١ ص ٤٠٧) أن حماد بن سلمة يروي عن الزبير

أبي عبد السلام عن أيوب بن عبد الله بن مكرز القرشي عن ابن مسعود.

لَكَ الْعُتْبَىٰ حَتَّى تَرْضَى وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ» ^(١) وإذا جاء سبحانه وتعالى يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده تشرق لنوره الأرض كلها كما قال الله تعالى: (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ) ^(٢) وقول عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: نور السموات والأرض من نور وجهه، تفسير لقوله تعالى: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) ^(٣).

وفي الصحيحين من حديث أبي بكر رضي الله عنه في استفتاح النبي صلى الله عليه وسلم قيام الليل: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ» وفي سنن ابن ماجه وحرب السكرماني من حديث الفضل بن عيسى الرقاشي، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بَيْنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ فَرَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ فَإِذَا الرَّبُّ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ فَيَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ وَذَلِكَ قَوْلُهُ: (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ) ^(٤) فيرفعون رؤوسهم فينظرون إليه وينظر إليهم ولا يلتفتون إلى شيء من النعيم حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركته عليهم وعلى ديارهم ومنازلهم» لفظ حديث حرب: «فَمَا ظَنُّ الْمُحِبِّينَ لِذَلِكَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ؟» وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشُّوقَ إِلَى لِقَائِكَ». (ذكره الإمام أحمد والنسائي وابن حبان في صحيحه) فاسمع الآن شأن أوليائه وأحبابه عند لقائه ثم اختر لنفسك:

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة والطبراني في الدعاء والمعجم الكبير.

(٢) الآية ٦٩. سورة الزمر.

(٣) الآية ٣٥. سورة النور.

(٤) الآية ٥٨. سورة يس.

أنت القتييلُ بكلِّ من أسبغته فاختار لنفسك في الهوى من تصطفى
قال هشام بن حسان عن الحسن : إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى نسوا
نعيم الجنة . وقال هشام بن عمار : حدثنا محمد بن سعيد بن سابور^(١) : حدثنا
عبد الرحمن بن سليمان ، حدثنا سعيد بن عبد الله الجرشى القاضى أنه سمع أبا
إسحاق الهمداني يحدث عن الحارث الأعور ، عن علي بن أبي طالب رضى الله
عنه رفعه قال : « إِنْ أَلَّهَ إِذَا أَسْكَنَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ
بَعَثَ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ الرُّوحَ الْأَوَّيْنَ فَيَقُولُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ رَبَّكُمْ
يُقْرِئُكُمْ السَّلَامَ وَيَأْمُرُكُمْ أَنْ تَزُورُوهُ إِلَى فَنَاءِ الْجَنَّةِ وَهُوَ أَبْطَحُ^(٢)
الْجَنَّةِ ، تَزُورُهُ الْمِسْكُ وَحَصْبَاؤُهُ^(٣) الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ وَشَجَرُهُ الذَّهَبُ
الرَّطْبُ وَوَرَقُهُ الزُّمْرَدُ ، فَيُخْرِجُ أَهْلَ الْجَنَّةِ مُسْتَبَشِّرِينَ مُسْرُورِينَ ، فَنَمَّ
يَجْمَعُهُمْ وَنَمَّ كَرَامَةُ اللَّهِ وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِهِ ، وَهُوَ مَوْعِدُ اللَّهِ أَنْجَزُهُ
لَهُمْ ، فَيَأْذَنُ اللَّهُ لَهُمْ فِي السَّمَاعِ وَالْأَكْلِ وَالشَّرْبِ ، وَيُكْسَوْنَ حُلَّ
الْكِرَامَةِ ثُمَّ يَنَادِي مُنَادٍ : يَا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هَلْ بَقِيَ مِمَّا وَعَدَ كُمْ
اللَّهُ [رَبِّكُمْ] شَيْءٌ ؟ فَيَقُولُونَ لَا وَقَدْ أَنْجَزَنَا مَا وَعَدَنَا فَمَا بَقِيَ شَيْءٌ إِلَّا
النَّظَرُ إِلَى وَجْهِهِ ، فَيَتَجَلَّى لَهُمُ الرَّبُّ (تَبَارَكَ وَتَعَالَى) فِي حُجُبٍ فَيَقُولُ :
يَا جِبْرِيلُ ارْقَعْ حِجَابِي لِإِعْبَادِي كَيْ يَنْظُرُوا إِلَى وَجْهِى ، قَالَ : فَيَرْفَعُ

(١) فى تهذيب التهذيب (ج ٩ ص ٢٢٢) أن الذى يروى عنه هشام بن
عمار هو محمد بن شعيب بن شابور وهو يروى عن عبد الرحمن بن حسان الكنانى .
(٢) الأبطح : المكان المقسع يمر به السيل فيترك فيه الرمل والحصى الصغار
ومنه أبطح مكة وبطحاء مكة .
(٣) جمع حصبة : الحصى ؛

الْحِجَابَ الْأَوَّلَ فَيَنْظُرُونَ إِلَى نُورٍ مِنْ نُورِ الرَّبِّ فَيُخَيَّرُونَ لَهُ سُبُجْدًا
فَيُنَادِيهِمُ الرَّبُّ يَا عِبَادِي أَرَفَعُوا رُؤُوسَكُمْ فَإِنَّهَا كُنَتْ بَدَارِ عَمَلٍ إِنَّمَا
هِيَ دَارُ ثَوَابٍ ، فَيَرَفَعُ الْحِجَابَ الثَّانِي فَيَنْظُرُونَ أَمْرًا هُوَ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ
فَيُخَيَّرُونَ لِلَّهِ حَامِدِينَ سَاجِدِينَ ، فَيُنَادِيهِمُ الرَّبُّ أَنْ أَرَفَعُوا رُؤُوسَكُمْ
إِنَّهَا كُنَتْ بَدَارِ عَمَلٍ إِنَّمَا هِيَ دَارُ ثَوَابٍ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ . فَيَرَفَعُ الْحِجَابَ
الثَّالثَ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَنْظُرُونَ إِلَى وَجْهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَيَقُولُونَ حِينَ يَنْظُرُونَ
إِلَى وَجْهِهِ : سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ ، فَيَقُولُ كَرَامَتِي أَمْ كُنْتُكُمْ
مِنْ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ وَأَحْلَلْتُكُمْ دَارِي . فَيَأْذَنُ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ أَنْ تَكَلِّمِي
فَتَقُولُ : طوبى لِمَنْ سَكَنِي وَطوبى لِمَنْ يَخْلُدُ فِيَّ وَطوبى لِمَنْ أُعْدِدْتُ
لَهُ . وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (طوبى لَهُمْ وَحَسَنُ مَا بَرِ)^(١) وقوله تَعَالَى : (وَجُودُهُ
يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)^(٢) .

وفى الصحيحين من حديث أبي موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آتِيَتُهُمَا وَحِلْيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّتَانِ
مِنْ فِضَّةٍ آتِيَتُهُمَا وَحِلْيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى
رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءَهُ الْكِبْرِيَاءُ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ » .

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي : حدثنا أبو الربيع ، حدثنا جرير بن
عبد الحميد ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن عبد الله بن الحارث ، عن كعب قال :
ما نظر الله إلى الجنة إلا قال : طيبى لأهلك فزادت طيباً على ما كانت ، وما من

(١) الآية ٢٩ : سورة الرعد .

(٢) الآيتان ٢٢ و ٢٣ : سورة القيامة .

يوم كان عيداً في الدنيا إلا يخرجون في مقداره إلى رياض الجنة ، وَيَبْرُزُ لَهُمُ
الربُّ تبارك وتعالى وينظرون إليه ، وتَسْفَى^(١) عليهم الريح بالطيب والمِسْك
فلا يسألون ربهم تبارك وتعالى شيئاً إلا أعطاهم ، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا
على ما كانوا عليه من الحسن والجمال سبعين ضعفاً .

وقال عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ أَخْبَرَنِي شَبَابَةُ عَنْ إِسْرَائِيلَ ، حَدَّثَنَا ثَوْبَرُ بْنُ أَبِي
فَاخْتَةَ سَمِعْتُ ابْنَ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
« إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى خَدَمِهِ وَنَعِيمِهِ وَسُرْرِهِ مَسِيرَةً
أَلْفِ سَنَةٍ ، وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ غَدَوَةً وَعَشِيَّةً ثُمَّ
تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ^(٢)) » رواه الترمذی
في جامعه عنه .

وذكر عثمان بن شعيب الدارمي ، عن ابن عمر رضي الله عنهما رفعه إلى
النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا بَلَغَ مِنْهُمْ النَّعِيمُ
كُلٌّ مَبْلَغٍ وَظَنُّوا أَنْ لَا نَعِيمَ أَفْضَلَ مِنْهُ تَجَلَّى لَهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى فَنَظَرُوا إِلَى وَجْهِ الرَّحْمَنِ فَلَسُوا كُلُّ نَعِيمٍ عَايَنُوهُ حِينَ نَظَرُوا
إِلَى وَجْهِ الرَّحْمَنِ » .

وقال الحسن البصري في قوله تعالى : (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهِ
نَاطِرَةٌ) قال : حسنها الله تعالى بالنظر إليه سبحانه ، وحق لها أن تنضروا
تنظر إلى ربها عز وجل . قال أبو سليمان الداراني : لو لم يكن لأهل

(١) سفت الريح التراب ونحوه : ذرته أو حمله .

(٢) الآيات ٢٢ ، ٢٣ . سورة القيامة .

الحجة - أو قال المعرفة - إلا هذه الآية : (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ) لا تكتفوا بها .

وذكر النسائي من حديث الزُّهري ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلنا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « هل نضامون في رؤية الشمس في يوم لا غيم فيه وفي القمر ليلة البدر لا غيم فيها ؟ » قلنا : لا ، قال : « فإنكم سترون ربكم حتى إن أحدكم ليحاضره ^(١) مُحَاضِرَةً فيقول : عبدي هل تعرف ذنبا كذا وكذا ؟ فيقول : يا رب ألم تغفر لي ؟ فيقول : بمغفرتي صيرت إلى هذا » .

وفي الصحيحين من حديث مالك ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يقول لأهل الجنة : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، فيقولون : بئيك ربنا وسعديك والخير في يدك فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما كنا لارضى وقد أعطينا ما لم نعط أحدا من خلقك ، فيقول : أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ فيقولون : يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فيقول : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أُسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَدًا » .

وفي الصحيح والسنن والمساند من حديث ثابت البناني ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ

(١) حاضر القوم : جالسهم وحادثهم بما يحضره .

(١) جاء في القاموس المحيط : لاتضارون في رويته : أى لاتضامون تضاماً
يدنو بعضهم من بعض فيضايقه . وجاء في لسان العرب : لا يضر بعضهم بعضاً
وينفرد برؤيته . وقال في تفسيرها أيضاً: لا يقع بكم في رويته ضر ولا يلحقكم ضم .

فَيَقْبِضُونَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ وَيَبْقَى الْمُسْلِمُونَ فَيَطْلَعُ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى قِيَمُوهُ : أَلَا تَتَّبِعُونَ النَّاسَ ؟ فَيَقُولُونَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ نَعُوذُ بِاللَّهِ
مِنْكَ ، اللَّهُ رَبُّنَا هَذَا مَسْكَاؤُنَا حَتَّى رَأَى رَبَّنَا ، وَهُوَ يَأْمُرُهُمْ وَيُنَاقِشُهُمْ .
ثُمَّ يَتَوَارَى ثُمَّ يَطْلَعُ عَلَيْهِمْ فَيَقُولُ : أَلَا تَتَّبِعُونَ النَّاسَ ؟ فَيَقُولُونَ : نَعُوذُ
بِاللَّهِ مِنْكَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ ، اللَّهُ رَبُّنَا ، وَهَذَا مَسْكَاؤُنَا حَتَّى رَأَى رَبَّنَا ، وَهُوَ
يَأْمُرُهُمْ وَيُنَاقِشُهُمْ . قَالُوا : وَهَلْ نَرَاهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي
رُؤْيَا الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ؟ قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : فَإِنَّكُمْ لَا تُضَارُّونَ فِي
رُؤْيَا تِلْكَ السَّاعَةِ . قَالَ : ثُمَّ يَتَوَارَى ثُمَّ يَطْلَعُ فَيَعْرِفُهُمْ نَفْسُهُ ثُمَّ يَقُولُ :
أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّبِعُونِي ، فَيَقُومُ الْمُسْلِمُونَ وَيُوضَعُ الصِّرَاطُ فَيَمْرُؤُونَ عَلَيْهِ مِثْلَ حِجَابٍ
الْحَلِيلِ وَالرَّكَابِ ، وَقَوْلُهُمْ عَلَيْهِ : سَلَّمَ سَلَّمَ ، وَيَبْقَى أَهْلُ النَّارِ فَيُطْرَحُ مِنْهُمْ
فِيهَا قَوْجٌ فَيُقَالُ هَلْ امْتَلَأَتْ ؟ فَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟ ثُمَّ يُطْرَحُ فِيهَا قَوْجٌ
فَيُقَالُ : هَلْ امْتَلَأَتْ ؟ فَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟ حَتَّى إِذَا أَوْعَبُوا^(١) فِيهَا وَضَعَ
الرَّحْمَنُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهَا قَدَمَهُ فَأَزْوَى^(٢) بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ وَقَالَتْ :
قَطَّ قَطًا ، فَإِذَا أَدْخَلَ اللَّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ أُنِيَ بِالْمَوْتِ مُتَلَبِّيًا
فَيُوقَفُ عَلَى السُّورِ الَّذِي بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ ، ثُمَّ يُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ
فَيَطْلَعُونَ خَائِفِينَ ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا أَهْلَ النَّارِ فَيَطْلَعُونَ مُسْتَبْشِرِينَ يَرْجُونَ
الشِّقَاةَ فَيُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ : هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ هُوَ لَاءُ
وَهُوَ لَاءُ : قَدْ عَرَفْنَاهُ ، هُوَ الْمَوْتُ الَّذِي وَكَلَّ بَنَا ، فَيُضْجَعُ فَيُذَبِّحُ ذُبْحًا

(١) أَوْعَبُوا فِيهَا : أَدْخَلُوا فِيهَا وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَارِجًا .

(٢) أَزْوَى بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ : ضَمَّ بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ .

عَلَى الشُّورِ . ثُمَّ يُقَالُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتُ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتُ . »

قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح وأصله فى الصحيحين لكن هذا السياق أجمع وأخصر . وفى لفظ الترمذى : « قَالُوا أَنْ أَحَدًا مَاتَ فَرَحًا لَمَاتَ أَهْلُ الْجَنَّةِ ، وَلَوْ أَنْ أَحَدًا مَاتَ حُزَنًا لَمَاتَ أَهْلُ النَّارِ » .

وفى مسند الحارث بن أبى أسامة من حديث قرّة ، عن مالك ، عن زياد بن سعد ، حدثنا أبو الزبير قال : سمعت جابر بن عبد الله رضى الله عنهما يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جُمِعَتِ الْأُمَمُ وَدُعِيَ كُلُّ أَنْاسٍ بِإِمَامِهِمْ . فَجِئْنَا آخِرَ النَّاسِ فَيَقُولُ قَائِلٌ مِنَ النَّاسِ : مَنْ هَذِهِ الْأُمَّةُ ؟ قَالَ : فَيُشْرِفُ إِلَيْنَا النَّاسُ فَيَقَالُ : هَذِهِ الْأُمَّةُ الْأَمِينَةُ ، هَذِهِ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ، وَهَذَا مُحَمَّدٌ فِي أُمَّتِهِ ، فَيُنَادِى مُنَادٍ إِنَّكُمْ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ ، قَالَ : فَنَأْتِى فَنَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ حَتَّى نَكُونَ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَزَلَةً ، ثُمَّ يُدْعَى النَّاسُ كُلُّ أَنْاسٍ بِإِمَامِهِمْ ، فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيَقَالُ : مَنْ أَنْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : نَحْنُ الْيَهُودُ ، فَيَقُولُ : مَنْ نَبِيُّكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : نَبِينَا مُوسَى ، فَيَقُولُ : مَا كِتَابُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : كِتَابُنَا التَّوْرَةُ ، فَيَقُولُ : مَا تَعْبُدُونَ ؟ فَيَقُولُونَ : نَعْبُدُ عَزِيزًا وَنَعْبُدُ اللَّهَ ، فَيَقُولُ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ : اسْأَلُوا بِهِمْ فِي جَهَنَّمَ . ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فَيَقُولُ : مَنْ أَنْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : نَحْنُ النَّصَارَى ، فَيَقُولُ : مَنْ نَبِيُّكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : نَبِينَا عِيسَى ، فَيَقُولُ : مَا كِتَابُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : كِتَابُنَا الْإِنْجِيلُ ، فَيَقُولُ : مَا تَعْبُدُونَ ؟ فَيَقُولُونَ : نَعْبُدُ عِيسَى وَأُمَّهُ وَاللَّهُ . فَيَقُولُ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ : اسْأَلُوا بِهِمْ وَلَاءَ فِي جَهَنَّمَ ، فَيُدْعَى عِيسَى فَيَقُولُ

لعيسى : يا عيسى (أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَهْلِي الْهَيْئَةَ مِنْ دُونِ اللَّهِ^(١))
 فيقول : (سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَالَيْسَ لِي بِحَقِّ^(٢)) إِلَى قَوْلِهِ :
 (الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ^(٣)) ثُمَّ يَدْعِي كُلُّ أَنْاسٍ بِأَمَامِهِمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ثُمَّ
 يَصْرُخُ الصَّارِخُ : أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ إِلَهًا فَلْيَتَّبِعْنِي ، تَقْدَمُهُمْ آلِهَتُهُمْ
 مِنْهَا الْخَشَبُ وَالْحِجَارَةُ ، وَمِنْهَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، وَمِنْهَا الدِّجَالُ ، حَتَّى تَبْقَى
 الْمُسْلِمُونَ قَيْفَ عَلَيْهِمْ فيقول : مَنْ أَنْتُمْ ؟ فيقولون : نَحْنُ الْمُسْلِمُونَ ، قَالَ : قَالَ : خَيْرُ
 اسْمٍ وَخَيْرُ دَاعِيَةٍ ، فيقول : مَنْ نَبِيِّكُمْ ؟ فيقولون : مُحَمَّدٌ ، فيقول : مَا كِتَابُكُمْ ؟
 فيقولون : الْقُرْآنُ ، فيقول : مَا تَعْبُدُونَ ؟ فيقولون : نَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ
 لَهُ ، قَالَ : سَيَنْفَعُكُمْ ذَلِكَ إِنْ صَدَقْتُمْ ، قَالُوا : هَذَا يَوْمُنَا الَّذِي وَعَدْنَا فيقول :
 أَتَعْرِفُونَ اللَّهَ إِذَا رَأَيْتُمُوهُ ؟ فيقولون : نَعَمْ ، فيقول : وَكَيْفَ تَعْرِفُونَهُ
 وَلَمْ تَرَوْهُ ؟ فيقولون : نَعْلَمُ أَنَّهُ لَا عَدْلَ لَهُ ، قَالَ : فَيَتَجَلَّى لَهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى
 فيقولون : أَنْتَ رَبُّنَا تَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُكَ ، وَيَخِرُّونَ لَهُ سُجَّدًا ، ثُمَّ يَمْضِي
 النُّورُ بِأَهْلِهِ .

وفي مسند الإمام أحمد رضى الله عنه من حديث أبي الزبير قال : سألت
 جابرًا عن الورد فأخبرني أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « نَجِيءُ
 يَوْمَ النِّيَامَةِ عَلَى كَوْمٍ^(١) فَوْقَ النَّاسِ ، فَتَدْعِي الْأُمَمُ بِأَوْنَانِهَا وَمَا كَانَتْ
 تَعْبُدُ ، الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ ، ثُمَّ يَأْتِينَا رَبُّنَا بَعْدَ ذَلِكَ فيقول : مَا تَنْتَظِرُونَ ؟ فيقولون :
 نَنْتَظِرُ رَبَّنَا ، فيقول : أَنَا رَبُّكُمْ ، فيقولون : حَتَّى نَنْظُرَ إِلَيْكَ ، فَيَتَجَلَّى لَهُمْ
 بِضَعَاكُ فَيَتَّبِعُونَهُ . »

(١ و ٢) الآيات ١١٦ - ١١٨ . سورة المائدة .

(٤) الكوم : مكان مرتفع .

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي أن أبا بردة بن أبي موسى الأشعري أتى
عمر بن عبد العزيز فقال : حدثنا أبو موسى الأشعري رضى الله عنه أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَجْمَعُ اللهُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ
فَإِذَا بَدَأَ لَهُ أَنْ يَصْدَعَ بَيْنَ خَلْقِهِ مِثْلَ لِسَكِّ قَوْمٍ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ
فَيَتَّبِعُونَهُمْ حَتَّى يَتَّخِذُوهُمْ ^(١) النَّارَ ، ثُمَّ يَأْتِينَا رَبُّنَا وَنَحْنُ فِي مَكَانٍ فَيَقُولُ :
مَنْ أَنْتُمْ ؟ فنقول : نَحْنُ الْمُؤْمِنُونَ ، فيقول : مَا تَنْتَظِرُونَ ؟ فنقول : نَنْتَظِرُ
رَبَّنَا ، فيقول : مِنْ أَيْنَ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَبُّكُمْ ؟ فنقول : حَدَّثَنَا الرَّسُولُ أَوْ
جَاءَنَا السَّكُتُبُ ، فيقول : هَلْ تَعْرِفُونَهُ ؟ فيقولون : نَعْلَمُ أَنَّهُ لَا عَدْلَ ،
فَيَتَجَلَّى لَنَا ضَاحِكًا ، ثُمَّ يَقُولُ : أَنْبِشِرُوا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْكُمْ أَحَدٌ
إِلَّا وَقَدْ جَمَلَتْ مَسْكَانُهُ فِي النَّارِ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا » فقال عمر لأبي بردة :
أَللَّهِ ، لَقَدْ سَمِعْتُ أَبَا مُوسَى يَحْدِثُ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ؟ قال : إِي وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَقَدْ سَمِعْتُ أَبِي يَذْكُرُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرَ مَرَّةٍ وَلَا مَرَّتَيْنِ وَلَا ثَلَاثًا ، فقال عمر بن عبد العزيز :
مَا سَمِعْتُ فِي الْإِسْلَامِ حَدِيثًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ .

وفي الترمذى من حديث الأوزاعى حدثني حسان بن عطية ، عن سعيد
ابن المسيب أنه لقي أبا هريرة رضى الله عنه فقال أبو هريرة : أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ
يَجْعَلَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي سَوْقِ الْجَنَّةِ ، فقال سعيد : أَوْ فِيهَا سَوْقٌ ؟ قال : نَعَمْ أَخْبَرَنِي
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلُوهَا نَزَلُوا فِيهَا بِفَضْلِ أَعْمَالِهِمْ
فَيُؤْذَنُ لَهُمْ فِي مَقْدَارِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا فَيُزَوِّدُونَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، فَيُبْرِزُ
لَهُمْ عَرْشُهُ وَيَتَبَلَّغُ لَهُمْ فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ ، فَيُتَوَضَّعُ لَهُمْ مِنْبَرٌ مِنْ نُورٍ

(١) يتخيمهم : يرممهم فيها على وجوههم .

ومنابر من لؤلؤ ومنابر من ياقوت ومنابر من زبرجد ومنابر من ذهب
ومنابر من فضة، ويجلس أديانهم وما فيهم دنيء على كسبان^(١) للمسك والكافور
ما يرون أن أهل الكراسي أفضل منهم مجلساً.

قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله وهل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال:
«نعم هل تمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر؟» قلنا: لا، قال:
«كذلك لا تمارون في رؤية ربكم ولا يبق في ذلك المجلس أحد إلا
حاضره الله تعالى محاضرة حتى يقول للرجل منهم: يا فلان بن فلان
أتذكر يوم كذا عملت كذا وكذا؟ فيذكر كرهه ببعض غدراته في الدنيا
فيقول: يا رب ألم تغفر لي؟ فيقول: بلى فبسعرة مغفرتي بلغت منزلة لك
هذه^(٢)، فبينما هم على ذلك غشيتهم سحابة من قوفهم فأمرت عليهم طيباً
لم يجدوا مثل ريح شينا قط، ثم يقول: قوموا إلى ما أعددت لكم من
الكرامة فخذوا ما اشتبهتم، فتأتي سوقاً قد حقت به الملايكة، فيه ما لم
تنتظر العيون إلى مثله ولم تسمع الآذان ولم يخطر على القلوب، فيحمل
إليها ما اشتبهتم ليس يباع فيه شيء ولا يشتري، وفي ذلك السوق يلتقي أهل
الجنة بعضهم بعضاً فيقبل الرجل ذو المنزلة الرفيعة فيلقى من هو دونه
وما فيهم دنيء فيروعه ما يرى عليه من الألباس فأينقضي آخر حديثه حتى
يتمثل عليه أحسن منه، وذلك أنه لا يلقي لأحد أن يحزن فيها، ثم
تنصرف إلى منازلنا فتتلقانا أزواجنا فيعلنون مرحباً وأهلاً لقد جئت وإن

(١) جمع كسبان: تل من الرمل سمى به لأنه انكسب أي انصب في مكان

فاجتمع فيه.

(٢) أنظر صفحة ٤٢٥.

يَكُ مِنَ الْجَمَالِ وَالطَّيِّبِ أَكْثَرَ مِمَّا فَارَقْتَنَا عَلَيْهِ ، فَيَقُولُ : إِنَّا جَالِسْنَا الْيَوْمَ رَبَّنَا الْجَبَّارَ وَنَحْنُ أَنْ نَنْقَلِبَ بِمِثْلِ مَا انْقَلَبْنَا :

وقال يعقوب بن سفيان في مسنده : حدثنا ابن المصنف ، حدثنا سويد بن عبد العزيز ، حدثنا عمرو بن خالد ، عن زيد بن علي ، عن أبيه ، عن جده ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَزُورُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ يَوْمٍ جُمُعَةٍ وَذَكَرَ مَا يُعْطَوْنَ » قال : ثم يقول الله تعالى : اكْشِفُوا الْحُجُبَ ، فَيَكْشِفُوا حُجُبَابَهُمْ حُجُبًا حَتَّى يَتَجَلَّى لَهُمْ عَنْ وَجْهِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا نِعْمَةً قَبْلَ ذَلِكَ ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ^(١) .

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي من حديث الحسن رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا أنه قال : « يَأْتِينَا رَبُّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِنَحْنُ عَلَى مَكَانٍ رَفِيعٍ فَيَتَجَلَّى لَنَا ضَاحِكًا » (مرسل صحيح) .

وقال عثمان الدارمي : حدثنا أبو موسى ، حدثنا أبو عوانة ، حدثنا الأجاج حدثنا الضحاك بن مزاحم قال : إن الله يأمر السماء يوم القيامة فتفتش بمن فيها فيحيطون بالأرض ومن فيها ، ثم يأمر السماء الثانية حتى ذكر سبع سموات فيكونون سبعة صفوف قد أساطوا بالناس ، ثم ينزل الملائكة الأعلى جلَّ جلاله في بهانه وجماله ومعه ماشاء من الملائكة .

وقال عثمان بن سعيد : حدثنا هشام بن خالد الدمشقي ، وكان ثقة ، حدثنا محمد بن شعيب بن شاويز ، حدثنا عمر بن عبد الله مولى غفوة ، عن أنس بن مالك

رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جاءني جبريلُ وفي كَفِّهِ مِرْآةٌ فِيهَا نُكْتَةٌ ^(١) سَوْدَاءٌ ، فقالت : ما هذه يا جبريلُ ؟ قال : هذه الْجُمُعَةُ أُرْسِلَ بِهَا إِلَيْكَ رَبُّكَ فَتَكُونُ هُدًى لَكَ وَلَأَمْتِكَ مِنْ بَعْدِكَ ، فقلت : وَمَا لَنَا فِيهَا ؟ قال : لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ كَثِيرٌ أَنتُمْ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفِيهَا سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يُصَلِّيُ يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا هُوَ لَهُ قَسَمٌ إِلَّا أَنَاهُ وَلَا خَيْرًا لِمَنْ لَهُ قَسَمٌ إِلَّا دُخْرَ لَهُ أَفْضَلُ مِنْهُ ، وَلَا يَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ مِمَّا هُوَ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ إِلَّا دَفَعَ عَنْهُ أَكْثَرُ مِنْهُ ، قلت : ما هذه النُّكْتَةُ السَّوْدَاءُ ؟ قال : هذه السَّاعَةُ يَوْمَ تَقُومُ الْقِيَامَةُ وَهُوَ سَيِّدُ الْيَوْمِ وَنَحْنُ نُسَمِّيهِ عِنْدَنَا يَوْمَ اللَّزِيدِ ، قلت : وَلِمَ تُسَمُّونَهُ يَوْمَ اللَّزِيدِ يا جبريلُ ؟ قال : لِأَنَّ رَبَّكَ آخِذٌ فِي الْجَنَّةِ وَإِدْبَارُ الْفَيْحِ ^(٢) مِنْ مَسْكِ أبيضٍ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ هَبَطَ الْجَبَّارُ عَنْ عَرْشِهِ إِلَى كُرْسِيِّهِ إِلَى ذَلِكَ الْوَادِي وَقَدْ حُفَّ الْكَرْمِيُّ بِمَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ يَخْلُسُ عَلَيْهَا الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَجِيءُ أَهْلُ الْغُرَفِ حَتَّى يَحْفُوا بِالْكُتَيْبِ ، ثُمَّ يَبْدُو لَهُمْ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَيَقُولُ : أَنَا الَّذِي صَدَقْتُكُمْ وَعَدَيْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَأَحْلَلْتُكُمْ دَارَ كَرَامَتِي فَسَلُونِي ، فيقولونَ بَأْجَعِهِمْ : نَسْأَلُكَ الرِّضَا عَدًّا ، فَيَشْهَدُ لَهُمْ عَلَى الرِّضَا ثُمَّ يَقُولُ لَهُمْ : سَلُونِي ، فَيَسْأَلُونَهُ حَتَّى يَذْهَبَ نَهْمُهُ ^(٣) كُلُّ عَبْدٍ مِنْهُمْ ثُمَّ يَقُولُ : سَلُونِي ، فيقولونَ : حَسْبُنَا رَبُّنَا رَضِينَا ، فَيَرْجِعُ الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ إِلَى

(١) النُّكْتَةُ فِي الشَّيْءِ كَالنَّقْطَةِ : وَهِيَ النَّقْطَةُ السَّوْدَاءُ فِي الْأَبْيَضِ وَفِي الْبَيْضِ .

فِي الْأَسْوَدِ .

(٢) أَيْفَحٍ : وَاسِعٌ مَخْصَبٌ .

(٣) النِّهْمَةُ : الْحَاجَةُ ، وَبُلُوغُ الشَّهْوَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ .

(٨ م — رَوْحَةُ الْمُحِبِّينَ)

عَرَّشَهُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ بِقَدْرِ إِشْرَاقِهِمْ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ
سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. وَيَرْجِعُ أَهْلُ الْغُرَفِ إِلَى غُرَفِهِمْ وَهِيَ غُرْفَةٌ
مِنْ كُؤُلُوثِ بَيْضَاءَ وَيَأْقُوتَةُ حَمْرَاءَ وَزُمُرْدَةٌ خَضْرَاءَ لَيْسَ فِيهَا قَصَمٌ وَلَا
وَصَمٌ^(١) مُطَرَّدَةٌ أَنْهَارُهَا مُتَدَلِّيَةٌ فِيهَا ثَمَارُهَا، فِيهَا أَزْوَاجُهَا وَخَدَمُهَا وَمَسَاكِينُهَا
فَلْيَسُوا إِلَى يَوْمِ أَخْرَجَ مِنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ لِيَزْدَادُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ
وَرِضْوَانًا» .

رواه عن أنسٍ جماعةٌ منهم عثمان بنُ عُمَيْرٍ بنُ اليقظان^(٢) ومن طريقه
رواه الشافعي في مسنده، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة^(٣)، ومنهم أبو صالح،
والزبير بن عدي، وعلي بن الحسك البنانى، وعبد الملك بن عُمَيْرٍ، ويزيد بن قاضي
وعبد الله بن بُرَيْدَةَ، كلُّهم عن أنسٍ ومصححه جماعة من الحفاظ، وزاد الشافعي في
مسنده في آخره: « وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي اسْتَوَى فِيهِ رُبُّكُمْ عَلَى الْعَرْشِ » وساقه
عثمان بن أبي شيبة من طريق، وقال في بعضها: « ثُمَّ يَتَجَلَّى لَهُمْ رَبُّهُمْ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى فَيَقُولُ: أَنَا الَّذِي صَدَقْتُكُمْ وَعَدَيْتُ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ رِغْمَتِي وَهَذَا
مَحَلُّ كَرَامَتِي » إلى أن قال: « ثُمَّ يَرْتَفِعُ عَلَى كُرْسِيِّهِ وَيَرْتَفِعُ مَعَهُ النَّبِيُّونَ
وَالصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَيَرْجِعُ أَهْلُ الْغُرَفِ إِلَى غُرَفِهِمْ » .

وروى محمد بن الزبير بن قان، عن مقاتل بن حيان، عن أبي الزبير، عن
جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ

-
- (١) قصمه قصماً: كسره وأبانه: وقيل كسره وإن لم يكن. ووصم الشيء
وصماً: صدعه وعابه. والمعنى: ليس فيها كسر ولا عيب .
(٢) كذا . . والصواب: أبو اليقظان كما جاء في تهذيب التهذيب
(٣) كذا . . ولعل الصواب في المسند .

لِيَحْتَاكِبُوا إِلَى الْعُلَمَاءِ فِي الْجَنَّةِ كَمَا يَحْتَاكِبُونَ إِلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَذَلِكَ أَنَّهُمْ
يُزَوَّرُونَ رَبَّهُمْ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ فَيَقُولُ لَهُمْ : تَمَنُّوا ، فَيَقُولُونَ : وَمَا نَتَمَنَّى وَقَدْ
أَدْخَلْتَنَا الْجَنَّةَ وَقَدْ أُعْطِينَا مَا أُعْطِينَا ، فَيُقَالُ لَهُمْ : تَمَنُّوا ، فَيَكْتَفُونَ إِلَى
الْعُلَمَاءِ » وذكر الحديث في قصة الجمعة .

وروى ابن مندّة من حديث الأعمش ، عن أبي وائل ، عن حذيفة رضى
الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قصة الجمعة بطولها وفيها يقول : « سَأَلُونِي
فَيَقُولُونَ : أَرِنَا وَجْهَكَ رَبَّ الْعَالَمِينَ نَنْظُرُ إِلَيْكَ ، فَيَكْشِفُ اللَّهُ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى تِلْكَ الْحُجُبَ وَيَتَجَلَّى لَهُمْ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ » .

وذكر عثمان الدارمي ، عن محمد بن كعب القرظي ، أنه حدث عمر بن
عبد العزيز قال : إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار أقبل في ظلل من النعام
والملائكة فيسلم على أهل الجنة في أول درجة فيردون عليه السلام ، قال القرظي :
وهذا في القرآن (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ)^(١) فيقول : سلوني ، يفعل بهم
ذلك في درجهم حتى يستوى على عرشه ، ثم تأتيهم التَّحَفُّ من الله تحمله^(٢)
الملائكة إليهم .

وقال عبد الواحد بن زيد ، عن الحسن : لو علم العابدون أنهم لا يرون
ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدنيا . وقال هشام بن حسان عنه أنه تبارك
وتعالى يعجل لأهل الجنة فإذا رأوه نسوا نعيم الجنة .
أعجب العبر صبر الحيين . قال الشاعر :

(١) الآية ٥٨ . سورة يس .

(٢) كذا . . ولعل الصواب : تحملها .

والصبرُ يُحمَدُ في المواطنِ كلها إِلَّا عليك فإنه لا يُحمَدُ^(١)
 وقف رجلٌ على الشبلى فقال : أى الصبر أشدُّ على الصابرين ؟ قال : الصبر
 فى الله ، فقال السائل : لا ، فقال : الصبر لله . قال : لا ، قال : فالصبر مع الله ،
 قال : لا ، قال : فما هو ؟ قال : الصبر عن الله ، فصرخ الشبلى ضرخةً كادت
 روحه تزهق . قال الشاعر :

والصبرُ عنك فذمومٌ عواقبه والصبرُ فى سائر الأشياء محمود
 الخوف يبعدك عن معصيته ، والرجاء يخرجك إلى طاعته ، والحب يسوقك
 إليه شوقاً . لما علم الله سبحانه أن قلوبَ المشتاقين إليه لا تهدأ إلا بلاقائه ضرب لهم
 أجلاً للقاء تسكيناً لقلوبهم ، فقال الله تعالى :

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ)^(٢) .

يا من شكى شوقه من طول فرقه إصبر لعلك تلقى من تحب غدا
 وسير إليه بنار الشوق مجتهداً عساك تلقى على نار الغرام هدى
 الحب الصادق كلما قرب من محبوبه زاد شوقاً إليه .

وأعظم ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام^(٣)
 كلما وقع بصرُ الحب على محبوبه أحدث له رؤيته شوقاً على شوقه :
 ما يرجع الطرفُ عنه حين يبصره حتى يعود إليه الطرفُ مشتاقا
 الحب الصادق إذا سافر طرفه فى الكون لم يجد له طريقاً إلا على محبوبه ،

(١) تقدم فى صفحة ٢٦٦ باختلاف فى اللفظ .

(٢) الآية ٥ . سورة المنكبوت .

(٣) وروى : إذا دنت الديار من الديار .

فإذا انصرف بصره عنه رجع إليه خاسئاً وهو حسير^(١) .

وَيَسْرَحُ طرفي في الأناام وينتني وإنسان عيني بالذموم غريق
فَيَرْجِعُ مردوداً إليك وماله على أحدي إلا عليك طريق
أقرُّ شيء لعيون الحب خلوته بسرّه مع محبوبه . حدّثني من رأى شيئاً
في عُنُقوان أمره ، خرج إلى البرية بكراً فلما أحمر^(٢) تنفّس الصعداء ثم تمثّل
بقول الشاعر :

وأخرجُ من بين البيوت لعلني أحدث عنك القلبَ بالسِرِّ خالياً^(٣)
الشوقُ يحملُ الحبَّ على العَجَلَةِ في رضا الحبوب والمبادرة إليها على القَوَرِ
ولو كان فيها تَلَفُهُ . (وما أعجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى . قَالَ لَهُمْ أُولَاءُ عَلَى
أَتْرَى وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لَتَرْضَى)^(٤) قال بعضهم : أراد شوقاً إليك فستره
بلفظ الرضا .

ولو قلت طأ في النارِ أعلمُ أنه رضا لك أو مدني لنا من وصالك
لقدمنت رجلى نحوها فوطئتها هدى منك لي أو ضلّلة من ضلالك
ليهنك إمساكي بكفى على الحشا ورقراق عيني خشية من إزيالك^(٥) .

(١) خاسئاً : ذليلاً ، وحسير : كليل ، ضعيف ، أعياء النظر والبحث . قال
تعالى : (ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حمير) .

(٢) أحمر الرجل : خرج إلى الصحراء .

(٣) تقدم في صفحة ٢٨١ .

(٤) الآيتان ٨٣ و ٨٤ . سورة طه ،

(٥) رفرق الماء وغيره : صبه برقة ، وعينه : أجرى دمعها ، والرقراق من
الاشياء ما تلالأ ومن الدمع ما تفرق منه . زبالك : فراك ، وزاياله مزاياله
وزيالا : فارقة .

وإن ساءنى أن نلتنى بمساءة لقد سرّنى أنى خطرْتُ ببالك
من علامات المحبة الصادقة أن الحب لا يَئِمُّ له سرورٌ إلاَّ بمحبوبه ،
ما دام غائباً عنه فعيثُهُ كله مُنْفَصِّ .

نحن فى أكل السرور ولكن ليس إلاَّ بكم يَئِمُّ السرورُ
عيبُ ما نحن فيه يا أهل ودى أنكم غُيِّبَ ونحن حضورُ
وقال آخر :

من سرّه العيدُ الجديد فقد عَدِمَتْ به السرورا
كان السرور يَئِمُّ لى لو كان أحبابى حضورا
لو قيل للمحبِّ على الدوام : ما تتمنى ؟ لقال : لقاء المحبوب .

ولما نزلنا منزلاً طَلَّهُ النَّدَى أنيقاً وبستاناً من الثَّوَرِ حالياً^(١)
أجد^(٢) لنا طيبُ المكان وحسنهُ منى فتمنَّينا فكنْتَ الأمانيا

وقال الجنيد : سمعت السرى يقول : الشوق أجلُّ مقام العارف إذا تحقّق
فيه ، وإذا تحقّق بالشوق لها عن كل ما يَشغُوهُ عن يشاق إليه . وقيل : أوحى
الله تعالى إلى داود عليه السلام ، قل لشبان بنى إسرائيل لم تَشغَلُون نفوسكم
بغيرى وأنا مشتاق إليكم ؟ ما هذا الجفاء ؟ ولو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى
لهم ورفق بهم ومحبتى لترك معاصيهم لما تواسوا شوقاً إلى واقطعت أوصالهم من
محبتى . هذه إرادتى للمدبرين عنى فكيف إرادتى للمقبلين على ؟ وسئل الجنيد
من أى شيء بكاء الحب إذا لقي المحبوب ؟ فقال : إنما يكون ذلك سروراً به .

(١) حالياً . مردانا .

(٢) أجد : أحدث .

ووجدنا من شدة الشوق إليه ، قال : ولقد بلغني أن أخوين تانقا فقال أحدهما :
 واشوقاه وقال الآخر : وارجداه . وكانت عجوز لها غائب فقدم من السفر
 فأظهر أهلها الفرح والسرور به . فجعلت تبكي فقيل لها : ما هذا اليكاه ؟ فقالت :
 ذكرني قدوم هذا الفتى يوم القدوم على الله .

وقال بعض الحبيين : قلوب المشتاقين منورة بنور الله ، فإذا تحرك اشتياقهم
 أضاء النور ما بين السماء والأرض ، فيعرضهم الله سبحانه وتعالى على الملائكة
 فيقول : هؤلاء المشتاقون إلى أشهدكم أني إليهم أشوق .

فصل

قال ابن أبي الحواري رحمه الله تعالى : سئل أبو سليمان الداراني رحمه الله
 وأنا حاضر ما أقرب ما يتقرب به إلى الله عز وجل ؟ فبكي ثم قال : مثلي يسأل
 عن هذا ؟ أقرب ما يتقرب به إليه أن يطالع على قلبك وأنت لا تريد من الدنيا
 والآخرة إلا هو ^(١) . وقال يحيى بن معاذ : النسك هو العناية بالسرائر وإخراج
 ما سوى الله من القلب . وقال سهل بن عبد الله : ما من ساعة إلا والله سبحانه
 يطالع فيها على قلوب العباد ، فأى قلب رأى فيه غيره سخط عليه إبليس . وقال
 سهل بن عبد الله : من نظر إلى الله عز وجل قريبا منه بعد عن قلبه كل شيء
 سوى الله ، ومن طلب مرضاته أرضاه الله سبحانه وتعالى ، ومن أحلم قلبه إلى
 الله تولى الله جوارحه . وقال سهل أيضا : حرام على قلب أن يشتم راحة اليقين
 وفيه سكون إلى غير الله ، وحرام على قلب أن يدخله النور وفيه شيء مما يكره
 الله وسئل بعضهم عن أفضل الأعمال فقال : رعاية السر عن الالتفات إلى شيء

(١) كذا . . وفي حلية الاولياء : والآخرة غيره .

سوى الله عز وجل . وقال مسلم^(١) : تركتهوه وأقبل بعضهم على بعض ، لو أقبلتم عليه لرأيتهم العجائب .

فصل

فإن تقاصرت^(٢) همّتك الدنيّة عن ترك الفواحش محبةً لهذا المحبوب الأعلى ولست هناك فاتركها محبةً للنساء اللّاتي وصفهن الله في كتابه ، وبعث رسوله داعياً إلى صالهنّ في جنة المأوى . وقد تقدّم ذكرُ بعض صفاتهنّ ولذّة وصالهنّ ، فإن تقاصرت همّتك عنهنّ ولم تكن كفوّاً لخطبتهمّ ودعتك نفسك إلى إثارة ما هاهنا عليهنّ فكُن من عقوبته العاجلة والآجلة كلّى حذر . واعلم أن العقوبات تختلف ، فتارةً تُعجل وتارةً تُؤخر وتارةً يجمع الله على العاصي بينهما . وأشدُّ العقوبات العقوبة بسلب الإيمان ، ودونها العقوبة بموت القلب ومحو لذة الذكر والقراءة والدُّعاء والمناجاة منه ، وربما دبت عقوبة القلب فيه ذيب الظلمة إلى أن يمتليء القلبُ بهما فتعبي البصيرة ، وأهونُ العقوبة ما كان واقماً بالبدن في الدُّنيا ، وأهونُ منها ما وقع بالمال ، وربما كانت عقوبة النظر في البصيرة أو في البصر أو فيهما .

قال الفضيل : يقول الله تعالى : ابن آدم إذا كنتُ أقبلك في نعمتي وأنت تتقلب في معصيتي فاحذر لئلا أصرّعك بين معاصيك ، ابن آدم اتّقني ونم حيث شئت ، إنك إن ذكرتني ذكرتُك ، وإن نسيتني نسيتُك ، والساعة التي لا تذكري فيها عابك لا لك .

(١) كذا . . وفي لسان الميزان : سلم ، وفي حلية الاوليا : : سالم وهو ابن ميمون الخواصر الزاهد .

(٢) تقاصرت : تضاء لك وعجزت .

وقال الفضيل أبطأ : ما يؤمنك أن تكون بارزت الله تعالى بعملٍ ممّتك عليه فأغلقَ عنك أبوابَ المغفرة وأنت تضحك ؟ وقال علقمة بن مرثد : بينا رجلٌ يطوفُ بالبيت إذ برّق له ساعدُ امرأةٍ فوضع ساعده على ساعدها فالتذّب به فلصّقت ساعدها ، فأثنى بعضُ أولئك الشيوخ فقال : ارجع إلى المسكن الذي فعلتَ هذا فيه فمأهـد ربّ البيت أن لا تمود ، ففعل فخلّى عنه .

وقال ابن عباس ، وأنس رضى الله عنهم : إن للحسنة نوراً في القلب ، وزيناً في الوجه ، وقوّة في البدن ، وسعة في الرزق ، ومحبة في قلوب الخلق . وإن للسّيئة ظلمة في القلب ، وشيناً في الوجه ، وهناً في البدن ، ونقصاً في الرزق ، وبغضة في قلوب الخلق .

وقال الحسن : ما عصى الله عبداً إلا أذّبه الله . وقال المعتز بن سليمان : إن الرجل ليصيب الذنب في السرّ فيصبح وعاءه مذلتاً . وقال الحسن : هانوا عليه فعصّوه ولو عزّوا عليه لعصمهم . وكان شيخ من الأعراب يدور على المجالس ويقول : من سرّه أن تدوم له العافية فليتنّق الله .

وقال أبو سليمان الداراني : من صفا صفا له ، ومن كدر كدر عليه ، ومن أحسن في ليله كُفي في نهاره ، ومن أحسن في نهاره كُفي في ليله ، ومن ترك لله شهوة من قلبه فالله أكرم أن يعذب بها قلبه . وكتبت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها إلى معاوية : أما بعد فإن العامل إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذاماً .

وقال مجاز بن ديار : إن الرجل ليذنب الذنب فيجد له في قلبه وهناً . وقال الحسين بن مطير :

وَنَفْسِكَ أَكْرَمَ عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ فَمَا لَكَ نَفْسٌ بِسَعْدِهَا تَسْتَبِيرُهَا .

ولا تقربِ الأمر^(١) الحرامَ فإِنَّمَا حلاوتهُ تَفْنَى ويبقى مَسْرُيرها

وكان سفيان الثوري يتمثل يهذين البيتين :

تَفْنَى اللَّذَازَةُ مِنْ ذَانِ^(٢) صَفْوَتِهَا مِنْ الْحَرَامِ وَيَبْقَى الْإِثْمُ وَالْعَارُ
تَبْقَى عَوَاقِبُ سُوءٍ فِي مَغَبَّتِهَا لَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ

فصل

واعلم أن الأجزاء من جنس العمل ، والقلب معلق بالحرام كلما هم أن يفارقه
ويخرج منه عاد إليه ، ولهذا يكون جزاؤه في البرزخ وفي الآخرة هكذا .

وفي بعض طرق حديث سمرة بن جندب الذي في صحيح البخاري أن
النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخْرَجَانِي فَأَنْطَلَقْتُ
مَعَهُمَا فَإِذَا بَيْتٌ مَبْنِيٌّ عَلَى مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ أَعْلَاهُ ضَيْقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ
يُوقَدُ تَحْتَهُ نَارٌ فِيهِ رَجُلَانِ وَنِسَاءٌ عُرَاءٌ فَإِذَا أُوقِدَتِ النَّارُ ارْتَفَعُوا حَتَّى
يَسْكَدُوا وَأَنْ يَخْرُجُوا فَإِذَا أُتْخِذَتْ رَجَعُوا فِيهَا فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ :
هُمْ الزُّنَاةُ » . فتأمل مطابقة هذا العذاب لحال قلوبهم في الدنيا فإنهم كلما هموا
بالتوبة والإقلاع والخروج من تنور الشهوة إلى فضاء التوبة أركسوا^(٣) فيه
وعادوا بعد أن كادوا يخرجون .

ولما كانت الكفار في سجن الكفر والشرك وضيقه وكانوا كلما هموا

(١) تقدم البيتان في صفحة ٣٣٠ وفيها : ولا تقرب المرعى الحرام الخ .

(٢) تقدم البيتان في صفحة ٣٣٠ و٣٧٤ .

(٣) أركسوا فيه : ردوا إليه وأعيدوا إليه ، قال تعالى (كلما ردوا إلى الفتنة
أركسوا فيها) أى عادوا إليها وقلبوا فيها أقمع قلب .

بالخروج منه إلى فضاء الإيمان وسعته وروحه رجعوا على حوافرهم كان عقوبتهم في الآخرة كذلك ، قال الله تعالى : (كَلِمَاتُ أَرَادُوا أَنْ يَنْخَرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا)^(١) . وقال في موضع آخر : (كَلِمَاتُ أَرَادُوا أَنْ يَنْخَرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا)^(٢) فالسكفر والمعاصي والفسوق كله غوم ، وكلما عزم العبد أن يخرج منه أبت عليه نفسه وشيطانه ومآلغه ، فلا يزال في غم ذلك حتى يموت ، فإن لم يخرج من غم ذلك في الدنيا بقي في غمه في البرزخ وفي القيامة ، وإن خرج من غمه وضيقه هاهنا خرج منه هناك ، فما حبس العبد عن الله في هذه الدار حبسه عنه بعد الموت ، وكان معذباً به هناك كما كان قلبه معذباً به في الدنيا ، فليس العشاقي^(٣) والفجرة والظالمة في لذة في هذه الدار ، وإنما هم يعدّون فيها وفي البرزخ وفي القيامة ، ولكن سكر الشهوة وموت القلب حال بينهم وبين الشعور بالألم ، فإذا حيل بينهم وبين ما يشتهون أخضرت نفوسهم الألم الشديد ، وصار يعمل فيها بعد الموت نظير ما يعمل الدود في لحومهم . فالآلام تأكل أرواحهم غير أنها لا تنفي ، والدود يأكل جسامهم .

قال الإمام أحمد رضي الله عنه : حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم قال : حدثني عبد الصمد بن معقل ، حدثني وهب بن منبه قال : كان حزقيل قائماً فأتاه ملك فذكر حديثاً طويلاً لا وفيه أنه سرّ بقوم أموات فقبل له : ادعهم فدعاهم فأحياهم الله له فقال : سلمهم فيم كنتم ؟ فقالوا : لما فارقنا

(١) الآية ٢٠ . سورة السجدة .

(٢) الآية ٢٢ سورة الحج .

(٣) كذا . . . ولعلها العشاقي ، وهي بالصراب أشبه .

الحياةَ لَقِينَا مَلَكًا يَقَالُ لَهُ مِيكَائِيلُ فَقَالَ : هَلُمُّوا أَعْمَالَكُمْ وَخُذُوا أَجُورَكُمْ
فَذَلِكَ سُنَّتُنَا فِيكُمْ وَفِيهِمْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَفِيهِمْ هُوَ كَأَنَّ بَعْدَكُمْ ، فَنَظَرُوا فِي
أَعْمَالِنَا فَوَجَدُونَا نَعْبُدُ الْأَوْثَانَ ، فَسَلَّطَ الدُّودَ عَلَى أَجْسَادِنَا وَجَعَلَ الْأَرْوَاحَ
تَأَلَّمُ ، وَنَلَّطَ النِّعَمَ عَلَى أَرْوَاحِنَا وَجَعَلَ الْأَجْسَادَ تَأَلَّمُ ، فَلَمْ نَزَلْ كَذَلِكَ نَعَذِّبُ
حَقِّي دَعْوَتَنَا .

الباب السابع والعشرون

قبض ترك محبوبه مراما فبذل له مهلا أو أعاضه الله خبرا منه

عنوان هذا الباب وقاعدته أن من ترك لله شيئا عوضه الله خيرا منه ، كما ترك يوسف الصديق عليه السلام امرأة العزيز لله واختار السجن على الفاحشة فعوضه الله أن مكّنه في الأرض يتبوأ^(١) منها حيث يشاء ، وأتته المرأة صاغرة سائلة رغبة في الوصل الحلال فتزوجها ، فلما دخل بها قال : هذا خير مما كنت تريدن . فتأمل كيف جزاه الله سبحانه وتعالى على ضيق السجن أن مكّنه في الأرض ينزل منها حيث يشاء ، وأذلّ له العزيز وامرأته ، وأقرت المرأة والنسوة ببراءته ، وهذه سُنَنُ تعالى في عبادته قديما وحديثا إلى يوم القيامة . ولما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخليل التي شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس سخر الله له الريح يسير على منتهى^(٢) حيث أراد . ولما ترك المهاجرون ديارهم لله وأوطأهم التي هي أحب شيء إليهم أعاضهم الله أن فتح عليهم الدنيا وملّكهم شرق الأرض وغربها . ولو اتقى الله السارق وترك سرقة المال المعصوم لله لآتاه الله مثله حلالا ، قال الله تعالى : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)^(٣) فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه إذا اتقاه بترك أخذ مالا يحل له رزقه الله من حيث لا يحتسب ، وكذلك الزاني

(١) تبوأ منزلا : نزله واتخذ له سكنا . وبوأه منزلا : هيأه ومكن له فيه .

(٢) المتن : اظهر .

(٣) الآيتان ٣ و ٢ . سورة الطلاق .

لو ترك ركوب ذلك الفرج حراماً لله لأنابه الله بركوبه أو ركوب ما هو خير منه حلالاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق ، عن مُحَارِبِ بْنِ دِثَارٍ ، عن صِلَّةٍ ، عن حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « النَّظَرَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مِنْ سَهَائِمِ إِبْلِيسَ مَسْمُومٌ مَنْ تَرَكَهُ خَوْفَ اللَّهِ أَثَابَهُ اللَّهُ إِيْمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ ^(١) » .

وقال عمرُ بنُ شَبَّةٍ : حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، حدثنا عَدْبَسَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، حدثنا أبو الحسن المَدَنِيُّ ، عن علي رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « نَظَرُ الرَّجُلِ فِي مُحَاسِنِ الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مِنْ سَهَائِمِ إِبْلِيسَ مَسْمُومٌ فَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ السَّهْمِ أَعْتَمَبَهُ اللَّهُ عِبَادَةَ تَسْرَةً ^(٢) » .

وقال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله تعالى : بلغني عن بعض الأشراف أنه اجتاز بمقبرة فإذا جاريةٌ حسناء عليها ثيابٌ سوادٍ ، فنظر إليها فعلمت بقلبه فكتب إليها :

قد كنتُ أحسبُ أن الشمسَ واحدةً

والبدرَ في منظرٍ بالحسنِ موصوفٍ

حتى رأيتُكِ في أثوابٍ ناكلةٍ

سُودٍ وصدغُك فوقَ الخلدِ معطوفٍ

فروحت والقلبُ مني هامٌ دَيفٌ

والسكبدُ حرى ودمعُ العينِ مَذْرُوفٌ

رُدِّي الجوب فففيه الشكرُ واغتنمى
وصل الحب الذي بالحب مشغوف
ورمى بالرقعة إليها ، فلما قرأتها كتبت :

إن كنت ذا حسب زالك وذا نسب
إن الشريف بغض الطرف معروف
إن الزناة أناس لا خلاق لهم فاعلم بأنك يوم الدين موقوف
واقطع رجاك لحالك الله^(١) من رجل فإن قلبي عن الفحشاء مصروف
فلما قرأ الرقعة زجر نفسه وقال : أليس امرأة تسكون أشجع منك ؟ ثم
تاب ولبس مدرعة^(٢) من الصوف والتجأ إلى الحرم ، فيينا هو في الطواف يوماً
وإذا بتلك الجارية عليها درع من صوف فقالت له : ما أليق هذا بالشريف ،
هل لك في المباح ؟ فقال : قد كنت أروم هذا قبل أن أعرف الله وأحبه ،
والآن قد شغلني حبه عن حب غيره ، فقالت له : أحسنت ، ثم طافت وبى تنشد :

فطفنا فلاح في الطواف لوائح غنيننا بها عن كل مرأى ومسمع
وقال الحسن البصري : كانت امرأة بني قُذافة فافت أهل عصرها في الحسن
لا تمكّن من نفسها إلا بمائة دينار ، وإن رجلاً أبصرها فأعجبته . فذهب فعمل
بيديه وعالج^(٣) فجمع مائة دينار ، فجاء فقال : إنك قد أعجبتني فأنطقت فعملت
بيدي وعالجت حتى جمعت مائة دينار فقالت : ادفعها إلى القهرمان^(٤) حتى
ينقدها ويزنها ، فلما فعل قالت : ادخل ، وكان لها بيت منجد وسرير من

(١) لحالك الله : أى قمحك ولعنك .

(٢) المدرعة : ثوب من الصوف وجبة مشقوقة المقدم .

(٣) عالج الشيء معالجته وعلاجاً : مارسه وزاوله .

(٤) القهرمان : الوكيل الخاص بتدبير شرجها ودخلها .

ذهب فقالت : هلم لك ، فلما جلس معها مجلس الخائن تذكر مقامه بين يدي الله فأخذه رعدة وطفت شهوته فقال : أتركيني لأخرج ولك المائة دينار ، فقالت : ما بدالك وقد رأيته كما زعمت فأعجبته فذهبت فعالجت وكدحت حتى جمعت مائة دينار فلما قدرت على فعلت الذي فعلت ؟ فقال : ما حملني على ذلك إلا الفرق من الله ، وذكرت مقامى بين يديه ، قالت : إن كنت صادقاً فمالي زوج غيرك قال : ذريني لأخرج قالت : لا إلا أن تجعل لي عهداً أن تزوجني فقال : لا حتى أخرج ، قالت : عليك عهد الله إن أنا أتيتك أن تزوجني ، قال : لعل ، فتقع بثوبه ثم خرج إلى بلده ، وارتحلت المرأة بدنياها نادمة على ما كانت فيها حتى قدمت بلده ، فسألت عن اسمه ومنزله فدلت عليه ، فقيل له : الملكة جاءت بنفسها تسأل عنك ، فلما رآها شقيق شقة^(١) فأت ، فأسقط^(٢) في يدها فقالت : أما هذا فقد فاتني ، أما له من قريب ؟ قيل : بلى أخوه رجل فقير ، فقالت : إني أتزوجك حباً لأخيك ، قال : فتزوجته فولدت له سبعة أبناء .

وقال يحيى بن عامر التيمي : خرج رجل من الحجاز حاجاً فورد بعض المياه ليلاً ، فإذا هو بامرأة ناشرة شعرها ، فأعرض عنها فقالت له : هلم إلى فلم تعرض عني ؟ فقال : إني أخاف الله رب العالمين ، فتجلببت^(٣) ثم قالت : هبت والله مهاباً ، إن أولى من شركك في الهيبة لمن أراد أن يشركك في المعصية ، ثم ولت فتبعها ، فدخلت بعض خيام الأعراب ، قال : فلما أصبحت أتيت رجلاً من القوم فآلتته عنها وقلت : فتاة صفتها كذا وكذا فقال : هي

(١) أسقط في يدها . بصيغة المجهول : تحيرت وتحسرت على ما فاتها وندمت على ما ضاع منها .

(٢) تجلببت : لبست الجلباب ، والجلباب النميص والخمار وما يلبس فوق الثياب كالملحفة والملاء تشتمل بها المرأة .

والله ابنتي ، فقلت : هل أنت مُزَوَّجِي بها ؟ فقال : على الأكفاء فمن أنت ؟
فقلت : رجلٌ من تيم الله ، قال : كفوا كريم ، فما رمتُ حتى تزوجتها ودخلت
بها ، ثم قلت : جهزوها إلى قدومي من الحج ، فلما قدمنا حملتها إلى الكوفة ،
وها هي ذى ولي منها بنون وبنات ، قال : فقلت لها : ويحك ما كان تمرُّضُكِ
لي حينئذ ؟ فقلت : يا هذا ليس للنساء خيرٌ من الأزواج ، فلا تعجبني من
امرأة تقول هويت ، فوالله لو كان عند بعض السودان ما تريده من هواها لكان
هو هواها .

وقال الحسن بن زيد : ولينا بديار مصر رجلٌ فوجد^(١) على بعض عماله
فجسه وقيدته ، فأشرفت عليه ابنة الوالى فتويعته فكتبته إليه :
أيها الرامى بعينيه وفى الطرف الختوفُ
إن تُردَّ وصلًا فقد أمككك الطيُّ الأثوفُ
فأجابها الفتى :

إن ترينى زانى العيينين فالفرجُ عفيف^(٢)
ليس إلا النظر الفا ترُّ والشعرُ الطريفُ
فأجابته :

قد أردناك فألقيناك إنسانًا عفيفًا
فتأبيت فلا زلتَ لقيديك حاميةً
فأجابها :

(١) وجد عليه : غضب .

(٢) تقدم البيتان فى صفحة ٣٤٥ .

ما تأيت لأنى كنت للظبي عيونا^(١)

غير أنى خفت رباً كان بى برّاً لطيفاً

فداع الشعر وبلغت القصّة الوالى فدعا به فزوجه إياها ودفعها إليه .

وذكر أن رجلاً أحب امرأة وأحبته ، فاجتمعا فراودته المرأة عن نفسه فقال : إن أجلى ليس بيدي ، وأجلك ليس بيدك ، فربما كان الأجل قد دنا فنلقى الله عاصيين ، فقالت : صدقت ، فتابا وحسنت حالهما وتزوجت به .

وذكر بكر بن عبد الله المزنى أن قصّاباً واسعَ بخاريةٍ لبعض جيرانه ، فأرسلها أهلها إلى حاجته في قريةٍ أخرى ، فتبعها فراودها عن نفسها ، فقالت : لا تفعل : لأننا أشدُّ حباً لك منى ، ولكنى أخاف الله ، قال : فأنت تخافينه وأنا لا أخافه ؟ فرجع تائباً ، فأصابه العطش حتى كاد ينقطع عنقه ، فإذا هو برسولٍ لبني إسرائيل ، فسأله فقال : مالك ؟ قال : العطش ، فقال : تعال حتى ندعو الله حتى تظلمنا سحابة حتى ندخل القرية ، قال : مالى من عملٍ فأدعوه ، قال : فأما أدعوه وأمن أنت ، فدعا وأمن الرجل ، فأظلتها سحابة حتى انتهيا إلى القرية ، فذهب القصاب إلى مكانه فرجعت السحابة معه ، فرجع إليه الرسول فقال : زعت أن ليس لك عملٌ وأنا الذى دعوت وأنت أمنت ، فظلمتنا سحابة ثم تبعتك ، أتمخّرنى ما أمرك ، فأخبره ، فقال الرسول : إن التائب إلى الله يمكنه ليس أحدٌ من الناس بمكانه .

وقال يحيى بن أيوب : كان بالمدينة فتى بمحبب عمر بن الخطاب رضى الله عنه شأنه ، فأنصرف ليلةً من صلاة العشاء فتعثّلت^(٢) له امرأة بين يديه .

(١) عيونا : كارهاً ، وعاف الشيء : تركه وزهد فيه .

(٢) تعثّلت له : عرّضت له بنفسمها وظهرت له .

فعرّضت^(١) له بنفسها ففتنَ بها ومضت ، فأتبعها حتى وقف على بابها فأبصر وجلا عن قلبه وحضرته هذه الآية : (إِنَّ الَّذِينَ آتَقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)^(٢) فخرَّ مغشياً عليه ، فنظرت إليه المرأة فإذا هو كالميت ، فلم تزل هي وجارية لها يتعاونان عليه حتى ألقياه على باب داره ، فخرج أبوه فرآه مُلْتَمِئاً على باب الدار لما به لحمله وأدخله فأفاق ، فسأله ما أصابك يا بني ؟ فلم يخبره ، فلم يزل به حتى أخبره ، فلما تلا الآية شهِقَ شهقةً فخرجت نفسه ، فبلغَ عمرَ رضى الله عنه قصته فقال : أَلَا آذَنْتُمُونِي^(٣) بموته ؟ فذهب حتى وقف على قبره فنادى : يَا فُلَانُ (وَأَمِنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)^(٤) فسمع صوتاً من داخل القبر : قَدْ أُعْطَانِي رَبِّي يَا عَمْرُ .

وذكر الحسن هذه القصة عن عمر رضى الله عنه على وجه آخر قال : كَانَ شَابًّا عَلَى عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَلَاظِمًا لِلْمَسْجِدِ وَالْعِبَادَةِ ، فَتَهَوَّيْتُهُ بِجَارِيَةٍ لَخِذْتُ نَفْسَهُ بِهَا ، ثُمَّ إِنَّهُ تَذَكَّرَ وَأَبْصَرَ فَشَهِقَ شَهْقَةً فَنُشِيََ عَلَيْهِ مِنْهَا ، فَجَاءَ عَمُّ لَهُ لِحَمْلِهِ إِلَى بَيْتِهِ ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ : يَا عَمُّ انْطَلِقْ إِلَى عَمْرِ فَأَقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَامَ وَقُلْ لَهُ : مَا جِزَاءُ مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ؟ فَأَخْبَرَ عُمَرَ فَأَتَاهُ وَقَدْ مَاتَ فَقَالَ : لَكَ جَنَّتَانِ .

وفى جامع الترمذى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « كَانَ ذُو الْكِفْلِ^(٥) لَا يَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ ،

(١) عرضت له بنفسها : تصدت له وأغرته بها .

(٢) الآية ٢٠١ سورة الأعراف .

(٣) آذنتموني : أعلمتوني .

(٤) الآية ٤٦ سورة الرحمن .

(٥) تقدمت هذه القصة في صفحة ٢٢٢ .

فَاتَتْهُ امْرَأَةٌ فَأَعْطَاهَا سِتِينَ دِينَارًا عَلَى أَنْ يَطَّأَهَا ، فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَتَعَدَّ الرَّجُلُ
مِنْ امْرَأَتِهِ أُرْعِدَتْ وَبَسَكَتْ ، فَقَالَ مَا يُبْكِيكِ ؟ أَلَا كَرِهْتُكَ ؟ قَالَتْ : لَا
وَلَكِنْ هَذَا عَمَلٌ لَمْ أَعْمَلْهُ وَإِنَّمَا سَخَّطَنِي عَلَيْهِ الْحَاجَةُ ، قَالَ : فَتَفْعَلِينَ هَذَا
وَأَنْتِ لَمْ تَفْعَلِيهِ [قَطُّ] ؟ ثُمَّ قَالَ ، اذْهَبِي وَالِدَنَّا يُرِي لَكَ ، ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ لَا يَفْصِي
اللَّهُ ذُو السَّكْفِلِ أَبَدًا ، فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَأَصْبَحَ مَكْتُوبًا عَلَى تَبَائِهِ : قَدْ غَفَرَ اللَّهُ
لِنَبِيِّ السَّكْفِلِ . قَالَ التِّرْمِذِيُّ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ .

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ : خُطِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ وَفَاتِهِ فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ : « وَمَنْ قَدَّرَ عَلَى امْرَأَةٍ أَوْ جَارِيَةٍ
حَرَامًا فَتَرَكَهَا مَخَافَةَ اللَّهِ أَمِنَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقَزَعِ الْأَكْبَرِ وَحَرَّمَهُ عَلَى النَّارِ
وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ » .

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ : جَنَّاتُ النِّعَمِ بَيْنَ الْفِرْدَوْسِ وَبَيْنَ جَنَّاتِ عَدْنٍ .
فِيهَا جَوَارِيٌ خُلِقْنَ مِنْ وَرْدِ الْجَنَّةِ ، يَسْكُنُهُنَّ الَّذِينَ هَمُّوا بِالْمَعَاصِي فَلَمَّا ذَكَرُوا اللَّهَ
عَزَّ وَجَلَّ رَاقِبُوهُ ، فَانْتَبَهَتْ رِقَابُهُمْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

قَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ : الذِّكْرُ ذِكْرَانُ : فَذَكَرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِاللِّسَانِ
حَسَنًا ، وَأَفْضَلَ مِنْهُ أَنْ تَذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَ مَا تُشْرِفُ عَلَى مَعَاصِيهِ .

وَقَالَ قَتَادَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : ذُكِّرْنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ
يَقُولُ : « لَا يَقْدِرُ رَجُلٌ عَلَى حَرَامٍ ثُمَّ يَدْعُهُ كَيْسَ بِهِ إِلَّا خَافَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
إِلَّا أَبْدَلَهُ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ذَلِكَ » .

وَقَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ : صَدَقَ الْإِيمَانُ وَبِرُّهُ أَنْ يُخْلَوْ الرَّجُلُ بِالرَّأَةِ الْحَسَنَاءِ
فَيَدْعَاهَا لَا يَدْعُهَا إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ .

وقال أبو عمران الجوني: كان رجلٌ من بني إسرائيل لا يمتنع من شيء، فجمد^(١) أهل بيت من بني إسرائيل فأرسلوا إليه جارية منهم تسأله شيئاً فقال: لا أو تمسكني من نفسك، فخرجت فجهدوا جهداً شديداً فرجعت إليه فقالت: أعطنا فقال: لا أو تمسكني من نفسك، فرجعت، فجهدوا جهداً كثيراً فأرسلوها إليه فقال لها ذلك، فقالت: دونك، فلما خلاها جعلت تنفض كما تنفض السعة، قال لها: مالك؟ قالت: إني أخاف الله رب العالمين، هذا شيء لم أصنعه قط، قال: أنت تخافين الله ولم تصنعيه وأفعله؟ أعهده الله أني لا أرجع إلى شيء مما كنت فيه، فأوحى الله إلى نبي من أنبيائهم أن فلاناً أصبح في كتب أهل الجنة.

وذكر أن شاباً في بني إسرائيل لم يكن فيهم شابٌ أحسن منه كلن يبيع المسكائل، فيبناها ذات يوم يطوف بمكائله إذ خرجت امرأة من دار ملك من ملوك بني إسرائيل، فلما رأيته رجعت مبادرةً فقالت لابنة الملك: إني رأيت شاباً بالبواب يبيع المسكائل لم أر شاباً قط أحسن منه، قالت: أدخله، فخرجت فقالت: أدخل فدخل، فأغلقت الباب دونه، ثم قالت: أدخل فدخل، فأغلقت باباً آخر دونه، ثم استقبلته بنت الملك كاشفةً عن وجهها ونحرها، فقال لها: استتري عافاك الله، فقالت: إنا لم ندعك لهذا، إنما دعوناك الكذا وراودته عن نفسه، فقال لها: اتقي الله، قالت: إنك إن لم تطاوعني على ما أريد أخبرتك أنك إنما دخلت تكابرن^(٢) على نفسي، قال لها: فضعي لي وضوءاً، فقالت: أعلى تتعملل؟ يا جارية ضعي له وضوءاً فوق الجلوس^(٣) مكاناً لا يستطيع أن يفر منه، فلما

(١) جهد أهل البيت: أجذبوا، وجهد الميش: ضاق واشتد.

(٢) تكابرن على نفسي: تراودني عن نفسي.

(٣) الجلوس: القصر أو الحصن.

صار في التجوُّسَق قال : اللهم إني دُعيتُ إلى معصيتك وإني أخشأ أن ألتقى نفسى من هذا التجوُّسَق ولا أركب معصيتك ، ثم قال : بسم الله وألتقى نفسه من أعلاه ، فأهبط الله ملكاً أخذ بضمةً^(١) فوق قائماً على رجليه ، فلما صار في الأرض قال اللهم إن شئتَ رزقتنى رزقاً يغنينى عن بيع هذه المسكاتيل ، فأرسل الله عليه رجلاً^(٢) من جرَّادٍ من ذهبٍ فأخذ منه حتى ملأ ثوبه ، فلما صار في ثوبه قال : اللهم إن كان هذا رزقاً رزقتنيه من الدنيا فبارك لى فيه ، وإن كان ينقصنى مالى عندك فى الآخرة فلا حاجة لى فيه ، فنودى إن هذا الذى أعطيتك جزءاً من خمسة وعشرين جزءاً لصبرك على إلقاءك نفسك ، فقال : اللهم فلا حاجة لى فيما ينقصنى مما لى عندك فى الآخرة ، فرُجعَ الجرَّاد .

وذكر أبو الفرج بن الجوزى عن رجلٍ من بعض المياسير^(٣) قال : بينا أنا يوماً فى منزلى إذ دخل علىَّ خادمٌ لى فقال لى : رجلٌ بالباب معه كتابٌ ، فقلت : أدخله أو خذ كتابه ، فأخذ الكتاب منه فإذا فيه :

تَجَنَّبَكَ الرَّدى^(٤) وَلَقَيْتَ خيراً وَسَدَّكَ الْمَلِيْسُكَ مِنَ النِّعَمِ
شَكْوَنَ بَنَاتِ أَحْشَانِى إِلَيْكُمْ وَمَا إِنْ تَشْكِيْنَ إِلَى ظُلُومِ
وَسَأَلَنِى الْكِتَابَ إِلَيْكَ فِيمَا يَخَامِرُهَا — فَذَرَكْ — مِنَ الْمُهْمِ
وَهَنَ يَقْلُبُ يَا ابْنَ الْجُودِ إِنْ بَرِمْنَا مِنْ مِرَاعَةِ النُّجُومِ
وَعِنْدَكَ لَوْ مَنَنْتَ شِفَاءَ سَقَمِ الْأَعْضَاءِ دَمِينٍ مِنَ الْكُلُومِ^(٥)

(١) الضبع : ما بين الإبط إلى الكتف .

(٢) الرجل : طائفة عظيمة من الجرَّاد .

(٣) جمع ميسور : ذو اليسار والغنى .

(٤) الردى : الهلاك .

(٥) جمع كلم : الجراحة .

قال : فلما قرأت الآيات قلت : عاشق ، فقلت للغادم : أدخله ، فخرج فلم يره .
فارتبّت في أمره ، فجعل الفكر يتردد في قلبي ، فدعوت جواري كلهن فجمعتهن
فقلت لهن : ما قصة هذا الكتاب ؟ فخلفن لي وقلن : ياسيدنا ما نعرف لهذا
الكتاب سبباً ، فمن جاءك به ؟ فقلت : قد فاتني وما أردت سؤالكن . إلا أني
ظننت له هوى في بعضكن ، فمن عرفت منكن أنها صاحبه فعلى له ، فلتذهب
إليه ولتأخذ كتابي إليه ، وكتبت كتاباً أشكره على فعله وأسأله عن حاله ،
ووضعت الكتاب في موضع من الدار ، فكث الكتاب في موضعه حيناً لا يأخذه
أحد ولا أرى الرجل ، فاعتمت غماً شديداً . ثم قلت : لسله بعض فتياننا ، ثم
قلت : إن هذا الفتى قد أخبر عن نفسه بالورع ، وقد قنع من يحبه بالنظر ، فدبرت
عليه فحجبت جواري عن الخروج ، فإكان إلا يومٌ وبعض الآخر إذ دخل على
الخدام ومعه كتابٌ قال : أرسل به إليك فلان ، وذكر بعض أصدقائي ففضضته
فإذا فيه مكتوبٌ :

ماذا أردت إلى روحٍ معلقة

عند التراقي^(١) وحادي الموت يحدوها

حتمتُ حاديها ظلماً فجداً بها	في السير حتى تولت عن تراقيها
حجبت من كان تحيا عند رؤيتها	روحي ومن كان يشغيني ترائيها
فالنفس تجنح نحو الظلم جاهلة	والقلب مني سليم ما يؤايتها
والدلو قيل لي تأتي بفاحشة	وإن عقباك دنيانا وما فيها
لقلت لا والذي أخشى عقوبته	ولا بأضعافها ما كنت آتيها
لولا الحياء لبخنا بالذي كتمت	بنت الفؤاد وأبدينا تمنيهما

(١) جمع ترقوة : عظيمة مشرفة بين ثغرة النحر والعاتق . وعند التراقي كما
عن مشاركة الموت .

قال : فبهت^١ وقلت : لا أدري ما أحتال في أمر هذا الرجل ، وقلت للخادم : لا يأتيك أحدٌ بكتابٍ إلا قبضت عليه حتى تدخله عليّ ، ثم لم أعرف له خيراً بعد ذلك ، فبينما أنا أطوف بالكعبة إذا فتى قد أقبل نحوي وجعل يطوف إلى جنبي ويلاحظني ، وقد صار مثلَ العود ، فلما قضيت طوافي خرجت وأتبعني فقال : يا هذا أتعرفني ؟ قلت : لا أنكر لك اسوء ، قال : أنا صاحب الكتابين ، فما تمالك أن قبلت رأسه وبين عينيه وقلت : بأبي أنت وأمي ، والله لقد شغلني قلبي وأطلت غمّي بشدة كتمانك لأمرك ، فهل لك فيما سألت وطلبت ؟ قال : بارك الله لك وأقرّ عينيك ، إنما أتيتك أستحلك^(١) من نظرة كنت نظرتها على غير حكم الكتاب والسنة ، والهوى دايع إلى كل بلاء ، وأستغفر الله العظيم ، فقلت : يا حيي أحب أن تصير معي إلى منزلي فأنس بك وتجري الحُرمة بيني وبينك ، قال : ليس إلى ذلك سبيل ، فقلت : غفر الله لك ذنبك وقد وهبتك لك ومعها مائة دينار ، ولك في كل سنة كذا وكذا ، قال : بارك الله لك فيها ، فلو لا عهود عاهدت الله عليها وأشياء أكدها عليّ لم يكن في الدنيا شيء أحب إليّ من هذا الذي تعرّضه عليّ ، ولكن ليس إلى ذلك سبيل والدنيا منقطعة ، فقلت له : فإذا آيت أن تقبل مني ذلك فأخبرني من هي حتى أكرمها لأجلك ما بقيت ، فقال : ما كنت لأذكرها لأحدٍ ، ثم قام وتركني .

وذكر عبد الملك بن قُرَيْب قال : هَوِيَ رجلٌ من النساء جاريةً فاشتدَّ حُبُّه لها . فبعث إليها يخطبها . فامتنعت وأجابته إلى غير ذلك ، فأبى وقال : لا إلّا ما أحلّ الله ، ثم إن محبته أَلْقَيْت في قلبها فبذلت له ما سأل ، فقال : لا والله لا حاجة لي بمن دعوتها إلى طاعة الله ودعتني إلى معصيته .

وحكى المبرّد عن شيخه أبي عثمان المازني أنه قصده بعض أهل الذمة ليقراً

(١) استحله .: سألَه أن يحمله له .

عليه « كتاب سيويه » وبذل له مائة دينار ، فامتنع وردّه ، فقلت له : أترُدّ هذا القدر مع شدة فافتك ؟ فقال : إن هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله ، ولست أرى تمكين هذا الذي منها غيرة على القرآن . فاتفق أن خُفّت جارية بمحضرة الواصل بقول العرجي :

أظْلومُ إن مصابكم رجلاً . أهدى السلام تحية ظلم ؟

فاختلف أهل مجاسه في إعراب رجل ، ففهم من قال : هو نصب وجعله اسم إن ، ومنهم من رفعه على أنه خبرها ، والجارية أصرت على النصب وقالت : لقنني إياه كذلك شيخى أبو عثمان المازني ، وأمر الواصل بإحضاره إلى بين يديه ، قال : فلهما مثلتُ بين يديه قال : ممن الرجل ؟ قلت : من بنى مازن ، قال : أي الموازن ؟ أمازن تميم أم مازن قيس أم مازن ربيعة ؟ قلت : من مازن ربيعة ، فكلّمني بكلام قومي فقال لي : يا اسمك ؟ وقومي يقبلون الميم باء والباء ميم ، فكرهت أن أواجهه بأقطة مكر فقلت : بكر يا أمير المؤمنين ، فظن لما قصده وأعجب به فقال : ما تقول في قول الشاعر :

أظْلومُ إن مصابكم رجلاً . أهدى السلام تحية ظلم ؟

أترفع رجلاً أم تنصبه ؟ فقلت : الوجهُ النصب يا أمير المؤمنين : فقال : ولم ذلك ؟ فقلت : لأن مصابكم مصدرٌ بمعنى إصابتكم ، فأخذ البيهقي في معارضتي ، فقلت : هو بمنزلة قولك : إن ضربك زيداً ظلم ، فرجلاً مفعول مصابكم ومنصوبٌ به ، وابتدأ عليه أن الكلام معلقٌ إلى أن تقول ظلم قيسم ، فاستحسنه الواصل وقال : هل لك من ولد ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين بُذية ، قال : فما قالت لك عند مسيرك إلينا ؟ قلت : أنشدت قول الأعشى :

(١) الذي : المعاهد الذي أعطى عهداً يأمن به على ماله وعرضه ودينه ، وهي

ذمية .

أَيَا أَتَالَا رَمَّ^(١) عِنْدَنَا فَإِنَّا بِخَيْرٍ إِذَا لَمْ رَم
تَرَانَا إِذَا أَضْمَرْتِكَ^(٢) الْبَلَا دُيُجْنِي وَتُعَلِّمُنَا الرَّحِيمُ

قال : فما قلتَ لها ؟ قال : قلت قولَ جرير :

ثَقِيَ بِاللَّهِ أَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَمِنْ عِنْدِ الْخَالِيفَةِ بِالنَّبَاحِ .

فقال : على النَّبَاحِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ أَمَرَ لِي بِأَلْفِ دِينَارٍ ، وَرَدَّنِي إِلَى الْبَصْرَةِ
مُسَكَّرَمًا ، فَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْمَهْدِيُّ : فَلَمَّا عَادَ إِلَى الْبَصْرَةِ قَالَ لِي : كَيْفَ رَأَيْتَ
يَا أَبَا الْعَبَّاسِ ؟ رَدَدْنَا لَكَ مِائَةَ دِينَارٍ فَعَوَّضْنَاكَ اللَّهُ أَلْفًا .

(١) رَامَ مَكَانَهُ : بَرَحَهُ وَفَارَقَهُ .

(٢) أَضْمَرْتَهُ الْبَلَادَ : غَيَّبْتَهُ لِمَا يَسْفِرُ أَوْ يَمُوتُ .

الباب الثامن والعشرون

فبمس آثر عاجل العقوبة والآلام ، على لذة الوصال الحرام

هذا باب إتياء يدخل منه رجالان : أحدهما من تمسك من قايه الإيمان بالآخرة وما أعد الله فيها من الثواب والعقاب لمن عصاه ، فأثر أدنى الفؤتين ، واختار أسهل العقوبتين . والثاني رجل غاب عقله على هواه فعلم ما في الفاحشة من الفساد ، وما في العُدول عنها من المصالح ، فأثر الأعلى على الأدنى ، وقد جمع الله سبحانه وتعالى ليوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه بين الأمرين ، فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الحرام ، فقالت المرأة : (وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ . قال رب السجن أحبُّ إلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)^(١) فاختار السجن على الفاحشة ، ثم تبرا إلى الله من حوله وقوته ، وأخبر أن ذلك ليس إلا بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه فقال : (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) فلا يركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته ، ومتى ركن إلى ذلك تخلفت عنه عصمة الله وأحاط به الخذلان . وقد قال الله تعالى لا تَكْرُم الْخُلُقَ عَلَيْهِ وَأَحْبَبُهُمْ إِلَيْهِ : (وَلَوْ لَا أَنْتَ بَنَيْنَاكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا)^(٢) ولهذا كان من دعائه : « يَا مُقَلِّبُ

(١) الآيتان ٣٢ و ٣٣ سورة يوسف .

(٢) الآية ٧٤ سورة الإسراء .

الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ^(١) ، وكانت أكره يمينه « لَا وَمُقَلَّبِ الْقُلُوبِ^(٢) »
كيف وهو الذى أنزل عليه : (وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)^(٣)
وقد جرت سنة الله تعالى فى خلقه أن من آثر الألم العاجل على الوصال الحرام أعقبه
ذلك فى الدنيا المسرّة التامة ، وإن هلك فالفوز العظيم ، والله تعالى لا يضيع
ما تحمّل عبده لأجله .

وفى بعض الآثار الإلهية يقول الله سبحانه وتعالى : بعينى ما يتحمّل
المحمّلون من أجل . وكل من خرج عن شىء منه لله حفظه الله عليه أو أعضاه
الله ماهو أجل منه ، ولهذا لما خرج الشهداء عن نفوسهم لله جعلهم الله
أحياء عنده يرزقون ، وعوضهم عن أبدانهم التى بذلوها له أبدان طير خضر
جعل أرواحهم فيها تسرح فى الجنة حيث شاءت . وتأوى إلى قناديل معلّقة
بالعرش^(٤) ، ولما تركوا مساكنهم له عوضهم مساكن طيبة فى جنّات عدن
ذلك الفوز العظيم .

وقال وهب بن منبّه : كان عابد من عباد بنى إسرائيل يتعبّد فى صومعة ،
فجاء رجل من بنى إسرائيل إلى امرأة ينيّ فبذل لها مالا وقال : لعلك أن
تفنعينى ، فجاءته فى ليلة مطيرة فنادته فأشرف عليها ، فقالت : آوئى إليك ،
فتركها وأقبل على صلاته ، فقالت : يا عبد الله آوئى إليك ، أما ترى الظلمة
والمطر ؟ فلم تزل به حتى آواها ، فاضطجعت قريبا منه فجعلت تريه محاسنها حتى
دعته نفسه إليها ، فقال : لا والله حتى أنظر كيف صبرك على النار ، فتقدّم إلى

(١) رواه الترمذى فى جامعه .

(٢) رواه البخارى

(٣) الآية ٢٤ . سورة الأنفال .

(٤) ذكره مسلم فى صحيحه .

المصباح فوضع إصبعاً من أصابعه حتى احترقت ، ثم عاد إلى صلاته فدعته نفسه ، إليها ، فعاد المصباح فوضع إصبعه الأخرى حتى احترقت ، فلم يزل تدعوه نفسه وهو يعود إلى المصباح حتى احترقت أصابعه جميعاً وهي تنظر ، فصعقت وماتت .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن خالد ، حدثنا أمية بن شبل ، عن عبد الله بن وهب قال : لا أعلمه إلا ذكره عن أبيه أن عابداً من بني إسرائيل كان في صومعته يعبّد ، فإذا نفر من العواة قالوا : لو استنزله بشيء فذهبوا إلى امرأة بغى فقالوا لها : تعرضي له ، فجاءته في ليلة مظلمة مطيرة فقالت : يا عبد الله آوئني إليك ، وهو قائم يصلي ومصباحه ثاقب^(١) ، فلم يلتفت إليها ، فقالت : يا عبد الله الظلمة والغيث^(٢) ، آوئني إليك ، فلم يزل به حتى أدخلها إليه فاضطجعت وهو قائم يصلي ، فجعلت تتقلب وترى محاسن خلقها حتى دعت نفسه إليها . فقال : لا والله حتى أنظر كيف صبرك على النار ، فدنا إلى المصباح فوضع إصبعاً من أصابعه فيه حتى احترقت ، قال : ثم رجع إلى مُصَلَّاه ، قال : فدعته نفسه أيضاً ، فعاد إلى المصباح فوضع إصبعه أيضاً حتى احترقت أصابعه وهي تنظر إليه فصعقت فماتت . فلما أصبحوا غدّوا لينظروا ما صنعت ، فإذا بها ميتة ، فقالوا : يا عدوّ الله يا مُرأى ! وقعت عليها^(٣) ثم قتلتها ، قال : فذهبوا به إلى ملكهم فشهدوا عليه ، فأمر بقتله ، فقال : دعوني حتى أصلي ركعتين ، قال : فصلّي ثم دعا فقال : أي ربّ إني أعلم أنك لم تكن لتؤاخذني بما لم أفعل ، واسكن أسألك أن لا أكون عاراً على القرى بعدى ، قال : فردّ الله نفسها فقالت : أنظروا إلى يده ، ثم عادت ميتة .

(١) ثاقب : مضى .

(٢) الغيث : المطر .

(٣) وقعت عليها : جامعها .

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن منصور ، عن إبراهيم قال : بينا رجل عابد عند امرأة إذ عمد فضرب يده على فخذها ، فأخذ يده فوضعهما في النار حتى نشت^(١) .

وقال حصين بن عبد الرحمن : بلغني أن فتى من أهل المدينة كان يشهد الصلوات كلها مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان عمر يتفقده إذا غاب ، فعشقه امرأة من أهل المدينة ، فذكرت ذلك لبعض نساءها ، فقالت : أنا أحتال لك في إدخاله عليك ، فقعدت له في الطريق ، فلما مر بها قالت له : إني امرأة كبيرة السن ولئى شاة لا أستطيع أن أحلبها ، فلو دخلت فحلبتها ، وكانوا أرغب شيء في الخير ، فدخل فلم ير شاة ، فقالت : اجلس حتى آتيك بها ، فإذا المرأة قد طامعت عليه ، فلما رأى ذلك عمد إلى محراب في البيت فقعد فيه فأرادته^(٢) عن نفسه فأبى وقال : اتقى الله أيتها المرأة ، فجعلت لا تسكف عنه ولا تلتفت إلى قوله ، فلما أبى عليها صاحبت عليه فجاءوا فقالت : إن هذا دخل على يريدنى عن نفسى ، فوثبوا عليه وجعلوا يضربونه وأوثقوه ، فلما صلى عمر الغداة فقهه ، فبينما هو كذلك إذ جاءوا به في وثان ، فلما رآه عمر قال : اللهم لا تخلف ظنى به ، قال : ما لكم ؟ قالوا : استغاثت امرأة بالليل فجئنا فوجدنا هذا الغلام عندها فضر بناه وأوثقناه ، فقال عمر رضى الله عنه : اصدقنى ، فأخبره بالقصة على وجهها ، فقال له عمر رضى الله عنه : أنمرف العجوز ؟ فقال : نعم إن رأيتها عرفتها ، فأرسل عمر إلى نساء جيرانها وعجائزهن فجاءهبن فعرضهبن ، فلم يعرفها فهبن ، حتى مرت به العجوز فقال : هذه يا أمير المؤمنين ، فرفع عمر عليها الدرة وقال : اصدقنى ، فقصت عليه القصة كما قصها الفتى . فقال عمر : الحمد لله الذى جعل فينا شبيهة يوسف .

(١) نشت : احترقت : ونش اللحم سمع له صوت على المقل أو فى القدر .

(٢) أرادته عن نفسه : راودته عن نفسه .

وقال أبو الزناد : كان راهبٌ يتعبد في صومعته فأشرف^(١) منها فرأى امرأةً فقتن بها ، فأخرج رجله من الصومعة لينزل إليها ، فنزلت عليه الغصمة فقال : رجلٌ خرجت من الصومعة لتعصى اللهَ والله لا تعود معي في صومعتي ، فتركها معلقةً خارج الصومعة يسقط عليها الثلوج والأمطار حتى تناثرت وسقطت ، فشكر الله ذلك من صنعه ، ومدحه في بعض كتيبة بنى الرجل .

وقال مصعب بن عثمان : كان سليمان بن يسار من أحسن الناس وجهاً فدخلت عليه امرأةٌ بنته ، فسألته نفسه فامتنع عليها ، فقالت : إذن أفضحك ، فخرج هارباً عن منزله وتركها فيه .

وقال جابر بن نوح : كنت بالمدينة جالساً عند رجل في حاجة ، فمر بنا شيخٌ حسن الوجه حسن الثياب ، فقام إليه ذلك الرجل فسلم عليه وقال : يا أبا محمد أسأل الله أن يعظم أجرك ، وأن يربط على قلبك بالصبر ، فقال الشيخ :

وكان يبي في الوغى^(٢) ومساعدى فأصبحت قد خافت يميني ذراعها وقد صيرت حيراً من الشكل باهتاً أخا كلف ضاقت على رباعها^(٣) فقال له الرجل : أبشر فإن الصبر مؤمل المؤمن ، وإنى لأرجو أن لا يبحر منك الله الأجر على مصيبتك ، فقلت له : من هذا الشيخ ؟ فقال : رجلٌ منا من الأنصار ، فقلت : وما قصته ؟ قال : أصيب بابنه وكان به باراً قد كفاه جميع ما يعنيه ، ومنيته سحج ، قلت : وما كانت ؟ قال : أحبته امرأةً فأرسلت إليه تشكوا حبه وتسأله الزيارة ، وكان لها زوج فألحت عليه ، فأفشى ذلك إلى صديق

(١) أشرف : اطلع .

(٢) الوغى : الجلبة والحرب لما فيها من الصوت والجلبة .

(٣) الكلف : حمرة كدرة تلو الوجه ، والبهق ، والامر يحتمل على مشقة

وعسر . والرباع : المنازل والديار والأحياء .

له، فقال له : لو بعثت إليها بعض أهلك فوعظتها وزجرتها رجوت أن تكف عنك، فأمسك ، وأرسلت إليه إما أن تزورنى وإما أن أزورك فأبى ، فلما يئست منه ذهبت إلى امرأة كانت تعمل السحر فجعلت لها الرغائب^(١) فى تهيينه، فعملت لها فى ذلك ، فبينما هو ذات ليلة مع أبيه إذ خطر ذكرها بقلبه وهاج منه أمر لم يكن يعرفه واختلط^(٢) ، فقام مسرعاً فصلى واستعاذ والأمر يشتد ، فقال : يا أبه أدركنى بقيد، فقال : يا بنى ما قصتك ؟ فحدثته بالقصة ، فقام وقيده وأدخله بيتاً ، فجعل يضطرب ويخور كما يخور النور ، ثم هدأ فإذا هو ميت والدّم يسيل من منخره .

فصل

وهذا ليس بمعجيب من الرجال ولكنه من النساء أعجب . قال أبو إدريس الأودى : كان رجلان فى بنى إسرائيل عابدان ، وكانت جارية جميلة فأحبها وكنم كل منهما صاحبها، واختبأ كل منهما خلف شجرة ينظر إليها ، قَبَضُ^(٣) كل منهما سره إلى صاحبه ، فاتفقا على أن يراوداها ، فلما قربت منهما قال لها : قد عرفت منزلتنا فى بنى إسرائيل ، وإنك إن لم تواتينا وإلا قلنا إذا أصبحنا : إنا أصبنا معك رجلاً ، وإنه أفلتنا، وإنا أخذناك، فقالت : ما كنت لأطيقكما فى معصية الله ، فأخذاها وقالوا : إنا أصبنا معهما رجلاً فأفلتنا ، وأقبل نبي من أنبيائهم فوضعوا له كرسيًا فجلس عليه وقال : أقضى بينكم ؟ فقالا : نعم اقض بيننا ، ففرق بين الرجلين وقال لأحدهما : خاف أى شجرة رأيتهما ؟ قال : شجرة كذا

(١) الرغائب جمع رغبة : العطاء الكثير .

(٢) اختلط عقله : فسد .

(٣) أطلعه عليه : أظهره عليه .

وكذا ، وقال للآخر ، فقال : شجرة كذا وكذا غير التي ذكر صاحبها ، ونزلت ناراً من السماء فأحرقتهما وأفلتت المرأة .

وقال عبد الله بن المبارك : عشق هارون الرشيد جارية من جواريه فأرادها فقالت : إن أباك مشى ، فشغف بها وقال فيها :

أرى ماء وبي عطش شديدٌ ولكن لا سبيلَ إلى الورود^(١)
أما يصفيك أنك تملكيني وأن الناس عندي كالعبيد^(٢)
وأنت لو قطعت يدي ورجلي لقلت من الرضا أحسنت زیدی
فسأل أبا يوسف عن ذلك فقال : أو كلما قالت جارية شيئاً تصدق ؟ قال
ابن المبارك : فلا أدري ممن أعجب ، من هارون الرشيد حيث رغب فيها ، أو منها
حيث رغب عنه ، أو من أبي يوسف حيث سوغ^(٣) له إنسانها .

وقال أبو عثمان التيمي : مر رجلٌ براهبةٍ من أجل النساء فافتن بها ،
فتلطّف في الصمود إليها فراودها عن نفسها فأبت عليه وقالت : لا تغترّ بما ترى
وليس وراءه شيء ، فأبى حتى غلبها على نفسها وكان إلى جانبها تجمّرة فوضعت
يدها فيها حتى احترقت ، فقال لها بعد أن قضى حاجته منها : مادعاك إلى
ما صنعت ؟ قالت : إنك لما قهرتني على نفسي خفت أن أشاركك في اللذة
فأشاركك في المعصية ففعلت ما رأيت ، فقال الرجل : والله لا أعصى الله أبداً وتاب
بما كان عليه .

وذكر الحسين بن محمد الدامغانى أن بعض الملوك خرج يتصيد وانفرد عن

(١) إلى الورود : إلى بلوغه والدنومنه .

(٢) أنظر صفحة ١٨٧ وفيها نسب هذا البيت إلى ملك مجبول .

(٣) سوغ له : جوزه .

أصحابه ، فر بقرية فرأى امرأةً جميلةً فراودها عن نفسها ، فقالت : إني غير طاهر فأتطهر وآتيك ، فدخلت بيتها وخرجت إليه بكتابٍ فقالت : انظر في هذا حتى آتيك ، فنظر فيه فإذا فيه ما أعدَّ الله للزاني من العقوبة فتركها وذهب ، فلما جاء زوجها أخبرته الخبر ، ففكره أن يقربها مخافة أن يكون الملك فيها حاجةً فاعتزلها ، فاستعدى ^(١) عليه أهلُ الزوجة إلى الملك وقالوا : إن لنا أرضاً في يد الرجل فلا هو يعمُرُها ولا هو يردها علينا وقد عطلها ، فقال الملك : ماتقول ؟ فقال : إني رأيتُ في هذه الأرض أسداً وأنا أتخوفُ دخولها منه ، ففهم الملك القصة فقال : اعمرُ أرضك فإن الأسد لا يدخلها ، ونعم الأرض أرضك .

وكانت بعض النساء المتعبدات وقعت في نفس رجلٍ مؤمِرٍ وكانت جميلة وكانت مُخْطَبَ فتأبى ، فبلغ الرَّجُلَ أنها تريد الحجَّ ، فاشتري ثلثمائة بعيرٍ ونادى : من أراد الحج فليكثر من فلانٍ ، فاكثرت منه المرأة ، فلما كان في بعض الطريق جاءها فقال : إمّا أن تزوجيني نفسك ، وإمّا غير ذلك ، فقالت : ويمحك اتق الله ! فقال : ما هو إلّا ماتسمعين ، والله ما أنا بجميلٍ ولا خرجت إلّا من أجلك ، فلما خافت على نفسها قالت : ويمحك انظر أبقى في الرجال عينٌ لم تنم ؟ فقال : لا . ناموا كلهم ، قالت : أفنامت عين رب العالمين ؟ ثم شهِقَت شهِقةً خروَّت ميتةً ، وخرَّ الرجلُ مَفْشِيًّا عليه ، فلما أفاق قال : ويحي قتلت نفسك ولم أبلغ شهوتي .

وقال وهب بن مُنَبِّه : كان في بني إسرائيل رجلٌ متعبدٌ شديدُ الاجتهاد فرأى يوماً امرأةً فوقعت في نفسه بأوّل نظرة ، فقام مسرعاً حتى لحقها فقال : رويدك يا هذه ، فوقفت وعرفتني فقالت : ما حاجتك ؟ قال : أذاتُ زوجٍ أنت ؟

(١) استعداه : استعاناه واستنصره :

قالت : نعم فما تريد ؟ قال : لو كان غير هذا المكان لنا رأى ، قالت : على ذلك وما هو ؟ قال : عرض بقلبي من أمرك عارض^(١) ، قالت : وما يمنعك من إنفاذه ؟ قال : وتتابعيني على ذلك ؟ قالت : نعم ، فقلت به في موضع فلما رآته يُجِدُّ في الذي سألت قالت : رويدك يا مسكين لا يسقط جاهك عنده ، فأنبه لها وذهب عنه ما كان يُجِدُّ فقال : لآحرمك الله ثواب فعلك . ثم تنجى ناحية فقال لنفسه : اختارى إما على العين ، وإما الجب^(٢) ، وإما السياحة مع الوحوش ، فاختارت السياحة مع الوحوش ، فكان كذلك إلى أن مات .

وأحب رجل تجارية من العرب وكانت ذات عقل وأدب ، فما زال يحتال في أسرها حتى اجتمع معها في ليلة مظلمة شديدة السواد ، فحدثها ساعة ثم دعت نفسه إليها فقيل يا هذه قد طال شوقي إليك ، قالت : وأنا كذلك ، فقال : هذا الليل قد ذهب والصبح قد اقترب ، قالت : هكذا تنفني الشهوات وتنقطع اللذات فقال لها : لو دنوت مني . فقالت : هيهات أخاف البعد من الله ، قال : فما الذي دعاك إلى الحضور معي ؟ قالت : شقوتي وبلائي ، قال لها : فتي أراك ؟ قالت : ما أنساك وأما الاجتماع معك فما أراه يكون ، ثم تولت . قال : فاستحييت بما سمعت منها ، وأنشد :

توقت عذاباً لا يطاق انتقامه ولم تأت ما تخشى به أن تُعَذِّباً
وقالت مقالاً كدت من شدة الحيا أهِيم على وجهي حياً وتعجباً
ألا أف للحب الذي يورث العي ويورد ناراً لا تملُّ التلهباً
فأقبل عودى فوق بدنى مفكراً وقد زال عن قلبي العي فتسرّباً

وقال ابن خلف : أخبرني أبو بكر العامري قال : عشقت عاتكة المريّة

(١) عرض بقلبي عارض : أى خطر لى خاطر .

(٢) الجب : القمطع ، والمجبوب الذى استقصطت مذاكيره .

ابن عم لها ، فأرادها عن نفسها فامتنعت عليه وقالت :

فما طعم ماء من سحابٍ مُرَوِّقٍ تحذر من غر طوالِ الذوائبِ^(١)
يُمْنَعَرَجُ^(٢) أو بطنٍ وادٍ تطلعت عليه رياحُ الصيف من كل جانب
تُزْفِرُ ماء المُنْزَنِ^(٣) فيهن والتقت عليهن أنفاس الرِّياض الغرائب
نَفَتْ جَرِيَّةُ الماء القَذَى عن متونه^(٤) فليس به عيبٌ تراه إشارب
بأطيب مما يقصر الطرفُ دونه تُتَّقِي الله واستحياءُ تلك العواقب

(١) تحذر : تنزل . والذوائب جمع ذؤابة ، والذؤابة من كل شيء أعلاه ،
وشعر مقدم الرأس .

(٢) منعرج الوادى : منعطفه بمنة ويسرة .

(٣) جمع مزنة : السحاب يحمل الماء .

(٤) القذى ما يقع : بالمين والشراب من تبينة وغيرها . والماتن : الظهر ، ومن
الأرض : ما ارتفع وصلب منها .

الباب التاسع والعشرون

في ذم الهوى ، ربما في مخالفة من نيل النى

وقد تقدم ذكر الآيات في ذلك وبعض ماورد في السنة .

الهوى ميل الطبع إلى مايلأه ، وهذا الميل خلق في الإنسان لضرورة بقائه فإنه لو لا ميله إلى المطعم والمشرب والمنسكح ما أكل ولا شرب ولا نكح ، فالهوى مستحث لها لما يريد ، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذيه ، فلا ينبغي ذم الهوى مطلقاً ، ولا مدحه مطلقاً ، كما أن الغضب لا يذم مطلقاً ولا يُحمد مطلقاً ، وإنما يذم المفرط من النوعين ، وهو ما زاد على جلب المنافع ودفع المضار ، ولما كان الغالب من مطيع هواه وشهوته وغضبه أنه لا يقف فيه على حد المتفتح به أطلق ذم الهوى والشهوة والغضب لعموم غلبة الضرر ، لأنه يتذر من يقصد العدل في ذلك ويقف عنده ، كما أنه يتذر في الأمزجة المزاج المعتدل من كل وجه ، بل لابد من غلبة أحد الأخلاط^(١) والكيفيات عليه ، خِرضُ الناصح على تعديل قوى الشهوة والغضب من كل وجه ، وهذا أمر يتعذر وجوده إلا في حق أفراد من العالم ، فلذلك لم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلا ذمه ، وكذلك في السنة لم يبيء إلا مذموماً إلا ما جاء منه مُقَيِّداً كقوله صلى الله عليه وسلم : «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»^(٢) . وقد قيل : الهوى كمين لا يؤمن . قال الشعبي : وسى هو لآنه يهوى بصاحبه ، ومُطلقه يدهو

(١) أخلاط الإنسان : أمزجته الأربعة .

(٢) تقدم تحريجه في صفحة ٢٣ .

إلى اللذة الخاضرة من غير فكر في العاقبة ، ويحث على نيل الشهوات عاجلاً وإن كانت سبباً لأعظم الآلام عاجلاً وآجلاً ، فللدنيا عاقبة قبل عاقبة الآخرة ، والهوى يعنى صاحبه من ملاحظتها ، والمرؤءة والدين والعقل ينهى عن لذّة تعقب أكلها ، وشهوة تورث ندماً ، فكلٌّ منها يقول للنفس إذا أرادت ذلك : لا تفعل ، والطاعة لمن غلب ، ألا ترى أن الطفل يؤثر ما يهوى وإن أذاه إلى التآف لضعف ناهى العقل عنده ، ومن لا دين له يؤثر ما يهواه وإن أذاه إلى هلاكه في الآخرة لضعف ناهى الدين ، ومن لا مرؤءة له يؤثر ما يهواه وإن قلم^(١) مرؤءته أو عدمها لضعف ناهى المرؤءة ، فأين هذا من قول الشافعي رحمه الله تعالى : لو علمت أن الماء البارد يثلم مرؤءتي لما شربته .

ولما امتحن المكلف بالهوى من بين سائر البهائم وكان كل وقت تحدث عليه حوادث تجعل فيه حاسكاً : حاكم العقل وحاكم الدين ، وأمر أن يرفع حوادث الهوى دائماً إلى هذين الحاكمين وأن ينتقاد لحكمهما ، وينبغي أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب ليعتمرن بذلك على ترك ما تؤذى عواقبه . ولعلم اليبس أن مذمى الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذون بها . وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها ، لأنها قد صارت عندهم بهنزة العيش الذي لا بد لهم منه ، ولهذا ترى مذمّن الخمر والجماع لا يلتذ به عُسْرَ معشار التذاذ من يفعله نادراً في الأحيان ، غير أن العادة مقتضية ذلك فيلقي نفسه في المهالك لنيل ما تطالبه به العادة ، ولو زال عنه رين^(٢) الهوى لعلم أنه قد شقي من حيث قدر السعادة ، واغتم من حيث ظنّ الفرح ، وألم من حيث أراد اللذة . فهو كالطائر المخدوع

(١) علم الجدار وغيره : أحدث فيه شقاً .

(٢) الرين : النطاء والحجاب الكفيف ، والصدأ يعلو الشيء الجلي ، والدنس وما غطى على القلب من الفسوة للذنب بعد الذنب .

بحبة القمح ، لا هو نال الحُبَّة ولا هو تخلص مما وقع فيه ، فإن قيل : فكيف يتخلص من هذا من قد وقع فيه ؟ قيل : يمكنه التخلص بعون الله وتوفيقه له بأمر :
 (أحدها) : عزيمة حرّ يغار لنفسه وعليها

(الثاني) : جرعة صبرٍ يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة .

(الثالث) : قوّة نفس تشجّعه على شرب تلك الجرعة ، والشجاعة كلّها صبر ضاعة ، وغير عيشٍ أدركه العبد بصبره .

(الرابع) : ملاحظته حسن موقع العاقبة والشفاء بتلك الجرعة .

(الخامس) : ملاحظته الألم الزائد على لذة طاعة هواد .

(السادس) : إبقاؤه على منزلته عند الله تعالى وفي قلوب عباده ، وهو خير وأُنفع له من لذة موافقة الهوى .

(السابع) : إثارة لذة العفة وعزّتها وحلاوتها على لذة المعصية .

(الثامن) : فرحه بعلبة عدوّه وقهره له وردّه خاسئاً بغيظه وغمّه وهمّه حيث لم ينل منه أمنيته ، والله تعالى يحب من عبده أن يراغم^(١) عدوّه وبغيظه كما قال الله تعالى في كتابه العزيز : (وَلَا يَطْؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ)^(٢) وقال : (لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ)^(٣) وقال تعالى : (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ

(١) راغم فلافا : هجره وعاداه .

(٢) الآية ١٢٠ . سورة التوبة .

(٣) الآية الأخيرة من سورة الفتح

مُرَاحَمًا كَثِيرًا وَسَمَةً^(١) أى مكانًا يراغم فيه أعداء الله . وعلامة المحبة الصادقة
منايظة أعداء المحبوب ومُراغمتهم .

(التاسع) : التَّفَكُّرُ فى أَنه لَمْ يَلْمَ للهوى وَإِنَّمَا هُوَ لِأَمْرِ عَظِيمٍ لَا يَنَالُهُ إِلَّا
بِمَعِيَّتِهِ للهوى كَمَا قِيلَ :

قَدْ هَيَّاوكَ لِأَمْرِ لَوْ قَطِنْتَ لَهُ فَارِبًا بِنَفْسِكَ أَنْ تَرَعَى مَعَ الْمُحْتَلِّ^(٢)

(العاشر) : أَنْ لَا يَخْتَارَ لِنَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ الْحَيَوَانُ الْبَهِيمُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُ ،
فَإِنَّ الْحَيَوَانَ يُمَيِّزُ بَطْبَعَهُ بَيْنَ مَوَاقِعَ مَا يَضُرُّهُ وَمَا يَنْفَعُهُ ، فَيُؤَثِّرُ النَّافِعَ عَلَى الضَّارِّ ،
وَالْإِنْسَانُ أُعْطِيَ الْعَقْلَ لِهَذَا الْمَعْنَى ، فَإِذَا لَمْ يُمَيِّزْ بِهِ بَيْنَ مَا يَضُرُّهُ وَمَا يَنْفَعُهُ أَوْ
عَرَفَ ذَلِكَ وَآثَرَ مَا يَضُرُّهُ كَانَ حَالُ الْحَيَوَانِ الْبَهِيمِ أَحْسَنَ مِنْهُ ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ
أَنَّ الْبَهِيمَةَ تُصِيبُ مِنْ لَذَّةِ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَسْكُوحِ مَا لَا يَنَالُهُ الْإِنْسَانُ مَعَ عَيْشِهِ
هَنَاءٍ خَالٍ عَنِ الْفَكْرِ وَالْهَمِّ ، وَلِهَذَا تُسَاقُ إِلَى مَنْحَرٍ^(٣) هَا^(٤) وَهِيَ مِنْهُمْ كَتَلٌ عَلَى
شَهَوَاتِهَا لِفَقْدَانِ الْعِلْمِ بِالْعَوَاقِبِ ، وَالْآدَمِيُّ لَا يَنَالُهُ مَا يَنَالُهُ الْحَيَوَانُ لِقُوَّةِ الْفَكْرِ
الشَّاعِلِ ، وَضَعْفِ آلَةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَلَوْ كَانَ نِيلُ الْمُشْتَهَى فَضِيلَةً لَمَا
بُخِشَ مِنْهُ حَقُّ الْآدَمِيِّ الَّذِى هُوَ خِلَاصَةُ الْعَالَمِ ، وَوَفَّرَ مِنْهُ حِظُّ الْبَهَائِمِ ، وَفِى
تَوْفِيرِ حِظِّ الْآدَمِيِّ مِنَ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ عَوَاضٌ عَنْ ذَلِكَ .

(الحادى عشر) : أَنْ يَسِيرَ بِقَلْبِهِ فِى عَوَاقِبِ الْهَوَى فَيَتَأَمَّلُ كَمْ أَفَاتَتْ مَعِيشَتُهُ^(٥)

(١) الْآيَةُ ١٠٠ سُورَةِ النَّسَاءِ . وَالْمُرَاغِمُ : الْمَلْجَأُ وَالْمَهْرَبُ وَالْحَصْنُ .

(٢) فِى لَامِيَةِ الْعَجْمِ لِلطُّغْرَانِى : قَدْ رَشَحُوكَ .

(٣) الْمُنْحَرُ : مَوْضِعُ الثَّحْرِ فِى الْحَلْقِ ، وَالْمَسْكُنُ تَذْبِجٌ فِيهِ الذَّبَائِحُ ، وَابْتِجَاعٌ
مِنْهَا . الْحَمْلُ : الْمَتْرُوكُ بِلا عَنَاقِيَةٍ وَلَا رَعَايَةٍ .

(٤) وَلَمَّا لَمِلَ الصَّوَابُ : كَمْ أَفَاتَتْ طَاعَتُهُ مِنْ فَضِيلَةٍ لِأَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ الضَّمِيرَ حَائِدٌ
عَلَى الْهَوَى الْخ .

من فضيلة ، وكم أوقعت في رذيلة ، وكم أكلت منعت أكلات ، وكم من لذّة
فوتت لذات ، وكم من شهوة كسرت جاهاً ، ونكست رأساً ، وقبّحت ذكراً ،
وأورثت ذماً ، وأعقبت ذلاً ، وألزمت عاراً لا يغسله الماء ، غير أن عين صاحب
الهوى عمياء .

(الثاني عشر) : أن يتصوّر العاقل انقضاء غرضه من يهواه ثم يتصوّر حاله
بعد قضاء الوطر ^(١) ومآلاته وما حصل له .

فأفضل الناس من لم يرتكب سبباً حتى يميز لما تجنى عواقبه

(الثالث عشر) : أن يتصوّر ذلك في حق غيره حق التصوّر ، ثم ينزل
نفسه تلك المنزلة ، لحكم الشيء حكم نظيره :

(الرابع عشر) : أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك ، ويسأل عنه عقله
ودينه يُخبرانه بأنه ليس بشيء . قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : إذا
أعجب أحدكم امرأةً فليذكر مَنَاتِهَا ، وهذا أحسن من قول أحمد بن الحسين :
لو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يسببه ^(٢) لم يسبه
لأن ابن مسعود رضى الله عنه ذكر الحال الحاضرة للملازمة ، والشاعر حال على
أمر متأخر .

(الخامس عشر) : أن يأنف لنفسه من ذلّ طاعة الهوى ، فإنه ما أطاع
أحدٌ هواه قط إلا وجد في نفسه ذلاً ، ولا يغترّ بصولة ^(٣) أتباع الهوى وكبرهم
فهم أذلّ الناس بواطناً ، قد جمعوا بين فصليّ الكبر والذل .

(السادس عشر) : أن يوازن بين سلامة الدين والعرض والمال والجاه ونيل

(١) الوطر : الحاجة . أو حاجة لك فيها هم وعناية . والجمع أوطار .

(٢) يسببه : يأسره .

(٣) الصولة : السطوة أو القدرة .

اللذة المطلوبة ، فإنه لا يجد بينهما نسبة التبتة ، فليعلم أنه من أسفه الناس بيهمه هذا بهذا .

(السابع عشر) : أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوه ، فإن الشيطان إذا رأى من العبد ضعف عزيمة وهمة وميلا إلى هواه طمع فيه وصرعه وأجله بلجام الهوى وساقه حيث أراد ، ومتى أحس منه بقوة عزم وشرف نفس وعلم همة لم يطمع فيه إلا اختلاسا وسرقة .

(الثامن عشر) : أن يعلم أن الهوى ماخالط شيئا إلا أفسده ، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء ، وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخافة السنة ، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصدّه عن الحق ، وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجور ، وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يؤلى بهواه ويعزل بهواه ، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة ، فبا قارن شيئا إلا أفسده .

(التاسع عشر) : أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخل على ابن آدم إلا من باب هواه ، فإنه يطيف به من أين يدخل عليه حتى يفسد عليه قلبه وأعماله ، فلا يجد مدخلا إلا من باب الهوى ، فيبصرى معه سرّيان السم في الأعضاء .

(العشرون) : أن الله سبحانه وتعالى جعل الهوى مضادا لما أنزله على رسوله ، وجعل اتباعه مقابلا لمتابعة رسله ، وقسم الناس إلى قسمين : أتباع الوحي ، وأتباع الهوى ، وهذا كثير في القرآن كقوله تعالى : (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَكْبِهُونَ أَهْوَاءَهُمْ) (١) .

وقوله تعالى: (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ^(١))
ونظائره .

(الحادى والعشرون): أن الله سبحانه وتعالى شبه أتباع الموى بأخس
الحيوانات صورة ومعنى، فشبهم بالكلب تارة كقوله تعالى: (وَلَسَكِلْمُ
أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَشَلَّهُ كَمَا تَلِ الْكَلْبِ^(٢)) وبالحر تارة كقوله
تعالى: (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ. فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ^(٣)) وقلب صورهم إلى
صورة القرادة والخنازير تارة .

(الثانى والعشرون): أن متبع الموى ليس أهلاً أن يطاع ولا يكون
إماماً ولا متبوعاً، فإن الله سبحانه وتعالى عزله عن الإمامة ونهى عن طاعته،
أما عزله فإن الله سبحانه وتعالى قال لخليله إبراهيم: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا
قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ^(٤)) أى لا ينال عهدي بالإمامة
ظالماً. وكل من اتبع هواه فهو ظالم كما قال الله تعالى: (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ^(٥)) وأما النهى عن طاعته فلقوله تعالى: (وَلَا تُطِيعُ مَنْ
أَغْفَلْنَا قُلُوبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا^(٦)) .

(الثالث والعشرون): أن الله سبحانه وتعالى جعل متبع الموى بمنزلة

(١) الآية ١٢٠ . سورة البقرة .

(٢) الآية ١٧٦ . سورة الأعراف .

(٣) الآيات ٥٠ و ٥١ . سورة المدثر . والحر المستنفر: الوحشية ،

والقسورة: الأسد .

(٤) الآية ١٢٤ . سورة البقرة .

(٥) الآية ٢٩ . سورة الروم .

(٦) الآية ٢٨ . سورة السكف . وفرطاً: إسرافاً .

عابد الوثن فقال تعالى : (أَرَأَيْتَ بَنٍ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ)^(١) في موضعين من كتابه ، قال الحسن : هو المنافق لا يهوى شيئاً إلا ركبه ، وقال أيضاً : المنافق عبد هواه لا يهوى شيئاً إلا فعله .

(الرابع والعشرون) : أن الهوى هو حظار^(٢) جهنم المحيط بها حولها ، فمن وقع فيه وقع فيها كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حُفَّتْ بِلُجْنَةٍ بِالْمُكَارِهِ وَحُفَّتِ الذُّبَارُ بِالشَّهَوَاتِ » .

وفي الترمذى من حديث أبي هريرة رضى الله عنه يرفعه : « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ أَرْسَلَ إِلَيْهَا جِبْرِيلَ فَقَالَ : انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا ، فَجَاءَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا فَرَجَعَ إِلَيْهِ وَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ مِنْ عِبَادِكَ إِلَّا دَخَلَهَا ، فَأَمَرَهَا فَحُجِّبَتْ بِالْمُكَارِهِ وَقَالَ : ارْجِعْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَرَجَعَ فَإِذَا هِيَ قَدْ حُجِّبَتْ بِالْمُكَارِهِ ، فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ ، قَالَ : اذْهَبْ إِلَى الدَّارِ فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا ، فَجَاءَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا ، فَإِذَا هِيَ يَرُكِّبُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا ، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتِ بِالشَّهَوَاتِ ، فَقَالَ : ارْجِعْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا ، فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتِ بِالشَّهَوَاتِ ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُو مِنْهَا أَحَدٌ » قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(الخامس والعشرون) : أنه يُخَافُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهَوَى أَنْ يَنْسَلَخَ مِنْ

(١) الآية ٤٣ . سورة الفرقان والآية ٢٣ . سورة الجاثية بزيادة الفاء بعد همزة الاستفهام .

(٢) الحظار : كل شيء سبج بين شيتين كحائط البستان . وحظار الأرض : المحاط بها .

الإيمان وهو لا يشعر ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به »^(١) . وصح عنه أنه قال : « أخوف ما أخاف عليكم شهوات الفنى فى بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى »^(٢) .

(السادس والعشرون) : أن اتباع الهوى من المهلكات . قال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث منجيات وثلاث مهلكات : فاما المنجيات فتقوى الله عز وجل فى السر والعلانية ، والقول بالحق فى الرضا والسخط ، والقصد فى الفنى والفقر . واما المهلكات فهوئى متببع ، وشح مطاع ، وإعجاب المرء بنفسه »^(٣) .

(السابع والعشرون) : أن مخالفة الهوى تورث العبد قوة فى بدنه وقابه وإسائه ، قال بعض الساف : الغالب لهواه أشد من الذى يفتح المدينة وحده . وفى الحديث الصحيح المرفوع : « ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب »^(٤) وكما تمرن على مخالفة هواه أكتسب قوة إلى قوته .

(الثامن والعشرون) : أن أغزر الناس مروءة أشدهم خائفة لهواه . قال معاوية : المروءة ترك الشهوات وعصيان الهوى ، فاتباع الهوى يؤمن^(٥)

(١) تقدم تخريجه فى صفحة ٢٣ .

(٢) تقدم هذا الحديث بسنده فى صفحة ٤٠٢ .

(٣) تقدم فى صفحة ٤٠٣ معزوا إلى المسند وغيره .

(٤) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده .

(٥) يزمن : يذهب ويضعف .

المروءة ، ومخالفته تنعشها .

(التاسع والعشرون) : أنه ما من يوم إلا والهوى والعقل يعتلجان^(١) في صاحبه ، فأيتها قوى على صاحبه طرده وتحكم وكان الحكم له . قال أبو الدرداء : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله^(٢) ، فإن كان عمله^(٢) تبعاً لهواه فيومه يوم سوء ، وإن كان هواه تبعاً لعمله^(٢) فيومه يوم صالح .

(الثلاثون) : أن الله سبحانه وتعالى جعل الخطأ واتباع الهوى قرينين ، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينين ، كما قال بعض السلف : إذا أشكل عليك أمران لا تدري أيها أرشد فخالف أقربهما من هواك ، فإن أقرب ما يكون الخطأ في متابعة الهوى .

(الحادى والثلاثون) : أن الهوى داء ودواؤه مخالفته ، قال بعض العارفين : إن شئت أخبرتك بدائك ، وإن شئت أخبرتك بدوائك ، داؤك هواك ، ودواؤك ترك هواك ومخالفته .

وقال بشر الحافى رحمه الله تعالى : البلاء كله في هواك ، والشفاء كله في مخالفتك إياه .

(الثانى والثلاثون) : أن جهاد الهوى إن لم يكن أعظم من جهاد الكفار فليس بدونه ، قال رجل للحسن البصرى رحمه الله تعالى : يا أبا سعيد ، أى الجهاد أفضل ؟ قال : جهادك هواك . وسمعت شيخنا يقول : جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين ، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً حتى^(٣) يخرج إليهم .

(١) يعتلجان : يصطرعان .

(٢) كذا . . ولعل الصواب : عقله .

(٣) كذا . . ولعل الصواب : ثم .

(الثالث والثلاثون) : أن الهوى تخليط^(١) ومخالفته حمية^(٢) ، ومُخاف على من أفرط في التخليط وجانب الحمية أن يصرعه داؤه . قال عبد الملك بن قُرَيْب : سررت بأعرابي به رمك شديد ودموعه تسيل على خديّيه فقلت : ألا تمسح عينيك ؟ قال : نهاني الطبيب عن ذلك ، ولاخير فيمن إذا زُجر لا ينزجر ، وإذا أَسْر لا يأمر ، فقلت ألا تستنهي شيئاً ؟ فقال : بلى ولكنني أحتسى ، إن أهل النار غلبت شهوتهم حَيَّتَهُمْ فهلكوا .

(الرابع والثلاثون) : أن اتباع الهوى يفلق عن العبد أبواب التوفيق ، ويفتح عليه أبواب الخذلان ، فتراه يلجج^(٣) بأنّ الله لو وفق لكان كذا وكذا ، وقد سدّ على نفسه طرق التوفيق باتباعه هواه . قال الفضيل ابن عياض : من استحوذ عليه الهوى واتباع الشهوات انقطعت عنه موارد التوفيق .

وقال بعض العلماء : الكفر في أربعة أشياء : في الغضب ، والشهوة والرغبة ، والرهبة ، ثم قال : رأيت منهن اثنتين : رجلاً غضب فقتل أمه ، ورجلاً عشق فتنصّر . وكان بعض السلف يطوف بالبيت فنظر إلى امرأة جميلة فمشى إلى جانبها ثم قال :

أهوى هوى الدّين واللذات تُعجبني

فكيف لي بهوى اللذات والدين

فقلت دع أحدهما تنل الآخر .

(١) التخليط . التخبيط والاضطراب .

(٢) الحمية : الامتناع عما يضر والوقاية منه

(٣) اللجج بالشئ : الولوج به ، وقد لجج به إذا أغرى به فتأبر عليه .

(الخامس والثلاثون): أن من نصر هـ راه فسد عليه عقله ورأيه ، لأنه قد خان الله في عقله فأفسده عليه ، وهذا شأنه سبحانه وتعالى في كل من خان في أمر من الأمور ، فإنه يفسده عليه .

وقال المعتصم يوماً لبعض أصحابه : يا فلان إذا نصر الهوى ذهب الرأي . وسمعت رجلاً يقول لشيخنا : إذا خان الرجل في نقد الدرام سلبه الله معرفة النقد - أو قال نسيه - . فقال الشيخ : هكذا من خان الله تعالى ورسوله في مسائل العلم .

(السادس والثلاثون): أن من فسخ لنفسه في اتباع الهوى ضيق عليها في قبره ويوم معاده ، ومن ضيق عليها بمخالفة الهوى وسع عليها في قبره ومعاده ، وقد أشار الله تعالى إلى هذا في قوله تعالى : (وَجَزَأْهُمْ يَوْمَ صَبْرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا)^(١) . فلما كان في الصبر الذي هو حبس النفس عن الهوى خشونة وتضييق ، جازاهم على ذلك نعومة الحرير وسعة الجنة . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى في هذه الآية : جازاهم بما صبروا عن الشهوات .

(السابع والثلاثون): أن اتباع الهوى يصرع العبد عن النهوض يوم القيامة عن السعي مع الناجين ، كما صرع قلبه في الدنيا عن مراقبتهم . قال محمد بن أبي الورد : إن لله عز وجل يوماً لا ينجو من شره منقاد لهواه ، وإن أبطأ الصرعى نهضة يوم القيامة صريع شهوته ، وإن العقول لما جرت في ميادين الطلب كان أوفرها حظاً من يطالبها بقدر ما صحبه من الصبر . والعقل معدن ، والفكر مَعْوَل .

(الثامن والثلاثون) : أن اتباع الهوى يحل العزائم ويوهنها ، ومخالفتها تشدها

وتقوتها . والعزائم هي مركبُ العبد الذي يسيره إلى الله والدَّار الآخرة ، فتي
تمطّل المركوبُ أو شك أن ينقطع المسافر . قيل ليجي بن مُعَاذ : مَنْ أَصَحُّ النَّاسِ
عزماً ؟ قال : الغالبُ لهواه . ودخل خلف بن خايَفة على سليمان بن حبيب بن
المهلب وعنده جاريةٌ يقال لها البدر من أحسن الناس وجهاً ، فقال له سليمان :
كيف ترى هذه الجارية ؟ فقال : أصاح الله الأميرَ ما رأيت عيناى أحسنَ منها
قطُّ ، فقال له : خذ بيدها ، فقال : ما كنت لأفجع الأميرَ بها وقد رأيت شدةَ
تجبه بها ، فقال : ويحك خذها على شدةِ عجبى بها ليعلم هواى أنى له غالب ، وأخذ
بيدها وخرج وهو يقول :

لقد حباني وأعطاني وفضّلني عن غير مسألةٍ منه سليمانُ
أعطاني البدرَ خَوْداً^(١) في محاسنها والبدرُ لم يُعطه إنسٌ ولا جانُ
ولست يوماً بناسٍ فضله أبداً حتى يغيّبني لحدٌّ وأكفانُ

(التاسع والثلاثون) : أن مثلَ راكبِ الهوى كمثل راكبِ قرسٍ حديدٍ
صعبٍ جموح لا لجام له فيوشك أن يصرعه فرسه في خلال جريته به أو يسيره به
إلى مهلكٍ . قال بعض العارفين : أسرعُ المطايا إلى الجنة الزهدُ في الدنيا ، وأسرعُ
المطايا إلى النار حبُّ الشهوات ، ومن استوى على متنِ هواه أسرع به إلى وادى
الهلكات . وقال آخر : أشرف العلماء من هرب بدينه من الدنيا ، واستصعب
قياده على الهوى . وقال عطاء : من غلب هواه عقله وجزعه صبره افتضح .

(الأربعون) : أن التوحيد واتباع الهوى متضادان ، فإن الهوى صنمٌ ولكل
عبد صنمٌ في قابه بحسب هواه . وإنما يمث اللهُ رسله بكسر الأصنام وعبادته
وحده لا شريك له ، وليس مرادُ الله سبحانه كسر الأصنام الجسدة وتركه

(١) الخود : الشابة الناعمة .

الأضنام التي في القلب ، بل المراد كسرهما من القلب أولاً : قال الحسن بن علي
المطوغي : صنم كل إنسان هواء ، فمن كسره بالخالفه استحق اسم الفتوة .
وتأمل قول الخليل صلى الله عليه وسلم لقومه : (مَا هَذِهِ التَّمَائِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا
عَاكِفُونَ)^(١) كيف تجسده مطابقاً للتماثيل التي يهواها القلب ويعكف عليها
ويعبدها من دون الله ، قال الله تعالى : (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهِهُ هَوَاهُ
أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا . أَمْ يَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ
إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)^(٢) .

(الحادي والأربعون) : أن مخالفة الهوى مطردة للداء عن القلب والبدن ،
ومتابعته سبب لداء القلب والبدن ، فأعراض القلب كلها من متابعة الهوى ،
لو قسمت على أمراض البدن لرأيت غالبها من إضرار الهوى على ما ينبغي تركه .

(الثاني والأربعون) : أن أصل العداوة والشر والحسد الواقع بين الناس
من اتباع الهوى ، فمن خالف هواه أراح قلبه وبدنه وجوارحه فاستراح وأراح .
قال أبو بكر الوراق : إذا غلب الهوى أظلم القلب ، وإذا أظلم ضائق الصدر ،
وإذا ضائق الصدر ساء الخلق ، وإذا ساء الخلق أبغضته الخلقة ، وأبغضهم ، فانظر
ماذا يتولد من التباغض من الشر والعداوة وترك الحقوق وغيرها .

(الثالث والأربعون) : أن الله سبحانه وتعالى جعل في العبد هوى وعقلاً
فأيهما ظهر توارى الآخر . كما قال أبو علي الثقفى : من غلبه هواه توارى عنه
عقله ، فانظر عاقبة من استتر عنه عقله وظهر عليه خلافه . وقال علي بن سهل رحمه
الله : العقل والهوى يتنازعان ، فالتوفيق قرين العقل ، والخذلان قرين الهوى ،
والنفس واقفة بينهما ، فأيهما غلب كانت النفس معه .

(١) الآية ٥٢ سورة الانبياء .

(٢) الآيتان ٤٣ و ٤٤ . سورة الفرقان

(الرابع والأربعون) : أن الله سبحانه تعالى جعل القلب ملك الجوارح ، ومعدن معرفته ومحبة وعبوديته ، وامتحنه بسلاطين وجيشين وعوزين وعدوتين فالحق والزهد والهدى سلطان ، وأعوانه الملائكة وجيشه الصديقون خلاص ومجانبة الهوى ، والباطل سلطان ، وأعوانه الشياطين وجنوده وعدته اتباع الهوى ، والنفس واقفة بين الجيشين . ولا يقدم جيش الباطل على القلب إلا من تغرر بها وناخيتها ، فهي تخامر على القلب وتصير مع عدوه عامية فتكون الدائرة عليه ، فهي التي تغطي عدوها عدوة من قبلها ، وتفتح له باب المدينة فتدخل ويتملك ويقع الخذلان على القلب .

(الخامس والأربعون) : أن أعداى عدو المرء شيطاناه وهواه ، وأصدق صديق له عقله والملك الناصح له ، فإذا اتبع هواه أعطى بيده البعدوة واستأسر له وأشتمته به وساء صديقه ووليه ، وهذا هو بعينه هو جهنم البلاء ، ودرك الشقاء ، وشوء القضاء ، وشماتة الأعداء .

(السادس والأربعون) : أن لكل عبد بداية ونهاية ، فمن كانت بدايته اتباع الهوى ، كانت نهايته الذل والصغار والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه ، بل يصير له ذلك في نهايته عذاباً يعذب به في قلبه كما قال القائل :

مآرب كانت في الشباب لاهلها عذاباً نصارت في الشيخ عذاباً

فلو تأملت حال كل ذى حال سيئة زرية لرأيت بدايته الذهاب مع هواه وإيثاره على عقله ، ومن كانت بدايته مخالفة هواه وطاعة داعي رشده كانت نهايته العز والشرف والعلي والجاه عند الله وعند الناس . قال أبو علي الدقاق : من ملك شهوته في حال شبابه أعزه الله تعالى في حال كهولته .

وقيل للهلب بن أبي صفرة : بم نلت ما نلت ؟ قال : بطاعة الحزم وعصيان
الموى ، فهذا فى بداية الدنيا ونهايتها ، وأما الآخرة فقد جعل الله سبحانه الجنة
نهاية من خالف هواه ، والنار نهاية من اتبع هواه .

(السابع والأربعون) : أن الموى رِقٌّ فى القلب ، وغُلٌّ فى العنق ، وقيد فى
الرجل ، ومتابعه أضرُّ لكل من الملوك ، فمن خالفه عتق من ربه وصار
حرًّا ، وخلع الغل من عنقه والقيد من رجليه وصار بمنزلة رجلٍ سالمٍ لرجل ، بعد
أن كان رجلا فيه شركاء متشاكسون ^(١) .

ربّ مستورٍ سبته شهوة فتعزى ستره فانهتكا
صاحب الشهوة عبداً فإذا غلب الشهوة أضحي ملكا
وقال ابن المبارك :

ومن البلاء وللبلاء علامة . أن لا يرى لك عن هواك نزوعُ
العبدُ عبدُ النفس فى شهواتها والحُرُّ يشيع تارةً ويجمع

(الثامن والأربعون) : أن مخالفة الموى تقيم العبد فى مقام من لو أقسم على
الله لأبره ، فيقفى له من الحوائج أضعاف أضعاف ما فاته من هواه ، فهو كمن
رغب عن بعزق فأعطى عيوضها درة . ومتبع الموى يفوته من مصالحه العاجلة
والآجلة والعيش الحنىء مالا نسبة لما ظفر به من هوا البتة ، فتأمل انبساط يد
يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ولسانه وقدمه ونفسه بعد خروجه من
السجن لما قبض نفسه عن الحرام .

وقال عبد الرحمن بن مهدي : رأيت سفيان الثوري رحمه الله تعالى فى المنام
فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : لم يكن إلا أن وضعت فى الحدى حتى وقفت

(١) تفما كس القوم : تماسروا وتخالفوا . والشكس : العسر السوء الخلق
قال تعالى (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون) .

بين يدي الله تبارك وتعالى، فحاسبني حساباً يسيراً ثم أمرني إلى الجنة ، فيينا أنا
أدور بين أشجارها وأنهارها لا أسمع حساً ولا حركة إذ سمعت قائلاً يقول :
سفيان بن سعيد . فقلت : سفيان بن سعيد، فقال : تحفظ أنك آثرت الله عز وجل
على هوائك يوماً ؟ قلت : إني والله ، فأخذني النّار^(١) من كل جانب .

وقال عبدالرزاق : بعث أبو جعفر الخشاب بن حين خرج إلى مكة وقال :
إن رأيتم سفيان فاصلبوه، فجاؤوا ونصبوا الخشب، وطلب رأسه في حجر الفضيل
فقال له أصحابه : اتق الله عز وجل ولا تشمت بنا الأعداء ، فتقدم إلى الأستار
ثم أخذها بيده وقال : برئت منه إن دخلها أبو جعفر ، فمات قبل أن يدخل
مكة ، فتأمل عاقبة مخالفة الهوى كيف أقامه في هذا المقام .

(التاسع والأربعون) : أن مخالفة الهوى توجب شرف الدنيا وشرف
الآخرة، وعز الظاهر وعز الباطن، ومتابعته تضع العبد في الدنيا والآخرة وتذله في
الظاهر وفي الباطن ، وإذا جمع الله الناس في صعيد واحد نادى مناد : ليعلن
أهل الجمع من أهل الكرم اليوم ، ألا ليقيم المتقون ، فيقومون إلى محل الكرامة،
وأتباع الهوى ناكروهم وسهم في الموقف في حرّ الهوى وعرقه وألمه ، وأولئك
في ظل العرش .

(الخمسون) : أنك إذا تأملت السبعة الذين يظلمهم الله عز وجل في ظل
عرشه يوم لا ظل إلا ظله^(٢)، وجدتهم إنما نالوا ذلك الغل بمخالفة الهوى ، فإن
الإمام السلطان القادر لا يتمكن من العدل إلا بمخالفة هواه ، والشاب المؤثر

(١) النّار : ما نزل في حفلات السرور من حلوى ونقود، وبالضم ما نازل من

الشيء .

(٢) تقدم هذا الحديث في صفحة ٢٢١ وقد أغفل المؤلف هنا ذكر الرجلين
الذين نجايا في الله

لعبادة الله على داعي شيا به لولا مخالفة هواه لم يقدر على ذلك ، والرجل الذي
 قلبه معلق بالمساجد إنما حمله على ذلك مخالفة الهوى الداعى له إلى أماكن
 اللذات ، والمتصدق العجفي لصديقته عن شماله لولا قهره لهواه لم يقدر على ذلك ،
 والذي دعت المرأة الجميلة الشريفة خائب الله عز وجل وبخالف هواه ، والذي
 ذكر الله عز وجل خالياً ففاضت عيناه من خشيته ، إنما أوصله إلى ذلك مخالفة هواه ،
 فلم يكن لحرق الموقف وعرقه وشدة سبيل عابهم يوم القيامة ، وأصحاب الهوى
 قد بلغ منهم الحر والعرق كل مبلغ وهم ينتظرون بعد هذا دخول سجن
 الهوى ، فإله سبحانه وتعالى المسؤول أن يعيدنا من أهواء نفوسنا الأمارة بالسوء
 وأن يعمل هوأنا تبعاً لما يحبّه ويرضاه ، إنه على كل شيء قدير ، وبالإجابة جدير .

« تم الكتاب والحمد لله »

الفهرست

صفحة

تصدير	
المراجع	
مقدمة المؤلف	٣
الباب الأول : في أسماء الحجة	١٦
الباب الثاني : في اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها	١٧
الباب الثالث : في نسبة هذه الأسماء بعضها إلى بعض	٥٤
الباب الرابع : في أن العالم العلوي والسفلي إنما وجد بالحجة ولأجلها	٥٥
الباب الخامس : في ادواعي الحجة ومتاعها	٦٦
الباب السادس : في أحكام النظر وغائله وما يحثي على صاحبه	٩٢
الباب السابع : في ذكر مناظرة بين القلب والعين	١٠٦
الباب الثامن : في ذكر الشبهة التي احتج بها من أباح النظر إلى من لا يحل له الاستمتاع به وأباح عشقه	١١٢
الباب التاسع : في الجواب عما احتج به هؤلاء الطائفة وما لها وما عليها	١٢١
في هذا الاحتجاج	
الباب العاشر : في ذكر حقيقة العشق وأصنافه وكلام الناس فيه	١٢٧
الباب الحادي عشر : في العشق وهل هو اضطراري خارج عن الاختيار، أو أمر اختياري واختلاف الناس في ذلك وذكر الصواب فيه	١٤٢
الباب الثاني عشر : في سكرة العشق	١٤٩
الباب الثالث عشر : في أن اللذة تابعة للمحبة في البكال والقصان	١٥٥
الباب الرابع عشر : فيمن سدج العشق وتمناه ، ويحبط صاحبه على ما أوتي من مناه	١٦٩
الباب الخامس عشر : فيمن ذم العشق وتبرم به ، وما احتج به كل فريق على مذهب	١٨٢

- ١٩٧ الباب السادس عشر : في الحكم بين الفريقين ، وفصل النزاع بين الطائفتين .
- ٢٠٣ الباب السابع عشر : في استحباب تخيير الصور الجميلة للوصال الذي يحبه الله ورسوله .
- ٢١٢ الباب الثامن عشر : في أن دواء المحبين ، في كمال الوصال الذي أباحه رب العالمين .
- ٢٢١ الباب التاسع عشر : في ذكر فضيلة الجلال ، وميل النفوس إليه على كل حال .
- ٢٥٩ الباب العشرون : في علامات الحجة وشواهدا .
- ٢٨٨ الباب الحادى والعشرون : في اقتضاء الحجة أفراد الحبيب بالحب ، وعدم التشريك بينه وبين غيره فيه .
- ٢٩٥ الباب الثانى والعشرون : في غيره المحبين على أحبابهم .
- ٣١٦ الباب الثالث والعشرون : في عفاف المحبين مع أحبابهم .
- ٣٥٢ الباب الرابع والعشرون : في ارتكاب سبل الحرام ، وما يفضى إليه من المفاسد والآلام .
- ٣٧٧ الباب الخامس والعشرون : في رحمة المحبين ، والشفاعة لهم إلى أحبابهم في الوصال الذي يليق به الدين .
- ٣٩٤ الباب السادس والعشرون : في ترك المحبين أدنى المحبوبات رغبة في أعلاها .
- ٤٤٥ الباب السابع والعشرون : فيمن ترك محبوبة حراماً فبذل له حلالاً ، أو أعاضه الله خيراً منه .
- ٤٥٩ الباب الثامن والعشرون : فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام ، على لذة الوصال الحرام .
- ٤٦٩ الباب التاسع والعشرون : في ذم الهوى ، وما في مخالفته من نيل المنى .

